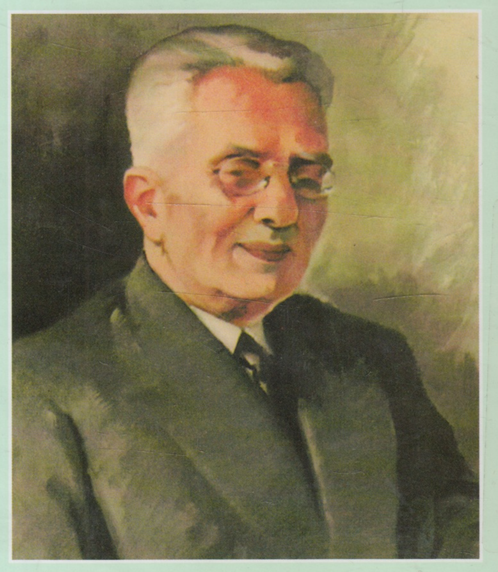
مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري

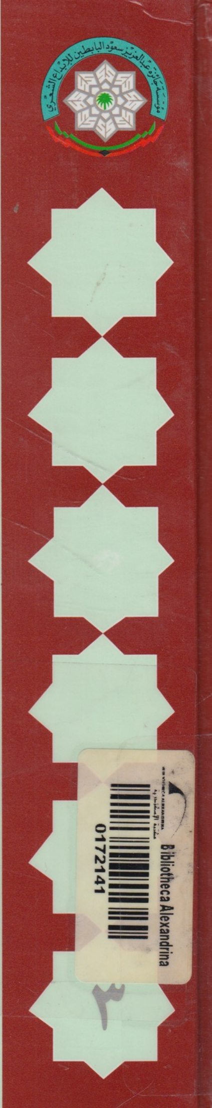
الأخطل الصغير

الأعمال النثرية

جمع وترتيب

د. سهام أبو جودة





يصدر بمناسبة إقامة الدورة السادسة

بيروت ١٩٩٨



مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري

الأخطل الصغير

الأعمال النثرية

جمع وترتيب

د. سهام أبو جودة





يصدر بمناسبة إقامة الدورة السادسة

بيروت ١٩٩٨

أشرف على طباعة هذا الكتاب وراجعه ووضع اغلب حواشيه
عبدالعزيز محمد جمعة من الأمانه العامة
لمؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري

تصميم الغلاف والإخراج الداخلي محمد العلي

الطباعة والتنفيذ. احمد متولي

هذه الطبعة

خاصة لمؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري - الكويت
بعدد محدود من النسخ للإهداء فقط وذلك بترخيص من أصحاب الحقوق
وتصدر بمناسبة إقامة دورة الأخطل الصغير - بيروت ١٩٩٨



مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري
تلفون: 2430514 فاكس: 2455039 (00965)

1998

تصدير

لقد كان من دواعي اغتباط مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، الحصول على قدر وافر من الأعمال النثرية للأخطل الصغير، فتحقق لها ضمن إصداراتها عن شاعر دورتها السادسة، جانب كبير من إبداعه النثري إلى جانب إبداعه الشعري

إن مادة هذا الكتاب في مجملها عبارة عن افتتاحيات كتبها الشاعر في صحيفة «البرق» التي أسسها عام ١٩٠٨ وأغلقت عام ١٩٣٢ ولم تعد للصدور بعد ذلك. وإلى جانب أسلوب الأخطل الصغير الصحفي المتأدب، فإن تقلب العهود بين الصدور والإغلاق كان مصدر إثراء آخر للمادة النثرية لدى الأخطل الصغير، الشاعر والصحفي والأديب.

وعلى هذا فإنك من خلال الافتتاحيات «البرقية» ستعيش عقداً عثمانياً كاملاً من عام ١٩٠٨ – ١٩١٨ وهو العقد الأخير من عمر الدولة العثمانية. وستعيش فترة انتقالية بين انتهاء الحرب العالمية الأولى وبدء الانتداب الفرنسي على البلاد السورية (سوريا ولبنان) وستطالع أحداث أكثر من عقدين من الانتداب. وستتنقل بين متصرفية جبل لبنان ذات الامتيازات والحماية وصولاً إلى إعلان «دولة لبنان الكبير» في الأول من أيلول ١٩٢٠، ومروراً بإعلان الجمهورية اللبنانية عام ١٩٢٦، وما أعقب ذلك من أحداث حتى خبت ومضات «البرق»

وإن تكن ومضات «البرق» قد خبت في مفتتح الثلاثينات من هذا القرن، وألقى بشارة الخوري الصحفي عصا ترحاله بين الورق والحروف، إلا أن الشاعر فيه استمر ليواكب ما تلى إغلاق «البرق» من أحداث، بدءاً من ١٩٣٢، وحتى إعلان الاستقلال الناجز للجمهورية اللبنانية، ولم يخفت له صوت حتى أقعده المرض بعد مبايعته أميراً للشعراء عام ١٩٦١.

ومما يدعو إلى الاعتزاز أن شاعر دورتنا هذه كان وبامتياز صحفي العروبة وناثرها المجيد جنباً إلى جنب مع كونه شاعرها وغريدها الصداح، لم تهن له قناة في الدعوة إلى القومية العربية ونبذ الطائفية ، ومناصرة القضايا العربية في سوريا وفلسطين والعراق وكل

أقطار العروبة التي ثارت على أيامه، ناصر الأقطار العربية وناصر الأدباء العرب وحتى الأفراد العاديين من منظور قومي وإنساني رفيع، تماماً مثلما ناصر ودافع عن قضايا لبنان الوطنية ومواطنيه، معلياً شأن الجميع، دافعه الوحيد في كل ذلك الوحدة الوطنية والقومية، لا فرق بينهم بسبب دين أو مذهب «فمن نحن ومن أنتم» على حد قوله.

ولنا وطيد الثقة أن يسد هذا الكتاب فراغاً في موضوعه، ويعرّف الأجيال الطالعة بكفاح الرواد والمبدعين من رموزهم الأدبية خلال هذا القرن.

لقد كان جهداً مشكوراً قامت به الدكتورة سهام أبوجودة بجمعها مادة هذا الكتاب، فخدمت الجانب الإبداعي الصحفي والنثري للأخطل الصغير، خدمتها للجانب الشعري الغالب فيه، فلها بالغ الشكر.

كما يسعدني أن أنوه بالجهد القيم الذي نهض به الدكتور ياسين الأيوبي بمراجعته مادة الكتاب واختيار معظمها ووضع بعض الهوامش والتعليقات التي تفسر كلمة أو حدثاً وضبط كلمات الكتاب وتصويبها، وستبقى جهوده موضع التقدير والاعتزاز.

على أن الأمانة العامة لمؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، وقد راجعت الكتاب مراجعة شاملة ولأكثر من مرة، رأت إضافة هوامش كثيرة تتعلق بترجمات الأعلام وتوضيح الأحداث وإجلاء غموض بعض الإشارات والإيماءات ، إذ إنها وإن كانت جلية واضحة آنذاك، لم تعد كذلك بعد مرور تسعة عقود على إنشاء بعضها، الأمر الذي استوجب جهوداً كبيرة ووقتاً طويلاً واستعانة بمراجع كثيرة وبخاصة في تاريخ لبنان الحديث.

والله نسأل أن يكون هذا الكتاب نافعاً مع منظومة الإصدارات الأخرى للمؤسسة في دورة أمير الشعراء الكبير.

ولله الحمد والمنة على ما أنعم.

عبدالعزيز سعود البابطين

الكويت، ١٩٩٨/٧/٢٣

البــاب الأول

من بقايــا الذاكــرة

كيف عرفت إمام العبد[1]

تذكارات عن إمام العبد الشاعر المصري الشهير.

مكانة إمام العبد عند أدباء سوريا بين ١٩٠٨/١٩١١ .

آخر رسالة خطها إمام العبد قبل موته الى صاحب البرق.

إمام في سر ا

لم يكن لشاعر من شعراء مصر بين ١٩٠٨و ١٩١١ ما كان لإمام العبد في نفوس أدباء سوريا، فهو و ولي الدين يَكَنْ[2] قد شغلا مكمن الحس منهم، واستقلا[3] بعاطفتهم. وكانت تربة الأدب عهدئذٍ بكراً تتفتح عن أزهارها الطاهرة الطيبة فجنيا ما طاب لهما منها.

ولا غرو إذا كان الأدب السوري وهو يومذاك في ميعة الصبا أن تستهويه تلك الألوان الجميلة ينسجها الخيال، والأنغام العذبة يوحي بها الجمال، والأنات الدامية ينفثها الفؤاد الممتحن بالحب والبؤس. أجل لا غرو إذا استهوى ولي الدين وإمام العبد تلك القلوب الفتية في سوريا ولبنان، القلوب المفعمة بالخيال، الساجدة للجمال وهما إنما يضربان على أوتارها وينزلان على اختيارها ولقد تنجح المقالة في المرء إذا صادفت هوى في الفؤاد.

قلنا إن إماما وولي الدين كانا أحبَّ شعراء مصر الى أدباء سوريا وأكثرهم رواجا عندهم، ولكن هذا لم يؤثر على المقام العالي الذي استقل به أقمار مصر الثلاثة شوقي[4] وحافظ[5] وخليل[6] وما برحوا يستقلون به حتى يومنا هذا، وإنما كان ذلك لانصراف الأقوام بعد الحرب العالمية، إلى المادة لا لانشغافهم بها، بل لتوعر مسالك الحياة وقلة موارد المكسب على كثرة مطالب المعاش.

لنعد إلى إمام! فنحن إنما أردنا بعث ما بقي في زوايا الذاكرة من حديثه، ونشرنا ما انطوى من آثاره، وعندنا منها رسالتان: إحداهما آخر ما خطته يده قبل موته، وقد نمّت سطورها عما كان يكنه «للبرق» من عاطفة نبيلة، ونحن بعد، لم نقم نحوه بكل ما استحقه أدبه وظرفه.

ولقد كان في نية إمام أن يزور سوريا، لما أحسَّه وهو في مصر، من استلطاف أدبائها شعره، واستخفافهم روحه؛ فما كدنا نهيئ له هذه الرحلة، مع فريق من الأصدقاء، حتى فاجأنا خبر مرضه، ولم يلبث أن فاجأنا خبر وفاته[٧] رحمه الله.

كلمة أمين تقيّ الدين[٨]

ولقد حمل إلينا بريد مصر على أثر نعيه، رسالة من صديقنا الشيخ أمين تقي الدين، نشرناها بتاريخ أول نيسان ١٩١١ قال فيها:

«كان إمام في نحو الثالثة والثلاثين الى الخامسة والثلاثين من العمر، طويل القامة وممتلئ الجسم، عريض الأكتاف، عريض المنكبين، منبسط الصدر نافره، أسود فاحم «بالطبع» كبير الشفتين، مقلوب السفلى، ضخم العليا، يبتسم حقيقة عن عقد من اللؤلؤ! تصور أي عبد من العبيد، فتتصور إمام العبد»

«كان يتردد عليَّ كل صباح، الى إدارة تحرير جريدة «الظاهر» فيتغدى الفول المدمس: وجاءني في أحد الأيام؛ فاستصحبته الى طعام الغداء في منزلنا هنا. فاكلنا وكنا: الشيخ الخازن وسامي جريديني المحامي[٩] والياس فياض[١٠] والسيدة صاحبة البيت؛ فلما عرَّفناها بإمام، قالت «قرف» على الشعر الذي يخرج من بين هذه الشفاه!!!».

«أما أخلاقه، فلم يكن منها عبدا بكل قوة هذه الكلمة. إن الوسط الذي عاش فيه - وهو مولود في مصر - هذب قليلا من فطرته العبدية.

فإمام كان وفيّاً، وكان سهلا رضيّاً. وكان ذا مروءة حقيقية. أمّا ذكاؤه، فرآه الناس عظيما، لأنه عبد أسود، وليس يعرف الناس الذكاء في العبيد. اما انا، فارى ان

درجة ذكائه كانت متوسطة بالنسبة الى الذكاء الذي يصح أن يسمى ذكاء. قال الشعر، فقاله جيداً غير أن عبديته ذهبت بحسانه».

«حدثني حافظ مرة قال: أقص عليك حديث ابن الكلب، إمام العبد «وابن الكلب كلمة تحبب مألوفة في مصر» قال: كنت أتمشى في حديقة الأزبكية، فمر إمام في الشارع، فلمحني؛ فدخل الحديقة وجاء إليّ يقول: بكم تشتري مقالة سينشرها «المؤيد»[11] غدا تظهر عيوبك في شعرك وسرقاتك، سرقة سرقة؟: فقلت، ومن الكاتب؟ قال إمام: أنا! فوبخته. فما ارعوى. فساومته على المقالة لا خوفاً منها، ولكن تجنباً لفتح هذا الباب، لأن الهجامين كثيرون في مصر، ثم دفعت الثمن ريالين، فمضى وهو يقول: نجحت الحيلة! يعني أن إماماً لم يكن كاتبا تلك المقالة».

«عندي من شعره قصيدة واحدة، أُعجبتُ بها كثيرا، قالها إمام في شاب توفي مسلولا اذكر منها قوله:

أيُـهــــا الموتُ لا عَــــدِمْــــتُكَ خِــــلاً
طالما انقـــذَ الفـــتى مِنْ عــــذابِهْ

وقوله في وصف ضعف المسلول:

كــيف تقــوى كــفّــاه في مَــوقفِ العَــر
ض إذا كَلّفـــوه حَـــمْلَ كِـــتـــابِهْ؟».

كلمة عز الدين صالح

وعندما اطلع حضرة عزالدين أفندي صالح، وكان من أصدقاء «البرق» يومئذٍ، على مقال الشيخ أمين، بعث إلينا بكلمة في الموضوع قال فيها:

استحسن الكاتب قصيدة إمام التي قالها في شاب توفي مسلولا، وهو بيومي أفندي ابراهيم، صاحب جريدة «التمثيل» الذي كان محررا بجريدة «الظاهر» مثل كاتب الترجمة. فاحببت أن اطلع قراء «البرق» عليها لرقتها، قال إمام:

عَـــشِقَ الموتَ مكْرهاً في شَــبــابِهْ
رُبَّ مـــوتٍ تَـحـــارُ في أَســـبـــابِهْ

قبلَ أنْ يدفنوهُ في الرَّمسِ مَيْتاً
دَفَنَتْهُ الأيامُ في جِلْبابِهْ
فإذا رُمْتَ أن تَراه بِعَيْنٍ
لا تَرى غيرَ أنَّةٍ في ثيابِهْ
لو تمنَّى مكانَةَ الملكِ وهْماً
لاكْتَفى بالنحول عن حُجّابِهْ
كيف تَقوى كفَّاه في موقف الـ
عَرْض إذا كلَّفُوهُ حَمْلَ كتابِهْ
كاد يجتاز العزيمة بحراً[١٢]
مزج الدهر لؤمه بعبابه
أيها الموت لا عدمتك خلا
طالما أنقذ الفتى من عذابه

لا أوافق كاتب ترجمة إمام، «بالبرق» في قوله: إن درجة ذكائه متوسطة، لأن ذكاء إمام الفطري، أكثر من ذكاء حافظ ابراهيم، والمنفلوطي[١٣]، ومحرم[١٤] وغيرهم، من أكبر شعراء مصر الذين يزينون أشعارهم بثوب اللغة القشيب. وإذا أراد أن يعرف درجة ذكاء إمام، فليبحث عنها في مجالسه الأدبية حيث تتدفق النكتات من فمه تدفق السيل. وأقسم: لو كان إمام في إنكلترا، لكان رئيس تحرير جريدة........[١٥] ؟ التي تمزج الجد بالهزل.

خذ! هذه بعض نكاته التي لم تنشر في الصحف، قالها إمام عن نفسه:

شَدَّ عنقه يوما بربطة سوداء؛ فقال أحدُ إخوانه، لمّا رآه هكذا، حسب قميصه غير مزرر، فطلب منه ان يزرره. وجلس يكتب، فسقطت نقطة حبر أسود على القرطاس، فقال يومئذٍ إنّ جليسه قال له: (نَشّفْ عَرَقَك)!

وأراد يوما أن يذهب الى البيت، وليس في جيبه نقود. فركب عربة، حتى إذا وصل الى داره وولجها، اطل للسائق من النافذة وقال له: «يا عربجي، سيدي مش عاوز يركب»!.

ولإمام، قصائد من الطراز الأول في القريض، منها «عينيته» في مدح الخديوي والزنجية الحسناء. وقد أراد أن يعارض نفسه في هذه القصيدة، فنظم غيرها يتغزل في غادة بيضاء. قال في ختامها:

أنتَ عبدٌ والهوى أخبرني
أنَّ وَصْلَ العبدِ في الحب حرامْ
قلتُ يا هذي أنا عَبْدُ الهوى
والهوى يَحْكُم ما بين الأنامْ
وإذا ما كنتُ عبداً أسوداً
فاعلمي أني فتى حُرُّ الكلامْ

إني أعتقد كما يعتقد كاتب ترجمته[١٦] في «البرق» «أن عبديته ذهبت بمحاسنه» وقد أقام الكاتب البراهين على ذلك. غير أني أعتقد، في الوقت نفسه، أن عبديته، قد نفعته من الجهة الأخرى. وأنى لإمام، لو لم يكن عبداً أن يقول: أنا ليلٌ وكلُّ حسناءَ شمسُ.

ويقول في مطلع قصيدة رثاء البارودي[١٧]:

فِداكَ أبي، لو يُفتدى الحرُّ بالعبد

ويقول في رثاء الأستاذ الإمام[١٨] : (لبستُ حِدادي فيكَ مِنْ قبل نشأتي)

ويقول في الشكوى:

نَسبوني الى العبيد مَجازا
بعد فضلي، واستشهدوا بسَوادي
ضاع قَدْري فقمت أندبُ حظي
فسوادي عليه ثوبُ حِدادِ

ويقول:

وسوداءَ كالليل البهيمِ عَشِقتُها
لأجمعَ بين الحظ واللون في عيني

إذا ضـــمَّنا ليلٌ تبـــسَّم ثغـــرُها

فـلـولا سنـاهُ بـتُّ فـي جـنـحِ لـيـلَـيْنِ

بين إمام وصاحب البرق

ولقد توثّقت الصلات بين أدباء مصر عندئذٍ، وجريدة البرق، فكانت رسائلهم وقصائدهم تترى إلى صاحبه

ولما كنا في صدد الكلام عن إمام العبد، رأينا أن ننشر له قصيدة ورسالتين، وردتا علينا منه، كانت إحداهما آخر ما خطته يمينه، رحمه الله؛ وقد نشرنا بعضها على أثر وفاته، ورأينا اليوم أن ننشرها محفورة على الزنك كأثر حي لذلك الشاعر البائس الذي كان على علم تام بيومه الأخير وليس في نشر هاتين الرسالتين خروج على ما هو مألوف في عالم الأدب، إذ يعمد رجال النشر، إلى التقاط الشوارد والأوابد من آثار الأدباء تكميلاً لإبراز صورتهم على حقيقتها، وتناولها من جميع جهاتها.

وإننا ناشرون هنا القصيدة التي وجهها إمام إلى صاحب هذه الجريدة، ومن بعد، الرسالتين(١٩).

تحية البرق

تَسلَّى بالسـقـام عن السـقـامِ

وأغْنَتْـهُ الدمـوعُ عن الغَـمـامِ

وبـاتَ وبـاتـتِ الأرزاءُ مـنـه

مكـانَ النصلِ من جَـفْنِ الحُـسـامِ

تجـمَّـعتِ الهـمُـوم على إمـامِ

وسـرُّ الهم فـي صـدرِ الظلامِ

ينوحُ معَ الحَـمـامِ بغـيـرِ شـوقٍ

وكم قلـبٍ يـذوبُ بـلا غـرامِ

سـئـمتُ من الحـيـاة بلا حـيـاةٍ

ومَنْ يرضَى الحـيـاةَ بلا نظامِ؟

تَنَكَّرتِ الحقائقُ وانْتَهَيْنا
إلى معنىً تَنَكَّرَ في الكلامِ
ومَنْ عَشِقَ الحياةَ بلا دليلٍ
رأى في العشق أنواع الملامِ
نسير على التراب ونحنُ منه
وهذا الودُّ مِنْ طَبع الأنام
فكيف أعيش في الدنيا عزيزاً
وما عُرف الوجودُ بغير ذام[٢٠]
رضيتُ من الحياة بودِّ خِلٍّ
سليمِ الطبع في دينِ الكرامِ
له نثرٌ بلغتُ به الأماني
فتاهَ به الزمانُ على إمامِ
ولاح «البرق» إكراما وفضلاً
فأرشدني ونلتْ به مرامي
إليكَ تحيتي وأنا بمصرٍ
ولي قلبٌ يَحِنُّ إلى الشآمِ

محمد إمام العبد

البرق، ١٩٣٠، عدد ٣٢٦٠، ص ٨-٩

****

كيف عرفت
الشيخ اسكندر العازار[1]

بين عام ١٩٠٦ – و ١٩١٤ – مكانة العازار الأدبية – تذكارات قديمة – العازار في مباذله.

ما عرفت رجلاً اجتمع له الجمال والجلال، كما اجتمعا للشيخ اسكندر العازار معتدل القامة، لطيف السمت، ناضر الابتسام، رصين الخطى، أبيض الوجه، مشرب بالحمرة، حسن اللحية، لا يتركها المقص تمتد عرضاً ولا طولاً، حاشا رأساً لها رفيعاً على شكل الإجّاصة أو قريب منها.

ولكنك إذا جلست إليه، فقد جلست الى صناجة طرب تأخذ النكتة بطرف النكتة، والحديث بطرف الحديث، حتى إنه لا يكاد يجد جليسه منفذاً لكلمة يقولها. فهو وخليل مطران، صنوان في احتكار الحديث، على تباين نوعه واختلاف نغمه، مع تطرف قليل في الأول وتأنق كثير في الثاني.

لقد عرفت العازار وشمسه في الطَّفَل[2]؛ فلم يسعدني الحظ بإدراكه أيام شمسه تتلألأ في متوسط الأفق.

كان العام ١٩٠٦ أو قريباً منه يوم أقيمت حفلة الأربعين للمرحوم نجيب حبيقة[3]، وكنت قبل سنة أختلس فرصة المدرسة لأتردد على إدارة «المصباح»[4] التي كان يرأس تحريرها؛ وكان يتردد عليها يومذاك الصديق يوسف نخلة ثابت، والشيخ سليم الدحداح، فصادفت منه عطفا كثيرا، وتشجيعاً كبيرا حتى نمت له في نفسي العاطفة التي رثيته بها.

وكانت «قاعة مار مارون» غاصة بنخبة أهل الأدب، يوم ألقيت قصيدتي في رثاء «النجيب» فما انفضت الحفلة، حتى أخذ الصديق ثابت بيدي وقال لي: لقد سألني الشيخ العازار عنك، وطلب مني أن يتعرف إليك لإعجابه بقصيدتك.

ولم ألتق بالعازار بعد ذلك اليوم حتى تركت المدرسة؛ وكانت مدرسة الفرير[٥] آخر مراحلي فأنشأت «البرق» سنة ١٩٠٨، والعازار يومذاك منصرف الى جريدة «الوطن» لصاحبها شبلي بك ملاط[٦]. ولم يأنس الى «البرق» إلا في أواخر عام ١٩٠٩، وهو العام الذي قدم فيه الرصافي[٧] إلى بيروت لأول مرة من بغداد، وكان واسطة عقدنا. ومنذ ذلك الوقت اتصل الشيخ اسكندر العازار «بالبرق» وتوثقت لنا تلك المودة، وفاض علينا ذلك النور، وشرع «البرق» يحمل الى قرائه مقاطع من خطبه العديدة القديمة والحواضر، و «الترلي ترلي» وغيرها من تلك الأطايب التي كانت خمورا معتقة.

لم يكن العازار منصرفا الى الأدب. فهو كان يأتيه لماما، نزولاً عند طلب جمعية خيرية أو تنفيساً لعاطفة، او انتقاداً لخلل. ولقد كان مع ذلك ركنًا من أركان النهضة الأدبية، لم تنطو الصحف على أسلس من عبارته، وأعذب من نكتته، وأحلى من خياله.

لقد قال لي مرارا. إنني رجل مالي أو رجل اقتصادي؛ فإذا كنت أواصل الأدب فإنها مواصلة شغف «amateur» فكنت أغرق في الضحك لقوله عن نفسه إنه رجل مالي او اقتصادي (لم أعد أذكر الكلمة). فكان يفهم سر ضحكي، فينقلب ضاحكا معي.

والحق أن العازار شب واكتهل في إدارة «بنك سرسق» حاسباً مالياً اقتصاديا، ولكنه، لسوء الحظ، لم يكن هناك أبعد من الحساب والمال والاقتصاد، عن تصرفه.

وعلى ذكر المال هناك فقد رأت بلدية بيروت عام ١٩١٠ أن يعقد قرضاً بمئة ألف ليرة عثمانية، فتقدمت لإقراضها هذا المبلغ، بالاتفاق مع بيت مالي في اوروبا. وكان الشيخ اسكندر يضع لي اللوائح، ويتولى الدفاع عنها، ولقد عثرت بين أوراقي على عريضة كتبها بخطه، أطلب فيها الى البلدية مهلة للبت في قضية القرض، فرأيت أن أحفرها على الزنك كأثر عزيز وذكرى جميلة، وهذه هي:

لجانب رئاستي بلدية بيروت الموقرة

المعروض لجنابكم وللمجلس البلدي الموقر، ومن مُوقِّع هذه العريضة، بشارة الخوري، صاحب جريدة «البرق» العارض إقراض البلدية مبلغا (   ) بشروط معلومة.

إنه في جلسة عقدت أخيراً، تقرر إعطائي مهلة عشرة أيام لكي يثبت المقرض اقتداره المالي. ومع أن مثل هذه المخابرات المهمة، تستلزم حصولها من البوستة[٨] لاستكمال الإيضاحات. لقد عمدت الى المراسلات البرقية، ولكن عناصر السماء حالت دون رغبتي ورغبتكم في إنجاز هذا العمل بأقرب ما يكون. فالعواصف التي هبت كل هذه الأيام، كما تعلمون، وكما لا شك قرأتم أخبارها في الجرائد، والثلوج المتراكمة التي وصلت حتى صواري - بيروت قطعت الأسلاك البرقية، ومنعت المخابرات التلغرافية، فيما أن القوة عالية سماوية، كما تشاهدون. فمن البديهي وجوب الانتظار أياماً، لا تقل عن خمسة عشر، حيثما أنتم (والعاجز)[٩] يتمكن من خدمة بلدية بيروت العزيزة خدمة صحيحة.

فالمسؤول أن تحلوا طلبي محل الاعتبار، وأرجو قبول مزيد إكرامي وإخلاصي.

٢٧ شباط ١٩٢٠

قلت: لقد اتصلت بالعازار بعد أن اصفرّت شمسه ولكنه بقي محتفظا بذلك الشعاع الضحاك، ينفذه إلى نفوس صحبه، وتلك الشوارد العطرة، يضمخ بها الجو الذي يظله.

لم يترك العازار آثاراً كبيرة، لأنه كما قلنا، لم يمارس الأدب لصنعة، ولكن في القليل الذي تركه ما هو أثمن من الدر وأنفح من العطر.

فكان كالمنهل العذب يتسابق الوراد إلى ارتشافه، أو الثمر الشهي يُدعون إلى اقتطافه

وإنني لا أزال أحفظ من آثاره أبياتاً لي مكتوبة بخطه الفارسي الجميل، رفعتها، في عيد الجلوس[١٠] سنة ١٩١٠ إلى حازم بك والي بيروت، أستنهضه للإفراج عن جريدتي، وقد عطلها المجلس العرفي لأجل غير معين، وحكم بغرامة ستين ليرة عثمانية، وذلك على أثر ضرب السفن الطليانية مرفأ بيروت، وإنشاء مقال فُسِّر لأعضاء المجلس العسكري أني أُلمع إلى إيثار الراية الفرنساوية، وذلك في مقابلة شعرية بينها وبين

الراية الطليانية[١١]. ورأيت أن أخلد هذا الأثر بالزنك، للدلالة على ذلك الحب الصادق، والعطف الكبير اللذين كان يحيطني ذلك الصديق بهما - أما الأبيات فهي هذه:

مولاي

أبـــا بـــكـــرٍ ظَـلـــمْـــتَ وأنـــتَ والٍ
فـــرُدَّ لـنـا زمـــانَ الـراشـــديـنـا
أُخـــــذتُ - وأنـتَ تَـعـلـمُ - دون ذَنـبٍ
وسَلْ مَنْ شـئْتَ يُخـبـركَ الـيَـقـيـنـا
فـــإنْ اكُ مُـــذْنـبـــاً - لا كُنْتَ (لـيـــهـــا)
فـــإني جـــاعـل رأسي ضـــمـــيـنـا
وإن أنـــا لـــم أكـــنْ إلاّ بـــريـئـــاً
أعِـنـدكَ أنْ أكـــونَ ولا تـكـونـا؟
يـعـــزّ عـلـى الـعـــدالـة أنْ تَـراني
فـتُـغـمض من تـأثرهـا الـعـيـونـا
ولـــولا أنـــتَ والأمـــلُ المُـــرَجّـــى
لـكـانـتَ تمـلأُ الـدنـيـــا أنـيـنـا
أتـى عـــيـــدُ الجلوسِ فـــأيُّ شـــعـــرٍ
إذا يُـنشَـــد ســـمـــعتَ لـهُ رنـيـنـا
أيـنَـطـلـقُ الـغـــرابُ عـلـى هَـواهُ
ويـبـــقى البلبلُ الشـــادي ســـجـــينـا؟
ويُجـــزى المخلصـــون كـــمـــا جُـــزينا
وَيشـــقى الصـــادقـــون كـــمـــا شَـقِـينا؟
وعَـــدْتَ الـعـــفـــوَ مُـــدُّ لـهُ يمـيناً
فـــيُكرمَـــهـــا أمـــيـــرُ المؤمنينا[١٢]

بشارة عبدالله الخوري

صاحب البرق

بيروت ١٤/٢٧ نيسان ١٩١٢

لم أدرك العازار خطيباً يرقص المنابر، بل لم أدركه محفلاً من تلك المحافل الخطابية التي تاهت بها بيروت على سائر المدن العربية، فقد سكت العازار وسافر فياض، وطراد وخار البستاني والحوراني وغيرهم من إخوانهم، وأنا بعد ضمن، جدران المدرسة. لقد جئت في الزمن الأخير ولكن «ما يرى وما لا يرى» و«زمور فرنكلان» و «جرائدهم وجرائدنا» وأخيرا هذه (الحواضر)[١٣] التي كانت سمر الأدباء وفاكهة الندامى، ثم تلك المقاطع الشعرية البارعة، تكفي لتضع العازار في المقام الأول بين أدباء عصره وقادة الأدباء من بعده.

وبعد فاسمع إلى هذه النغمة الناشئة من شعره:

يا ترابَ الحبيب فيكَ فتاةٌ
كلُّ أرواحنا تَحِنُّ إليها
هي كانت عليكَ الطفَ ظلٍّ
أيها الترابُ لا تُثَقلْ عليها

وكانت قد ملكت عليه السويداءُ مشاعره، فأدمن على الشراب[١٤]، فكان ينهض من نومه، ليستحمَّ ويلبس ثيابه، فيجلس قليلا إلى مكتبه، ثم يخرج من البيت فيُعرِّجُ على صيدلية صديقه رشيد أفندي بدُورة على مفرق المخلِّص، فيأخذ كأساً من «الأمير» (وكان هذا شرابه) ثم يمر بصيدلية (اختيارنا) داود افندي نحول فيأخذ كأساً أخرى، حتى يصل الى إدارة «البرق» حيث يكون (كل شيء جاهزا) فيبدأ عمله نقرة في القرطاس ونقرة في الكاس.

ولم يكن العازار، على ما يتوصمه[١٥] الناس، ملحداً. فلا أذكر أنه جلس على الطعام إلا وقد رسم إشارة الصليب. وكان لا يغفل ذلك - وقد قاله لي - عندما يجلس الى طعام، عليه غير النصارى. وما برحت أذكر إشارته، عندما كنا نأكل في الإدارة بيضتين مسلوقتين، مع قليل من النعنع الأخضر وشيء من الزيتون الأسود.

ما عرفت رجلا أخف روحاً من العازار، ولا ألمع نكتة؛ ونوادره كثيرة لا يتسع لها المجال هنا. ولكنني سأصطادها السانحة بعد السانحة.

ولا أذكر حادثاً وقع لي معه، إلا وقد ضحكت لنفسي - جاء الإدارة يوماً بعدما مر (ببدُّورة ونحُّول) وأطال الإقامة، وكانت الإدارة مقفلة بفرصة الظهر؛ وقد رحبت وهو بعد لا يزال على السلم؛ وإذا آثار بول على الحائط قرب الباب، فنظرت إليه وضحكت. فقال «جيتْ ما شفتك. حطّيْتلّكْ كارت فيزيتْ»

هذا ولا أنسى - وكنت لا أزال في جنون الصِّبا - كيف كان يُعنى الصديقُ العازار «بالبرق» عناية الجدِّ بحفيده الصغير: يعينه عليه الصديق الأوفى والكاتب القدير: يوسف أفندي نخلة ثابت؛ حتى لَيَستمرًا الأسبوع والأسبوعين، دون أن يعلما على جناح أيِّ سحابةٍ أنا طائرٌ، أو في قلب أيِّ مهواةٍ أنا غائر.

ألا رحم الله ذلك البدر الذي أنار أفق الأدب العربي حقبةً من الدهر، وما برح يُرسل شعاعه من خلل ذلك القبر المكفَّن بوفاء هذا القلب وحنانه، ورحمة الله ورضوانه.

البرق، ١٩٣٠، عدد ٣٣٦١، ص ٦ - ٧

****

كيف عرفت
معـــروف الرصـــافي[1]

سبقت معروف الرصافي شهرته إلينا، بما كانت تنشره له صحف مصر، قبل إعلان الدستور[2]، من غرر القصائد، تنبعث منها لفحات الحرية، ويتطاير عن جوانبها شرر الوطنية، حتى اعتقدنا أن معروف الرصافي اسمٌ مستعارٌ لشاعرٍ عراقي كبير، وإلا فكيف يجسر رجلٌ يظله خيال عبدالحميد، ورجال عبدالحميد، على بعث هذه الثورة في قلب البلاد العثمانية، وينفخ في موقد الإصلاح الإسلامي، في بلدٍ كبغداد حيث تسود الرجعية الدينية وتطغى؟

فإذا أنت قرأت له في «سجن بغداد» وهي من أبرع قصائده:

بلادٌ أناخَ الذلُّ فيها بكَلكَلٍ
على كل مفتول السِّبالين أصيَدِ

ثم إذا قرأت له قصيدته «التربية والأمهات»:

وقالوا شِرعَةُ الإسلام تقضي
بتفضيل الذين على اللواتي
لقد كذبوا على الإسلام كِذباً
تزولُ الشُمُّ منه مُزلْزلاتِ

شككتُ في أن يكون الرصافي اسماً من لحم ودمٍ، يُستهدف لنقمة السلطان ومن تحت قدميه البوسفور، ثم لِمَنْ في بغداد من الرجعيين وهم حَربٌ على رجال الإصلاح، يخشون منهم أن يقطعوا ما بينهم وبين العامة، فيهوون صغارا ويموتون جوعا.

ولكن معروف الرصافي لم يلبث أن قدِمَ بيروت في أوائل شباط سنة ١٩٠٩، فاجتمعنا إليه لأول مرة في «قهوة البحر» وقد ذهبتُ إليها مع الشاعر المعروف أسعد

أفندي رستم[٣]، فإذا هو يحيط به الشيخ رشيد رضا[٤] والمرحوم الشيخ محيي الدين الخياط[٥] والشيخ مصطفى الغلاييني[٦] والمرحوم الشيخ محمد ياسين ومحمد أفندي الباقر. ولقد كان الرصافي، كما هو في هذا الرسم[٧] ، مجبباً معمَّماً، فذكَّرنا مجلسه معنا، تلك المجالس التي تقرأ عنها في كتب الأدب، عندما كان يجلس النابغة بين شعراء المدينة، ينصتون إليه ويقومون على تبجيله

ولقد كان الرصافي، على ما أذكر، يَطرَب لطريقة رستم، حتى كثيرا ما كان يقاطعه قائلا: هذا هو الشعر!

ولكنَّ الرصافي الشاعر، يفي الكأس كما يفي القرطاسَ حقه. فما لَبِثنا أن انتزعناه – ممتناً – من حلقةٍ قطبها الشيخ رضا، إلى حلقة أخرى قطبها العازار، وما أدراك بالفرق بين الحلقتين

وكان «الكلوب» وهو مكان يجابه «مدرسة الثلاثة أقمار» مقراً ليلياً لنا، ونحن عصبة من أعضائها المرحوم الشيخ يوسف أبي صعب، وسعيد صباغة، وإميل خوري، وأسعد رستم، وديب العم، ويوسف نخلة ثابت وجرجي نخلة سعد، وأمين تقي الدين، والياس فياض، صيفاً، لأنهما كانا يشتوان في مصر، وغيرهم من الأدباء وعشاق الأدب ولا تزال تلك الليالي أعذب ذكريات الماضي، لجميع الذين ترشفوا زلالها وتفيأوا ظلالها

ولم يطل الرصافي مقامه في بيروت، لأنه كان في طريقه إلى الآستانة، وقد دعي إليها ليتولى إنشاء جريدة «إقدام» العربية. ولكنه لم ينقطع بروحه عنا؛ فلقد جعل «البرق» روضته ينشد فيها أغانيه الخالدة. وكان أول ما تلقيناه منه، عن الآستانة، الرسالةُ الآتية المؤرخة في ٣ شباط، سنة ١٣٢٤ هـ[٨] ،[الموافق للعام ١٩٠٦/١٩٠٧م]، ينشرها البرق بخط الرصافي[٩]

وعاد الرصافي من الآستانة، في أواخر آب ١٩٠٩، فأقبل توّاً على إدارة «البرق» – عادة معظم أدباء ذلك العهد. وكنا ساعتئذٍ نَهمُّ بنزهةٍ في الجبل. فلم يتردد الأستاذ في قبول

دعوتنا، لا سيما وقد كان الريحاني[١٠] في الفريكة؛ فأطبقنا به واحتللنا صيوانه[١١] وقد كان يصحبنا الفكه المرحوم الياس خليل شديد، يمتعنا بنكاته حيناً وبصوته حيناً.

في الحق، إنها متعة الأنفس ومشتهاها: «الرصافي والريحاني» يتلاقيان لأول مرة، تحت وابلٍ من الأحاديث العلمية، والآراء في الألوهية وتأثير القمر بالجاذبية، ومكان المرأة الشرقية من الرجل، إلى ألف «ضربة» أخرى؛ لا بل نسيتُ وقفتهما أمام مكتبة المُضيف العزيز[١٢] برهةً، يتناوبان كتبها.

لا أكذب. إنها نبراتهما كانت تقع في أذني، وأنا ورفيقُنا جالسان إلى سفرة اعتنت بها سيدة المنزل الجليلة أيما عناية، فكانت كؤوسنا تُقهقه سراً وعلانيةً، حتى أيقظتْهُما من ذلك البُحران، فهرولا إلينا وشاركانا بما لدينا.

وودعنا الريحاني في الصباح، نضربُ إلى بيت شباب، فبكفيا، فالشوير، فبْحَنِّس، وقد اجتمعنا فيها بالمرحوم الشيخ كنعان الضاهر، وكان يومئذٍ قائمقام المتن. ثم هبطنا بْعَبْدات عند الظهر، فسرنا إلى منزل المرحوم نعوم اللبكي[١٣]، فكانت لنا فتكة بالكُبَّة والبصل. ولم يُفلح معنا غيرهما من ألوان الطعام، حاشا الجبنة الخضراء والقهوة البيضاء.

ولم نكد ننزل إلى بيروت، حتى تلقيتُ من الصديق الريحاني الرسالة الآتية، ولقد رأيتُ لها مجالا هنا.

عزيزي بشارة

إن يوما قضيته عندنا مع شاعرنا الرصافي المحبوب وذاك (الشديد) المضروب، لكوقفة الحسون على غصن الزيتون.

أما «البرق» فلا يفوتُك إرساله مع الموزع، كي لا يضيع في المدينة عند الأصحاب. وما من أحد يكره البرق في الظلمات. ولا لوم على مَنْ يختطفُ مثل هذه الجريدة. فإن

بعض الأشياء المقدسة مُتسامحٌ بسرقتها، في بعض الأحيان. و «البرق» عندي من هذه الأشياء. فإني وإن كنتُ لا أجد فيه دائما ما أتمناه، أنسى، عندما أطالع صفحاته المتقنة المرتبة الجميلة الظاهر والباطن، ما يتطلبه العقلُ دائما من بنيه والحقيقةُ من أنصارها. على أنكم لم تقصروا، والله في خدمة الاثنين ونصرهما. قوّاكم الله ووفقكم في جهادكم

صديقكم أمين

وعاد الرصافي إلى بغداد. وكنتُ قد اقترحت عليه إثر نزولنا من الجبل، نظم قصيدةٍ في لبنان. فما هو أن استقر في بغداد حتى جاءني منه كتابٌ أشار فيه إلى هذه القصيدة؛ فرأيت إثباته هنا بخط صاحبه، لترى حكومةُ اليوم، أننا منذ ذلك العهد، ونحن نعمل في سبيل لبنان، وتحبيب الناس بالاصطياف في لبنان، دون أن نمس خزينة الحكومة كما هو حادث الآن

ولقد كان للقصيدة التي نظمها شاعر العراق في لبنان وقعُها المستحب؛ فتناقلتها الصحف في سوريا، ومصر، وأميركا، حتى اقترح بعضها إقامة حفلة تكريمٍ للرصافي في مدينة بيروت، ليعرب له اللبنانيون عن شعورهم نحوه وتقديرهم تلك العواطف الطيبة التي ترقرقت على قصيدة الجميلة؛ فحال دون ذلك أسباب لا نذكرها. ولقد كنا نقترح على الحكومة اللبنانية أن تمنح الرصافي وسام الاستحقاق اللبناني أسوةً له بشوقي وحافظ، لولا علمُنا بشذوذه في مثل هذه الأمور.

وبعد فهذا كتاب شاعر العراق.

أخي ومولاي

أخذت كتابك، فطربت لصدق إحساسك، وعلو تصورك، ونزاهة مقالك. وها هي سيكارة أمامي، يتصاعد دخانها في الفضاء وخيالك نصب عيني، غير أنه يتلاشى في بحر دخانها في الفضاء.

وقد أخذت تلغرافك أيضا، قبل كتابك ولم أجبك عليه، لأني على وشك السفر إلى بلادك ولأني أخذت عدة تلغرافات من مفاخرٍ[١٤] بك وأجبته عليها. أما تأخري عن السفر فلعدم وجود عربيات في بغداد. فأنا أنتظر ورود بعض العربيات من حلب الشهباء على ما يقولون قريبا ونسافر.

كتبت على غلاف رسالتك: (لا تنس قصيدة لبنان) وما كنت لها ناسياً، ولكن الشواغل كانت مانعة عنها. غير أنَّ كلمتك هذه منحتني قوةً تغلَّبتُ بها على تلك الشواغل فراجعت شيطاني في الشعر، فطاوعني حتى أخذت أكتب قصيدةً تم منها الآن زهاء أربعين بيتا. غير أنها لم تستوف المرام بعد بتمامه. وأنا أذكر لك هنا شيئا عنها تستأنس به حتى إذا ما تمت أرسلتها إليك، أو جئتُ بها معي هدية.

من نسيم جو العراق الهاب على شطوط دجلة والفرات، أبى شيطان الشعر إلا أن أقدم شيئا من النسيب في هذه القصيدة فقلت في مطلعها:

برزت تميس كخطرة النُشوانِ

هيفاءُ مخجلةُ غصونَ البانِ

وبعد أن كتبت عدة أبيات في النسيب، تخلصت إلى ذكر لبنان فيها بقولي:

لم انس في قلبي صعودَ غرامها

إذ نحن نصعدُ في ربى لبنانِ

وهنا وصفت لبنان بأبيات ثم أخذت أخاطب صاحبي بشارة والياس[١٥]، بقولي:

يا صاحبيَّ اتذكران فإنني

لم انس بعد كما سرى النسيان

إذ كان يغبطنا الزمان ونحن في

وادي الفريكة منبت الريحاني

وهنا أخذت أهيمُ في وديان لبنان، وهضابه ضارباً صفحاً عن ذكر «حومل والدُّخول» إلى ذكر «بيت شبابه» و «بكفياه»[١٦] وعن ذكر «الغدير» إلى ذكر «الشوير» تخلَّصت إلى ذكر أهل لبنان بقولي:

تلك الربى أمّا الجمالُ فواحدٌ
فيها وأمّا أهلُها فاثْنانِ
رَجلٌ يَسيرُ إلى النجاح وآخرٌ
يسعى وغايتُه إلى الخُسرانِ

وأخذت في هذا الموضوع بما ستقرؤه ولم أدر هل أسقط هنا في سخط أهل لبنان الكرام أو في رضاهم.

وصلتني أعدادُ «البرق» وقدَّمتُ الأعداد الخمسة منه، إلى جميل أفندي الزهاوي[١٧]، وهو يشكركُ ويقرئك السلام، كما يقرئك السلام مشغوفاً بكل حب واحترامٍ، محبك وأخوك.

معروف الرصافي

٢٣ تشرين الأول ١٣٢٥هـ/ [١٩٠٧م]

ولم يُقم الرصافي في بغداد طويلاً، حتى أبرقنا إليه بالحضور، بناء على برقية من الآستانة، تأذن بتعيينه أستاذا للعربية، في مدرسة الحكومة، مع تحرير جريدة كان قد أزمع على إصدارها باسم «سبيل الرشاد». فنزل الرصافي في بيروت على قلوبٍ تشتاقه وترتقبه. وكنتُ قد هيَّأتُ مجلساً في «الكلوب» جمعت فيه بين الشيخ عبدالله البستاني[١٨] وبينه، فكانت حلقة بديعةً، كتبت على أثرها في «برق» ٤ ك١ من عام ١٩٠٩ هذه الشاردة:

«هي ليلةٌ التقى فيها الرصافي والبستاني. وكان «الكلوب» نقطة الدائرة».

وكنَّا، باركَ اللهُ - نحواً من خمسة عشر (ذاتا) - على لغة لبنان الرسمية - وكاد يُوحشنا شيخُنا العازار لولا الذي أنشده داود مجاعص وإميل خوري من شعره، ووقف له الرصافي إعجابا[١٩].

وشرب البستاني نخب زميله، فقال:

إني لأشــــربُـهـــا عـلـى ذِكْــــرِ امـــرئٍ

هـو بـالـبـــلاغـــة والنُّـهى مـــعـــروفُ

إن كـنـتَ تـنـكـره فـلـيـس بـضــــــائـر

أبـداً عـلـيـــــه، فـــــإنـه مــــعـــــروفُ

فرد عليه الرصافي بقوله:

إنـي لأشــــربُـهـــا عـلـى شــــرف الذي

الـفــــضـلُ فــــيـــــه لـيس بـالمُتـنـاهـي

إن الـفـــصــاحـــة والـبـــلاغـــة والنُّهى

والـفـــضـلَ أجـــمـع، عـنـد عـــبـــداللهِ

ثم كانت ليلةٌ أخرى، حضرها العازار وأنشدنا الرصافي فيها قصيدته «العالم شعر» فما هو أن انتهى منها حتى استكتبنا العازار هذين البيتين.

«ألا إنَّ هذا الشــعـــرَ من أبدع الشــعـــر،

فـلا تعــجـبـوا إن كـان في شـعـره سُكري

ولا تـعـــجـــبـــوا إن كنتُ أهـواه إنَّهُ

«عـيـونُ المهـا بين الرصـافـة والجـسـر»[٢٠]

ومضت لنا ليالٍ على هذا النمط. حتى إذا هَمَمنا بالانصراف، نادى «أبو متري» «قيِّم الكلوب» بالخادم «فُوْت عالأُوضة كنِّس أشْعار»!

ولقد جمعت بين الرصافي والبستاني والعازار، في رسمٍ واحد، فكان أحسن أثرٍ في تاريخ الأدب العربي. وقد ظهر فيه الرصافي بالبذلة الإفرنجية التي كان يرتديها عند خروجه من بغداد، حتى إذا عاد إليها، عاد إلى جُبَّته وعِمَّته.

وقد كتب الشيخ عبدالله، تحت هذا الرسم، هذين البيتين:

إنْ نِلْتَ يا بَيْنُ مِنْ اجــســـادنا طَبَـــعَتْ

فـيـــهـا، لشـاكي النوى الأنوارُ اشـبـاحـا

تخـالُ أرواحَـهـا رُوحـاً إذا اجـتـمـعتْ

وإن تـنـاعتْ تَـخـالُ الـروحَ أرواحـا

وأصـبـح الرصـافـي بعد ذاك، مـبـعـوثاً[٢١]. وغـامـر مع مَنْ غـامـر في الـسـيـاسـة، فأصبح مقامُه في بيروت، كما يحط الطائر على الغصن. ولكنه كان لا يزال يحمل لواء الشـعـر العالـي في الشرق الـعربي غيـر أنَّ خروجه من بغداد، ومـلامـسـتـه الـحـضـارة الغربية رقَّقت من ديباجته الأولى، فلم يزد ذلك من قيمة شعره القديم الذي انفطر عليه فـهـو مـا برح عندي شـاعـر «الـسـجن في بغـداد» و «التـربـيـة والأمـهـات» و «أم الـيـتـيم» و «العـالم شعـر» و «اليـتيم في العيد» و «الصديق المضاع».. وكلها مما نظمه الرصـافي يوم كان عندنا «اسـمـاً مـسـتـعـارا» لشـاعـر مـحـجـوب. هذا عـدا قـصـيـدة «الـيـتـيم في العيد»: فلقد بدأ بنظمها في الآستانة لسفرته الأولى إليها، وأتمها في النزهة القصيرة التي صرفناها معاً في الجبل.

وإنه لـيـؤلـم الأدب والأدباء، أن يكون حظ الـرصـافي، ذلك الشـاعـر الذي حـمل بقصائده الثورية على العرش الحميدي، وهو في قلب بغداد، أيام كان معظم القـائمين في الأمر هناك، يتهالكون على نظرة رضىً وتعفير جبينٍ، أجل: إنه ليُؤلم الأدب والأدباء، أن يكون الرصـافي مـغـمـوطـاً حقـه، مـجـنـيـاً عليه؛ ولا يأكل الآكلون اليوم، سـوى الفـتـات التي كانت تتساقط، في ذلك العهد المخيف، عن مـوائد الـصـحـف الحرة والأقلام الحرة؛ فأين همُ الذاكرون؟.

بشارة الخوري

البرق، ١٩٣٠، عدد. ٣٣٦٤، ص ٩٠٨

****

كيف عرفت
الشيخ يوسف أبي صعب[١]

كان في عداد من سلبتنا الحرب العالمية، الشيخ يوسف أبي صعب المتشرع القدير. وقد كان له مشاركة في الأدب، يتناول الشعر فيرسله، على الغالب، زوجين زوجين، بعد أن يصوغه في قالب حسنٍ على معنى دقيق جميل.

فمن شعره وقد اقترحته عليه إحدى السيدات على «رأس العين» في بعلبك:

يا بَعلبكَ، مــــدينةَ الشـــمسِ التي
ناغت قــبــابُك مَطْلِع القـــمـــرَيْنِ
لو لم تكوني مَنْزلاً للشـــمس مـــا
طَلَعَتْ كـــواكـــبُـــهـــا برأس العينِ

ومنه، وقد ذهب لنزهة مع بعض أصدقاء، إلى نهر الكلب، وفيه إشارة إلى الخرافة القائلة بأنَّ ديانا إلهة الأحراش أقامت على مياه نهر الكلب أرصاداً:

كُنوزٌ نَحَـــوْناها على مَـــتْن ضُـــمَّـــرِ
وأرصـــادُ نـهـــر الكلبِ فُكَّتْ من الضَّـــرْبِ
وإنِّـي لأرصــــاد الكنوز وأصلُـهـــــا
وُقــوفٌ أمـــام الأُسْـدِ في الموقف الصَّـعْبِ

وكان على ظاهر الشيخ يوسف أبي صعب، مسحةٌ من العَنْجهية، وفي حديثه نبرةٌ فيها شيء من العنف، قد تنبوان بك عنه لأول مرة. حتى إذا عرفت أن تمزق هذين الحجابين عن نفسه، وعرفت كيف تستميله بقليلٍ من المصانعه، أنست إلى مجلسِ طربٍ نادرِ المثيل؛ قد يكون هو محور النكات التي يُرسلها الإخوان من كل جانب.

ولقد كان – كما رأيت في حديثنا عن العازار والرصافي – أحد أركان الحلقة الأدبية، لا يكاد يتغيب ليلة. كان إذا تأخر طلبناه بجميع الوسائل، وبعثنا في أثره

الرسل نحمّلهم إليه ما نكون قد اختلقناه مما نعرف أنه يدفعه إلينا مسالماً أو محارباً راضياً أو مغاضباً.

ولقد كان له شيطانان لا يزايلانه: أنا وإميل أفندي خوري، يحاول كل منا أن يطعن في الآخر عنده، مختلقاً له عن رفيقه كل كلمة تُسيئه فمن سَبَق إليه رمى بصاحبه في هوة غضبه أياماً إلى أن يعمل الإخوان على إصلاح ذات البين، فنجتمع على مائدة تتصافح فيها الكؤوس والنفوس، ثم لا نلبث بعد أيام أن نعيد الكرة. وهكذا دواليك

ولقد كنا في الأشهر الأولى من الحرب العالمية - أي قبل دخول تركيا في الحرب - تجمعنا «قهوة المرصد» - كاريون اليوم - وفينا الشيخ عبدالله البستاني، والكونت طرازي، وكامل بك حمية، وشقيقه فؤاد بك، ويوسف نخلة ثابت، وجرجي أفندي نقولا باز، والأستاذ جبرائيل نصار، وإلياس أفندي الريف، والمرحومان يوسف خطار غانم، ويوسف عباس الحلو وغيرهم. وكنا نعتقد يومئذٍ أن الحرب لن تطول أكثر من أشهرٍ معدودة. فرحنا نقطع الأيام في القهاوي قتلاً للملل، وكانت لعبة «المتشكا أو البطشكا» دارجة في تلك الأيام. فأخذنا بعض دروسها على يد أستاذنا شبلي بك ملاط والمرحوم يوسف خطار غانم الذى كان يردد مفاخراً «أنا رب الطشكا في هذا البلد» (فيطيّب) له شبلي هادراً بغمغماتٍ من شعر المهلهل في كليب «لو كنت حاضر امرهم لم يَنْبسوا»(٢)

وأقبل الشيخ يوسف يوماً يحمل ورقة؛ فانتبذ ناحيةً ودعاني إليه. فإذا هو قد نظم ثلاثة أو أربعة أبيات في مدح المرحوم الدكتور حبيب درعوني - وقد كان من أبرع أطبائنا - أذكر أنه ابتدع معنى جميلا في البيت الأخير، ولكنه لم تتفق له صياغته كما يجب؛ فرحنا نقدح الفكرة معاً حتى استوى له. فنهض ينفض السرور عن جانبيه. وقد كنت حفظت الأبيات تقريباً ولا سيما البيتُ الأخير. فعدت إلى يوسف خطار غانم، وقلت له: ما قولك في أبيات تقدمها باسمك إلى الدكتور درعوني، وهو صديقك الحميم، وقد شفي من مرضه؟ فأدرك أن في الأمر لعبة، فكشفتها له. فنهض للحال، وكتب ما هو قريب جداً من الأبيات الأولى، والبيت الأخير بحرفه. وقد وضع الأبيات ضمن إطار، وقدمها للطبيب درعوني، في ذلك اليوم. فعلقها هذا على جدارٍ في حفلة بيتية صغيرة.

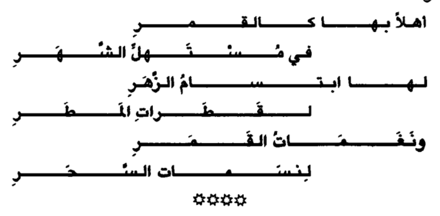
ولسنا نحدثك عن الموقف في اليوم التالي، عندما جاء الشيخ يوسف بأبياته، بعد أن ضربت لها الطبول. فإذا هو يراها معلقة بتوقيع يوسف خطار غانم

لقد اصطلينا حرباً ثانية منذ تلك الدقيقة، وكاد يكون حطبها المرحوم يوسف غانم لو لم ينقذه إخوانُ «المرصد» منه. أما أنا فلبثت متوارياً أسبوعاً لا أجرؤ على الظهور، حتى عملت على تبرئة نفسي، أن زعمت أنني لكثرة إعجابى بالأبيات ، حفظتها ورويتها لغانم، عن سلامة نية، ففعل هو فعلته المقوتة، ومن ثم عادت المياه إلى مجاريها.

لم يكن في القلوب، أطيب من ذلك القلب، ولا في المروءات أعظم من تلك المروءة، بل لم أعرف ذاكرة - بعد ذاكرة الأستاذ حبيب أسطفان- أحفظ من ذاكرة الشيخ يوسف؛ وهو فوق ذلك، قد كان حجة في الشرع الإسلامي؛ تقف الفتاوى على بابه، فيجلو غوامضها، ويفك مشاكلها، ولكنها خفة الشباب، كانت تغرينا بذلك العبث البريء، والهفوات الصغيرة، فيغسلها هو بفيض من مكارم أخلاقه ويرسل عليها بوارق مستعذبة من شفتيه وعينيه.

ولقد عثرنا بين أوراقنا المبعثرة، على أبيات نظمناها له تهنئة في ميلاد طفلته عام ١٩١٥، على نية أن يتيح لنا الزمان مجلساً مطمئناً نقرأها فيه، فإذا الدهر يواصل تهجمه، والحربُ تواصل ويلاتها، والإخوان يتبعثرون في كل مكان؛ حتى بلغنا ويا لهول ما بلغنا- أن الشيخ يوسف، مات بالتيفوس، وكان ذلك على ما نظن: عام ١٩١٥؛ فكان خطبه خطب العلم والأدب والظرف والمروءة.

وإني ناشر هنا القصيدة التى أشرت إليها، وقد سلكت فيها الطريقة التى أعرف أنها تهزه وتلذه:


اهلاً بـهـا كـالقـمـرِ
في مُـسْـتَـهلِّ الشُّـهَـرِ
لـهـا ابـتـسـامُ الزَّهَـرِ
لـقَـطَـراتِ المَـطَـرِ
ونَـغَـمَـاتُ القَـمَـرِ
لِـنسَـمـاتِ السَّـحَـرِ

✿✿✿✿

يا حُسْنَها في الصِّغَرِ
دراجةً في حُجَرِ
لِسَيِّدٍ مُشَهَّرِ
مُرأسٍ مُصدَّرِ
علامَةٍ مُقْتَدِرِ
مُحدِّث مُحرِّرِ
مُعيد فقْه زُفَر [٣]
ولغة الزَّمَخْشَرى [٤]
ومُرَقّصاتِ البُحتري
ومُعجزاتِ عَنْتَر
مِن آل صَعبِ الغُرَرِ
ما فيهمُ غيرُ السَّرِي

✡✡✡✡

وحُسنُها في النظرِ
وهْي بعُمْرِ القَمَرِ
طالعةً في نَفَرِ
من تِرْبِها، مُزْدَهِرِ
مصونةً بالخَفَرِ
محفوفةً بالطُّهُرِ
هاديةً بأثَرِ
لامها، مُشْتَهَرِ

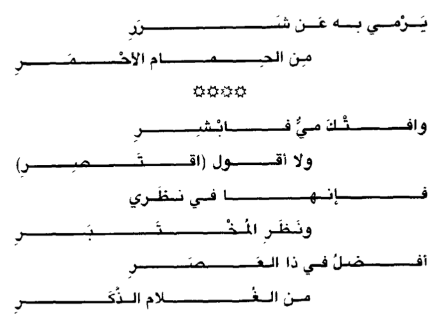
✡✡✡✡

وحسنُها في الكِبَرِ
قُرْبَ فتىً منْحَدِرِ
عن والدٍ ذي خَطَرِ
مؤمّلٍ مُؤَمَّرِ

فــتىً كـنـور الـبَـصَـرِ
حـلـو المُـحَـيَّـا أسـمـرِ
ذي أدبٍ وبِـدَرِ
مـن أبـيـضٍ وأصـفـرِ
لـيـس لـه مِـنْ وَطَـرِ
بِـغْـيـرها فـي البَـشَـرِ
وهْـي بِـمـا مِـنْ حَـوَرِ
فـي طَرْفِـهـا المُـكَـسَّـرِ
تَـفْـعـل فـعْـلَ الـسُّـمُـرِ
بـقـلـبـه المُـنْـشَـطِـرِ
ومـا بـذاك الـثُّـغَـرِ
مِـن الـرحـيـق المُـسْـكِـرِ
تَـجْـلـي غـيـوَم الـكَـدَرِ
مِـنْ رأسـه المُـعْـتـكـر

✡✡✡✡

وبـعْـدَ بـعْـضِ الـعُـمُـرِ
مـن ذا الـزواج المُـثْـمِـرِ
يـجْـنـي لـذيـذ الـثَّـمـرِ
مِـنَ الـبـنـينَ الـنُّـضَّـرِ
مـا نـغْـمـاتُ الـوَتَـرِ
إذا شَـدَوْا فـي الـوُكَـرِ
وإن مـشَـوْا لـلـكِـبـرِ
قـادوا زِمـام الـدَّهـرِ
كَـجَـدِّهِـمْ إذ يَـنْـبـري
لـلـخَـطْـب دامـي الـظُّـفَـرِ
مُـقـلَّـدٌ بـاسـمـرِ
مـقْـتَـطَـعٌ مِـن صَـقَـرِ


يَرْمي به عَن شَرَرٍ
مِن الحِمامِ الأحْمَرِ

✡✡✡✡

وافَتْكَ ميٌّ فابْشِرِ
ولا أقول (اقتَصِرِ)
فإنها في نظَري
ونَظَرِ المُخْتَبَرِ
أفضلُ في ذا العَصَرِ
من الغُلامِ الذَّكَرِ

هذا ، وإني ما برحت أذكر ليلةً جمعتنا دار الشيخ، وحفلت بنا سفرته الفخمة اللذيدة، وكان ذلك في تشرين عام ١٩١٢ . فقلت يوم ذاك في تقريظه، وكأنما تنبَّأت عن زواجه واسم قرينته:

نحن في جنة الخلود ببيت
الشيخ بيت الفخار والعلياء
شيخنا (آدم) به فمتى يسفر
هذا الخلودُ عن حواءِ

فاهتز الشيخ للشعر اهتزاز المهند، وتلطف معنا بأن أقترح على الإخوان نظم هذا المعنى وهو « لا بدع أن يصدر (البرقُ) على هوله، عن فتىً كصاحبه، لأن الصواعق، على هولها، هي من الغمام اللطيف»

فقال جرجي أفندي عطية:

عَجِبَت هِنْدُ كيفَ ينشأُ (برْقٌ)
هائلٌ مِنْ ينبوعِ لُطفٍ سامي
قلتُ لا بدْعَ؛ فالصواعق تَنْشأُ
يا ابنةَ العُربِ مِنْ لطيف الغَمامِ

وقال جرجي أفندي سعد:

لا بـدع فـي الـبـــــرقِ يـنْـشـــــــا
بَـــزَهْـــوه المَــعــــــــــــــروفِ
فــــــمــــــا الـصـــــواعـقُ إلاَّ
مِـنْ الـغَـــــــمَــــــام اللَّـطـيـف

وقال يوسف أفندي نخلة ثابت:

عَــجِــبتْ لـهــذا البَــرق يصْــدُرُ عن فــتىً
هو في لطافــتــه شــبــيــهُ مــدامِــهِ
لا تــعْــجَــبَنَ فــالـصــاعــقــاتُ بـهَــوْلـهــا
لـيــسـتْ ســوى نَفــثَــاتِ ثَغْــرِ غَــمــامــهِ

وقال الشيخ يوسف رحمه الله:

لا بِدْعَ إن كـــان هذا البَـــرقُ مَـــصْــدَرُهُ
لُطْفٌ يحــاكي نُسَــيْمــات الصَّبــا سَـحَــرا
فـــمــا الصَّــواعقُ في أهوالـهـــا هَبَطَتُ
إلا بَنــاتِ ســحـــاب رقَ فـــانْتَــشَــرا

وعلى الجملة فلقد كان الشيخ يوسف أبى صعب روضاً جنياً وماءً روياً تنشقُ عنهما أزهارُ العلم والأدب، وتسجعُ فيهما بلابلُ الشِّعر كلَّ عشية.

بشارة الخوري

البرق، ١٩٣٠، عدد: ٣٣٦٥، ص: ٨-٩

****

كيف عرفت طانيوس عبده[1]

إذا عُدَّ أعلام الأدب العربي بين الشام مصر، جاء فيهم طانيوس عبده يزجي أمامه جيشاً من الكتب، لا تكاد تفي أيام السنة ولياليها، بمطالعتها وحسبك منها هذه الروايات الخالدة التي عربها، والتى جعلت اسمه على شفة كل أديبٍ عربي في كل بلدٍ فيه عربي يقرأ

ولقد كنت في عصر الحداثة، من الذين أولعوا بمطالعة الروايات، فما كنت أرقب بريد مصر ولا البحث في مكاتب بيروت إلا عن رواية عليها اسم طانيوس عبده

فلقد كان له في التعريب طريقة عرفته فيها بعد أن رجع إلى بيروت، وذلك على ما أذكر عند إعلان الدستور في تركيا (أيلول عام ١٩٠٨).

أنظر إلى هذا الرجل الضئيل الشاحب، أو بالأحرى إلى هذا الوجه المحروق بالسويداء والكحول جالساً إلى طاولة صغيرة عليها كأس من العَرق في قهوة - خضراء - وبيده روايةٌ فرنسية، يطالع العشرين صفحة من صفحاتها دفعة واحدة، ثم يضعها جانباً ويتناول أوراقاً وقلم رصاصٍ بطول الإصبع ويأخذ في (دَرْز) الكلمات (درزاً) سريعاً، فما هو إلا نصف ساعة حتى يملأ نحو الخمسين ورقة بحجم وسط، إذن فقد عرفت أن طانيوس عبده كان يستوعب الفصل، حتى إذا تملاه أخذ هو في وضعه من غير أن يراجع كلمة، أو يأتي بحركة، إلا أن يمد يده إلى الكأس المرة بعد المرة. وكان ذلك بدء التعارف بيننا ثم أصبح شريكاً لفائق بك غرور في جريدة «الأيام» التي أصدرها عام ١٩٠٨، وما لبثا أن افترقا، فأنشأ مجلة «الراوي» ثم ما لبث أن تركها، وانبرى من هناك يكتب في بعض صحف الثغر، ويعرّب الروايات فيبعث بها إلى بعض مكاتب مصر

ولم يكن طانيوس عبده خلال السنوات الخمس (بين ١٩٠٩ و ١٩١٤) ليحدث دوياً في العالم الأدبي، لأنه كان من عادة الصحف في بيروت أن لا تأذن لمحرريها أن يعلقوا

أسماءهم في ذيل مقالاتهم فخمل ذكره أو كاد إلا ضمن دائرة محددة من صحبه، يرسل فيها المقطع إثر المقطع من شعره، لغرضٍ من الأغراض الخاصة، يضمنه نكتة لطيفة سائغة، فينتشر في الحلقات الأدبية الأخرى، فينعش ذلك من ذكره بعض إنعاش.

كان حظ طانيوس عبده في الحرب كحظ الأكثرين منا شؤماً وتعساً، فلقد قضى عليه سوء الطالع أن يكون تحت سن العسكرية عندما اضطر الأتراك إلى تجنيد الاحتياطي فكان يلوذ حيناً بالاختفاء، وحيناً بالسعي لجمع البدل العسكري[٢]، وهو مع ذلك رب عائلةٍ لها عليه واجبات المعيل. وعلى الجملة، فلقد كانت سنوات الحرب عليه قاسية جداً، صورها في بعض شعره فقال يصف ملاحقة الجند له.

سَجينٌ في البيوت وليس ذنبي
سوى أني أخاف من القتالِ
أروحُ فتبحثُ الأجنادُ عني
كأني من صَناديد الرجالِ
أيُرْجى مِنْ خيالاتي [٣] قِتالٌ
وقد أصبحتُ أفزعُ مِنْ خيالي؟

وقال مِن ضيق ذات يده:

أموتُ كي أكسبها ليرةً
عَزَّتْ عِنْدَ قومٍ وقَوْم
أموتُ كي أُبْدِلُها فضةً
رائجةً من بَعْد خُسرٍ وسَوْم
أموت حتى أشتري إنْ أجدْ
خبزاً بها من بعد جُوع وصَوْم
فيا له عيشاً نذوق الردى
ثلاثَ مرّاتٍ به كلَّ يوم

وقد وجه بهذين البيتين الى المرحوم يوسف خطار غانم، وكان يومئذٍ خازناً في شركة القمح التي تولى إدارتها الدكتور نجيب بك الأصفر.

يا يوسفُ اذْكُرْ سميك يوسفاً [٤]

وانكُر أخاك به وفرِّج كُربتَهْ

قد كان مثْلَكَ خازناً، ولكنهُ

لم ينسَ في زمن المجاعة إخوتَهْ

كان ذلك على ما أذكر، في أواخر سنة ١٩١٧، عندما تلقيت - وأنا مغترب في معتزلي قرب نهر بيروت، وذلك بعد انقضاء عهد الفزع الأكبر- تذكرة من طانيوس عبده يطلب إليَّ فيها أن ألاقيه إلى «قهوة النهر» لشأن من الشؤون، ولم أكن ساعة وصول التذكرة في المنزل حتى إذا عدت أسرعت إلى «القهوة» فإذا هو قد مل الانتظار فذهب تاركاً لي هذه الأبيات:

إلى الأديب الفاضل ابْنِ الخوري

والشاعر المتُّقِدِ المشهورِ

أرجو بان تدْفَعَ عني قهوة

قد رسبَتْ من ثِقلِها في الركوةْ

غِبَّ اطِّلاع للخواجا مِتْري

في حانةٍ في النهر قُرب الجِسْرِ

ربْعَ ريالٍ ورقاً لا فضَّه

فقد مَضَتْ أيامُها المُبْيضَّه

وهذه القيمةُ للجَنابِ

تنْفَعُها في موقفِ الحِسابِ

حُرِّرَ واليوم باخريه

مِنْ شَهْر تشرين باوَّلَيْهِ

وبينما أنا في اليوم الثاني، أتفقد بقرة لي، كنت اقتنيتها في بستانٍ استأجرته للاستعانة على ضنك تلك الأيام، إذا بطانيوس مُطل عليَّ من البيت، يناديني ضاحكاً من موقفي هذا. فما إن أقبلت عليه حتى ابتدرني بقوله:

عـــــهـــــدْتُكَ مِنْ قَـــبْلِ تَرعى البَـــشَـــرْ
فـــمـــــا بـالُكَ الـيـــومَ تَرعَى البَـــقَـــرْ

وكانت زيارته توسطاً لبيع مطبعة «البرق». فتمت الصفقة على يده، بعد شهرين من هذه المقابلة، فبعنا ما ثمنه ألف ليرة ذهبيةً بألف ليرة تركية، وكان سعر الليرة ستة عشر غرشاً، وكانت المطبعة آخر ما نملك.

وكان عام ١٩٢٢ عندما أصبح طانيوس عبده رفيقاً في تحرير «البرق»، فكان يتولى فيه تعريب الرواية، ومقالة السياسة الخارجية، فنَقَدات طائرٍ، هو العنوان الذي كنا نكتب تحته بعض الشوارد بتوقيع «دوري».

وكتب في اليوم الأول، نقدته الأولى بدون توقيع أو بوضع نجمة تحتها على ما نذكر، ووضع في رأس الرواية: تعريب «البرق» وشد ما كان عجبه عندما صدر «البرق» في اليوم التالي، وقد رأى اسمه تحت «النقدات» وفي رأس الرواية، لأنه كان من عادة الصحف، كما قلنا، التحريم على محرريها توقيع ما يكتبون، فالتفت إليّ، رحمه الله، وقال: عجباً منك كيف تثور على عادة زملائك؟ فقلت له مازحاً: أو تظن أني أرضى أن يُنسب إليَّ نقدتك هذه ... وكان قد كتبها على أنها ستنشر بدون توقيع فجاءت على غير ما أرضى، ولكنه عندما علم أن اسمه سيعلق على جميع ما يكتبه شرع يعتني به، حتى أصبحت النقدات قبلة القارئين، وبُعثت بها شهرة طانيوس عبده، بعد أن كان علاها الصدأ في السنوات الأخيرة.

لم يكن طانيوس عبده يعنى بإنشائه معشار عنايته بشعره. وربما ذلك بتأثير الإنشاء الروائي المتراخي، حتى إن النقدات نفسها، كان يعوزها بعض الشد في أوتارها، ولا سيما في ختاماتها؛ كأن تختم بنكته أو بسجعةٍ مستقاةٍ من نكتة، لتبقي أثرها في نفس القارئ. وهو ما لم يكن ينتبه إليه، ولكن اسمه كان يسيطر على القارئ فيخضعه لسلطانه. أما دقته في شعره، وحيلته الى النكته يرسلها علي أجنحةٍ من ذهبٍ، تحت أشعة الشمس، فهو فيه نسيج وحده.

لم يكن طانيوس عبده يخالطنا كثيراً فهو كان من حلقة ثانية، أذكر من أركانها الشيخ وديع نفاع الذي كان شديد العطف عليه، وقد صدفنا يوماً أن أحد أعضاء حلقتنا الليلية، وأظنه المرحوم يوسف عودة، أهدى أعضاء الحلقة التي كان طانيوس من أعضائها هدية من العرق حكمت الحلقة بعدم جودتها، وكلفوا طانيوس أن يكتب للمُهدي أبياتاً يداعبه بها فقال:

يا مُهديَ الراحِ إنها
جازْت برقتها معاني الرّاحِ
أَهدى إليَّ مُدامةُ وكانما
أهدى إلي خلاصة الأرواحِ
ولقد شمَمْناها قُبيل مذاقِها
فإذا بنا لم يَبْقَ فينا صاحي
وتبلجت وتارَجتْ فزففتُها
لابنَ السَحاب فلم تطبْ بنكاحِ
حتى إذا أدركتُ سِرَّ شُعاعها
وفهمتُ معنى عطرها الفَيّاحِ
اشفَقْتُ اشرَبُها لباهرِ نورِها
فانرْتُها وجعلتُها مِصباحي

فنظم المرحوم الشيخ اسكندر العازار، باسم صاحب الهدية، أبياتا رد بها على أبياته، هذا بعضها:

إنّي زَففتُ الى الكريم سَبِيئةً
لولاهُ لم تر مِن يَدَيَّ سَرَاحا
كانت لروحي راحةً ولطالما
اهَدَتْ إلى ذُوّاقِها الأرواحا
والله ما هي خَمرةٌ ليَظنُّها
الأعشى، بحالةِ سُكره، مِصباحا
هي بِنْتُها، ماءُ الفرات أديمُها
والعطرُ كان بردْنها فيّاحا

مـــــا أسكرتْ بـالـشّـم إلاّ شـــــاربـاً
مـــا عَـــدّ لـيلـةَ شُـــرْبـهِ الأقـــداحـــا

فـصــحــا يُمـزِّقُ عِـرْضَـهـا بقـريضـهِ
وعلـى ربـابـتــــه غــــدا نَـوّاحــــا

هي لـم تكن كُــفـؤاً فـجُـدْ بطلاقـهـا
وكــفـى الإلهُ الـصـاحـبـينَ صـيـاحـا

وتسعرت نار الحرب بين الفريقين؛ فنظم المرحوم طانيوس باسم المُهدى إليه قصيدةً طويلةً، حكمت عليَّ الحلقة التي أنا منها أن أردَّ عليها، باسم صاحب الهدية؛ ففعلت

وها نحن ننشر بعض القصيدتين للتفكهة:

قصيدة طانيوس عبده:

وَرِهتْ[٥] قـصـيـدتُك التي ضـمَّنتَـهـا
دُرَّ الـبـيــانِ بمـنـطق الأعـــرابِ

ورأيتُـهـم يتـحـمَّسـون كـانـهمْ
يتـأهبـون حـوالـهـا لضـرابِ

يتـهـافـتـون على انتـقـاد قـصـيـدتي
في خـمـركم ومـلامـتي وعـتـابي

مـا إن عـتـبتُ على انتـقـاص قـصـائدي
يومـا فـليس الشـعـرُ من أرابي

لـكنْ عـتـبتُ على الـندامى أنّـهـمْ
يـتـنقّـصـون مكـانـةَ الشُّـرّابِ

أنـا مَنْ عـرفْتَ فـإنْ جَـهلتَ مكانتي
فـانظرْ إلـى مَنْ شـئتَ مِنْ أصـحـابي

مِن كل مـشـغـوفٍ بفـاتنٍ حُـبِّـهـا
مُـتَنكِّبٍ فـيـهـا على الأحـبـابِ

لـو أَعْـوَزَتْهُ واحـتـبَـستْ انفـاسَـهُ
لـغـدا بهـا ثَمِـلاً بغَـيْـر شـرابِ

هـذا هـو الـرهـطُ الـعــــــزيـزُ ورأيُـهُ
في الخـــمـــر رأيَ تعـــقُّل وصَـــوابِ
وَهَب الـتـــلامـــذةَ الكرامَ تـخـــبَّطوا
في حُكمـــهـم لتَـــدفُّقِ الأكـــوابِ
مـــا عُـــذْرُكم في مـــا ارتأى أســتـــاذُهُمْ
وهـو المشـــارُ إليـــه في ذا الـبـــابِ
أَفُـــتنكِرونَ تـضلُّعي وتثـــبـــتي
وأنـا ربـيـبُ بـواطـئٍ[٦] وخـــوابي؟
والـلـه لـولا أن يـقـــالَ أســـأْتَ في
رَدِّ الـهـــديَّةِ لـلحـــبـــيب جـــوابي
لرِدَدْتُهـــا والـطبلُ يَضْـــرب حـــولهـــا
والزَّمـــرُ يَصْـــحَبُ زُمـــرةَ الأصـــحـــابِ

قصيدة بشارة الخوري:

أمَّـــا الجـــوابُ فــقـــد عنى لبـــيـــانِهِ
رأسُ الأئـمـــةِ مِنْ بـني الأعـــرابِ
دُررٌ مـن الألـفـــاظ لـو تَـمَّتْ لـهـــا
غـــررُ المعـــاني طار بالألـبـــابِ
لـم يُـغْـلَـقِ المـعـنـى عـلـيـكَ وإنمـا
جـــرُبْتَ أنْ تمشي بـغـــيـــر صَـــوابِ
أســـتـــاذَ مَنْ نـهبَ الكؤوسَ مـــشـعَّـــةً
عَـــفـــواً فـــحِلمُكَ فـــوق كل حـــســـابِ
هو مـــا زعـــمتَ فـــأنتَ من ندمـــائهـــا
في عنفـــوان المُلْكِ والحُـــجَّـــاب
مـــفـــتـــاحُ هيكلهـــا لديكَ منَغْـــتَـــهُ
إلاَّ عـلـى رَهْطٍ مـن الأصـــحـــابِ
بـرعـــوا فـلـم يَسلَمْ لـهـم نَطْقٌ بـلا
لَـــحْـــنٍ ولا رأسٌ بـــلا دولابِ

مِنْ كل مخمور الدماغ إذا مشى
يَكبْو فتُنهضُه، فيرجعُ كابي
جحَظَتْ لواحظُهُ وجفَّ دماؤه
فكأنه نُصبٌ من الأنصابِ
أنا إنْ أكنْ من غير رَهْطكَ في الطِّلا
فعلى هياكلها حرقتُ شبابي
سارت مسيرَ دمي، فأعصابي إذا
أشعلْتَها شَعَلَتْ بها أعصابي
وتخيرتْ لي مَعْشراً عرفوا بها
فغدتْ لهم نَسَباً من الأنسابِ
نقدوا معانيها وإنْ دَقَّتْ، كما
نَقَدَ النحاةُ الشكل في الإعرابِ
أكوابُهُمْ أبداً تدفُقُ ولْيكُنْ
للأرض حصتُها من الأكوابِ
سهروا ونمْتَ، فلو رجَعتَ إليهمُ
وقَفْتَ منهم مَوقفَ الطلأبِ
إني جنيتُ فكم جنَيْتُ لأنني
أهديتُ للأصحاب خيرَ شراب
ولكنتَ لو أدركتَ مبلغ علمهم
فيها بدلت الخمر (بالجلاب)
رُدُّوا الهديةَ واشربوا من غيرها
يا بابلِينَ حَمَامةً بغُرابِ

وذهب طانيوس إلى مصر سنة ١٩٢٦، تحت ضغطٍ داخلي قاهر. وقُطع ما بيننا وبينه، حتى كدنا نجهل أثَرَه لولا ما كنا نقرأه من حين إلى آخر، في صحف مصر الكبرى؛ فكتَبنا الى صديقنا الكريم شاعر القطرين خليل بك مطران، نعتبه(٧) وطانيوس لسكوتهما على سابق وعدهما بالمواصلة؛ فجاءنا من الخليل بعد أسابيع الرسالةُ الآتية:

أخي الحبيب

كتابُكَ أقام في القاهرة أياماً طوالا، ينتظر عودتي من رحلة صيفية؛ ولم أدَعْ في مدتها - كعادتي - ، عنواناً يخاطبني به أحدٌ، لأنني التمستُ شيئاً من الراحة بعد عناء مُجْهد وشغلٍ بغيضٍ ثقيل. فلما رجعتُ كان الكتاب وتلقاه أعدادٌ جمَّةٌ من «البرق» على المنضدة تجاهي فأما «البرق» فقد سُررتُ كثيرا بعَوْده شائقاً مملوءاً حياةً، وأما الفرصةُ التي سنَحَتْ لي، وتولّت قبل أنْ أستطيع انتهازها، لخدمةٍ أُؤدِّيها إلى الأخ العزيز والأديب الذي يباهي به البيانُ العربيُّ كلَّ أديبٍ، فهذا قد آسفني نهايةَ ما تُؤسفُ معاكساتُ الزمن

على أنني سأهدي إلى «البرق» أشياء ربما كفَّرْتُ عن ذنب الزمن لا ذنبي، ويومئذٍ ينشرح صدري بعد انقباض.

الأخ طانيوس عبده مريضٌ من مدة باليرقان، وهو على ضعفه وأَخذِ العلة مأخَذَها منه، يكتب لأن واجباته غير مقصورة على ذاته فإن هان ما يختص به فجانِبُ العيلة، وهي بعيدة عنه، غيرُ هَيِّن. لهذا لم أقرأ له عتابَكَ، واكتفيتُ بأن أُبلِّغَه سلامَك. وشَدٌ ما اهتزَّ له طربا، كما أنني دعوتُ له بالشفاء العاجل، حتى يتسنى له ولي بجانبه، أن نفي ببعض ما علينا للأخ النابغة الحبيب.

وأَختَتِمُ بِلَثم عارضَيْكَ مشتاقاً، وبإهداء أزكى تحياتي إلى إخواني الأعزاء من كل أديب ومنتسبٍ إلى الأدب؛ وإنَّ بي لحنيناً إلى كلّ منكم وأسألُ اللهَ أن يُقَيِّضَ لي لقاءكم في الصيف الآتي.

المخلص

خليل مطران

مصر ٢٧ ت١/ ١٩٢٦

✡✡✡✡

ولم تمض أيامٌ على وصول هذه الرسالة، حتى فُوجئنا ذاتَ مساءٍ برسولٍ يقول لنا.

إنَّ طانيوس عبده يريد مقابلتي، وهو الآن في مستشفى الروم ويظهر أنه ثقل عليه المرض سريعا فاحتملوه إلى بيروت ثم إلى المستشفى رأسا.

لا نذكر الرفيق الذي صحبنا ذلك اليوم إلى المستشفى، وكانت الساعةُ الثامنةَ مساءً. فدخلتُ إلى الغرفة التي أقاموه فيها، لقد كان النور ضعيفاً ولكني وقفتُ عند الباب وقد وقعت عيني على خيالٍ أسود مُسجًّى على سرير أبيض أخطر ببالي تلك المومياء التي ليوسف بك كرم[8] في إحدى كنائس اهدن. ولكنه أسرع فبادرني بكلمة ألبسها - نكتة على عادته - نكتة كانت أشبه بحرتقة عظامٍ على حفافي قبر جديد.

مر ذلك بسرعة البرق، وكنت قد دنوت منه وصافحته متكلفاً الابتسام، ومتكلفاً النكتة أريد أن أُهوِّن عليه موقفه، وأُبدِّد ولو قليلا، هذه الغيوم السوداء التي حَجَبتْ كلَّ وجهه. فما استطعتُ أن أنفذ منها إلى تلك الابتسامة الحزينة التي كانت تقف حائرة على شفتيه أيام الحياة، أقول: أيام الحياة، لأنَّ طانيوس عبده كان بالفعل قد مات وما هو إلاَّ تراب الذي حمله - كما يقولون - إلى بيروت التي استقبل فجره الأول فيها، وسكب آلامه عليها، وصبَّ فضلةَ كأسه على جبينها، وصرف وجهه إلى الأبدية عنها يائسا منها حانقاً عليها.

فلقد وهبها أبهر مواهبه، وترك في جيدها أجمل جواهره، فما ظفر منها بابتسامة، ولا بادلَته الوفاء قدرَ قُلامة.

وانصرفتُ عنه ساعةً أُدوِّنُ بعض ما أراده مني على أن أجيء في اليوم الثاني، ولقد جئتُه، ولكن لأسكب عليه الدموع؛ فأطرقتُ عند سريره برهة كأنني واحدة من تلك الشموع!

بشارة الخوري

البرق، ١٩٣٠، عدد. ٣٣٦٦، ص. ٧-٨

****

كيف عرفت جميل الزهاوي(١)

الرجوع إلى ١٩١١

شاء الزهاوي شاعرُ العراق، أن يختص «البرق» بهذه التحفة النفيسة من شعره، فكان له بذلك فضلانِ. فضلٌ للسبيل الودي وقد تلطف بتمهيده بيننا، وفضلٌ لهذه العناية (بالبرق) مع ما هو عليه الأستاذ من انحراف صحة.

وهذه الصورة الجميلة لنفس الشاعر الكبير، ونريد بها القصيدة، هي آخر ما شداه من الشعر، كما صرح لنا في كتابه إذ قال:

«.. وقد منعني الأطباء في بغداد إجهاد الفكر؛ يريدون بمنعهم أن يعودَ اليَّ قليلٌ من الصحة. ولكني أعصيهم، فأشدو الشعر، وهذه النفثات آخر ما شدوته منه، أهديها إلى «البرق» المتألق في سماء الصحافة العربية».

جميل الزهاوي

بغداد ١١ حزيران، ١٩١١

✡✡✡✡

أما القصيدة التي أشير إليها هنا، فهي عندنا من محاسن شعر الزهاوي، وقد نشرت في «برق» ٢٤ حزيران سنة ١٩١١ نختار لهذا المقام بعض أبياتها:

لقد هَاجَ ليلُ البَيْنِ شجوي ولا غَرْوا
إذا هاجَ ليلُ البين من مُغرمٍ شجوا
متى أيها الأثْلُ(٢) الذي ظلَّ ساكناً
تهُبُّ الصَّبا إنَّ الصَّبا وفدُ مَنْ أهوى؟

بكَيْتُ وخلتُ الدمعَ يُجدي من الأسى
فما كان دمعي إذ بكيتُ بذي جَدوى
ولا يَعْلم الصبُّ المصارعُ للهوى
أيقوى عليهِ، أم عليه الهوى يَقوى
لِيَجْتَنبِ الإنسانُ أول سكرةٍ
فقد لا يُلاقي بعد سكرته صَحوا
ومن كان فيه غلَّةٌ[٣] من صبابة
فقد يَشرَبُ الماءَ القراحَ ولا يَروى
ودِدْتُ لو أنَّ الحب يَقسِمُ منصِفاً
فيَسلُبَني عضواً وَيتركَ لي عُضوا

في نصرة الزهاوي

وكان هذا فاتحة الوداد بيننا، وبين فيلسوف العراق وشاعره، وطَّدَه أننا جمعنا لِنُصرته - وكان قد أُسيء إليه من زعانف بلده - المرحومين الشيخ العازار والشيخ محيي الدين الخياط شاعر بيروت وكبير أدبائها. وذلك عندما علمنا أن الزهاوي أُقصي عن وظيفته في مدرسة الحقوق، عهدِ ولاية ناظم باشا عليها. فرُحنا نرتقبُ مرورَ جمال بك، واليها الجديد ببيروت، لنثيرَ ضجة في صُحفها حول عزل الزهاوي، وتقصير حكومة (المشروطية)[٤] نحو كبار أدباء العرب الذي ساعدوا بأدبهم على دكِّ صروح الظلم، ومهدوا للدستور سبيل الظهور، كما فعل فيلسوف العراق جميل صدقي الزهاوي، في العهد الحميديِّ من غير ما خشية.

وإننا ناشرون هنا، بعض كلمةٍ للعازار في هذا الصدد، مأخوذةٍ من «برق» ٢٦ آب سنة ١٩١١ بعنوان «نحو بَغدا»[٥] قال:

خطر في بالي «غطا» موالٌ بغداديٌّ كانوا يغنونه في صباي

بغـــدادْ دارِ السَّـــعـــد سكانْـهـــا إســـلام

ويا حـــســرتي مــا طِلِـعْ لي من الرفـاق خـوّه

أتُرى يردد مثلَ هذا جميل الزهاوي، على ضفة دجلة كاسفَ البال:

«يا ماء دجلة ما أراك تلذ لي»؟

الجواب في ضمير الشاعر.

أعـجبُ والله لصـحـيفـة «البـرق» الحـبيـبـة إليَّ: فـإنهـا قـامت بشـأن الرصـافي البغدادي[٦]. إنهـا تسـمعنا رنة الهناء في كرمة ابن هاني المصري[٧] فعلام لا تشـجينا بأنة الشقاء في أنفاس الزهاوي[٨]؟

سـعى به سـاعي شَرٍّ عند ناظم باشـا، وهذا الوالي عسكريٌّ خـالص، خـالي الذهن من مفاسد الوشاة؛ فقطع راتبه من مدرسة الحقوق، ثم حاول أن يُكفِّر عن الإساءة، ولكن بعد ضياع اللبن؛ أما جمال بك، وقد عُيِّن لولاية بغداد، فلا شك أن يُقدِّر الرجل قدره.

وفي النهاية أجسر وأذكّر حضرة جمال بك [أن] في بغداد، مثلما في كثير من مـدن الشـرق الداجي، ألسنةٌ كـاذبةٌ نمامـةٌ. وإن دار السـلام هذه، تعودت أن يهـجـرهـا أدباؤها، وأن لها في كل زمن ابن زريقٍ البغدادي.

ولقد نشـر المرحوم الشيخ مـحيي الدين الخـياط، في «الاقبـال» ورئيس تحـرير «لسـان الحـال»، كلمةً بـهذا الصـدد، سـاعدنا على إيصـالها إلى جمـال بك، عند وصـوله إلى بيروت، سعـادة عبدالغني سني بك[٩]، وكـان لنا صديقاً حميمـا، وحسني بك مـدير بوليس بيروت عهدئذٍ؛ وكان قبل ذلك مدير بوليس أضنة وله بجمال صلة صداقة.

ولم يكد يستقر والي بغداد فيها، حتى صدر الأمر بتعيين الزهاوي براتب أربعين ليرة عثمانية في الشهر.

الزهاوي في بيروت

جرى كل هذا، ولم نكن قد عرفنا الزهاوي وجهاً لوجه؛ فما هي إلا الرسائل تتردد بيننا، إلى أن كان صيف ١٩١٤ حين فاجأنا في الإدارة شيخ نحيل الجسم مسترسل اللحية والسالفين، حسبناه، لأول وهلة، أحد أحبار اليهود. فسألنا عما إذا كان بشارة الخوري موجودا في الإدارة، يحسبنا أحد «المتمرنين»، وقد ألحق سؤاله عنا بقوله: أنا جميل الزهاوي! فنهضنا نحتفي به؛ وكان الوقت قد قارب الظهر، فإذا العازار يدخل علينا؛ فعرفنا أحدهما للآخر، وتركناهما في خلوة مباركة الناصية، وانصرفنا إلى إلقاء آخر نظرة على الجريدة، ثم عدنا إليهما، ومضينا معاً إلى حديقة الأزبكية حيث تناولنا الغداء بين الماء والشجر.

لم تكن صحة الزهاوي تساعده على الخمر، وكأني به يحتسي القليل منها، وهو مع ذلك ربان بأدب المجالس، لا تُمَلُّ له الأحاديثُ، يُصرفها في الفنون والأدب، مُسندة إلى العلم، واطلاع بعيد الغور.

وإننا لا نزال نذكر ذلك الاجتماع الذي كان للأستاذ الزهاوي في مكتب «البرق»، مع الشاعر المبدع أمين تقي الدين[10]، وما أفاض به علينا من أحاديث «الأدب الخاص» في بغداد، وما كان يدور حوله من الأهاجي بين كبار شعرائه[11].

أدب الزهاوي

ولبث فيلسوف العراق عندنا أياماً قليلة، كان خلالها موضوع إجلال الأدباء، تُعقد له المجالسُ، وتطوف بها كُئوس الأدب مترعةً. ولا غرو فلقد كان للزهاوي في الأدب العربي أثره البليغ بما كان يُحلِّي جيد الصحف من قلائده نظماً ونثراً. فضلا عما كان

له في الأدب السياسي، من مواقف جلتها تلك القصائد الخالدة ليحمل بها على الظلم، غير مبالٍ بطرقه أن تكون أذاةً أم نجاةً أم هلاكاً. وهو هذا الذي مهد لشهرته البعيدة عندنا، وحببه إلى النشء السوري اللبناني، المتوثب يوم ذاك إلى الحياة الحرة، يركب لها الآمال فإذا هي أوهام، ويطالع لها ابتسامات المستقبل، فإذا هي تستحيل إلى جرح دام.

وعندنا أن الزهاوي أحد بحور الشعر، ما ينفكُّ يقذف بأمواجه بين الهادئ البطيء والمتوثب السريع، لما ينبعث في نفسه من المؤثرات، أهي العواصف المهيلة أم النسائم العليلة.

ولقد قيل لنا أمس إنَّ الزهاوي قادمٌ إلى الشام، فلبنان، انتجاعاً للعافية التي نرجو أن تكون ثوبه الذي لا يبلى، وهو دعاء للعلم برفع مناره، وللشعر بحفظ ابن روميه وبشاره[١٢].

بشارة الخوري

البرق، ١٩٣٠،عدد ٣٣٧٢، ص ٨

****

لصقة رماد

كان ذلك اليوم، من أيام كانون الثاني سنة ١٩١٨. فهو إذن من أيام الغيوم التي كان في نفسي منها الكثيف المطر؛ ولا غرابة، فهي الحرب العالمية بعواصفها الهوج وأنا في مهابِّها: الورقةُ الصفراء، لا تكاد تستقرُّ في جوفٍ حتى يعصف بها ثانية إلى جوفٍ آخر.

على أنَّ هذه الظلمات من أيام كانون ١٩١٨، أي بعد مغادرة جمال السفاح سوريا، واستقرار كوجك جمال باشا محله، وبعد إعلان هذا الأخير العفو عن ذنوب الماضي مهما كانت، والاقتصار على الذنوب المقبلة، كل هذا أعاد إلى النفس بعض اطمئنانها، فأصبحت أزور إخواني في الجديدة - مركز حكومة المتن[1] - على نور الشمس، وكانوا نفراً كريما حبيبا أعُدّ منهم ذلك الطيب ابن الطيب المرحوم فائز شهاب الذي كان يسهر عليّ سهر الأخ الرفيق، والأستاذ جبرائيل نصار والشيخ سليم علم الدين ونجيب بك الحكيم والشيخ ابراهيم المنذر وملحم أفندي الزغزغي والمرحوم اسكندر عازار والإخوان الأنسباء يوسف وجرجي ومتري فاضل وغيرهم ممن لا تحضرني أسماؤهم.

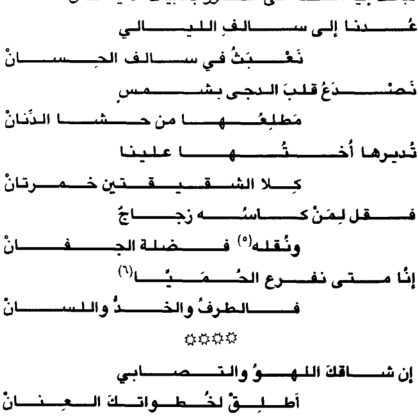
صدفة[2] جميلة

وكان أن جمعتنا «الجديدة»[3] في يوم واحد بالصديقين الكريمين جورج بك ثابت والشيخ أمين تقي الدين بعد فرقة وشوق؛ وكان جورج بك قبل الحرب، لا يصبر عن مجالسنا، فنجتمع إليه حلقة تحتل حيناً حديقة قصره، وأحيانا الخوان عليه ألوان الشراب والطعام، تتصدره على الغالب السيدة النبيلة والدته، فنصرف الليل بين المطارحات الشعرية والمباحث الاجتماعية. وإني لأذكر أن ثلاثاً أو أربعاً من القصائد التي عربتها عن الفرنسية[4]، له عليها حق الأبوة من حيث إنه هو الذي اقترح عليّ تعريبها.

ورأت السيدة النبيلة لبيبة ثابت، بعد أن نقل إليها جورج خبرنا، أن تجمعنا على مائدتها في مثل مجالسنا السالفة، فنطالع ولو بسمة واحدة، في وجه ذلك الزمن الكالح فيما وسعني النزول إلى بيروت وبعض «كرام» بوليسها لي في المرصاد؛ فاحتضنتنا يومئذٍ دار الأصدقاء الوجهاء آل فاضل في البوشرية. فامتدت لنا مائدة فخمة اجتمع حولها أكثر الذين اشتاقت إليهم نفسي من إخوان الصفاء، وكانوا لا يقلُّون عن خمسين شخصاً، في طليعتهم حضرة الخطيب الأشهر الدكتور حبيب اسطفان. فكان أول تعرفي إليه وفي صدر كل واحد منا نفس العاطفة نحو الآخر، ونفس الشوق إلى معرفته.

استدراك

وكان من الذين اعتذروا عن الحضور، وهو من أحب الناس اليَّ: الصديق الأوفى والكاتب القدير «المتقاعد» يوسف نخلة ثابت، فغمَّني أن يتخلف عن شديد شوقي إليه وتعلقي به. فبعثت إليه أستحثه على الحضور بالأبيات الآتية، ففعل:



عُدنا إلى سالفِ الليالي
نَعْبَثُ في سالف الحِسانْ
نَصْدَعُ قلبَ الدجى بشمسٍ
مَطلِعُها من حشا الدِّنانْ
تُديرها أُختُها علينا
كِلا الشقيقتين خمرتانْ
فقل لِمَنْ كاسُه زجاجٌ
ونُقلُه[٥] فضلة الجفانْ
إنّا متى نفرع الحُمَيّا[٦]
فالطرفُ والخدُّ واللسانْ

☼☼☼☼

إن شاقكَ اللهوُ والتصابي
أَطلِقْ لخُطواتكَ العِنانْ

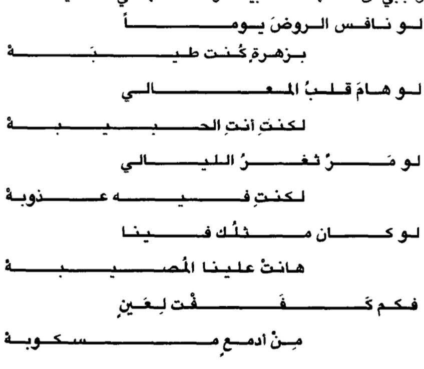
ولا تقل: مطرحٌ بعيدٌ
وأنت في قوّة الحصانْ
فمَنْ جنى الوردَ لا يبالي
بشوكةٍ تجرح البنَانْ

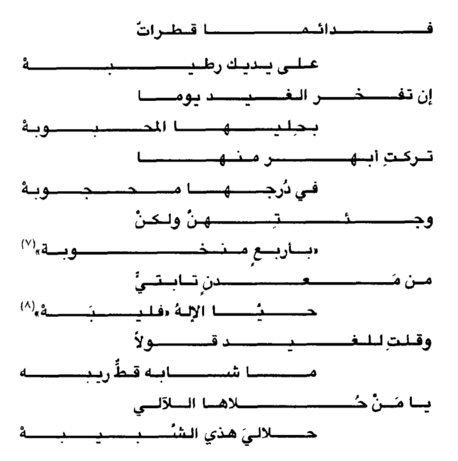
الشعر والخمر

وكانت الكؤوسُ لا تَفرغُ حتى تمتلئ. فحمَيت الرؤوسُ واحتدمتِ الصدورُ، فكان ميدانٌ للشعر العامي، انقسَمنا فيه إلى فريقين: في طليعة الواحد الدكتور أسطفان، وفي طليعة الثاني خليل أفندي الجلخ، يفتحان الردة ويغلقانها، ويتنقلان على أغصان المعاني، ما شاءت لهما حدةُ الذهن وبراعةُ القول

وفاء واجب

أما أنا فما نسيت صاحبة الفكرة الأولى، في هذا الاجتماع؛ وكانت عقيلةُ ثابت في تلك الأيام ترأس عدةً من جمعيات الإحسان التي أخذت على نفسها حماية العذارى، ووقاية الفتيان، ورعاية العُجَّز فهي ما كانت تُغادر ملجأً إلا لتدخل ملجأ؛ فرأيت من واجبي أن أعد لها هذه الأبيات، وقد أنشدتُها في تلك الليلة:


لو نافس الروضَ يوماً
بزهرةٍ كُنت طيبَهْ
لو هامَ قلبُ المعالي
لكنتِ أنتِ الحبيبهْ
لو مَرَّ ثغرُ الليالي
لكنتِ فيه عذوبهْ
لو كان مثلُك فينا
هانتْ علينا المُصيبهْ
فكم كَفَفْت لِعَينٍ
مِنْ أدمعٍ مسكوبهْ



فدائماً قطراتٌ
على يديك رطيبهْ
إن تفخر الغيد يوماً
بحِليها المحبوبهْ
تركتِ أبهر منها
في دُرجها محجوبهْ
وجئتِهنّ ولكنْ
«بأربعٍ منخوبهْ»[7]
من مَعدنٍ تابتيٍّ
حيّا الإلهُ «فليبَهْ»[8]
وقلتِ للغيد قولاً
ما شابه قطٌّ ريبه
يا مَنْ حُلاها اللآلي
حلاليَ هذي الشبيبهْ

لصقة رماد

وكنتُ قد هجرتُ الخمر، إلا نادراً وهي إذا هُجرت انتقمت، وكان انتقامها لئيما وكنت لفرط سروري، أتبع الكأس بالكأس من غير طعام، كمألوف عادتي. فأثّر ذلك فيَّ تأثيرا لم أعتده، حتى إذا أويت إلى السرير عمدت «ستنا أم يوسف» والدة الأصدقاء آل فاضل، إلى لصقة رمادٍ فوضعتها على بطني، فبقيت إلى الصباح حيث تركت بعدها حروقا احتملت ألمها أشهرا. وإني لا أشهد أثرها مرةً إلا جددت عهدي للخمرة، خشية انتقامها مرة أخرى؛ ولأني ما برحت أذكر كيف كان يعلو بي السرير، حتى يلتصق بالسقف، ثم يهوي بي إلى الأرض، فأنتفض ويا لها من انتفاضة.

بشارة الخوري

البرق، ١٩٣١، عدد ٣٣٨٨ ، ص ١-٢

****

عشرون يوما
في ريفون باسم حنا فياض [١]

بين حزيران وأيار من سنة ١٩١٦ - ساعة خوف - الصديق يوسف عباس الحلو - جمعية أرز لبنان - القبض على سليم بك المعوشي[1] - يومان قبل الفرار.

بروق في غيوم

كانت السنة ١٩١٦، إذن فعهد الإرهاب كان في عنفوانه، وجمال السفاح ماضٍ في اصطياد مَنْ بقي من نابهي البلاد، ممن عُرف لهم ضلعٌ في السياسة أو هوىً مع الأهواء؛ وكنتُ يومذاك في عزلةٍ أُسيغُ مرارة تلك الليالي، من عزوبة الحب الذي بنيتُ في شجرته «عشي العائلي». وكان البيت الذي يضمني والذي طالعت «نجمي» فيه، قائما وسط أحراج الصنوبر، على مسافة دقائق من نهر بيروت - ألهو حيناً بالغزل شعراً وهمساً، وحيناً بالدبق نصطاد به العصافير؛ ونلتقي في الليالي، حول «قصّاصٍ» بادنٍ يدعى سليماً يحكي لنا عن فيروزة وعنترة ودليلة وأضرابهم.

وإني في هذا الحال، أعدُّ الليالي وأخشى مفاجآتها، إذا بصديقٍ هو من هؤلاء الذين تمطرهم السماء برداً على نيران القلوب، أو تُطلعهم الأرض رياحين بين أشواك اللؤم والضغينة؛ إذا بهذا الصديق يدخل عليَّ حاملا في شفتيه ابتسامةً مصطنعةً يحاول بها تهدئتي؛ فبادرته: إن وراءك لأمراً يا يوسف، فأسرع!

يوسف عباس الحلو

لا أخلو مرةً إلى نفسي، منذ سلَبَنا الموت المرحوم يوسف عباس الحلو، إلا وقد شعرت بمثل الحراب تعمل في قلبي؛ ذاك لأني لم أَفِ ذاكَ الأخ الكريم حقه عليَّ وعلى الأدب وعلى الأخلاق؛ إذ كثيرا ما يُداهمك الواجبُ، وأنت في حالةٍ نفسيةٍ أو حالة

شخصية تكون فيها أولى بالإشفاق من الميت نفسه. وكذلك كنتُ ساعة سِير بنعشه ووُوريَ في رمسه.

لقد كان المرحوم يوسف عباس الحلو، في طلائع الفوج الذي عمل للأدب حوالي عام ١٩٠٠، قبلها وبعدها قليلا، يطلع بمقالاته في الصحف خفاف الجوانح، تعلق على الغصون حالية الأزاهير، فهو إذا بكى ألبس بُكاءه غلافاً من البسمات، يطفو التهكم على حِفافَيْها وأغلب ما يُرسل كلمته أساطر[٢] قلائل، كالقنا القصار لا تلتوي على الغمز، ولكنه كان لا يبالي، بعد إرسال المقالة بما أحدثته من أثر، حتى إنه كان لا يُطالعها بعد نشرها. ولقد يبقى الأشهر دون أن يتناول قلم «الأديب»، منحرفا إلى «قلم المحاسب» ولكنه يحدث أن يتألم من أمرٍ فيعمد إلى القلم، بعد سهرة طويلة أتعب فيها الكؤوس مما تروح وتغدو، أو على وجه فجرٍ باسمٍ من أيام الأحد البيضاء.

هذا هو الصديق الذي فاجأني بين ٢٧ – ٢٨ نيسان من سنة ١٩١٦، يحمل اليَّ إيعازاً شديداً لوجوب مبارحتي المكان الذي أنا فيه، لأن رضا باشا[٣] يريدني حيّا أو ميتاً

ساعة خوف

إذا كنتُ أنا أعجزُ عن وصف الاضطراب الذي أحدثه الخبرُ فيَّ، إذن فلا يقوى أجنبيٌّ عنه، أن يُحيط بجهة من جهاته. فكيف يستطيع سَبر عمقه في نفس صاحبه؟

هي عاطفة، أنا نفسي لا أذكر الآن كيف كان وقعُها عليَّ، ولا أستطيع استعادة أشباحها إلى خاطري، فلقد كانت بهذا المقدار شديدةً حتى إنها لم تترك ألماً بعد مضائها فيَّ، كما تفعل الشفرةُ الحادّةُ في الجسم: تقتلُ ولكنها لا توجع.

وكان قد قُبض في ذلك الوقت، على المرحوم سليم بك المعوشي رئيس جمعية «أرز لبنان» – وكان رئيسها – فقضى التحقيقُ في قضيته إحضاري بصفتي كاتباً للجمعية، ثم لأن إدارة جريدة «البرق» كانت مركزا لها، تشتمل على أوراقها وسجلاتها. وكان من ضيوف الديوان الحربي يومئذٍ، المرحومان الشيخ فيليب والشيخ فريد الخازن. فأيقنتُ أن العزمَ مشحوذٌ لإعدام جديدٍ ولا سيما في سجلاتِ الجمعية مخابراتٌ مع قنصل فرنسا وغيره من القناصل.

– عليك إذن أيها الصديق، أن تنزل إلى المطبعة وتعدم جميع ما فيها من أوراق الجمعية – ومن ثم تعمدُ إلى بيع ما هنالك من الورق والغلافات؛ وهي كميةٌ غير قليلة. وجئني بما تَيَسَّر من المال. ولا تنس النظارات السوداء وأدوات الحلاقة!

وعاد الصديق يوسف الحلو مسرعا إلى المطبعة يُنجز ما طلبت إليه، وقد طلعَ عليَّ مع فجر اليوم الثاني، يحملُ نحو مئتي ليرة تركية، هي ثمنُ ما باعَه.

احتياط للأمر

وهنا قلت للصديق يوسف: ربما فاجأ البوليس المطبعة، وقد لحظتُ أن أوراقاً بيضاء، منسيةً في دفتر الكوبيا، فاكتب ثلاثة كتب بلساني. الواحد لإلياس ساروفيم، وكان قد جاءني كتابٌ بتوقيعه يطعن فيه بالدولة ورجالها ويتمنى زوالها. والثاني لتوفيق مارون والثالث لشكري الخوري صاحب «أبو الهول». أما الأول فخطأه(٤) على ما جاء في كتابه؛ وأَشِدْ بمدح الدولة العثمانية، وبما نتمتع به في ظلها من النِّعم، وأما الثاني فقلْ له: إنني لا أرى لكم أن تُسَموا جمعيتكم «جمعية الاتحاد السوري»، وقد كان الأجدر لكم أن تُسَمّوها «الاتحاد العثماني» فتضموا إليها جميع العثمانيين المخلصين، فتقووا أدبياً ومادياً. وقل للثالث: إن الذين يغرونه من حين إلى آخر، بالإساءة إلى الدولة العثمانية، يسيئون إلى بلادهم قبل كل أحدٍ، فضلاً عن أن الخُلُقَ اللبناني، يُحتِّم علينا بالوفاء في هذه الأزمة التي ستعرف بها دولتنا أصدقاءها من أعدائها».

أمليت هذه الكلمات على الصديق يوسف الحلو، وطلبت إليه أن يكتبها ويقلد إمضائي فيها، ويطبعها في الورقات البيضاء المنسية في دفتر الكوبيا، وفي نفسي أنه إذا قبض عليَّ وضبطت أوراقي، أدليت بهذه الحجة على قديم «إخلاصي» للدولة. ثم افترقنا: هو يعود إلى البلد، وأنا أدخل إلى البيت أُعد عُدَّة السفر.

ولقد كانت الساعات القليلة في ذلك البيت الذي غرست فيه حبي واخترت منه «رفيقتي»، من أفجع الساعات التي عرفتُها في حياتي؛ فلقد قام هناك شبه مأتم

اشتركت فيه العائلة بأسرها، على أني اغتنمت ساعة متأخرة من الليل، كتبت فيها رسالة الى صديقي الأستاذ جبرائيل نصار، سيرد ذكرها في ما بعد[٥]، وهذين البيتين من الشعر وقد تركتهما على الطاولة في غرفتي:

تَذكّـــريني لدى الـغــــابات كُلُّ ضُحـــىً
فـــقـــد خلَعْتُ عليـــهـــا بيضَ أيامي
تـركتُ آثارَ أقــــدامـي هـناكَ وقـــــد
طبَــــعتُ روحـي علـى آثار أقــــدامـي

ولم يكد ينبثق فجر اليوم الأخير من نيسان ١٩١٦، حتى أقبلت العجلة التي أقلّتني في طريق كسروان[٦]... وقد كنت قد قررت المكان الذي أنا قاصده.

بشارة الخوري

البرق ، ١٩٣١، عدد: ٣٣٩٠، ص. ٢

****

عشرون يوما في
ريفون باسم حَنًّا فياض [٢]

مديح جمال باشا - الشيخان الخازنيان - الأب العام أوغسطين - بولس سري - الأمير شكيب.

مدح جمال باشا

كانت «الجديدة» مركز حكومة المتن عام ١٩١٥ - ١٩١٧ حافلةً بعدد الأصدقاء، نأنس إليهم في أكثر الأوقات وتعقد لنا مجالس نقتنص فيها سوانح الأنس مقصوصة الجوانح.

وأردت أن يُذاع هناك أني قصدت إلى حوران أو إلى الشام. حتى إذا سُئلت القائمقامية عني، كان لها من هذه الإذاعة مستندٌ. فأرسلت وأنا على أهبة الرحيل رسالةً إلى الأستاذ جبرائيل نصار، أشكو له فيها وطأة الزمن، وأكاشفه بما اعتزمته من السفر إلى حوران، علّي أجد فيها مرتزقاً. وقد ختمتها بهذين البيتين:

أَمَمْتُ حَوْرانَ كَيْ اقضي بهِ وَطَراً
فإن يَفُتني فإنّي هابطُ الشامِ
لَعلّني وجمالُ الشرق يَرمِقُني
احيا هناكَ باماليَ واحلامي

الشيخان الخازنيان[٧]

تركتُ هذه الرسالةَ باسم الصديق نصار، وامتطيتُ العربةَ في الفجر الباكر تُخَضخِضُ بي في ساقية الدورة[٨]. حتى إذا استقبلتُ الطريقَ العام، وكدتُ أكونُ على مسافة أمتارٍ من «الجديدة» إذا بي أرى المرحومَيْن الشيخ فليب والشيخ فريد

الخازن، وبينهما الشيخ كسروان الخازن، على ما أُرجِّح، تسير بهما العربةُ إلى جهة بيروت؛ فاستوقفتُهم أسألُهم إلى أين يقصدون؟ فقالوا إنهم قد استأذنوا جمال باشا لأيام يصرفونها بين أهلهم، وقطعوا له عهداً برجوعهم في يوم معينٍ، وأنَّ مُروءتهم تأبى عليهم أن يَنكُثوا بالعهد، وأنهم مطمئنون إلى سلامتهم ونيَّة جمال من نحوهم؛ فقلتُ إنها لمُخاطرةٌ غيرُ سَليمةِ المَغَبَّة. قالوا، وأنت، إلى أين من هنا؟ قلت: إلى بلدكم الذي تركتموه، فقد أرى لي فيه ملجأً.. ثم افترقنا، وفي نفسي من القلق على هذين الأخوين الطيبين، ما فيها.

في جونية

ولقد كان الحوذيُّ الذي أقلَّني من البيت، قد اشترط إيصالي إلى «جونية»؛ فوقعتُ على حوذيّ نَدٍّ اسمه عني من درعون[٩] قلت: بكم توصلُني إلى رَيفون؟[١٠] قال: بما تريد يا بك! قلت أيكفي خمس ليرات؟ قال: كما تأمر! وسارت بنا العربةُ، ولكن على عَجلٍ؛ وكيف تقوى الخيل على العجلة وثمن رطل الشعير «كمشة» من الورق الملون؟[١١].

لقد كان ذلك اليوم، الأول من أيار ١٩١٦، وكانت السماء نقيةً صافيةً، حتى كأننا في مطلع الصيف، لولا قرص البرد في الفجر والليل؛ وكان كلُّ ما يحيط بي جميلاً، بل غايةً في الجمال. ولكن أنَّى لتلك الشمس الساطعة في الأفق أن تُمزق الغيوم المتلبدة في نفسي؟

وسألت الحوذيَّ: أترى أجدُ (لوكندة)[١٢] حسنة في ريفون؟- ولو .... رَيفون وما فيها (لوكندات)؟ بتكفيك لوكندة يوسف مانوك.

- حسن، خذنا إلى لوكندة يوسف مانوك!

وكانت الشمس قد تزحلقت عن الأفق، وأخذت أشباح المغيب تتخايل في الفضاء كأجنحة طوال رقيقة، أو كغلائل من الدخان بين الرماديِّ والقاتم، إلى أن تتلاشى رويدا، رويدا على ستارة الظلمة الزاحفة.

ووقفت بنا العجلة عند مدخل النزل؛ فأخذ الحوذيُّ «الشنتة» ووقف ينتظر حسابه.

لقد كانت لي دالَّةٌ كبيرة، في ذلك العهد، على سيادة الأب أوغسطين البستاني رئيس الرهبنة الحلبية العام – سيادة المطران البستاني اليوم – ولقد مكَّن لشخصه الكريم في نفسي، تلك المزايا العاليةُ والفضائلُ الغالية التي يتحلى بها؛ وهي إلى اليوم آخذة بالنمو ماضية في السمو، حتى بلغت الذروة العليا واستقرت، وهو فوق ذلك يجمع إلى هذه الحلى الدينية، ما لا يقل عنها جمالا في سعة الصدر، وبُعد نظرٍ إلى مروءة إنسانية ومهزة وطنية، وكان يومذاك في دير فيطرون[١٣] فأول ما خطر لي، منذ فوجئت بنبأ عاليه[١٤]، أن ألجأ إلى ذلك الدير، وأقيم في ذلك الكنف، ولهذا أسرعت، عند دخولي إلى النزل، بكتابة كلمةٍ إلى سيادته أوجز له خبري، وأكشف له عن نيتي في الالتجاء إلى الدير، وقد أنبأته أني اتخذت لي اسم «حنًّا فياض» أستتر به ما دمت هنا، ودفعت الرسالة إلى الحوذيِّ فمضى بها إلى فيطرون، وهي على قيد ثلثٍ ساعة من ريفون تقريبا؛ وما لبث أن عاد يحمل في عربته، راهبين حملا إليَّ تحية سيادته، وكتاباً منه يقول فيه ما خُلاصته: «إن الدير لم يعد ملجأ أمينا، لأن الجنود اللبنانيين كثيرا ما يفاجئونه ليلاً في طلب يوسف أفندي دريان؛ وقد كان مطلوبا للتجنيد». فهو إذن لا يتحمل تبعة ما يقع لي فيه، مع شديد رغبته بقربي، ثم قال لي الراهبان باسم سيادته، إنهما سيزورانني كلَّ يومٍ ويقومان بما يلزمني

بوليس سري

كنت أول زبائن «النُّزل»، لأنَ المصطاف لا يقصد إلى الجبال قبل أواسط حزيران. هذا إذا أبكر؛ وأنا جئتها اليوم الأول من أيار. فمن ذا عساني أكون؟ وما هو السر في هذا التكتم؟ ولماذا تمضي عليَّ الأيام، دون أن أبرح النزل، ولو لنزهة صغيرة؟... كنت أقرأ هذه الأسئلة على شفتي الخواجة يوسف مانوك دون أن يلفظها، وأخيرا شعرت أن الرجل يرى فيَّ ضيفاً غير عادي، ولكنه على كل حال ضيف خفيف، هادئ حَسَنُ المعاملة؛ فكنت أتصور نفسي كأحد هؤلاء المجاذيب، الذين يُحجر عليهم، أو يحجرون هم على أنفسهم، لا سيما عندما كنت أبقي على ذقني أياماً دون حلاقة، رغم أني إذا

اضطررت إلى التنكر، في زيّ قسيسٍ، كانت اللحيةُ موجودةً جاهزةً. هذا كله زاد في هجسِ صاحب النزل، ومن كان يلفُّ حوله من أهل القرية: فما لبثت الألسن أن همست أنّ في نزل مانوك بوليساً سريا.

فإذا كان من المصائب ما يُضحك، فهذه، أنا أخشى أهل البلدة وأخشى على الأخص، هذه الإشاعة التي قد تنتقل بالتواتر إلى مناطق الخطر، وهناك البلية وهم يرون فيّ البوليس السرِّي، وهو يومذاك شبح الرعب والهول

إخلاء سبيل المعوشي

وكان قد بلغني، بعد وصولي ببضعة أيام، أن الأمير شكيب أرسلان(١٥) يومئذٍ ذو الكلمة المسموعة، قد توسّل لدى جمال باشا بإطلاق سراح سليم بك المعوشي فأفلح ولكن، أتُراني كنت أجد لي شفيعا لدى جمال، وقد سبق لي أن حملتُ في بوقي على الأمير شكيب أرسلان عفواً، نزولاً عند رغبة أحد الأدباء الدروز وهو من أصدقائي، وقد قام اليوم أحد أنسبائه يكافئني على تلك الصداقة التي كادت توردني موارد الحتف لو سقطت في يدي السفاح وكان من حق الأمير شكيب أن ينتقم مني

ولقد سرني كثيرا إخلاء سبيل الصديق المرحوم سليم بك المعوشي لما كان له من الحب في قلبي؛ ثم لاعتقادي أن في إخلاء سبيله تمهيداً للتجاوز «عن هذه القضية» لا سيما وأن الأمير عادل كان عضوا في جمعية الأرز، إذن فقد تجمعت الأسباب لإطفائها وذلك لحُسن حظي

بشارة الخوري

البرق،١٩٣١، عدد: ٣٣٩١، ص ٥

****

عشرون يوما في
ريفون باسم حنًا فياض [٣]

الخوري الياس ريشا - شنق الشيخين الخازنيين - خاتمة المشانق السياسية - ادوار لوار - مصطفى بك الحكيم - فراق غير أليم - مشهد للبدر عند المغيب.

الخوري الياس ريشا

الحق يقال: إن في الإكليروس الماروني رجالاً يفخر بهم العصر الذي نشأوا فيه، ولكن أمثال هؤلاء من الرجال، يتغذون بالحس العلوي إذا تغذى غيرهم بهرج الدنيا. ولكنهم على كل حال، أطيب من سواهم عنصراً، وأشرف غايةً كتلك البنفسجة التي تغطيها أوراقها، فتكتفي بنشر الطيب في الوسط الصغير الذي تقيم فيه أما البنفسجة التي تنشّقْتُ عَرْفَها على تلك الذرى، بين ريفون وفيطرون، فهو الخوري الياس ريشا - سيادة المطران ريشا اليوم -. فما كاد يَعْرفُ بخبري حتى قصدَ إليَّ يعرض الخدمة التي أريدُها؛ وإني لا أزال أذكر قوله لي: إننا رجال الاكليروس، ملزمون بأن نضحي بأنفسنا في سبيل أبنائنا وإخواننا؛ فإذا لم نفعل اليوم، والسيف على الأعناق، فمتى نفعل؟ فشكرت هذه العواطف وأكبرتُها، ثم طلبت إليه أن يقابل الأستاذ الشيخ ابراهيم منذر وكان، كما سبق القول، مستنطقا في حكومة المتن، فيعلمه بمقامي ويحمل إلي منه ما يهمني علمه من أخبار عاليه وغيرها، مما له علاقة بموقفي. ولقد قام حضرة الأب الياس ريشا ثلاث مرات بهذه المهمة الشاقة فمحا بمروءته الكثير من سيئات غيره.

شنق الشيخين الشقيقين

كان الخبر شديد الوطأة على النفوس، حتى لكدت أقرأ على الجباه القليلة التي كانت تمر من تحت نافذتي أسطراً دكناء، وألمس خلل الشفاه حزناً موثقاً، ذلك ساعة قيل: إن الشيخين فليب وفريد الخازن شُنقا.

ولبثت على أحر من الجمر أنتظر صحيفة من بيروت أقرأ فيها شيئا عنهما، فإذا الصحيفة عندي في اليوم التالي، وإذا هي تذكر خبر الشنق مقتضبا، ولكنها أفاضت في وصف رجل ثالث شُنق معهما، فقالت إنه يهزأ بالموت وإنه طلب قبل أن يشنق صحن فول مدمس أكله بشهية ثم مشى إلى المشنقة لاعبا هازئا.

ومن الطبيعي أن تزيد هواجسي تلك الليلة وتتكاثر عليّ الأحلام المزعجة، ولقد زاد فيها تلك الأخلاق السافلة التي ظهر بها بعضُ اللبنانيين حتى تنكر الصديق لصديقه واستراب الأخ أخاه، وإذا قلت لك إني لم أجرؤ أن أعلم بأمري الثلاثة الذين كانوا يحكمون قضاء كسروان وهم من أصدقائي، تبينتَ بعض ما خفي حتى الساعة من أثر اللبناني في اللبناني وشاية ودسا ونكاية.

لقد كان على قائمقامية كسروان الأمير أمين أبي اللمع وعلى قيادة الجند حنا بك حنا ضاهر وعلى مديرية الناحية الفونس أفندي منصور وإني لأذكر بملء الأسف يوما وقعت فيه عيني من النافذة على المدير منصور، فخشيتُ أن أكلمه. وهذا يدلك على مقدار ضعف الثقة وهو أقتل ما ابتُليتْ به بلاد.

أقول هذا ولا أريد منه أن أمسّ شخصية الذين سميتهم ولكن لأدلَّ به على الحالة الروحية التي سادت لبنان مدة الحرب، وكان أبناؤها بلاءً على أبنائه

خاتمة المشانق

ويظهر أن شنق الأخوين الطيبين كان خاتمة أعمال الرعب في لبنان وسوريا. فلقد حل محل جمال السفاح جمال باشا الصغير «كوجك جمال»(١٦) وأذيع على أثر وصوله منشور قيل فيه إنه الآن لا يؤخذ أحد بأي جرم سابق، وإن حياة كل فرد أصبحت مصونة بقوة القانون.

فأعاد هذا المنشور وما تلقَّيتُه من الصديق المنذر بعض الطمأنينة إلى نفسي؛ فسكَنْتُ قليلاً وأصبحت أتساهل بالخروج من النزل كل يوم، فأصرف الشطر الأكبر من نهاري في دير فيطرون، أو في كرسي ريفون، وأقطع الشطر الأكبر من الليل في

مطالعة روكامبول[١٧] وغيرها من الروايات التي عَمَرتْ بها صناديقُ النزل العتيقة، وكنتُ لا أزال حتى الساعة، أُدعى الخواجه حَنًّا.

إدوار لوار

كثيرون هم الذين يذكرون إدوار لوار ذلك الشابَّ الافرنسيَّ وليدَ بيروت، فهو إذن يتكلم اللغتين، وهو إذن يضرب في الجنسيتين، ثم هو يلعب على الحبلين. فلقد كان الفرنساويَّ الوحيد الذي خان وطنه ووضع نفسه تحت تصرف محيي الدين بك مدير البوليس في ذلك العهد، ومكّن له الثقة لدى الأتراك أنه اكتشف لهم آلة لاسلكية في جونية، وفي عينطورة ثم جردوا منه جاسوساً يهبط المدن والقرى فَيَجُرُّ وراءه ذيلا من الخوف يَقصر أو يطول، بنسبة ما كان يُحاط به من الزُّلفى ويُراق في جيبه من المال.

هذا هو الشخص الذي وقفت به عربته أمام باب النزل، ثم نز ل منها ودخل على الخواجا مانوك يسأله غرفة، وكنتُ لا أزال منكمشا في غرفتي، وقد شعرت بدبيب الخوف في مفاصلي، ولكنني شعرتُ فجأة بقوة اليائس على مجابهة المخاطر. وفي تلك اللحظة انكشف لي السرُّ في جراءة الذين كانوا يمشون إلى المشانق أبطالاً يتغنُّون ويتطرَّبون، وأيُّ شيء تريد أن يخطر لي، سوى أن إدوار لوار مُرسلٌ في أثري، وأنني بعد ساعاتٍ سأكون في دائرة البوليس، ومن هناك في طريق عاليه.

وسأل إدوار لوار صاحب النزل: هل عندك أحد؟

– الخواجا حنا فياض!

– إذاً فسيكون لنا شيء من السلوى.

– وحانت من الخواجا لوار لفتةٌ إلى داخل غرفتي، وكان البابُ مشقوقاً فلم ير بأسا في الدخول... «بونجور مسيو فياض». أُقدِّم لك نفسي: إدوار لوار!

– «صار لي الشرف أهلاً وسهلاً». ثم قدمت له كرسياً وطلبت له القهوة، وكان المسيو لوار خفيفاً، فيه شيءٌ من الطيش؛ فشرع منذ الساعة الأولى، يُريني صورة

قرينته وطفلته ويُحدِّثُني عن علاقة محيي الدين بك بهم، وصداقته للعائلة. ثم تناول من جيبه رسالة بتوقيع قائد البوليس، يَضعُ فيها تحت إمرته قوَّات البوليس و «الجندرمة». فنظرت إليه شذراً وقلت له، بحزمٍ فيه شيء من اللين إجمع هذه الأوراق حالا؛ وأرجو أن لا تكون أطلعت عليها أحدا. فأنت هنا لتعمل واجبا، لا لتعكر راحة الناس الأمناء، واستأنفت الكلام بشيءٍ من عدم الاكتراث: ألا قُلْ لي، يا مسيو لوار: كيف هي الحالة اليوم بين عزمي بك[١٨] ومحيي الدين بك؟ ولا أعلم تماما ما الذي أنطقني بهذه اللهجة، ولكني قرأت في هيئة جليسي تغيراً، مع شيء من التضاؤل أمامي، لم أستطع تفسيره إلا أنه توهمني عاملا سريا للحكومة يتمتع ببعض السلطة، ثم قال لي: أتأذن أن نتعشى معا هذا المساء؟ قلت: أنت وما تريد. فخرج يخاطب صاحب النزل بإعداد العشاء

في أثر يوسف دريان

وإني لفي هذا الموقف الدقيق، إذا برسالةٍ تصل إليَّ من الأستاذ نصار تقول، إنَّ سؤالاً ورد على القائمقامية بشأني، فأجاب القائمقام عليها، أني توجهت إلى دمشق، والقائمقام الأمير فائز[١٩] توجه خصيصا إلى عاليه، لمعرفة الأسباب التي طُلِبتُ من أجلها. فكان خلاصة ما تجمع لديه من ذلك، هو أن اسمي ورد في معرض التحقيق في قضية «أرز لبنان»، ثم لخبر نُمي إلى الديوان العرفي، أن زورقاً أقلع إلى أرواد، من بين ركابه بشارة الخوري، ثم لأن اسمي ورد في لائحة المبعدين الأولى، وعهد إلى مغفر[٢٠] الجميزة[٢١] بطلبي، لأني كنت مقيماً في ذلك الحي؛ فأجاب المغفرُ بنزوحي عنه. تجمَّعت كلُّ هذه الأسباب، في معرض البحث عن قضية «أرز لبنان».، فساء رضا باشا أن لا أُطال في واحدة منها؛ فكانت منه تلك الكلمة العنيفة بطلبي. غير أنه، لحُسن الحظ، كان المدعي العام لدى الديوان العرفي في ذلك الوقت، حضرة الصديق الكريم مصطفى بك الحكيم؛ فعمل على طمس الأوراق، وهو يُطمنني بواسطة الأمير فائز، ويزيل كل خوفٍ في نفسي.

قرأت هذه الرسالة، بينما كان إدوار لوار والخواجة مانوك، منصرفين إلى إعداد العشاء. ولا لزوم للقول، بأنني استعدت كثيرا من نشاطي، فأخذت أُنفقُ عن سعة، حتى

أصبح السيد لوار لا يصدر إلا عن إشارتي، وكنت قد علمت منه أنه قدم في طلب الخواجه يوسف دريان؛ فحملتُ الخبر بنفسي إلى فيطرون، حيث أبلغته سيادة الأب العام أوغسطين.

فراق غير أليم

وشدَّ ما سُررت عندما أعلمني ذات مساء، أنه عائد إلى بيروت في صباح اليوم التالي. وبالفعل فإنه ترك النزل في الصباح الباكر، وكنتُ قد استعدت نشاطي وحريتي بعد كتاب الأستاذ نصار، فكشفت لصاحب النزل عن حقيقتي وأخذت أزور بعض البيوت في ريفون، حيث لقيت فيها كل عناية وإكرام.

إن ريفون، من أجمل قرى الاصطياف وأجودها هواءً، وأشرقها سماءً وإني ما برحت أذكر مشهداً للبدر وقد مال إلى المغيب بين الغلس وانفتاق الفجر؛ فأوحى اليَّ هذه الأبيات:

يا بَدْرُ يا مُؤْنسَ الزهّادِ ها أنا ذا
منهُمْ وإنْ كان ثوبي غيرَ ثوبِهِمِ
أما تراني مذْ عامَيْنِ مُعتزلاً
كراهبٍ بفناء الدير معتصمِ
يَمضي النهارُ ولا أدري به فإذا
جَنَّ الدجى أيقظَتْني للسُرى هِمَمي
فالبَسُ الليلَ جوّاباً بساحته
أخوضُ فيه ببحرٍ غيرِ ملتطمِ
كأنني شَبَحٌ طوّافُ أنديةٍ
لا تستقر على خد الثرى قَدَمي
في السفح حينا وأحيانا على الأكمِ
في ظاهر السهل أو في باطن الأجَمِ

✡✡✡✡

وشاقني منظرٌ للبدر أرْسُمُهُ
وقد تقنَّع زاهي وجهه بِدَمِ

وذاك لمّا تهاوى نحوَ مغْرِبِهِ
وقبّلَ البحرَ منه ثغرُ مبتسمِ
فخلْتُهُ غادةً حسناءَ خافيةً
في الماء جسماً علاهُ وجهُ مضطرِمِ
رأتْ على البعد - فاستحْيَتْ - خيالَ فتىً
يدنو مع الغلس الطافي على الظُّلَمِ
فكلما قاس باعاً في الثرى حجَبَتْ
من وجهها إصبعاً آياتِ مُحْتَشِمِ
حتى إذا ما دنا غاصَتْ وقد تَركَتْ
في صفحة الماء آثارا من الضَّرَمِ

☆☆☆☆

وعدْتُ عنه وطَرْفُ الفجرَ يرْمقُني
لا كنتَ يا فجرُ؛ قد نَغَّصْتَ لي حُلُمي

وقد غادرتُ ريفون في الواحد والعشرين من أيار سنة ١٩١٦ إلى منزلي في الساحل، بعد أنْ خلعتُ عني مخاوفي وهمومي، ولكنْ إلى أجلٍ، فانصرفتُ إلى المطالعة والنَّظْم، أَقتُلُ بهما الوقتَ طيلة ثلاثة أشهرٍ: من حزيران سنة ١٩١٦ إلى آخر آب من السنة نفسها. وأذكر أنَّ كل ما نظَمتُهُ مدة الحرب، كان خلال هذه الأشهر الثلاثة، ما خلا بعض المقاطع.

بشارة الخوري

البرق، ١٩٣١ ، عدد ٢٣٩١-٢٣٩٢، ص ٥-٦

****

بين أيلول ١٩١٦ وكانون ١٩١٧[١]

تيار من هواجس - نعوم أفندي باخوس - ساعة يأس - سليم أفندي مقصود.

تيار من هواجس

وكانت الضائقة قد أخذت بالخِناق في ذلك العهد، فأصبحت حبةُ القمح كحبة التبر؛ كلاهما يَصعُب الحصول عليه، أو هما أصبحا في عداد المستحيلات على الضعيف العاجز والأديب الخائف. وكانت الأشهرُ الثلاثة: حزيران وتموز وآب، قد أكلت ما بقي معي من الدراهم القليلة، وكان عليَّ أن أقوم بأوَدِ عائلةٍ فيها بضعةُ أطفالٍ ألقاهم القدَرُ على عاتقي، وأيُّ عاتق ضعيف هو؟ فَطَويتُ «الأغاني»[1] وكان رفيقَ ليلتي ونهاري؛ وانصرفتُ عن قلمي وطِرْسي، أنظرُ تارة إلى تحت مخدتي، فأحسَبُ ما هناك من دراهم، وكانت لا تفي بنفقة أسبوع، وتارةً أُطلق العنان لمخيلتي، أستعيد أخيلةَ الأصدقاء القادرين، فأُحدِّثُ النفس بالالتجاء إليهم، ولو في سِلفةٍ أفيها؛ ولكني كنت أهتزُّ فجأة لما أتصور أنه عالقٌ في نفوس هؤلاء الأصدقاء من عجزي عن الوفاء، وأنَّ المال الذي سيرسلونه إليَّ، إنما هو على سبيل الهبة أو المساعدة؛ فأقطع عن مخيلتي طريقها وأرجع إلى الحالة الراهنة التي أنا فيها.

نعوم باخوس

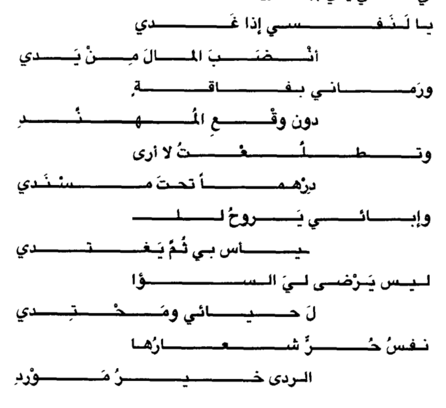
وإني لأصارعُ هذه الأفكار، فتصرعني، فآخذ القلم وأكتب هذين البيتين، وفي نيَّتي أن أبعث بهما إلى أقدر وأوسع أصدقائي، وهما:

أتيتُك والدنيا ظلامٌ فمُرْ بها
فتُسْفِرَ عن شمس السُعود سماؤها
فلستُ، ونبعُ المال جَفَّ براحتي
سوى سَمْكةٍ نهريةٍ جَفَّ ماؤها

على أني ما كدتُ أستعيد قراءتها، حتى أخذتُ الورقة بيدي، فدعكتها ورميت بها إلى الأرض، ثم نهضت لأرتمي في سريري، فإذا بعربة تقف أمام البيت، ترجل منها الصديق الكريم نعوم أفندي باخوس، فأسرعتُ إلى استقباله فالتقينا على وسط السلم مشوقين ثم بادر الى السؤال عن أحوالي؛ فحمدت الله عليها، وقلتُ له إني في خير فعرض عليَّ نحو ألف ليرة وألحَّ بأن آخذها منه، على أن أردَّها إليه بعد الحرب، فأنكرت أني في حاجة إلى المال من غير أن أعلم سبب الحياء الذي استولى عليَّ. فنعوم باخوس من أصدق إخواني وأقربهم إليَّ، ومن أعفِّهم يداً وأسبقهم ندىً وأكرمهم محتدا، وأنا على يقينٍ أني قادرٌ على الوفاء لأني لم أكن قد بعتُ مطبعتي بعد

ساعة يأس

وشيَّعتُ الصديقَ نعوم أفندي باخوس، حتى إذا غاب عن بصري عدت إلى غرفتي، أتفحص ما بقي معي من الدراهم، فإذا هي قد فني أكثرها، فارتميتُ في سريري حائراً مُضعضعاً، وقد أخذ الشِّعرُ اليائس يعتلج في نفسي، فإذا أنا أسوِّد الصفحة التي كانت في يدي بهذه الأبيات


يا لَنفسي إذا غَدي
أنْضَبَ المالَ مِنْ يَدي
ورَماني بفاقةٍ
دون وقْعِ المُهنَّدِ
وتطلَّعتُ لا أرى
درْهماً تحتَ مسنَدي
وإبائي يَروحُ للـ
ـياس بي ثُمَّ يَغتدي
ليس يَرْضى ليَ السؤا
لَ حيائي ومَحْتِدي
نفسُ حُرٍّ شعارُها
الردى خيرُ مَوْردِ


فأخي في خصاصتي
كالجنيب المعبَّدِ[٢]
ومعَ اليُسْرِ مَنْ نأى
كأخي منذ مولدي
هكذا منذ نشأتي
غيرَ ذا لم أُعَوَّدِ

✡✡✡✡

أخذ المالُ ثأرَهُ
من جَوادٍ مُبَدِّدِ
حقَّرَ المالَ كفُّهُ
فالثرى مثْلُ عَسجدِ
فنأى عنه حاقدا
أي من هنت يحقدِ
أيها المال إن تَبِنْ
بعدما كنت في يدي
لست آتيك ضارعا
جلَّ عن ذاك سؤددي
لي شفيعٌ إلى الردى
هو مني بمرصد
جرعةٌ إن كرعتُها
فلقد نلتُ مقصدي
سجِّلي يا يراعتي
وَمُرِي الطرس يشهد

سليم مقصود

ليس سليم مقصود بالأديب الكاتب، ولا هو بالغني الطامح، ولكنه نشأ في حضن السياسة اللبنانية، ودرسها في بيت حبيب باشا السعد خاصة، فكنا نلتقي به هناك

عهد يوسف باشا[٣] حيث تُبسط الآراء وتُطبخ المؤامرات، فعجمنا منه عوداً صلبا، واعتمدنا منه ذكاء فطريا مدهشا وعرفنا فيه إخلاصا عجيبا يدل عليه بقاؤه على ولائه لحبيب باشا أكان في السراي رئيسا أو في بيته حبيسا، وإن تعجب أن يستحق سليم مقصود هذا التنويه مني، فقد تراني مُحقاً متى علمتَ أنه الرجل الذي بعثته العناية إليَّ في أحرج الساعات. فقد رآني وهو في طريقه إلى الجديدة فجُنَّ جنونه وانبرى يستمطر الأفق سبابا، ثم انحنى علي بالأسئلة: أين كنت؟ وماذا تفعل؟ وكيف أنت؟ ثم استطرد. إني سأنقل خبرك إلى نجيب بك الأصفر، وأنا واثق أنه ليسر بمساعدتك، ثم لوح بإشارة من وجهه، أراد أن يقول بها «إنهم» يحتاجون إلى شهادة مثلك فيهم، بعد أن تضع الحرب أوزارها.

وكان سليم مقصود موظفا في شركة القمح، وكان يومذاك في دورة تفتيشية – على ما أذكر – وإذا علمتَ ان قنطار القمح كان يباع في الشركة بين العشرة إلى العشرين ليرة تركية، في حين أن ثمنه في السوق كان يتراوح بين المئة إلى الخمسمائة ليرة تركية، أدركت مبلغ النعمة التي كان يتقلب فيها الذين رزقوا حظوة في عيون أولي الأمر في ذلك الزمن، ولم تعد تعجب لجامعي الثروات منهم لأنهم كانوا يبيعون ما يفضل عنهم من القمح بمبلغ كبير.

ولم تمض أيام على هذا اللقاء، حتى حمل إليَّ أحدُ المُكارين، نحو نصف قنطار من القمح، مصحوباً برسالة من سليم مقصود مع بيان الثمن فأدَّيتُه للرسول مغتبطا، لأنه إذا وُجدَ القمحُ في ذلك الوقت، فقد وُجد كلُّ شيء حتى الذهبُ نفسُه.

مفاجأة مؤلمة

وكأن القدر قد كَتَب لي أنْ لا أطمئنَّ ساعةً. فلقد زارني على أثر هذا، بعض الأصدقاء أتذكر منهم الشاعر حليم دمُّوس[٤] والتاجر جبرائيل غرزوزي والأديب المرحوم طانيوس عبود[٥]، فكان مما بادرني به أحدهم، أنهم تحدثوا في قطار الشام أنَّ زورقاً سافر من الشاطئ اللبناني إلى أرواد، ويقال إنَّ عليه بشارة الخوري، وإنَّ نعيم صوايا كان من شهود هذا الحديث، ولا تسل عما تركته هذه الإشاعة في نفسي من الألم الممزوج بالخوف.

بشارة الخوري

البرق، ١٩٣١، عدد . ٣٣٩٣، ص. ٥

****

بين أيلول ١٩١٦ وكانون ١٩١٧[٢]

نجيب بك الأصفر - موظف ثلاثة أشهر - شتاء في بكفيا - إشاعة الصلح - بؤساء ١٩١٧.

نجيب بك الأصفر

لقد تضاربت الأقوال في نجيب بك الأصفر، مدير شركة القمح اللبنانية[٦]. ولا غَرو إذا كثُرَ الناقمون؛ وهو يومذاك في معتقد القوم، أنه يستطيع وقفَ المجاعة، ونثرَ أكياس الحنطة هنا وهناك وهنالك. ولكنهم جهلوا أن مدير شركة القمح، لم يكن مستقلاً، وأنه كان هناك علي منيف يوجه إليه بالوثائق لفلان وفلانة؛ ثم إنه لم يكن في وسعه أن يراقب معاونيه، وقد تفشّى في معظمهم، داء الارتكاب، واشتدَّ ظمأهم إلى جمع الثروات. فهو إمّا أنه كان يعرف ويستحي أن يعاقب، أو أنه كان ذا ثقة بمن حوله، فيتسلحُ هؤلاء بهذه الثقة ويتمادون في اتباع نفوسهم. ولقد كان في وسع نجيب الأصفر أن يجمع ثروةً لا تحصدها السنون، من وراء وظيفته تلك. فإذا هو يكدح بين أوروبا ومصر والعراق، في طلب مشروع يبني عليه مركزه المادي ولمّا يزل.

أقول هذا، لا لِمَا سبق إلي من رعاية، لأني ما اعتدت أن أصانع حتى في ذلك الزمن الكالح. ولكنها كلمة أملاها الوجدانُ، وحداها العرفان، وما شاء ربُّك كان.

موظف ثلاثة أشهر

كان ذلك اليوم في أيلول أو تشرين من عام ١٩١٦، عندما أقلّتني (العربية) إلى جنب الأمير المرحوم فائز شهاب، لأني لم أكن بعد لأجسر على الذهاب وحدي إلى بعبدا. فسِرنا توّاً إلى إدارة الشركة؛ وشدَّ ما كان فرحُ الأصحاب بذلك الملتقى! وقد استقبلني نجيب بك استقبالاً حسنا مرفوقاً بكثير من العتاب، لعدم إخباره بمكاني وعرض حاجاتي عليه؛ فشكرتُ له وأثنيتُ عليه؛ ثم عرض علي وظيفة في دائرته، فآثرتُ

أن أكون بعيداً عن مركز الحكومة وكان للإدارة مركزٌ في بكفيا، فأُرسلتُ إليه بمُرتَّب ثلاثينَ رطلا من الحنطة

في بكفيا

لم أكن لأشهد الشتاء في الجبال قبل تلك السنة؛ ولقد كان أكثر ما انطبع في نفسي، تلك الملآت من البرد الصغير تتساقط طياتٍ طياتٍ على الشجر والأرض. والحق يقال: إن تمضية أسبوع في أعالي الجبال، حول الموقد، وعلى سَعَةٍ من العيش، لَمِمَّا يُستطابُ. ولقد كان رفيقيَّ في تلك المهمة، إلياس أفندي الحويك وسامي بك الخوري - مدير العدلية اليوم - فكنَّا نصرف أكثر أوقاتِ الفراغ، بما يُنَفِّس الكَرْب ويخفِّفُ وقعَ المصائب، إلى ما هنالك من آمال نُحيكها للمستقبل - والمستقبل عندنا نهاية الحرب - ولقد كانت لي سَلوةٌ أخرى ببعض الرفاق الأدباء، يقصدون إليَّ من القرى المجاورة، فنتناشدُ الشعر ونتشاكى بعض ما يحتلج في الصدر.

إشاعة الصلح

ولقد راجت إشاعةٌ بعقد الصلح في مستهل عام ١٩١٧. وكنا لا نزال في كانون الأول من عام ١٩١٦ فرحنا نرقصُ فرحاً ونتبادل التهاني، ونحن لا نصدِّقُ أننا خارجون من هذا السجن الكبير - لبنان -، أو أنَّ نورَ العالم الوسيع سيَنفُذُ إلينا، فنُبصر حقيقة ما جرى في ساحات الحرب وغيرها، لأننا لم نكن نُعطى من الأخبار إلا ما وافق مصلحة الدولة التركية وحلفائها ومما يستحق الذكرَ أن الضائقة كانت قد بلغت أشدها. حتى إنَّ بعض الناس - على ما اتصل بنا - كانوا يُنقبون في رَوث الدواب عن حبوب القمح، ويحسبون الجيفة النتنة وليمةً فاخرة.

خيبة أمل

وشدَّ ما كانت الخيبة أليمةً عندما أقبل العام الجديد، دون أن تحمل الأنباء بشرى السلام. فتكاثفت الظلمة في عيوننا ونفوسنا، ورحنا نطرق وجوماً، ونتساءل همساً عمَّا حال دون السّلم، ونحن لا نقوى أن نطيل فيه بحثاً. ثم رحنا نتساءل كيف يقوى هؤلاء الضعفاء على البقاء في الحياة، إذا استمرت الحرب سنةً أخرى؟

وكأنَّ تلك المؤثرات قد أوحت إلينا الشِّعر، والشعرُ عند الشاعر كالدمع، لا يستطيع حبسه إذا هو جاش في نفسه. فتمَّ لنا في فجر تلك الليلة قصيدة بعثنا بها إلى نجيب بك الأصفر، وقد جعلنا عنوانها «بؤساء ١٩١٧» وقد أودعنا فيها من وصف الحالة، ما لو وقع عليه أولو الأمر في ذلك العهد، لكان المصيرُ وبالاً.

بؤساء ١٩١٧

إلى نجيب بك الأصفر:

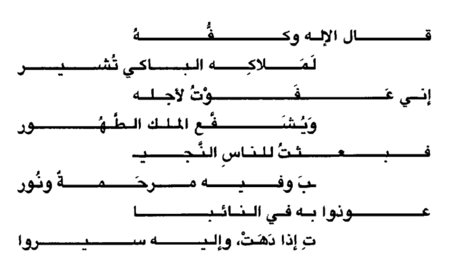
أنجـيـبُ والـدُّنـيـا تـدورُ
سـتَلي بـهـا الأمـورَ أمـورُ
فـإذا نـدبـتَ فـكـن كـمـا
يُمـلي عـلى الشَّـرف الـضـمـيـر
روحـاً تـذوب مـع الـفـقـيـ
ـرِ فـدمـعـةُ الله الـفـقـيـرُ
وتـرقُّ لـلـعـانـي الـكـسـيـ
ـرِ وكلَّفـنا الـعـانـي الـكـسـيـرُ
ونـحـنُ تحـنـانَ الـغـديـ
ـرِ يحـفُّـه نَـوْرٌ ونُـور
طَـلْـقُ المشـاعـر مَـنْ يَـرِدْ
فـهـنـالـك الـعَـذْبُ الـغـزيـر

✡✡✡✡

بـؤسـاً لمولـود الـقـرونِ أتـى
ومـا عَـزَف الـبَـشـيـرُ
لا مـرحـبـاً بـالـطـفـل اشـ
ـلاءُ الأنـامِ لـه سـريـر
كـذِبَـتْ بـه الآمـالُ وانـ
ـطفـات وقـد كـانـت تُـنـيـر

✡✡✡✡

كـــــشَفَ الـضـــــحى عـن أوجُـــــهِ
خـطُّ الحـــــــيــــــاة بـهـنَّ زُورُ
عُـــــــــري المـنــاكـب، والــريــاحُ
أَخـــــفُــــــهُنَّ الـزمــــــهــــريـر
عـــبثَ الـنحـــولُ بـهــــا فـــشَــــفْ
فَـتْ عـن دخــــائـلـهـــــا الـصــــدور
حـــــــال جـــــــهـنـم عـنـدهـا
الـفـــــردوسُ والـعَـــيشُ الـنـضـــيـــــر
يشـــــقى بـهـــــا الـشـــيخُ الـكـبـــيـ
ـرُ ويـهـلِـك الـولـدُ الـصـــــغــــيـــــر
✡✡✡✡
وافـى صـــــبـــــاحُ الـعـــــيــــد والـ
أجــــراسُ نَـغـــمــــتُــــهـــا زفــيـــــر
فــــأتـوا الـكـنـيــــســــــةَ تـزدهـي
بـلآلـئ الـدمـــعِ الـنَّـحـــــــــــورُ
وجـــــثـــــوا عـلـى ذاك الـتـــــرا
بِ وإنَّـه المـلـجـــــا الأخــــيـــــــر
قـــــالـوا، ومِلْءُ نـفــــوســــــهــمْ
تـقــــوى، وتـقــــواهُـمْ شُـــعـــــور
وصــــــــلاتُـهـم مَـلَـكـيَّـــــــــةٌ
وشـــــذا صــــــلاتِـهـمُ بَـخُـــــــور
يـــا ربُّ نـــحـــن بـــنُـوكَ لـــيـــ
س لـنـا مـن الـدنـيـــا نَـصـــيـــــرُ
يـا ربُّ مــــا ذنـبُ الـصـــغـــا
رِ ومــــا دَرَتْ بـهـمُ الـشُّــــــرور
رُحْــــمــــاكَ فــــالـذنـبُ الـكـبــيـ
ـر يُـزيـلـه الـعـــفـــو الـكـبـــيـــرُ
✡✡✡✡



قال الإله وكفُّهُ
لمَلاكِه الباكي تُشير
إني عَفَوْتُ لأجله
وَيُشَفَّع الملك الطُّهُور
فبعثتُ للناسِ النَّجي
بَ وفيه مرحَمةٌ ونُور
عودوا به في النائبا
تِ إذا دَهَتْ، وإليه سيروا

هذا ولم يَطُلْ بعد ذلك بقاؤنا في بكفيا، لانتهاء مَهَمَّتنا فيها. وما هي إلا بضعةُ أشهرٍ من ذلك التاريخ، حتى زالت «الشركةُ»، وكانت الضائقةُ لا تنفكُّ آخذةً بخناق الناس، حتى كثرتْ ضحاياها، وحتى أصبح ثَمَنُ البستانِ لا يَشتري قنطارَ حِنطة.

بشارة الخوري

البرق، ١٩٣١، عدد: ٣٣٩٤، ص ٥

****

كيف تعرفت إلى شوقي[1]

في عاليه

كان ذلك حوالي الثلثِ الأخير من حزيران سنة ١٩٣٠؛ لا أذكر اليوم، ولكني أذكر أنني كنتُ جالساً عصاري يومٍ إلى طاولةٍ في باحة نَزْل شاهين، فإذا بالصديق الأستاذ شكري بخاش «قيس شوقي» كما يقال «قيس ليلى» لِشدة شَغَفه به وإكباره إياه، إذا بالبخاش يُبادهني بقوله: ألم ترَ شوقي؟ إنه هنا في النَّزْل، وإنه خارجٌ بعد هنيهة. قلتُ إني إلى الآن لا أعرفُ وجهه. فحَمْلق شكري في وجهي، حتى خفتُهُ، ثم هدأ من حدَّته وقال: معَ أنك كنت بعض حديثنا في أكثر مجالسنا معه، وإذا بشوقي يخرج من النزل إلى الباحة.

يا باشا! يا باشا .. هتَفَ شكري، فإذا بشوقي بك يلتفتُ مبتسماً، ثم يتابعُ. نقلَ خطواته إلينا، فنهضنا له، وشكري يشير إليّ هذا هو يا باشا... الخوري... الأخطل، ثم كانت جلسةٌ قصيرةٌ كحاشية الشَّفق

في الرستوران[2] الفرنساوي

وكان اليوم العاشر من شهر تموز، من السنة نفسها موعدَ الحفلة التي أقامتها دمشق لتأبين فقيدها الكبير المرحوم فوزي الغزي[3]، وكنت أتردد كل مساءٍ إلى الرستوران الفرنساوي، فأنتبذُ مكاناً مُعتزلاً، فلا يكاد يمضي بعضُ الساعة حتى يُقبلَ شوقي - طيَّب الله روحه - فما هو إن يُسَرِّح طرفه قليلا، في الجلوس، حتى يُقبلَ إليَّ ويستلقي على كرسيِّه، إلى الجانب الثاني من الطاولة. وكان قد أسمعه صديقانا الأستاذ جبران التويني[4] والأستاذ ميشال أبي شهلا[5]، بعضَ ما علِقَ في ذهنهم من قصيدتي في فوزي الغزي، وهو يومذاك من شعراء الحفلة؛ فكان يسألني من حينٍ إلى

آخـر، أنْ أروي له بعض أبيـاتـهـا ممـا سـمـع عنه من الصـديقين، وكـانـا لـم يحـفظاه - وأخصُّه في المقابلة بين المرأة والحية -.

ولم تكن تمر الدقائق، إلا وتحمل إلينا جليساً جديدا، حتى كان يتجاوز عدد الجلوس أحياناً العشرة من الأصفياء المختارين. وكان أقلَّ الجميع حديثاً، شوقي فهو لم يكن ينتبه إلا لنادرةٍ يسمعها، أو نُكتة يرسلها، أو حديثٍ شهي تستيقظ له حواسُّه، ثم ما هي إلا أن تحين الساعة التاسعة والنصف حتى ينهض إلى السينما، وقد كان شديد الشَّغف بها.

في دعوة الرئيس دباس

وكان لفـخـامـة الرئيس دباس[٦] عطفٌ كـبيـر على شـوقي بك. فـأقـام له ظُهـر يوم الثلاثاء في ٨ تموز مـأدبةً دعـا إليـهـا الوزراء ومـجلس نقـابة الصـحـافـة؛ غـيـر أنه لم تكد السيـارة تصل بنا إلى قصـر الرئـاسـة في عـاليه؛ وندخل إلى غـرفـة الاسـتـقـبـال، حتى فـوجـئنا بما هزَّ قلوبنا هزّاً عنيـفـاً، وشـوقي يومـذاك مِلْءُ قلوبنا؛ ذلك أننا رأيناهُ وقـد أُجلس على كـرسيٍّ تحت يد الطبيب، يَغسـلُ خُدوشَـه ويعـصب جـراحـه، ثم ينـزعُ عنه بعضَ ثيـابه ليَجُسَّ مكان الرضـوض، وهو أصـفـر الوجـه، تضطرب السـيكارة في يده، وترتجفُ الابتسامة الشـاحبة على شَفَتيه؛ وكان فخامة الرئيس الأستاذ دباس إلى جنب الطبيب يعمل معه بيده، وجـمـهور الصـحـافـيين مُحيطونَ به. فما كـاد ينتهي الطبيبُ من عمله، ويسـتعيدُ شوقي بعض انتعـاشـه، حتى وقـعَ نظره عليَّ وقـال مبتسمـاً «كان بقا يا، أستاذ بشاره رَحْ تِعْمِل قصيدة تانيَة» «يشير إلى قصيدة فيه مع قصـيدة الغزي». فقلت له: سلَّمك اللهُ يا باشـا. «ان شـاء الله تَقْبُرُ الجـمـيـعَ في أيامك»! فـمـا تمالك أن ضـحِكَ وضحكنا جميعاً، ثم قمنا وقام شوقي معنا إلى الغداء.

في دمشق

ثم التقـينا بشـوقي بك في دمشق، بعد يومين من وليمة رئيس الجـمـهـورية. فقد جمعنا أوتيل خَوَّام، وكنا قد قدِمنا دمشق للمشـاركة في حفلة المرحوم الغزي التي لم يستطع حضورها لانحراف صحته.

ورجعنا من الحفلة بُعَيْد المغيب، وقد صحبنا إلى النزل إخوان كرام من رجال الوطنية والأدب، بينهم الأستاذان الخوري[٧] وجميل مردم بك[٨] والدكتور الأرمنازي[٩] وزملاؤنا أربابُ الصحف. ثم أقبلَ علينا دولةُ محمد علي بك العابد[١٠]، فكان اجتماعٌ لطيف افترشَ حديقةَ «خوّام» حول موائد مُشعّةٍ هانئة دعونا الإخوان إليها فلبوا كراماً.

وكان شوقي بك لا يزال في غرفته، وقد تجاوزت الساعةُ التاسعةَ، فدعَوناه إلينا، فأقبل، وأقمنا شطراً من الوقت في أطيب مجلس وأشهاه، حتى إذا انتصف الليل افترقنا

وكان بعضُ الزملاء يزورُنا كلَّ صباحٍ، فنُقيم في الردهة، ثم يُقبل علينا شوقي فيكون أولُ سؤاله عن صُحُفِ مصر. وكانت تجري لنا معه مداعباتٌ لطيفة في اختلاق بعضِ الأخبار التي لا تَسُرُّه، ثم نَعُودُ فنجلو صفحة وجهه بكشف الحقيقة، فيعود إليه صفوُه.

وكان أكثر غُدْواته، إلى المكاتب. ونذكر أنه صرف يوماً بجملته، وهو يسأل عن ديوان التلعفري[١١]. وكان قبله قد اشترى ديوان أبي نواس. أما المتنبي فكان رفيقه الذي لا يكلُّ له صُحبة

العودة إلى بيروت

وعاد شوقي إلى بيروت، وعادت مجالسُنا في الرستوران الفرنساوي، كما كانت قبل ذهابنا إلى دمشق. ثم لم يلبث أن غادرَنا إلى مصر، وكانت تعلّتُنا كلَّ صيفٍ أن نراه بيننا، فتُشرق به الربوعُ وتصفو المواردُ، حتى فاجأنا نعيُه بالأمس، فانصعقت له صدورُنا مُكبرين به رُزء الأدب العربي الذي لن يُعوض. رَحم الله شوقي وأنزله في جنة الخلد، في المقام الأسنى والمراح الأشهى.

بشارة الخوري

البرق، ١٩٣٢، عدد: ٣٣٥١، ص: ١

****

لماذا تسميت بالأخطل الصغير

«لماذا اتخذ «الأخطل الصغير» لَقَباً له، يبني عليه قصائده، على ما بين جزالة الأخطل[1]، شاعر عبدالملك بن مروان، ورقَّةِ شعر الأخطل الصغير، أو قُلْ: على ما بين خُشونة ذلك العَصر، ونُعومة هذا العصر»؟.

وجَّه إليَّ هذا السؤال لسنواتٍ خلت، حضرةُ الأستاذ مكرزل مُنشئ «الهدى»[2]. فما وجدت يومذاك متسعاً للإجابة، وقد وطَّنت النفس على استخلاص بقايا ما حفظت الذاكرة من حوادث الأمس وفيها الضاحكُ والباكي، والشاكر والشاكي، إلى ما هناك من نوادر الإخوان ممن امتزجوا بي وامتزجت بهم، كالعازار والريحاني وملأط وفيَّاض وتقي الدين ونصار وثابت[3] والنجار[4] وغيرهم، ممن هم خارج هذا القطر، كرستم[5] والرصافي والزهاوي[6] ممن ملأت شهرتهم العالم العربي على إطلاقه. أما وقد وطنت النفس على هذا، فأنا بادئ اليوم، بالجواب على سؤال صديقي صاحب «الهدى» عن السبب في اختياري «الأخطل الصغير» حجاباً لاسمي الحقيقي.

كانت الحرب العالمية؛ ثم كان عهد «جمال» في سوريا ولبنان، وهو عهد النفي والمشنقة، بل هو عهد الإرهاب بجميع أسبابه وأنواعه. وورد اسمي في لائحة المبعدين ساعة أنا مطمئن في قهاوي بيروت، بين معشر الصحب، وفي يقيننا أن الحرب تنتهي بالمعركة الأولى. وكان نذيراً لي بذلك، الصديق فارس أفندي مشرق، فدب الخوف في المفاصل. ولم تغب علي شمس ذلك النهار، إلا وأنا خارج البلد على كثيرٍ من القلق.

وانطوت الأعوام بعد الشهور على حالاتٍ شتى من البؤس، ومفاجآتٍ مفعمة بالخوف، حتى كان تموز من عام ١٩١٦، فإذا أنا مطمئن قليلاً إلى نفسي، آنس كثيرا بكتبي بعد طويل وحشةٍ وأليم غُربة؛ ولقد كنت وسائر الناس، نتنسَّمُ خلال ذلك، الأخبار من البادية حيناً، ومن البحر حينا آخر، لا ندري إذا كان يُدركنا السلمُ وفينا رمق من الحياة.

وكانت الفكرة السائدة أن الحلفاء، سيبعثون الامبراطورية العربية، وعلى رأسها الحسينُ بن علي[٧]؛ وكانت الحاجة ماسة إلى إثارة الخواطر في البلاد، تعجيلا ليوم الخلاص، وهو كل أمنية البلاد العربية، ذلك العهد

ولم يكن ليجرؤ واحدنا، ولو في الحلم، أن يرسل كلمةً في سبيل النهضة، ولو همساً.. فكيف به إذا شاء هو أن يرسل في ذلك السبيل، قصيدة يترجع صداها

وكان يعجبني من الأخطل خفة روحه، وإبداعه في اصطياد المعاني، يقودها ذليلةً إلى فصيح مبانيه. وفوق ذلك فقد كان الشاعر المسيحيُّ الفذ تتفتح درته أبواب الخلائف[٨] يملأها لذة وطرباً وإدلالاً، بل يملأها ذلك الشرف الذي لا يبلى، والمجد الذي لا يفنى، كهذا الذي تقرأه له في بني مروان وعبدالملك:

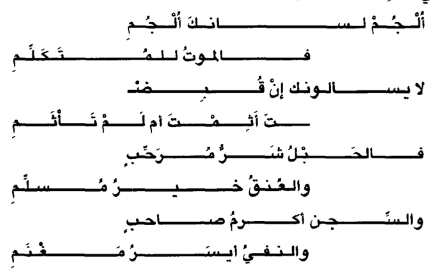
خف القطين فراحوا منك أو بكروا
وأزعجتهم نوى في صرفها غِيَرُ

إلى قوله:

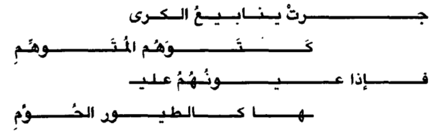
نفسي فداءُ أميرِ المؤمنينَ إذا
أبدى النواجِذَ يوماً عارِمٌ ذَكَرُ
الخائضِ الغَمْرَ والميمونِ طائرُهُ
خليفةِ اللهِ يُستَسْقى به المطَرُ
في نبعةٍ من قُريشٍ يعصمون بها
ما إن يُوازى باعلى نبتها الشَّجرُ
حُشْدٌ[٩] على الخَيْرِ عيافو الخنا أُنُفٌ
إذا الَمَّتْ بهم مكروهةٌ صَبَروا
شُمسُ العداوةِ حتى يستقادَ لهم
وأعظمُ الناس أحلاما إذا قدروا

فرأيتُ، وأنا أدعو للدولة العربية، وموقفي منها موقفُ الأخطل من دولة بني مروان، أن أدُلَّ على حقيقة الشاعر المُتنكِّر، فلم أرَ «كالأخطل الصغير» أمضي به ما كانت تقطُرُه القريحةُ المتألمةُ من شِعر، لم يبقَ لي منه إلا كيفية الوشم في ظاهر اليد.

وكيف يستطاع حفظ ذلك الشعر الذي لم أكن أجرأ[١٠] على الاحتفاظ به بين أوراقي، في عهدٍ كان هذا لسان حاله:


أُلْجُمْ لسانَكَ أُلْجُمِ
فالموتُ للمُتَكَلِّمِ
لا يسألونك إنْ قُبِضْـ
ـتَ أَثِمْتَ أم لَمْ تَأْثَمِ
فالحَبْلُ شَرُّ مُرَحِّبٍ
والعُنقُ خيرُ مُسلِّمِ
والسِّجن أكرمُ صاحبٍ
والنفيُ أيسَرُ مَغْنَمِ

وهي قصيدة طويلة كنتُ أحتال لحفظها بإثبات قوافيها متسلسلةً، ولكن لسوء الحظ، أو لحُسنه جاء النسيان عليها، فطمسها من الذاكرة، إلا بيتين عزيزين مهدت لهما بتصوير الرعب وأخذه بقلوب الناس، حتى لا يأخذ العيونَ منهم الغمضُ إلا لِماماً:


جرتْ ينابيعُ الكرى
كتَوَهُّم المُتَوَهِّمِ
فإذا عيونُهُمُ عليـ
ـها كالطيور الحُوَّمِ

وكان أول ما علَّقتُ اسم «الأخطل الصغير»، بل كان أول القصائد التي مهرتُها هذا التوقيع، قصيدة نظمتُها يوم نقل إلينا أن قامت في الحجاز دولةٌ عربية لها مليكُها أو خليفتها، ولها وزراؤها؛ وقد ذكروا لنا منهم يومئذٍ السيد رشيد رضا والشيخ فؤاد الخطيب[١١] وعزيز بك المصري[١٢] واسكندر بك عمُّون؛[١٣] ففعلت تلك البشرى بنا –

ونحن بين مخالب المكاره - فِعْلها العجيبَ فقلت في ذاك قصيدةً كان أوّلَ من قرأتُها عليه، صديقي الأستاذ جبرائيل نصار، وقد كان لي خلال الحرب رَمْزَ الوفاء ومكارمِ الأخلاق، وهي طويلة لا يزال عالقا في الذهن شيء منها وهو:

لـيـالي البـؤسِ حَسْبُكِ ما لقينا
أردْتِ فـنـاعنـا، إنّـا فَـنـيـنـا
ولا يَغْـرُرْكِ إنْ بـنـا أُنـاسـاً
قـلائـلَ لَمْ يـزالـوا سـالمينا
فـمُـذْ ضـاقتْ بهم سُـبُلُ المنايا
تَنَحَّـوْا للجـيـادِ السـابقـيـنا
ولـولا أنْ تَـنَـحَّـوْهـا لـكـانـوا
بـاشـلاءِ الأعـزة يَعْـثِـرُونا
ألاَ قَـرِّي عُـيـونـاً يا لـيـالي
لقد بِتْنا ألاَ قَرِّي عُـيـونا
ونـامـي مِلْءَ عـينِكِ يا لـيـالي
أما وكَلْتِ سَيفَ «جمال»[١٤] فـينا
عُـيـوني أين أدمُـعِكِ الهَـوامي
أأسْـألكِ الدموعَ وتَبْـخَلينا
عَـهِـدْتُكِ مُـرْضِـعـاً والحزنُ طِفلٌ
عَكَفتِ عليه عُـمـرك تُرضِعينا
ألم يَتـرُكْ بـزاويَتَـيْكِ شـيـئـا
يسيلُ فـشَدُّ ما تَتَـالَّمينا

وقد عطفتُ بعد وصف مصارع الشهداء، إلى إثارة الحميَّةِ الدينية والقومية في النفوس، فقلتُ في جلالة الحُسَيْن والخلافة، الأبيات الآتية:

لقد رَجَـعَتْ خـلافـتُنا إلينا
وكـان رُجـوعُـهـا نصـرا مُـبـينا

فلو بُعِثَ «الرسولُ» وقد رآها
تُجَرِّعُ في بني عثمان هُوْنا
لَزلزلَ بالحجاز وما يليه
وصاحَ: بنيَّ يا خيرَ البَنينا
بنيَّ ولا أخُصُّ المسلمين
بلِ العُرْبُ الأماجدُ أجمعينا
أيَغْصِبُنا الخلافةَ غاصبوها
وفي البلد الأمين بنو أبينا؟
أتُرْكيٌّ، وفينا هاشِميٌّ
دمي دَمُهُ ويبقى الدينُ دينا
حُسَيْنُ حُسينُ أنتَ لها فإنِّي
أُطالِعُ في مُحَيَّاكَ اليقينا
كأنِّي إذ أراكَ أرى حُسَيناً[15]
فتى فِتْيانِنا المُستَشْهَدينا

إذن فقد عرفت متى تَسَمَّيتُ «بالأخطل الصغير»، ولماذا تسمَّيتُ به، وقد كان من حقي أن أطرح هذا الاسم بعد الحرب العالمية، ولكنني أبَتْ لي شيمَةُ الوفاء إلا أن أكون من الكرام الذين إذا أسبلوا[16] ذكروا من كان يألفهم في المسكن الخشن. و «الأخطل الصغير» قد ألفني أيام البؤس والخوف، فما أنا بناسيه أيام الهناء والطمأنينة.

****

الشهيد عمر بمناسبة ديوانه

كيف عرفت عمر حمد[1] - روحه الوطنية الشاعرة - أول وآخر مرة رأيته

لقد ضاق عُمْر عُمَر عن أن يَسَع ديواناً شعريا. فهذه النُّبذَةُ التي جمَعَها له أهْلُه في الأوراق، إنما هي شرارةٌ من روحه اللاهبة.

لقد قطع عمر حمد الحياة في وثبتين، الواحدةُ من التلميذ إلى المعلِّم، والثانية من المعلِّم إلى المشنقة. وكان في وثبته الثانية مثالاً من أمثلة الحياة العالية، تلك الحياة التي تُعوزُ الشبابَ في البلاد المُسْتَرَقَّةِ، فيثبوا بها إلى حُرِّيَتها بما يُحرقونه من أنفاسهم تحت دواليبها.

فنحن إذن أمام شرارةٍ من روح عمر حمد أفما تحس أين طبعت روحك على شعره، أنك طبعتها على دمٍ فائر وعصبٍ ثائر؛ وإذا كان الشعر ثورةً من ثورات النفس، تهيجُها العوامل المختلفةُ، فديوانُ عمر حمد عنوانٌ صغير من عنوان هذه الثورة، وهي لو استكملت نموّها واستلأمت وسطها، لعُدَّت في البراكين.

لقد كان عمر في عداد من عرفتهم بين عامي ١٩١٢ و ١٩١٤؛ وكأني به في المرة الأولى، وقد جلس إليَّ يُسمعني إعجاب إخوانه في الكلية الإسلامية بجريدتي، واستملاحهم طريقتي في الأدب.

وكأني به مرة أخرى، وقد جاء يُسمعني قصيدةً أعدَّها ليلقيها في الحفلة المدرسية السنوية، فكنت أُحسُّ بروحه تثبُ من وراء ألفاظه؛ وكان وهو في مُستَهلِّ الشباب على أدب عذب فيه الكثيرُ من الحياة والكفاية من الرصانة.

لم يكن عمر حمد ذلك العهد، يتجاوز العشرين من سنيِّه، يجنح الى الطول في قامته، على سُمرة في لونه، ورقة في بدنه؛ ولقد كنتُ أكثر ما أراه في ثوب أسود كأنما كان يحمل حداده على شبابه في جلبابه.

وكان آخر عهدي بُعمر، ليلة لقيتُه فيها صدفةً، جالساً إلى بعض إخوانه في قهوة «كوكب الشرق»، فما هو إن رآني، حتى أقبل عليَّ آخذا بي إلى طاولةٍ خالية فقال لي: أعرفت أن الخديوي أصبح سلطاناً، وهو اليوم السلطانُ حُسين[٢]؟

قلت: كيف أعرف، وأنا في عزلتي خارج البلد، حتى إذا اشتاقتها نفسي جئتها بين صديقي الشيخ سليم علم الدين وجبرائيل أفندي نصار؟

قال: ويظهر أن الدول اتفقت على أن ينبسط سلطان مصر على سوريا، وذلك حيث يقول حافظ إبراهيم في تهنئته عند تنصيبه:

هـنـاءً أيُّـهـا المـلِـكُ الأجـلُّ

لكَ الـوادي الخَـصـيـبُ ومـا يُطلُّ

ثم سرد لي أبياتاً من تلك القصيدة، علق بعضها في ذكراتي ثم لم يلبث أن اضمحل.

وكان ذلك إما في أواخر سنة ١٩١٤ أو في أوائل سنة ١٩١٥.

ولقيته يوماً قبل هذا التاريخ بأشهر قليلة، على ما أذكر، فقال لي. أبلغك شيء عن حزب العهد؟ إنه يضم بعض ضباط العرب للعمل على استقلال البلاد العربية. قلت: أرنيه يا عمر!

ونذكر قول الشاعر [٣]:

وصـرتُ أشُكُّ في من أصطفـيـه

لـعـلـمـي أنـهُ بَـعـضُ الأنـام

فأنت ترى أن عمر حمد لم يكن يشتمل على روحٍ شاعرة فحسب بل كان يشتمل على روح وطنية كبرت عن أن تحتملها سنُّه فسقط تحت ثقلها وأدمى القلوب سقوطه.

هذا ما وعته الذاكرة عن ذلك الصديق المهذب ذي الروح الحساسة الوطنية، والشعور الصحيح السامي، قبل أن يسار به إلى السجن - لأننا افترقنا قبل ذلك، أنا في رؤوس الجبال وهو في ساحات المدينة.

على أن هناك صورةً أدل من كلمتي هذه على الشهيد العربي العزيز هي هذه القصائد العاصفة، فيها روح الشباب والإباء؛ فإذا شئت أن تتعرف إلى تلك الروح، فاقرأ تلك القصائد.

بشارة

البرق، ٢٧ شباط ١٩٢٩. العدد ٣١٨٥، ص ٢

****

هوامش الباب الأول

من بقايا الذاكرة

كيف عرفت إمام العبد . . . ٧

١ - محمد إمام العبد (١٨٦٢- ١٩١١)

- شاعر أجاد الشعر والزجل. كابتن مصر في كرة القدم عام ١٩٠٠ .

- عكف على الأدب والكتابة في الصحف، كان ذا روح مرحة برغم حياته البائسة.

٢ - ولي الدين يكن (١٨٧٣-١٩٢١)

- شاعر مجيد، ولد بالآستانة، وعين فيها عضواً بمجلس المعارف، نفاه السلطان عبدالحميد، وعندما اعلن الدستور العثماني عام ١٩٠٨، عاد إلى مصر، وتوفي بحلوان ودفن في القاهرة.

- له ديوان شعر وعدد من المؤلفات ، كان يجيد عدداً من اللغات.

٣ - كانت في الأصل (وانتقلا) عدلناها إلى (واستقلا) لاستقامة السياق.

٤ - احمد شوقي ، امير الشعراء ، سترد ترجمته لاحقاً.

٥ - حافظ إبراهيم (١٨٧١-١٩٣٢)

- شاعر مصر القومي، ولد وتوفي فيها، اشتغل في المحاماة، وخدم في الجيش، وشارك في حملة السودان، عمل في الصحافة وعين رئيساً للقسم الأدبي بدار الكتب المصرية سنة ١٩١١.

- له ديوان شعر وبعض المؤلفات.

٦ - خليل مطران، شاعر القطرين، سترد ترجمته لاحقاً.

٧ - رثاه الأخطل الصغير في «البرق»، نيسان ١٩١١، مج : ٣، عدد : ١٣٢، ص : ٢٣٧، قائلاً:

وصـــارم عـــزمي لـه ضـــجـــعـــة
كـضـجـعـة الصـارم في غـمـده
يـنـام مـلء الجـفـن في جـفـنـه
ولا يـنـام المـوت فـي حـده

٨ - امين تقي الدين (١٨٨٤-١٩٣٧)

- محام واديب وشاعر لبناني.

- ولد في لبنان واقام في مصر، وانشا مجلة الزهور مع انطون الجميل، ترجم عن الفرنسية «الاسرار الدامية» لجول دي كاستين، عاد إلى بيروت وعمل في المحاماة حتى وفاته.

٩ - سامي جريديني (١٨٨١-١٩٥٠)

- محام لبناني، عاش في مصر، ترجم ونشر بعض مسرحيات شكسبير، والف «خواطر في الحقوق والأدب» و«الرسائل الضائعة» و«خمسة في سيارة».

١٠ - الياس فياض (٠٠٠٠ - ١٩٣٠)

- اديب لبناني تعلم في بيروت ثم بمدرسة الحقوق بالقاهرة، كتب في مجلتي «الضياء» و«البيان» بمصر ثم عاد إلى لبنان فكان من أعضاء مجلس النواب فوزيراً للزراعة، توفي في بيروت، له ديوان شعر، وترجم عن الفرنسية بعض القصص

١١ - المؤيد، جريدة اسسها علي يوسف في القاهرة عام ١٨٨٩.

١٢ - وردت هذه الأبيات في مجلة «الزهور» السنة الثانية، ١٩١١، ص ٢٠٨، ولم يرد فيها هذا البيت وبيت آخر، وأغلب الظن أن في البيت خطأ طباعياً، إذ يصح وزنه لو قلنا: (بالعزيمة) بدلاً من (العزيمة).

١٣ - مصطفى لطفي المنفلوطي (١٨٧٦ - ١٩٢٤)

- من مشاهير الكتاب بمصر في عصره، درس في الأزهر وتتلمذ لمحمد عبده.

- له «النظرات» و«العبرات» و«في سبيل التاج» و«الشاعر» و«مجدولين» من بين كتبه ما هو مترجم عن الفرنسية ولم يكن يحسنها وإنما كان بعض العارفين بها يترجم القصة إلى العربية فيصوغها المنفلوطي بقالبه الإنشائي.

١٤ - أحمد محرم (١٨٧٧-١٩٤٥)

- شاعر مصري، ولد في إبيا الحمراء من قرى الدلنجات، له «ديوان محرم» و«ديوان الاسلام» أو «الإلياذة الإسلامية» توفي ودفن بدمنهور.

١٥ - لم يذكر اسم الجريدة في الأصل.

١٦- يعني به أمين تقي الدين.

١٧ - محمود سامي البارودي (١٨٣٩-١٩٠٤)

- امير السيف والقلم، من رواد النهضة الشعرية العربية في العصر الحديث.

- قائد شجاع ، ولد بالقاهرة وتوفي فيها. تقلب في المناصب حتى صار رئيساً للنظار واستقال، شارك في ثورة عرابي وحكم عليه بالإعدام ثم بدل الحكم بالنفي إلى جزيرة سيلان وبقي فيها (١٧) عاماً.

- له ديوان شعر. اسمت مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري دورتها الثالثة باسمه عام ١٩٩٢ وأصدرت عنه عدداً من المؤلفات من بينها ديوانه.

١٨ - يعني بالأستاذ الإمام، الشيخ محمد عبده (١٨٤٩ - ١٩٠٥) مفتي مصر ، ومن كبار رجال الإصلاح والتجديد في الإسلام.، اصدر «العروة الوثقى» مع جمال الدين الافغاني، ناصر ثورة عرابي، ونفي إلى بلاد الشام، له عدد من المؤلفات.

١٩ - انظر صورة الرسالتين ونصهما في كتاب «رسائل إلى الأخطل الصغير» الصادر عن «مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري» بمناسبة إقامة دورتها السادسة «دورة الأخطل الصغير» ١٩٩٨، بيروت، ص (٢٦١- ٢٦٦).

٢٠ - الذام: العيب..

كيف عرفت الشيخ اسكندر العازار ... ١٤

١ - اسكندر العازار (١٨٥٥-١٩١٦)، كاتب لبناني له نظم، وجعل من أعضاء محكمة التجارة، كتب فصولاً في النقد والتعليق على الحوادث ونشرها في بعض الصحف والمجلات، كان يكتبها بأسلوب فكه، مثل جريدة «البرق» وغيرها وله قصص مسرحية وديوان وخطب ومقالات.

٢ - الطفل: الوقتُ قبيل غروب الشمس، وهو من طفلت الشمسُ: مالتْ للغروب.

٣ - نجيب حبيقة (١٨٦٩ - ١٩٠٦)، أديب وشاعر لبناني مجيد ومن مشاهير رجال التعليم والصحافة، مارس العمل الوطني في الجمعيات الخيرية المارونية، تخرج من كلية القديس يوسف، علم البيان العربي والفرنسي في الكلية اليسوعية، ثم في مدرسة الحكمة.، تولى تحرير جريدة «المصباح» وكتب في مجلة «المشرق» وجريدة «المحبة».

٤ - المصباح، جريدة أنشأها نقولا نقاش في بيروت عام ١٨٨٠.

٥ - مدرسة في بيروت، درس فيها الأخطل الصغير من سنة ١٩٠٣-١٩٠٥ بهدف إتقان اللغة الفرنسية، من أشهر أساتذتها عبدالله البستاني.

٦ - شبلي بك ملاط (١٨٧٥-١٩٦١)، شاعر لبناني ولد في بعبدا. أصدر جريدة «الوطن» في بيروت عام ١٩٠٨، لقب بشاعر الأرز، له ديوان.

٧ - معروف الرصافي ، سترد ترجمته لاحقاً.

٨ - البوستة ترجمة حرفية أو تعريب لكلمة: Post التي تعني البريد.

٩ - في الأصل (والعاجر) ولعلها تصحيف.

١٠ - عيد جلوس السلطان عبدالحميد الثاني (١٨٤٢-١٩١٨)، سلطان الدولة العثمانية من (١٨٧٦-١٩٠٩).

١١ - انظر مقال «إلى اللواء الإيطالي» في الفصل الرابع من هذا الكتاب.

١٢ - إشارة إلى السلطان عبدالحميد الثاني، وأمير المؤمنين أحد ألقابه، باعتباره خليفة المسلمين.

١٣ - عناوين زوايا كان يكتبها العازار في بعض الصحف مثل صحيفة «الوطن».

١٤ - هكذا وردت. والصواب أثمنَ الشرابَ

١٥ - يتوصمه: من الوصمة، العار أو العيب.

١ - معروف الرصافي (١٨٧٧-١٩٤٥)

- أديب وشاعر العراق الكبير في عصره. اشتغل بالتعليم وانتخب عضواً في مجلس النواب ومثل العراق في مجلس المبعوثان في الآستانة له ديوان شعر.

٢ - يقصد الدستور العثماني الذي اقره السلطان عبدالحميد عام ١٩٠٨ بعد ضغوط كبيرة من جمعية الاتحاد والترقي، وعصيان من بعض ضباط الجيش المنتسبين للجمعية.

٣ - اسعد رستم (نحو ١٨٧٥-١٩٦٩)

- شاعر لبناني ولد في بعلبك، هاجر إلى نيويورك عام ١٨٩٢ وعاد إلى وطنه ١٩٥٨
- له ديوان رستم ١٩٠٨.

٤ - محمد رشيد رضا (١٨٦٥ - ١٩٣٥)

- ولد ونشا في القلمون (من أعمال طرابلس الشام)، نظم الشعر في صباه وكتب بالصحف، رحل إلى مصر ولازم الشيخ محمد عبده وتتلمذ له.
- اصدر مجلة (المنار) وانشا مدرسة (الدعوة والإرشاد) ويعتبر احد رجال الإصلاح الإسلامي، من الكتّاب والعلماء بالحديث والأدب والتاريخ والتفسير.

٥ - الشيخ محيي الدين الخياط (١٨٧٥ - ١٩١٤)

- شاعر واديب لبناني ولد في صيدا، ونشا وتوفي في بيروت، عارف بالتاريخ نشر ابحاثاً كثيرة في صحف بيروت. من كتبه (دروس في التاريخ الإسلامي) و(دروس في النحو والصرف) و(دروس القراءة)، و(تفسير الغريب من ديوان ابي تمام) و(تعليق على شرح نهج البلاغة للإمام محمد عبده).

٦ - الشيخ مصطفى الغلاييني (١٨٨٦ - ١٩٤٤)

- شاعر من الكتاب الخطباء ولغوي من أعضاء المجمع العلمي العربي، مولده ووفاته في بيروت، تعلم فيها وفي مصر وتتلمذ للشيخ محمد عبده عمل استاذاً للعربية وخطيباً للجيش الرابع العثماني، نصب رئيساً للمجلس الإسلامي وقاضياً شرعياً في بيروت.
- له ديوان وعدد من المؤلفات.

٧ - يعني ان صورة الشاعر منشورة برفقة المقال.

٨ - إن التاريخ الهجري الذي ذُيّلت به الرسالة يوافق العام ١٩٠٦/١٩٠٧ من التاريخ الميلادي. وقد ذكر الأخطل ان زيارة الرصافي لبيروت كانت ١٩٠٩، وان الرسالة المنشورة أعلاه كتبت بعد مغادرة الرصافي بيروت، باتجاه الآستانة، فهل التاريخ الذي حدده الأخطل مصحّف؟

٩ - انظر صورة الرسالة ونصها في كتاب «رسائل إلى الأخطل الصغير» مرجع سابق، ص (٢٨٥-٢٨٨)، ورسالة أخرى ص (٢٨٣-٢٨٤).

١٠ - امين الريحاني (١٨٧٦-١٩٤٠)
- كاتب ورحالة وشاعر، بدأ ظهوره الأدبي في المهجر وكتب الشعر المنثور والشعر المرسل.
- له عدد من المؤلفات أشهرها «ملوك العرب».

١١ - لفظ استعمل بالمدلول العامي، وقصد به غرفة واسعة للاستقبال.

١٢ - يقصد أمين الريحاني.

١٣ - نعوم اللبكي (١٨٧٥-١٩٢٤)
- صحافي وسياسي لبناني. ولد في بعبدات.
- انشا مع أسعد خالد أول جريدة عربية في البرازيل وهي «الرقيب» عام ١٨٩٦ في ريو دي جانيرو، ثم انشا جريدة «المناظر» في سان باولو ١٩٠١ وتابع إصدارها في بيروت بعد ١٩٠٨.
- رئيس مجلس النواب عام ١٩٢٣.

١٤ - وردت هكذا، وواضح انه تصحيف، والمقصود هو «زكي مغامز بك» انظر صورة رسالته إلى الرصافي ونصها في كتاب «رسائل إلى الأخطل الصغير» مرجع سابق،(ص٢٧٩-٢٨٠).

١٥ - يعني بصاحبيه بشارة الخوري «الأخطل الصغير» والياس فياض.

١٦ - يقصد بلدتي «بيت شباب» و«بكفيا» ونكرهما مضافتين إلى لبنان.

١٧ - جميل صدقي الزهاوي، ستاتي ترجمته فيما بعد.

١٨ - الشيخ عبدالله البستاني (١٨٥٤-١٩٣٠)
- لغوي لبناني ولد في الدبية وتوفي في بيروت من اعضاء المجمع العلمي العربي له معجم البستان واربع روايات نثرية وخمس روايات شعرية.

١٩ - كان الشعراء الذين يجلّون هذا الإبداع - وما يزالون - لا يلقونه او يستمعون إليه إلاّ وقوفاً، إعجاباً وتقديراً.

٢٠ - إشارة إلى مطلع قصيدة الشاعر العباسي علي بن الجهم:

عيون المها بين الرصافة والجسر
جلبن الهوى من حيث ادري ولا ادري

٢١ - المبعوث هو النائب في مجلس «المبعوثان» العثماني وكان مقره في الآستانة.

١ - يوسف أبي صعب- ؟؟؟؟ - ١٩١٥، قانوني ومتشرع وشاعر لبناني، كان حجة في الشرع الإسلامي.

٢ - الشعر عجز بيت قاله المهلهل، إثر رحيل أخيه كليب ناقداً الناس الذين كانوا في مجلسه لا ينبسون بكلمة واحدة تهيباً واحتشاماً وتمام البيت:

وتكلمـــوا في أمـــر كلّ عظيـــمـــة

لو كنتَ شـــاهدَهُم بهـــا لم يَنبســـوا

انظر شرح المرزوقي لحماسة أبي تمام جـ ٢/ ص٩٢٩

٣ - هو على الأرجح: زُفَر بن الهُذيل، بن قيس بن سَلَم. فقيه، مجتهد، تفقه بأبي حنيفة، وهو أكبر تلامذته توفي ١٥٨ هـ/٧٧٤م (سير أعلام النبلاء، للحافظ الذهبي، جـ ٨/٣٨-٤١).

٤ - أبو القاسم الزمخشري، صاحب تفسير القرآن المعروف «بالكشاف» والمعجم اللغوي البليغ: «أساس البلاغة» توفي ٥٣٨ هـ/ ١١٤٣م.

كيف عرفت طانيوس عبده ٣٥

١- طانيوس عبده (١٨٦٤ - ١٩٢٦)، شاعر لبناني ، ولد في بيروت، وبها توفي ودفن، انتقل إلى الاسكندرية وأصدر جريدة «فصل الخطاب» ثم اشترك في تحرير «الأهرام» فـ «البصير» وأصدر مجلة «الراوي» ثم عاد لـ «الأهرام» اشتهر بترجمة الروايات عن الفرنسية ومن أشهرها: البؤساء، عشاق فنيسيا، الساحر العظيم، روكامبول في ١٧ جزءاً

٢ - البدل العسكري: هو مبلغ نقدي يدفعه المطلوب للخدمة العسكرية الإلزامية فيعفى.

٣ - في الأصل: «خيالي» عدّلناها ليستقيم الوزن.

٤ - في الصدر خلل عروضي.

٥ - ورهت، من الوره: الحمق، ومعنى البيت أن قصيدتك متسرعة، لا حكمة فيها ولا روية.

٦ - البواطي، مفردها، باطية، لفظ معرّب، معناه. الإناء العظيم من الزجاج وغيره، يتخذ للشراب.

٧ - هكذا وردت، وصوابها: نعتب عليه.

٨ - زعيم لبناني سيرد تعريفه لاحقاً.

كيف عرفت جميل الزهاوي ٤٥

١ - جميل صدقي الزهاوي (١٨٦٣ - ١٩٣٦)

- شاعر عراقي من شعراء النهضة الحديثة، غلب على شعره الاتجاه الفلسفي.
- اشتغل في التعليم وكان نائبا عن المنتفق ثم عن بغداد في مجلس النواب العثماني. له ديوان وترجم رباعيات الخيام عن الفارسية شعراً ونثراً.

٢ - الأثل: جنس من أشجار دقيقة الورق جيدة الخشب تسمى الطَّرفاء. وهذا أسلوب الشعراء القدامى، يخاطبون الآس والأراك والأرطى والأقحوان وغيرها يبثونها لواعجهم ومواجعهم.

٣ - الغُلَّة: شدة العطش وحرارته.

٤ - حكومة المشروطية، اي حكومة الدستور بعد إعلانه في الدولة العثمانية عام ١٩٠٨، وهو تقريباً ما زامن وضع (المشروطية) أو (المشروطة - الدستور) في إيران المجاورة عام ١٩٠٧ إثر ثورة علمائها على الشاه في ما عرف بالثورة الدستورية.

٥ - «بغدا» اسم مختصر تحببي لبغداد.

٦ - انظر في هذا الكتاب «كيف عرفت الرصافي» وانظر أيضاً صورة رسالتي الرصافي ونصهما إلى الأخطل الصغير في كتاب «رسائل إلى الأخطل الصغير» مرجع سابق، ص(٢٨٣ -٢٨٨)، وكذلك رسالة زكي مغامز إلى الأخطل الصغير في الكتاب نفسه ص(٢٧٩-٢٨٠).

٧ - كرمة ابن هاني اسم الدار التي كان يقطنها احمد شوقي ومازالت معمورة بمتحف يخص الشاعر.. والمقصود هنا الإشارة إلى اهتمام صاحب البرق بشوقي على ثرائه ونعيمه وإهماله لأمر الزهاوي على ظروفه الصعبة.

٨ - انظر صورة رسالة الزهاوي ونصها إلى الشاعر ص (٢٨١-٢٨٢) في «رسائل الأخطل الصغير» مرجع سابق.

٩ - ستاتي ترجمته لاحقاً.

١٠ - انظر ترجمته في مقال «كيف عرفت إمام العبد» وانظر أيضاً صورة رسالته ونصها في كتاب «رسائل إلى الأخطل الصغير» مرجع سابق، ص (٢٥٩-٢٦٠).

١١ - الهاء في شعرائه عائدة على شعراء «الأدب الخاص».

١٢ - اراد كلاً من ابن الرومي، وبشار بن بُرد، وهما من كبار شعراء العصر العباسي.

لصقة رماد **٥٠**

١ - المتن هو احد اقضية جبل لبنان الستة، ويقسم إلى قسمين : المتن الشمالي ويضم معظم المدن وقرى الاصطياف المشهورة. والمتن الجنوبي.

٢ - صدفة بمعنى المصادفة، وهذا من الأخطاء الشائعة.

٣ - جديدة المتن عاصمة القضاء المذكور.. وهي إحدى ضواحي بيروت الشمالية.

٤ - لمعرفة المزيد حول القصائد التي ترجمها الأخطل الصغير عن الفرنسية انظر كتاب «حياة الأخطل وشعره» د. سهام أبو جودة، رسالة ماجستير، اصدرته مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري بمناسبة دورتها السادسة، ١٩٩٨، بيروت.

٥ - النقل: ما يؤكل من جوز ولوز وحلوى الأعياد المغلفة بالورق. والجفان : القصاع.

٦ - ورد صدر هذا البيت في قصيدة محذوفة بسبب تكرار ورودها في موقع آخر هكذا. (أنّا اتخذنا الثغور كاساً).

٧ - كناية عن انجالها الاربعة.

٨ - والدهم فيليب ثابت.

عشرون يوما في ريفون باسم حنا فياض ٥٤

١ - سليم المعوشي، رئيس جمعية أرز لبنان، من اركان المعارضة ضد العثمانيين في لبنان، قائمقام جزين.

٢ - اسـاطر، جـمـع سَطر. ولم يرد هذا الجـمع في اللغـة، فـالسطر، يجـمـع على: أسطر وأسطار وسطور، واساطير ولم يرد أساطر.

٣ -رضا باشا، قائد الفرقة العسكرية العثمانية في عاليه وبيروت، نائب جمال باشا السفاح.

٤ -هكذا وردت في الأصل.. ويقتضي السياق أن تكون على الشكل الآتي: فخطئه (فعل أمر).

٥ - لم ترد هذه الرسالة في ما توافر لدينا من مادة هذا الكتاب.

٦ - احد اقضية جبل لبنان.. يقع إلى الشمال من قضاء المتن.. ومركزه جونية..

٧ - هما: الشيخ فيليب الخازن (١٨٦٥ - ١٩١٦) والشيخ فريد الخازن (١٨٦٩ - ١٩١٦) من شهداء الوطنية نفاهما جمال باشا السفاح إلى الأناضول ثم سيقا إلى الديوان العرفي وأعدما في بيروت يوم ٥ حزيران ١٩١٦.

٨ - الدورة: ناحية شمالية من بيروت.

٩ -درعون، بلدة في قضاء كسروان، تطل على جونية، على شاطئ البحر.

١٠ - ريفون، بلدة اصطياف تقع الى الشرق من جونية.

١١ - الورق الملون ، كناية عن الأوراق النقدية العثمانية.

١٢ -لوكندة، مصطلح عامي في لبنان وبعض الدول العربية، معناه: الفندق..

١٣ - فيطرون، بلدة اصطياف في القسم الأعلى من قضاء كسروان.

١٤ - يقصد إعدامات احرار العرب في مدينة عاليه ١٩١٦.

١٥ - الأمير شكيب ارسلان (١٨٧١ - ١٩٤٦) اديب وسياسي لبناني. من اعلام النهضة العربية. ولد في الشويفات. له ديوان شعر وعدد من المؤلفات منها «الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية». كان مديراً فقائمقاماً في الشوف. انتخب نائباً عن حوران في مجلس «المبعوثان» العثماني.

١٦ - كوجك جمال (جمال الصغير) المعروف بالمرسيني نسبة الى بلده مرسين، خلف جمال باشا السفاح، خفت في عهده وطاة الإرهاب في البلاد السورية، انصرف إلى مهمة الدفاع أمام هجوم البريطانيين تاركاً إدارة شؤون الحكومات إلى الولاة وحاكم جبل لبنان كل في حدود ولايته.

١٧ - رواية من ١٧ جزءاً ترجمها عن الفرنسية طانيوس عبده.

١٨ - عزمي بك، والي بيروت العثماني، سترد ترجمته لاحقاً.

١٩ - الامير فايز شهاب (القول اغاسي «رائد، ميجر» من رجال حكومة جبل لبنان (المتصرفية) كان قائمقام المتن.

٢٠ - المغفر، لفظ عامي لكلمة «مخفر» مركز للشرطة أو (الجندرمة) أي رجال الدرك.

٢١ - الجميزة: ناحية في شمالي بيروت.

بين أيلول ١٩١٦ وكانون ١٩١٧ ٦٨

١ - كتاب أبي الفرج الاصفهاني.

٢ - الجنيب المُعَبّد: المقود الى الجنب من الخيل وغيرها، والمعبَّد: المطلي بالقطران لإصابته بالجرب، وقصد بذلك تحاشي أقرب الناس له - وهو في خصاصته اي في فقره المدقع - كما يتحاشى الناس الحصان أو البعير الجَرِب.

ومن معاني الجنيب: الغريب، فلعله يعني أن اخاه يتحاشاه في فقره ويتجنبه ابتداء وكان ذاك الاخ غريب أجرب. أو انه قصد بقوله (كالجنيب المعبد) أن نفسه الحرة حتى اثناء فقره المدقع - تتابى فيعامل في حاجته أخاه كالغريب، كما يعامل في اليسر البعيد (من نأى) كأخيه أراد بذلك نقاء جوهر نفسه وإباءها في اليسر والعسر . ويؤيد ذلك قوله: «هكذا منذ نشاتي غير ذا لم أعود». «المراجعة».

٣ - يوسف فرنكو باشا متصرف جبل لبنان (١٩٠٧ - ١٩١٢) وهو ابن نصري فرنكو باشا المتصرف الثاني في سلسلة متصرفي جبل لبنان الذين حكموه وفقاً لنظام الامتيازات منذ عام ١٨٦١ وحتى ١٩١٥، تميز عهده بتذمر الشعب ومطالبته بالإصلاح بسبب موجة التفاؤل التي بعثتها ثورة ١٩٠٨.

٤ - حليم دمُّوس (١٨٨٨-١٩٥٧) اديب. شاعر،له نظم كثير، ولد في زحلة، سافر إلى البرازيل وعاد إلى بلده، فشارك في تحرير جريدة «المهذب» واستوطن دمشق بعد الحرب العالمية الأولى إلى آخر حياته، توفي في بيروت ودفن في جونية، له ديوانان وعدد من المؤلفات.

٥ - وردت في الاصل هكذا «طانيوس عبود»،ولم نعثر على اي ترجمة له، وربما يعني صديقه طانيوس عبده، الذي سبقت ترجمته.

٦ - شركة القمح اللبنانية، شركة تاسست في بيروت، كان مديرها نجيب بك الأصفر ولإدارتها بعض الفروع في البلدات اللبنانية لتوفير هذه المادة الضرورية اثناء الحرب العالمية الأولى ووقاية الناس من المجاعة، ولكن الفساد تفشى في معظم مسؤوليها فكان بعضهم يبيع القمح في السوق السوداء بعشرة اضعاف سعره الرسمي. واعتمدت في توفيره على الاستيراد من سوريا. ولكن هذا الاستيراد كان يسمح به او يمنع وفقاً لتقلبات الأحوال السياسية، وكان من أكبر المتدخلين في شؤونها والمستفيدين من البيع في السوق السوداء عزمي بك والي بيروت وعلي منيف متصرف جبل لبنان فتفككت الشركة وتلاشت في اواسط عام ١٩١٧ قبل خروج تركيا من البلاد بمدة وجيزة.

١ - أحمد شوقي (١٨٦٨ - ١٩٣٢)

- أمير الشعراء عام ١٩٢٧، مولده ووفاته بالقاهرة ، نشا في ظل البيت المالك في مصر، وصار شاعر البلاط .
- له الشوقيات في ٤ اجزاء، كتب عدداً من المسرحيات الشعرية مثل: مصرع كليوباترا، مجنون ليلى، قمبيز، علي بك الكبير، من أعمدة النهضة الشعرية الحديثة . نفته السلطات البريطانية في مصر إلى اسبانيا بسبب بعض مواقفه السياسية.

٢ - الرستوران: المطعم ، ماخوذة من لفظها الاجنبي Restaurant.

٣ - فوزي الغزي، احد كبار رجال الادب والحقوق في سوريا ولد في دمشق ١٨٩١ وشغل عدة وظائف حكومية وراس الجمعية التاسيسية في دمشق وانصرف للمحاماة، سجن غير مرة في سبيل بلاده، وتوفي سنة ١٩٢٩ مقتولا بالسم.

٤ - جبران التويني، كاتب وصحافي ونائب ووزير لبناني ولد ١٨٩٠ وانشا جريدة النهار، صار وزيراً للمعارف والفنون الجميلة ووزيراً مفوضاً في الارجنتين وتوفي ١٩٣١.

٥ - ميشال ابي شهلا، كاتب صحفي شاعر، ولد في بيروت ١٨٩٨، عمل في مجلة «المعرض»واصدر مجلة «الجمهور» عام ١٩٣٦، وله ديوان شعر «انفاس العشيات»، توفي في بيروت ١٩٥٩.

٦ - شارل دبّاس، ولد في بيروت وشغل بعض الوظائف العالية. وحكم عليه الاتراك بالإعدام ودرس في فرنسا وتبنى سياستها، انتخب أول رئيس لجمهورية لبنان ٢٦ أيار ١٩٢٦ - أول كانون الثاني ١٩٣٤ وتوفي في باريس ١٩٣٥.

٧ - لعله يقصد فارس الخوري (١٨٧٧-١٩٦٢)، سياسي واديب سوري، رئيس الحكومة السورية عدة مرات (حيث إن عدداً من شخصيات إقليم الشام تحمل هذا اللقب).

٨ - جميل مردم بك (١٨٩٤-١٩٦٠)

- من رجال السياسة في سوريا كان مستشاراً خاصاً للامير فيصل بن الحسين في دمشق ١٩١٩، حكم الفرنسيون بإعدامه فذهب إلى القاهرة واقام بها ١٢ عاماً.
- عاد إلى دمشق وصار وزيراً للمالية وفر للعراق هربا من الفرنسيين، عين وزيراً للخارجية في عهد شكري القوتلي وتراس الحكومة السورية (٣) مرات، توفي بالقاهرة ودفن في دمشق.

٩ - نجيب الارمنازي (١٨٩٧-١٩٦٨)

- من رجال السياسة في سوريا، محام وصحفي مولده في حماة ووفاته في دمشق.
- اصدر جريدة الايام في دمشق، كان وزيراً مفوضاً لسوريا في لندن وفي الهند وتركيا ثم سفيراً لها في مصر ثم لندن. له عدة مؤلفات.

١٠ - محمد علي العابد (١٨٦٧-١٩٣٩)
- أول من سمي رئيساً للجمهورية السورية. ولد في دمشق وتعلم بها وبالآستانة، درس الحقوق في باريس، عينته الحكومة العثمانية وزيراً مفوضاً في واشنطن (١٩٠٥-١٩٠٨) ثم عين وزيراً للمالية أثناء الانتداب على سوريا ثم رئيساً للجمهورية (١٩٣٢-١٩٣٦) توفي في باريس ودفن في دمشق.

١١ - هو الشاعر المملوكي محمد بن يوسف، يُنسب الى تل أعفر، بين الموصل وسنجار. عاصر عددا من سلاطين بني ايوب ومات ٦٧٥هـ/١٢٧٧ وله ديوان شعر مطبوع.

لماذا تسميت بالأخطل الصغير ٨٠

١- الأخطل ، غياث بن غوث (٦٤٠-٧٠٨م)، من بني تغلب، شاعر أموي كبير ، من الثلاثة الكبار المتهاجين في عصره ، هو والفرزدق وجرير، اشتهر في عهد بني أمية بالشام ، أكثر من مدح خلفائهم، نشأ على المسيحية، كان يقيم بين دمشق والجزيرة. له ديوان شعر.

٢ - نعوم مكرزل (١٨٦٧ - ١٩٣٢)، من أعلام الصحافة العربية في المهاجر الأمريكية، مؤسس صحيفة (الهدى) في نيويورك ورئيس تحريرها، توفي في باريس ودفن في لبنان، انظر صور رسائله إلى الأخطل الصغير ونصوصها في كتاب «رسائل إلى الأخطل الصغير» مرجع سابق، ص (٢٢٩- ٢٣٢، ٢٣٩-٢٤٠)

٣- اسكندر العازار، أمين الريحاني، شبلي بك ملاط، الياس فياض، امين تقي الدين، جبرائيل نصار، يوسف نخلة ثابت، من الشخصيات الأدبية والصحفية وأصدقاء للأخطل الصغير.

٤ - إبراهيم سليم النجار ٠٠٠٠ - ١٩٥٧، صحافي لبناني مارس الصحافة في مختلف البلاد العربية. أصدر عدداً من الجرائد في القاهرة ١٩٠٢ والآستانة ١٩١٢ والقدس ١٩٢١ وأخيراً جريدة اللواء في بيروت ١٩٣٩.

٥ - اسعد رستم سبقت ترجمته.

٦ - معروف الرصافي وجميل صدقي الزهاوي، سبقت ترجمتهما.

٧ - الحسين بن علي (١٨٥٤ - ١٩٣١)، اول من قام في الحجاز باستقلال العرب عن الأتراك وأخر من حكم مكة من الأشراف الهاشميين. ولد في الآستانة عاد إلى مكة وعمره ٣ سنوات تأدب وتفقه ونظم الشعر الملحون (النبطي)، نفي إلى الآستانة وصار من أعضاء مجلس شورى الدولة فيها، عين اميراً لمكة ١٣٢٦ هـ، راسله السير هنري ماكماهون أثناء الحرب العالمية الأولى فاعلن الثورة على الأتراك في ١٠حزيران ١٩١٦، صار ملكاً لكل الحجاز، اختلف مع ابن سعود فتنازل عن عرش الحجاز لابنه علي ورحل عنها إلى قبرص عام ١٩٢٥، توفي في عمان ودفن في المسجد الاقصى، صار نجله فيصل ملكاً على سوريا ثم العراق، ونجله عبدالله ملكاً على الأردن.

٨ - الخلائف: مفردها خليفة وتجمع على خلفاء وخلائف ، (المعجم الوسيط، ص ٢٥١)

٩ - حُشد، في الأصل هي «حُشُدٌ» (بضم الشين)، جمع حشد، بمعنى المحتشد..

١٠ - من المستغرب ان الأخطل لم يستعمل جرا، إلا بفتح الراء - والصواب بضمها..

١١- الشيخ فؤاد الخطيب (١٨٧٩ - ١٩٥٧)

- ولد في قرية شحيم قرب بيروت، شاعر نقي الديباجة من أعضاء المجمع العلمي العربي في دمشق استكمل دراسته في الجامعة الأمريكية.
- عمل مدرساً في الكلية الارثوذكسية وكلية غوردن بالخرطوم. نظم القصائد تاييداً للثورة في الحجاز ولقب بشاعر الثورة.
- تولى تحرير جريدة القبلة في مكة، ثم وكالة الخارجية للملك حسين بن علي، ثم مستشاراً للأمير عبدالله بن الحسين، واتصل بالملك عبدالعزيز آل سعود وعينه سفيراً في كابل، له ديوان شعر.

١٢ - عزيز المصري (١٨٧٩-١٩٦٥)

- ولد في القاهرة وبها تعلم ثم في المدرسة الحربية في الآستانة، دخل جمعية تركيا الفتاة قبيل الدستور العثماني، حارب العصابات البلغارية واليونانية والألبانية وحارب في القرم، تطوع للجهاد ضد الطليان في ليبيا.
- استقال من الجيش التركي بعدما تبين نوايا «تركيا الفتاة» فحكم عليه بالإعدام، أطلق سراحه وصار وكيلاً لحربية الشريف حسين بن علي بعد إعلانه الحرب على الأتراك ، عاد إلى مصر ونفاه الانجليز إلى اسبانيا ، فر إلى ألمانيا وعاد إلى مصر فادار مدرسة البوليس ثم عين مفتشاً للجيش المصري (١٩٣٧) اعتقل حتى نهاية الحرب العالمية الثانية ، عين بعد ثورة يوليو ١٩٥٢ سفيراً لمصر في موسكو ، توفي في القاهرة.

١٣ - اسكندر عمون بك (١٨٥٨- ١٩٢٠)، شاعر ومحام لبناني، اشتغل في الأدب كان وكيل المحكمة الأهلية في القاهرة ثم وزير العدلية في دمشق، انظر صورة رسالته إلى الشاعر ونصها «في كتاب رسائل إلى الأخطل الصغير» مرجع سابق، ص (٢٧١، ٢٧٢)

١٤ - جمال باشا السفاح.

١٥ - يعني الحسين بن علي بن ابي طالب (٦٢٥-٦٨٠م)، الذي رفض خلافة يزيد بن معاوية ، فثار عليه، واستشهد في معركة كربلاء في العاشر من محرم سنة ٦١ هجرية.

١٦ - اسبلَ الزرعُ : خرج سَبَلُه. كنى بذلك، رخاء الحياة ورغَدها.

الشهيد عمر بمناسبة ديوانه ٨٥

١ - عمر حمد : «لبنان» (٠٠٠٠- ١٩١٦)

- شاعر من شهداء الحركة القومية بالشام أصله من مصر ولد ونشا في بيروت،. عمل ضابطاً في الحرب العالمية الأولى بالجيش التركي، وفر بعد الحرب من بطش الأتراك،. قضى بسجن عاليه أربعة اشهر بحجة إلقائه قصائد تنفر العرب من الأتراك. ثم اعدم شنقاً في بيروت ولم يتجاوز الخامسة والعشرين.

٢ - حسين كامل (١٨٥٣-١٩١٧)

- هو ابن اسماعيل باشا «الخديوي» ابن إبراهيم، أول من ولي السلطنة بمصر بعد دولة الخديويين ولد وتعلم في القاهرة وأكمل دراسته في باريس، ولي حكم مصر بعد تنحية آخر الخديويين عباس حلمي الثاني، صار سلطاناً لمصر عام ١٩١٤

٣ - القول لأبي الطيب المتنبي، من قصيدة الحُمّى التي مطلعها:

ملومُكُما يَجِلُّ عن المَلام
ووقع فَعَالِه فَوقَ الكلام

ديوان المتنبي بشرح العكبري - جـ ٤/ ص١٤٢ و ١٤٤

****

الباب الثاني

مقالات سياسية

أولاً: العهد العثماني

هذا الشعب

قل له لِيَحْيَ الظالم! ليحي المستبد! وكما يجيبك الصدى من أطراف الوادي، يجيبك هذا الشعب: ليحي الظالم ، ليحي المستبد!

قف به إذا شئت خطيبا، وقل له إن الحكومة الماضية كانت عادلة رؤوفة. إن العصر الماضي كان عصر علمٍ ونور فَلْتَحيَ الحكومة الماضية وَلْيحيَ العصر الماضي! وكما يترجع الصدى من أطراف الوادي، تترجع أصوات الشعب (لِتَحْيَ الحكومة الماضية، ليحي العصر الماضي).

قل له إن جمعية « تركيا الفتاة»[1] كسرت قيود الرق التي كنت مقيداً بها، أيها الشعب الجاهل! قل له إنها صرفت ثلاثين سنةً وهي تجاهد في سبيل الحرية والدستور، قل له إن عدداً من أبنائها ذهبوا ضحية مقدسةً في سبيلها. فمنهم من قضى في جوار الطائف، ومنهم من قضى فى قصر البوسفور، قل له كل ذلك، ثم قل لتسقط «تركيا الفتاة». وكما يردد الحاكي كلامك يردد هذا الشعب: لتسقط تركيا الفتاة! نستعيذ بالله من هذا الكفر الذي قادنا إليه مجرد التمثيل: ألا عاشت «تركيا الفتاة»! فإنما عنها يشع النور وعنها تصدر الحياة

هذا الشعب الذي رأيته مزبداً هائجاً هذا هو التيار الذى كان يجري مندفعاً جارفاً. هذا هو القوة إذا اتحد، وكان له العلم رائداً هذا هو كل شيء إذا علمتموه، وهذا هو العدو إذا ظل جاهلاً.

علموه وإلا كان كالحسام لا ينتفع به غير حامله، أو كالمدفع إذا استولى عليه العدو، أطلق علينا منه ناراً حاميه تحصدنا حصد المنجل للهشيم

علموه ولا يغركم منه هذا الاتحاد، ولا تخدعكم منه هذه المظاهرات، فإنها سريعة العطب، سريعة الزوال. وإن كلمةً واحدة، تصدر عن أحد أفراده، ولو عن غير قصد، كافية لأن تثير فيه كوامن الحقد وتضرم جذوة الشر بين عناصره المختلفة.

يا دعاة الإصلاح! أنتم تقولون ولا تفعلون، وما أنتم عن العمل عاجزون، ولكنكم تختلفون على السيادة في أغلب الحين، يا دعاة الإصلاح !

أنتم تقولون كثيراً وتتحمسون في البداية حماساً قوياً، وتنطلقون حتى إذا حان وقتُ العمل وزعتكم مآرب النفس، فترجعون لا فائزين بالقصد، ولا أنتم تشكرون.

إن الغصون إذا قومتها اعتدلت، فعليكم بالغصون، عليكم بالناشئة الجديدة! هدِّموا كل الحواجز التي تفصل أبناء العثمانيين! الغوا كل القواعد التي تمنعهم من أن يكونوا إخوة متساوين، وأحلوا الجنسية الوطنية محل الجنسية الدينية، فيستتب لكم الأمر وتكونوا من الفالحين!

ومُحال أن يتسنى لكم ذلك بغير العلم، بغير المدارس الوطنية المختلطة التي ترضع الناشئة الحديثة حب الوطن، وتقلب لها صفحاتٍ تاريخيةً لامعةً، وتعيد عليها ذكر الأبطال المجيدين الذين ضفروا للوطن أكاليل النصر، وساروا به فى سبيل المجد شوطاً بعيداً.

فليكن لنا عبرةٌ فى الماضي، وليكن لنا دافع من الحاضر، ولنعلق على المستقبل أملاً كبيراً.

إن تباشير النجاح منقوشة بالنور على جبين هذا العصر، فنذرف دمعةً إثر الزمن الغابر، ولنلتفت إلى الأمان، قائلين: هيا على الفلاح.

البرق، ١٩٠٨، عدد: ٢، ص: ١

****

لبنـــــان

ويعز عليَّ أن أناديك يا خامل يا جبان ! يعز علي أن أنزل بشيبتك إلى الهاوية حيث الذل والهوان. يعز علي أن تكون أضحوكة الأمم وألعوبةً تتلهى بها يدُ الزمن، وملعباً تمثل عليه المضحكات المبكيات.

وكَم فـــيكَ أمــــسى من المُضـــحِكاتِ
ولـكنَّهُ ضَـــــــحَكٌ كـــــــالبُكـا[1]

يا لبنان؟ إذا كنت تفخر، فإنما تفخر بماضيك كالولد المباهي بجده وأبيه، وقد قلبت صفحات الماضي، فلم أجد لك فيه ما يدعو إلى الفخر، ولم أجد لك صفحةً يبسم لها الثغر، فما معنى هذا التباهي يا لبنان؟

تقلب الدهر عليك أطواراً. فتقلبت معه من الرق إلى الفقر، إلى انشقاق، وهي الحالة التي ترسو عليها الآن. ولم ترسُ إلا على الهاوية التي تؤدي بك إلى الدمار فالاضمحلال. فهلا كان في نفسك رادعٌ، وهلا كان لك من العقل نذير؟ فقد ملّت الألسنة وملّت الأقلام. أفما لهذا الصمم من حيلة، أوَما لهذا الداء من دواء؟ رقٌّ، ففقرٌ فشقاقٌ، فاضمحلال: طرق لم تسلكها أمةٌ ولا زلّت عليها قدم شعب فماذا تكون أنت بين الأمم، وكيف تكون أنت بين الشعوب؟ إنها والله، لحالة تفطر القلب على حظك التاعس، ومصيرك الهائل، والذنب ذنبك في كل ذلك فإما تتهم به أحداً، تكن من المفترين.

كنت قبل النظام مسترَقاً لطبقة من بنيك أتتها السيادة عن طريق الدهاء، ورافقتها عن طريق الإرث، غير أنها لم تلبث أن ضغطت على الطبقة الثانية، فانفجرت عليها كما ينفجر البارود، فمزقتها. وما كان ضغط الأولى إلا عن حمق، وما كان انفجار الثانية إلا عن ألم ووسوسة. وكان قد أزف الوقت الذي اشتريت فيه النظام بدمك، ولكن لا كما

اشترته الأمم الراقية؛ فإنما هو قد أتاك عن طريقٍ تُجلّلك بالعار، وتصمك بوصمة الذل إلى الأبدية.

وقد دك النظام معالم الاستبداد، ورفع راية المساواة بين طبقات الشعب، وأهّل كل فرد من أبناء الأمة للمركز الذي يستحقه علمه وأدبه. ولما كنت جاهلاً يا لبنان بما كنت قد فُطمْتَ قبل عهد الفطام ، دست هذه النعم برجلك، لأنك تجهل أنها ثمينة، فانضوى قسم منك إلى راية من طمحوا إلى الزعامة وظل القسم الآخر مستظلاً براية رجال الإقطاع، فبرهنت في كل أدوار حياتك على أنك لا تزال قاصراً، فاتخذ كل فريق منك عليه وصياً.

كنت تقول قبل الدستور، وعلى الأخص فى العهد المتأخر، إنك لا تقوى على الاجتماع. ولو مُهِّد لك ذلك، لكنت أثبتَّ العجائب، وها قد تمهدت لك تلك العقدة واصبحت بفضل الدستور، قادراً على الاجتماع جهاراً والمناداة بما تضمره نفسك من نفائس الأفكار، مجاهراً بمبادئك الحرة. وإلا فدعواك بالأمس باطلة.

أجل، فقد اجتمع بالأمس منك عصابة زحفت إلى بيت الدين(٢) حيث يستوي ابن فرنكو(٣) على منصة السيادة التي منها صدرت الأوامر الظالمة بجلب الغزيريين (٤) وإيداعهم ظلمة السجن، لوشاية كاذبة، والتى منها كانت تصدر الإرادة المطلقة المستبدة بإسناد الوظائف إلى غير مستحقيها من أبناء الجبل. زحفوا نواباً عن الشعب وألجأوا ابن فرنكو إلى تطهير الحكومة من جراثيم الفساد، وإسقاط من فقد منهم ثقة الأمة وعبث بحقوقها.

إنها المرة الأولى التى فاز بها الشعب على الحكومة، وخنق بها الصوت المجموع صوت الفرد، وهى خطوة كبيرة خطوتها بفضل الدستور، وصفحة جميلة كتبتها يد المجد في تاريخك.

بذلك توصل الغرب إلى الحالة التي هو فيها الآن، وبدون الأحزاب لا تستقيم مصلحة الأمة. ولكن شتان بين الأحزاب هنا، والأحزاب هناك. فهم إنما يجاهدون في سبيل النفع العام، ونحن إنما نجاهد في سبيل نفع أنفسنا، إذا صح تسمية الأنانية جهاداً.

ومهما يكن من الأمر، فإن الصوت الخافت أصبح مسموعاً، وإن الحاكم الذي يمد يده إلى الرشوة لا يأمن عليها من الكسر

بقيَ أن يَنْتبه الشعب من غَفْلته، ويعرفَ أنَّ حقوقه مقدسة مرعية لا تقوى على اغتصابها يدُ الظلم.

البرق، ١٩٠٨، عدد ٣، ص ١

****

هذه الفوضى

نتيجة الجهل، هذه الفوضى التي يدوي صداها من الشرق إلى الغرب، ومن الشمال إلى الجنوب. والجهل إذا خيم في بلد، صيرَّ نوره قتاماً وغشّى على أبصار أهله، فتركهم يتسكعون فى مجاهل غيهم ويتسابقون إلى قتل أنفسهم بأنفسهم، ويرجعون القهقرى مندفعين بعوامل المفسدات إلى حيثُ لا تقوم لهم قائمة، متدافعين كأنهم الذئاب، لا يجسر الواحد أن يتخلف عن الآخر لئلا يمزقه بأظافره الدامية.

نتيجة الجهل، هذه الحوادث التي تنقض على رؤوس الشعب المستكن الهادئ، فيضطرب لها فؤاده، وتطير لها نفسه؛ فلا يقوى على معاطاة العمل لأنه غير آمن، ولا الحكومة تقوى على قطع دابر المتشدد الظالم. فأمسينا والفوضى ناشرة أعلامها، والنظام مستهان به، ولا يرعى أحد له جانباً. فكأنما في رجال الدوائر وهن، وهم غير أهل للمراكز التى يملأونها؛ أو كأنما الشعب أبطرته الحرية وهو لا يفهم حقيقتها، فتطرف حتى تهور. فإذا لم تتداركه الحكومة، بما عندها من الحكمة والحزم، سقط صريع الجهل في مهاوي الشقاء، واستحكم منه الداء وعز فيه الشفاء.

لا عاطفة شريفة ولا مبدأ نبيل، لا مزية حسنة ولا خلق كريم. عدم بعض الناس الشعور الإنسانى؛ فهم أبداً دائبون على تعكير الصفاء وتقطيع روابط الألفة. فطر بعضهم على الشر، فهم كأنما أرسلوا إلى الأرض ليلطخوا الهيئة البشرية بما يرتكبونه من الفظائع الوحشية والأعمال الأثيمة.

ألم يأتك نبأ المتقهقرين في الآستانة؟ ألم يأتك نبأ راتب والي الحجاز؟ يريد الأولون أن يحنث السلطانُ بيمينه، فيسترجع الدستور، ويقف حاجزاً في وجه الحرية، يمنع نورها أن يتسرب إلى أبناء الأمة العثمانية في ذلك الصقع السحيق. ولكن العدالة أبت إلا أن تقتص من هؤلاء، فنكلت بهم تنكيلاً، وجعلتهم عبرةً لكل بصير، على أن العدالة التي قبضت على خناق راتب والمتقهقرين، وقفت عاجزةً عن نزوة من أبناء الشر،

يعيثون فساداً في لبنان وضواحيه إن ما تقرأه من فظائع الشقي خطار . وما جرى بين شيبوب الشقي الآخر والجنود اللبنانية، وإن ما تقرأه عن حادثتي طرابلس والمنية[1] وبعض الحوادث الإفرادية التى تجري في مدينة بيروت، يصور لك الفوضى بأقبح صورها، وينقل لك رسماً حياً عن تقاعس حكومة لبنان، وتخاذل حكومات الإيالات[2] الأخرى، فلا تعود تعجب من تجهم السفلة الأوغاد، وتهجمهم فإنهم أشبه شيء بأمواج البحر المتدافعة إلى الشاطئ فإذا لطمتها الصخور سقطت متكسرة على أقدامها، وإذا لم يقم في وجهها حاجز أغرقت ما يعترض في سبيلها من كل ذي حياة.

إنها لحالة وأيم الحق يستنكفها طبع الكريم. حالة لا تسلم معها عاقبة ولا تقوم معها شوكة للحكومة إذا هي لم تضع الحزم موضعه.

فوضْعُ النَّدى في موضع السَّيفِ بالعُلى
مُضِرٌ كَوَضْع السيف في مَوْضِعِ النَّدى[3]

على أننا نعجب، ويحق لنا أن نعجب، من حكومة لبنان كيف أن الأشقياء يبيحون أعراض الرعية ودماءها، وهي تتلهى هنا بالسفاسف التي لا طائل لها ولا فائدة حقيقيةً يرجى من ورائها.

فنحن نخشى إذا ظلت الحالُ على هذا المنوال، أن يتفاقم الخطبُ ويتسع الخرقُ على الراقع، والسلام.

بشارة عبدالله الخوري

البرق، ١٩٠٨، عدد ١٠، ص ١

****

صيحة في واد

إذا ذهبت اليوم مع الريح،فلقد تذهبُ غداً بالأوتاد[1]

هو الجهل حتى تنبت الأرض قتاداً. وتملأ فساداً. وحتى يجهل الغبيُّ مقدار نفسه؛ فيسير إلى حيثُ يقع على أُمِّ رأسه

وهو الظلم حتى يعم البلاء، وتغضب السماء، وحتى لا ترى أبياً يقف بوجه الحاكم ويقول للظالم: يا ظالم.

الجهلُ والظلم آفتا الشرق، إذا حدَّق ففي ظلمة الأول، وإذا رسف ففي قيود الثاني. وما حال مَنْ يتخبط في دياجي الجهل؟ بل ما هي حال من يرزح تحت عبء المظالم؟

منذ أمد بعيد، وتركيا العظيمة تتقلب على فراش السقام، ومنذ أمد والخائنون من أبنائها يمتصون دماءها، ويقودونها بالناصية إلى الهاوية، حتى ذهبت مثلاً من الضعف ومسخت عبرة للأمم.

أجل أصبحت مثلاً من الضعف وعبرة للأمم، وظلت كذلك حتى مزق النور ظلمات الجهل، وحطم العدل قيود الاستعباد؛ فاندفعت الناشئة العثمانية اندفاع الأتيّ[2] على خائني الأمة والبلاد، وكان يومهم متهدراً.

وإذا بتركيا قاربت الشفاء، وعاودها الأمل بالحياة، وجرى الدم، في عروقها نقياً. إذا بالظلام استحال ضياءً وبالشقاء هناءً، وإذا انقلب الوجه الأرضي حتى كدت لا ترى عليه شقياً.

نسمة من نسمات الحرية انعشت آمال الأتراك، ولمعةٌ من لمعات الدستور، كانت ضياء للمهتدين. وفي لبنان – في هذ الجزء الصغير من تلك المملكة الضخمة – لا حرية ولا دستور؛ وهل يخطب الحرية إلا العلم، وهل يسطع الدستور، إلا في سمائه النقية؟

تلك الجبال وهذه الأودية التي خصها الله بأجمل اللآلئ الطبيعية، آهلةٌ بقوم، كلما نقل غيرهم خطوةً إلى الأمام، نقلوا عشراً إلى الوراء. وكلما اقتربت الأمم ميلاً من الرقي ابتعدوا عنه أميالاً

هؤلاء الناس يتلهون بأمجاد أجدادهم، ويفاخرون بغير أعمالهم، ويحاربون أنفسهم بأنفسهم دفاعاً عن الباطل فيقتلون الحياة وهم يحسبونها شيئاً زهيداً. هؤلاء سلالةُ المردة، أولئك الأبطال الذين كانوا يجعلون أجسادهم سوراً حول وطنهم، ودماؤهم نهراً يغرق من كان يطمع فيهم - فمن لنا بأن يروا شقاوة وطنهم وسوء مصير أبنائه - إن بين الأمس واليوم لعبرة زاجرة للأعصر الأواتي

إن هذا الوطن التاعس يئن من بنيه وبنوه يئنون من أولياء الأمر فيه، من رجال السيادة الذين أشربوا نفوسهم ماء الذل، وختموا على قلوبهم بخاتم الجهل. يئنون كما يئن الغدير المتدافع في الوادي يئنون، لأن بالأنين يعرف ألم الجرح

كانت حملتنا شعواء في عددنا الماضي، حملة من المبدأ على المبدأ، فإذا بها حملةٌ على غير ما نقصد، وإذا بنا أعداءٌ لمن كانوا أصدقاءنا بالأمس، فكفى بهذا على حالنا الحاضر شهيداً.

البرق، ١٩٠٩، عدد ٢٨، ص. ٢١٧

****

شـــيء عــن لبنـــان

قليلون هم الراغبون في إصلاح هذا الجبل، قليلون هم الواقفون على أطلاله يندبون سوء مصيره وكثيرون هم اليائسون من إصلاح الحال، لأنهم يرون المخربين يعملون على الهدم، ولا يرون يداً واحدة تبني. من المتصرف إلى أصغر متوظِّف، من أكبر زعيم إلى أصغر مزعوم[1] كلهم يهدمون. وإذا استمرت الحالة على هذا المنوال، فما عسى تكون النتيجة؟؟

يقولون لي: نراك دائماً تصور لبنان بشكلٍ مظلم، ودائماً تمثله بحالة مزعجة، ودائماً دائماً تقطع خيوط الأمل التي يحوكها الصحافيون على صفحات جرائدهم، فتحول ابتساماتهم دموعاً وتهاليلهم مراثي.

أجل، إن الحقيقة لا تألف دائماً هذه الصحف التي تقرأون، وإذا ابتسمت أحياناً فإنما هي تفعل كندماء السلاطين، يضحكون السلطان طمعاً برضاء السلطان، أو خوفاً من غضبه. وربما كان الرياء شنشنة[2] البعض، فيلبسون الأبيض أسود والأسود أبيض، فيضلون بذلك من حيث يجهلون.

أما الذين يرغبون في الإصلاح، الذين يحملون في صدورهم قلباً غيوراً ونفساً وطنيةً، فإني لا أسمع لهم صوتاً، حتى كدت أشك بوجودهم، وأريد بهؤلاء أصحاب الأفكار المستقلة التي لا تربطها رابطة بأصحاب المطامع. أريد بهؤلاء أصحاب الجرائد الحرة. والجرائد الحرة هي التي تقول الحقيقة أين وجدت، ولو عاد عليها ذلك بالضرر المادي. ولما كان هؤلاء الذين أعنيهم، غير ميسور وجودهم، فإني لا أزال أقول: إن الأمل ضعيف بالإصلاح.

جعجعة أحزابٍ وقرقعة جمعياتٍ، في كل قضاءٍ بل في كل قرية. وقد مضى على هذه الجمعيات وهذه الأحزاب زمنٌ طويلٌ. فماذا صنعت من خير هذا الوطن؟

أأنشأت هذه الجمعيات الخيرية الأدبية، مدرسةً صناعيةً أو ملجأً خيرياً، أو أتت عملاً يذكر ولو زهيداً؟؟؟ وهذه الجمعيات السياسية التي تدعي أنها من أكبر أنصار الإصلاح، أي شيء غيرت في هيئة الحكومة؟ هل وقفت في وجوه رجال الزعامة أَمَهَّدَتْ لأصحاب العقول المفكرة، سبيلاً إلى إشغال المراكز في دوائر الحكم؟ أم وضعت نصب عينيها، مشروعاً حيوياً وباشرت العمل فيه؟

أجل إن غاية ما يصنع حتى الآن، عزل أناس وتنصيب آخرين: وقد يكون في من ينصبون من هم دون المفصولين خبرةً وإخلاصاً. هكذا كان لبنان، أحزاباً تتطاحن وأموالاً تبذل وبيوتاً تخرب، وكذلك هو اليوم غير أن الأحزاب اتخذت لها أسماء غير أسمائها الأولى. فبالأمس كان حزب واصا[٣]، وفرنكو[٤]، ومظفر[٥]. واليوم حزب الأحرار، والمحافظين، والمتقهقرين.

لا يضيع حق وراءه مطالب وكذلك الإصلاح: لا يضيع إذا كان في البلاد مُصلحون، إذا كان فيها رجالٌ مجردون وصحافيون يقولون ما يعتقدون، وما يرون وما يسمعون.

أكاد أجزم بأن ليس في لبنان من يفكر في إصلاحه: وإذا فكر أديب مرة، فما هو مما يقاس عليه. ومتى ثبت أن ليس من يعمل على الإصلاح، فكيف يمكن أن نرقى؟ متى ثبت أن الجهل، والانقياد، وحب الذات، ضاربو الأوتاد في لبنان من شماله إلى جنوبه، من شرقه إلى غربه، فكيف يمكن أن نعلق أملاً على المستقبل؟

نحن هنا نعتقد أن المهجر ينشئ لنا رجالاً يصلحون ما يفسده كبارنا وزعماؤنا، ويعتقدون في المهجر، أن الناشئة هنا، ستقلب الهيئة الحاضرة، وتقيم على أنقاضها هيئةً تناسب العصر الذي نحن فيه وبين اعتقادهم واعتقادنا خسارةٌ لا تعوض لو ننتبه وينتبهون

ها قد تقرر أن الجوالي[٦] في المهجر، وأن الناشئة في الوطن يضللون الرأي العام، لا عن سوء قصد، فكيف ولم؟؟؟ جرائدنا هنا إما مشتراةٌ وإما مسالمة وإما متاجرة. وهي لا تقدر أن تكون إلا كذلك. ولماذا؟ لأن اللبنانيين إما طماعون، وإما خاملون، وإما جهلاء.

«ولا أذكر هنا القسم القليل الراقي» وبحكم الاضطرار تجري الجريدة مع قرائها ونصرائها، على ما يحبون فهي إذاً منقادة لا قائدة، بل هي كالحرباء تتظاهر بما يكون قد أثره عليها أصحابها.

وجرائدنا فى المهجر هي، والحق يقال، أخلص نية وأقوم قصداً، ولكنها تبعد عن الحقيقة أحياناً، بمقدار ما هي بعيدة عن دائرة العمل؛ ولذلك أسباب كثيرة أهمها اعتقاد جرائدنا في المهجر الصدق والحرية، ببعض جرائدنا في الوطن. واستناداً على هذا الاعتقاد الذي كثيراً ما يكون في غير محله، تأخذ هذه الجرائد بتطويب فلانٍ وتقبيح فلانٍ الآخر، وترجيح رأي هذه الجمعية على رأي تلك، بحيث يختلط الحابل بالنابل، ويشتبك الرأي الصائب بالرأي الفائل[٧].

وكل هذا لا يعد شيئاً بالنسبة الى تغرير المراسلين فإني أعرف منهم من يتخذ جرائد المهجر واسطةً لتنفيذ مآربه أو مآرب من استخدمه. وقد تكون الجريدة الناشرة لتلك الرسالة واثقة بمراسلها فتَضل بها وتُضل

فكيف إذاً والحالة هذه، نعلل النفس بتحطيم القيود التي نرسف بها؟ ومن هم يا تُرى الذين يرغبون بالإصلاح مجرداً؟؟؟ إن الزمن الذي مضى على الزعماء والأحزاب والجمعيات، وكل دعاة الإصلاح كافٍ لأن يكون له بعض نتيجة. فأين هو هذا البعض؟ أفلا أقدر أن آخذ ذلك برهاناً على أن هؤلاء لم يكونوا يعملون كل هذه المدة، إلا لأنفسهم، ولو خَرب الوطن؟ أفلا يمكنني أن أقول للجرائد التي كانت موالية لحزبٍ دون الآخر، أو لشخص دون سواه، إنها كانت تبايعهم على الباطل، وإنها كانت تخون الشعب الذي يغذيها؟.. أتريد هذه الجرائد أن تقول لنا إن الشعب عدو نفسه وإنه متمسك بزعمائه إلى حد أنه لا يريد أن يسمع بهم تنديداً؟ أتريد أن تقول إنها إذا انتقدت فريقاً ترجع إليها أعدادها، فلا تقدر بعد أن تعيش ؟.. فلترجع إليها أعدادها، وليختنق صوتها، في سنتها الأولى، فهو خير لها من أن تعيش لتميت وطناً بأسره.

قلنا وأثبتنا أن لا أحد يعمل على الإصلاح، فهل يجب أن يسكت الأفراد الراقون وإن كانوا عدداً قليلاً؟ هل يليق بنا أن ندع وطننا فريسة بين أنياب الذئاب، وفيه لنا أمهات ووالدون، وزوجاتٌ وإخوةٌ وبنون، بل فيه كل ما يسمو إليه الفكرُ من جمال، وما تطمح فيه النفس من ثروة؟؟

فهل من وسيلة لإيقاف هذا التيار، سوى تعليم الشعب ما له من حقوق، وما عليه من واجبات نحو نفسه، وقريبه، ورئيسه الديني والمدني، وبالعكس، أي ما على كل هؤلاء من الواجبات نحوه؟ هل من وسيلة لأن تُفهم هذا الرجل من الشعب، أنه مساوٍ لذاك الرجل من سلالة الإقطاعيين أو المأمورين أو غيرهم؟ هل من وسيلة لأن تبين له أنه مطلق الإرادة يفعل ما يراه حسنا، لا ما يراه غيره، ويجتنب ما يراه قبيحا؟ هل من وسيلة لأن تجعله يُميز بين الحسن والقبيح، والنافع والضار، والخير والشر؟ وأخيراً، هل من وسيلة لإفهام هذه الألوف أنه من العار عليها أن تنقاد لرجلٍ واحدٍ يقول لها اذهبي إلى بيت الدين، فتذهب إلى بيت الدين، وانزلي إلى بيروت، فتنزل إلى بيروت وهي لا تعلم لماذا؟ ما هي الوسيلة أيها الإخوان المنتشرون في أقطار العالم، إلى قلب هذه الهيئة التي تشتغل لأنفسها، وإبدالها بهيئةٍ تشتغل للأمة وللوطن؟

فكَّرت في ذلك، وعرضت نتيجة هذا التفكير على بعض الأدباء المشهود لهم بالعلم وصدق الوطنية، فاستحسنوه، غير أن منهم مَنْ رأى الفكر كبيراً يطول على من رامه، ومنهم من أبدى عليه بعض الملاحظات فشكر عليها.

الفرد مهما كان كبيراً لا يقدر أن يأتي عملا كبيرا، ولهذا وُجدت الجمعياتُ، أي لتأتي أعمالا كبيرة شأنها الآن في الغرب. ولَمَّا كان علَّة شقاء الشعب اللبناني جهله واستبداد رؤسائه فيه، كان لا بد لنا من إزالة هذه العلة. وبماذا نُزيلها؟

نزيل الجهل بالعلم، ونطحن الاستبداد بالقوة. فيجب علينا إذاً، أن نُعلم الشعب، صغيرا كان أو كبيرا. فالمدرسة للصغير، والصحافة للكبير؛ وأريد بذلك أن يُبحث عن الأذكياء من أبناء الشعب الذين لا مقدرة لوالديهم على تعليمهم، وإدخالهم إلى المدرسة على نفقة الجمعية، وأن تُرسَل الجريدة التي يُحرر مواضيعها الراقية نخبة من أفاضل

الكتّاب، إلى مَنْ يطلبها مجانا، من اللبنانيين، ليَسْهُلَ لكل فردٍ الاستفادة منها. وعلى هذه الجريدة أن تكون القوة التي تحول بين الظالم وظُلمه، والخائن وخيانته؛ بل عليها أن تكون المُدافعة عن حقوق كلِّ وطنيٍّ، ولو كلَّفها ذلك تعباً جسيما.

هذه الجمعية القائمة الآن في مخيلتي، المؤلفة من كل عناصر اللبنانيين القائمين في لبنان، والمنتشرين على سطح الكرة الأرضية، هي الواسطة الوحيدة على ما أظن، لأن تجعل لبنان زاهرا سعيداً.

ألفا مشتركٍ لهذه الجمعية، يدفع كل منهم ذهباً واحدا في السنة دخلاً دائماً، مع بدلات اشتراكات الجريدة وريع المطبعة، وتبرعات الوطنيين، تكفي لأن تأتي عملاً مذكورا بل عملا مشكورا.

هذا هو الحلم الذي أتلذذ به الآن، ولا يبعد أن أستيقظ يوماً، وأرى شعاع الحقيقة يمزق أستار الوهم. فقد سئمنا الحياة مع الجهل، ومللنا التعلل بالأماني الكواذب.

هذه هي نقطة الدائرة التي سأعود إليها، ورجائي أن أرى الأفكار تحوم على هذا الموضوع، والهمم تنهض إلى تحقيق الآمال. وإني تاركٌ إلى إخواننا – وأخص منهم المهاجرين – رأيهم في ذلك؛ فإن حالتنا أصبحت لا تُطاق.

وما عسى يُؤمَّل من شعب معظمه جاهل، وحكامٍ كلهم مستبدون، ونوابٍ أكثرهم خائنون؟

البرق، ٨ أيار ١٩٠٩، مج ١ ، عدد ٣٥، ص ٢٧٦ و ٢٧٧ و ٢٧٨

****

حــول الموضــوع [١]

صدى مقالتنا الماضية - تنبيه الأفكار - استعداد بعض المشهود لهم بالصدق لمباشرة الإصلاح - بصيص أمل في المستقبل.

يسـرنا وأيْمُ الحق، أن يكون لكلمـتنا عن لبنان، في عـددنا الماضي، هذا الوقعُ الجميل في أنفس الأفراد الراقين من أبناء جبلنا المحبوب

ويسرنا أن تكون مكافأتنا على خلوص نيتنا، ما كتبه إلينا أصدقاؤنا في الأماكن المختلفة، من عبارات التنشيط التي أثارت بنا كوامن الغيرة، وأحيت بنا أملاً يُلاشيه ما يقابلنا به أصحاب المطامع، ورجال الغايات من المعاكسة والمجافاة. فليعلم ذوو المناصب العالية، أن الشعب قد بدأ بالشعور الحقيقي، وليطمئن الشعب الهادئ الساذج؛ لأن قوةً كبيرة ابتدأت تتألف من إخوانه الحقيقيين في الوطن وفي المهجر، لتُقيم حدود المساواة والعدل والحرية. وإننا ننشر هنا مع الفخر، رسائل الوطنيين الصادقين، وفيها صورةٌ حية لأنفسهم الكريمة التي تعرف الواجب وتقدسه.

أخي بشارة:

شــيء عن لبنــان

تحت هذا العنوان قرأت لك في العدد الأخير من البرق، ما لم أقرأه لك فيه من قبل؛ وكأنك أردت أن تكتب (شيئا عن لبنان) فذكرت أشياء كثيرةً، وأنحيت باللائمة على اللبنانيين وأحزابهم وجمعياتهم، إنحاءً شديداً، واندفعت على الجرائد اندفاعاً لم أتوقع حدوثه منك، مع ما أعهده من طول أناتك وشدة إغضائك على القذى.

لم أكن لأريد أن تكتب شيئاً اليوم يا أخي، لأنك جاهرت من عهدٍ غير بعيد بهذا المبدأ الطيب، وهذه الأفكار الراقية فماذا كانت النتيجة؟- خسارة مادية إذا تجاهلت بها أنتَ، فلا أجهلها أنا، وبات كثيرون ينظرون إليك شزراً؛ أما الذين شعروا الشعور الحيَّ، فقليل ما هم!..

أنا لا أظنك في ما تقول، إلا في وجهٍ واحد، وهو أنك عمَّمت القول ولم تستثن أحداً؛ كأن النظرة الإجمالية التي ألقيتها على هذا الجيل التاعس، جعلت حجابا كثيفا على عينيك، فلم تقعا على صغار العمال المنبثين في زوايا لبنان، الذين ينتهزون الفرص للقيام بالأعمال، وإن كانت صغيرة.. يوجد يا أخي نفوس كبيرة في غير الذين تعنيهم، لا يرتزقون من الأحزاب، ولا يتاجرون بها، ولا يملقون، ولا يُدَلِّسون، ولا يكذبون، ولكنهم يتلقَّون (بذور الزارعين) بفرح ويتخذون من وميض (البرق) أقباسا يستنيرون بها في ظلمات المستقبل المجهول.

لا تلم الجرائد يا أخي على جبانتها وانحياز كلٍّ منها إلى فريق، فإنها تتخذ بذلك طريقا للحياة. وكلُّ جريدة لا تنتمي إلى حزب وإن كان سافلا، لا تحيا طويلا.

أنت تريد أن تجهر الجرائد للشعب بأن لا يتمسك بزعمائه، إلى حدٍّ أن لا يسمع بهم تنديدا.. أنت تريد أن لا تعمل الجريدة لنفسها بل للشعب الذي يُغذيها، وإلا كانت خائنة. أنت تريد أن تكون حرةً مخلصة متفانية في خدمة الوطن اللبناني، تطعن في صدور المستبدين، وتصعق رأس الكبير قبل الصغير، ولا بأس إذا رجعت إليها أعدادها، واختنق صوتها؛ فهو خير لها من أن تعيش لِتُميت وطناً بأسره!.. ذلك منتهى الشهامة يا أخي ولكني أرى أن الفساد الثابت في الرؤوس القديمة، لا يمكن أن يُستأصل اليوم؛ فعليك بتدبير الرأس الصغير - أفِضْ في حثٍّ جرائد المهجر والمهاجرين! فإننا نتوسم فيهم روحاً حياً أُشربوه من تلك البلاد الراقية، وضُمَّ آراءهم إلى آراء المفكرين في لبنان، وحينئذٍ تكون الجمعية التي تدور في خَلَدك. ومتى كانت

الجمعية، كان ما ترجوه من رقي الأمة وما هي إلا فترةٌ من الزمن حتى ترى شعبا راقياً يقرأ ويفهم ويشعر ويتولى الأعمال عن عقل مفكر وعلم واسع.

هذا بعض من كثيرٍ مما أريد بسطه لك، أيها العزيز فانظر إذا شئت إلى الإصلاح، من هذا الوجه الأخير. فهو أضمَنُ - لا لحياة الجريدة، فإني على ثقةٍ بأنك لا تكتب ما لا تريد - بل لحياة مَنْ لا نُريد أن يظلُّوا منقادين انقياداً أعمى يمضي بهم وبأولادهم إلى الهاوية

ابراهيم منذر(٨)

✡✡✡✡

صديقي

إن حديثك عن لبنان، في العدد الأخير، هو والحق يقال، صوت لبناننا الذي يتألم اليوم من جمعياته وأحزابه وزعمائه وصحافته. بل هو صوت الحقيقة التي قلَّما جاهر بها إنسان وسلم من ألسنة مَنْ يدَّعون الوطنية، وينادون بالإصلاح، وهم عن الإصلاح والوطنية بعيدون. وإن لم تُسمعكَ أودية لبنان، ورباه، صدى صوتك اليوم، فعسى أن يُسمعك إياه، المهجر لأن البعد عن الوطن، غالباً يُقرِّب المرء من حب الوطن الحقيقي المجرد عن المآرب الذاتية والمطامع السياسية.

صديقك

أمين ريحاني

✡✡✡✡

أخي

إن كلمتك عن لبنان،.في العدد الماضي من «البرق»، صادفت استحساناً في قلب مَنْ أحبَّ لبنان وتأكد يا أخي أنه، وإن لم يكُن الآن حظٌّ لتلك الكلمة، عند الزعماء، وعند

بعض اللبنانيين، فليست هذه بأول مرة رأينا الحقيقة ضائعةً عند هؤلاء القوم. وسيأتي يوم لا يذكرون لك هذه الكلمة إلا ويذكرون الضمير الحرَّ والوطنية الصادقة، والعواطف الشريفة، والمخيلة الحساسة التي أملت عليك فكتبت ما كتبت.

وأنا أسألك بحق لبنان الوطن المحبوب أن تثابر على هذه الكتابة، المرة بعد الأخرى، شفقةً على بقية ضمائر حيةٍ بين تلك الآكام، وذكرى لقومٍ نائمين. والسلام عليك.

من: رشيد تقي الدين

البرق، ١٥أيار ١٩٠٩، مج ١، عدد: ٣٦ ، ص ٢٨٧و٢٨٨

****

حول الموضوع [٢]

ورد علينا كثير من رسائل الفضلاء، وملؤها التنشيط على معالجة الموضوع اللبناني الذي طرقناه في عددنا الأسبق. فاكتفينا بنشر الرسائل الآتية، شاكرين لجميعهم الغَيْرة المجسمة في كل كلمة من رسائلهم:

قرأت مقالتك الأخيرة عن لبنان؛ فرأيت فيها غَيرةً متقدة، ولهجةً وطنيةً حقة. ووقفت طويلا عند كل كلمة نددت بها على ما هناك من الخلل، وشعرت باندفاعك الشديد نحو الإصلاح، ورغبتك الكبيرة ببلوغ ذرى التقدم، وموت الأحزاب التي تسعى لغاياتٍ خصوصية، ولو ضحت في سبيلها أمة بأسرها.

على رسلك يا أخي فإن الأصوات وإن خفتت، والمآرب وإن ساءت، لا بد لها من الانقلاب، عاجلاً كان أو آجلا. سُنَّةُ الله في خلقه وليس لسنة الله تبديل

لا بد لهذه الأصوات الساكنة أن تعلو يوماً، ولهذه الأحزاب الشخصية أن تتلاشى. فالأمة متى دخلت في النور، وتمزقت عن عيونها براقع الوهم، لا تقبل بهذه الحالة التي هي عليها. وكذلك لا يجب على الشبيبة الراقية أن تستسلم لليأس والقنوط، لأن في لبنان اليوم أفراداً نسمع صوتهم من حين إلى آخر، فترى ثمة صوت حرية الضمير، ممزوجاً بالحب الأكيد والإخلاص التام، وعلى هؤلاء الأفراد إن في لبنان أو في المهجر تُبنى الآمال، لأن صوت الحق إذا ذهب اليوم مع الريح، فسيكون له في المستقبل، بكل صدر، دويٌّ عظيم.

وليس الذنب وحده على الأحزاب، بل الذنب على كل لبناني يشعر ويفهم ولا يسعى. يشعر أن الشعب بحاجة إلى التعلم، ويفهم جيداً أنه لا يتوصل الى الرقي المطلوب إلا بهذه الواسطة، ولا يسعى لتعميم المدارس في بلاده، إن بالمال أو بالقول أو بالعمل. لا ذنب على الأحزاب لأنها هكذا نشأت وهكذا ترعرعت، ولم تجد قطُّ مانعاً لها؛ بل بعكس ذلك لم تكن ترى إلا منشطين؛ فسارت لا تلوي على شيء، وتقدمت إلى غايتها

غير مهتمة بما سيكون وراء ذلك من خير أو شر. فمتى تعلَّم الشعب وعرف حقوق وطنه عليه، وحقوقه على وطنه ورؤسائه، يقوم بوجه هذه الأحزاب، فيضطرها إلى التشتت، ويُنشئ له أحزاباً جديدة غايتها منفعة الوطن ونجاحه، كما نراه في جميع البلاد الراقية فالأحزاب هي حياة البلاد؛ إنما يجب أن تكون غايتها منصرفة لا إلى فرد بل إلى مبدأ، فتعمل عند ذلك لنجاح الوطن.

فأكرم بهذه الروح التي تتجلى على صحيفتك، وتختلج في صدر القلائل من مواطنيك! ويوم تتابع الأصوات العارفة نافخةً في بوق الإصلاح، مستعدةً عن كل غاية سياسية أو مادية، يوم تنتشر المعارف وتعم المدارس نبشر لبنان وغيره، من البلاد العثمانية بالنهوض ونبشرك بإبراز فكرك إلى عالم الوجود إن شاء الله

يوسف نخله ثابت

✡✡✡✡

لم يتيسر لي أن أقرأ العدد الخامس والثلاثين من «البرق» الذي لَمَّح في «شيء عن لبنان» قبل العدد السادس والثلاثين المذكور؛ فقرأت اللمحة اللبنانية، وكنت أتمنى عند قراءة كلِّ سطرٍ من سطورها أن يكون شهاباً لامعا في كل لبنان، فيراه ويقرأه كلُّ فردٍ في لبنان، لما تضمنه من التجرد التام، والتنزه المطلق وطلب الإصلاح الصحيح.

ولا أريد أن أُلهيكَ ولا ألهي قراءك الكرام، بإطراء ذلك المقال، لأن القول الحسن كثير والرسائل الإصلاحية عديدة من كتابنا المجيدين، وكلها يستحق المدح والثناء، ولكننا كما تقول، أفقر اليوم إلى الأعمال منا إلى الأقوال.

وكل يعلم أن الشعب اللبناني بفطرته، حَسَنُ الطوية، شريف النية، مخلص القصد، نبيله. فإذا كثر انتشار المقاصد الإصلاحية المنزهة المجردة بينه، لا يكون أسرع منه إلى الائتلاف والانضمام، ولا أقدر منه على الاندفاع إلى الأعمال المجيدة التي يرتقي بوطنه فيها إلى مراقي التمدن وذرى العمران. ولا أريد أن أُسهب في الكلام الآن عما تقدم، لئلا يمل قرَّاؤك الكرام من طول البحث في موضوع واحدٍ، والسلام.

شاهين الخازن

مقالتك في العدد ٣٥ «شيء عن لبنان»، لم تكن أول برهانٍ على وطنيتك الحقة وإخلاصك الأكيد، ولا الحقيقة الأولى التي أبنتها بكذا جرأة مدهشةٍ عرفتها فيك.

إن جعجعة الإصلاح التي ذكرتها، لم تكن لمجرد الإصلاح، ممن ينادون به، وهم عن الإصلاح بعيدون؛ إن هنالك أمراً آخر يا أخي، يطلبونه ومتى وصل أحدهم إليه انتهى الإصلاح عنده، بل بالحري انتهى كل شيء.

لكن ما نحوت به، بصورة عمومية، من اللوم على جمعيات لبنان، إن لم تكن مصيباً بأجمعه، فأنت ولا شك، مصيب بأكثره. على أن وراء تلك البناية التي أنت من جملة أركانها، قلوباً كبيرة ونفوساً شريفة وأيدياً عاملةً أخذت بذورها تنبت، ولا أرى زمن الحصاد ببعيدٍ على أني أطلب إليك يا أخي، أن تداوم على بث مثل هذه الأفكار؛ وبذلك تقوم بالواجب عليك، وتفي بالعهد الذي ارتبطت به، ولست إلا من الصادقين!

جبرايل نصار

البرق،٢٢ أيار ١٩٠٩، مج ١، عدد ٣٧ ص ٢٩٤ و٢٩٥

****

وطن ضائع

لبنان الذي ضرب أبناؤه في الأقطار الأربعة أضاعوه. والجبل الذي أدرّ اللبن والعسل على أبنائه رذلوه. فعمامة الثلج التي على رأس صنين[1] هي كفن للشيخ[2]. والأنهر التي تتفجر من الصخور هي دموع الطبيعة على الميت.

كان يعلل النفس بكسر القيد. ويفتر للأمل اللامع من وراء البحر فإذا بالتعلة أصبحت علة. وإذا بالأمل أصبح مللا

صدّرت «المنارة» سنتها التاسعة بعدد مزدوج جالت[3] فيه أقلام الكتاب فكان للبنان نصيب من سهامه. وصدّر العدد بمقالة لفارس أفندي نجم محررها السابق وفيها شكوى من لبنان ونظامه.

الإخوان في البرازيل قرأوا على ما أظن حكاية الثعلب والطبل؟

فعلى رسلكم أيها الإخوان. إن الحكمة تقول خير الأمور الوسط فلنكن حيث تقول الحكمة.

لفارس أفندي سؤالان: الأول – لماذا لا تسمح الدولة للبنان بفتح ثغوره[4]. والثاني – لماذا لا تضطرها الدول الحامية[5] الى الفتح. ويفسر السؤال الأول رغبة الدولة بمحو النقطة السوداء ويفسر الثاني تقاعد اللبنانيين «في الماضي» عن المطالبة بحقوقهم ومتى عمل الثاني أبطل الأول – من أجل هذا جاهد فريق هنا في هذا السبيل ومنه «مجلس الإدارة».

إن لبنان لم يكن نعجة الحكومة الماضية. فأي لبن امتصت منه تلك الحكومة إلا إذا كان هناك شيء أضاعه جهل اللبنانيين أنفسهم.

مهما ساءت حالة اللبنانيين تظل خيرا من كل حالة سواها. أفليسوا هم الحكومة وهم الجند؟ أو ليس لبنان حكومة ضمن حكومة ترعاه الدولة ولا تأخذ منه بدلا لرعايته.

أجل إن جهل اللبنانيين للقوانين وعدم أهليتهم للامتيازات التي منحت لهم كل هذه الأسباب تجعلهم يستهينون بأنفسهم ولا يهتدون منها للوصول الى محجة السعادة التي يسعى إليها كل نسمة في الوجود

ليس من الدولة يطلب إقامة المعاهد والمصايف ولا منها يطلب «إنشاء المتنزهات ولتسهيل وسائل الراحة» ذلك في الولايات نفسها يطلب من المجالس البلدية ولهو كذلك في لبنان.

فعلى الشعب الذي منه تتألف المجالس البلدية أن يقوم بهذه المكملات والبلدية كالحكومة في لبنان. كلاهما من الشعب يتألفان. ومع ذلك فلم نرد العمل في إصلاحه.

يقول فارس أفندي «إن الدولة الدستورية لم تمد إلى لبنان يد الإصلاح ليدركها أهله. إن في الانضمام الى الدولة الجديدة الحياة التي لا يجدها بلد لا دولة له»

ونقول له أعطنا شعبا عارفا بحقوقه متحدا بقلوبه لنجرَّ المتصرف[٦] عن كرسيه ونهدم مجلس الإدارة[٧] على رؤوس من فيه. ونقول للدولة العلية أعطينا أفضل من هذا متصرفا ودعينا ننتخب أفضل من هؤلاء نوابا فقد سادنا الجهل ولكن إلى حين ومنذ ذلك نرى إذا كانت الدولة لا تسمع صوتنا وإذا كان نداءنا لا يجاب.

إذا لم تتكفل كل ولاية بإصلاح الدولة السريع وترميم ما هدمه العهد الماضي وبعد هذا فلنفترض أن لبنان من هذه الولايات التي تشتغل لنفسها.

لنشتغل إذاً لنؤلف جمعية قوية. لنبذل المال في سبيل تعزيز حقوقنا. ولنكن شعبا راقيا. ما بالي لا أسمع إلا أصواتا مختلفة. أرونا عملا واحدا بدلا من مليون كلمة تقولونها.

«يجب أن يكون للبنانيين وطن»

فما هو الوطن إذاً؟

هو مقر الإنسان له فيه ما لإخوانه من حقوق وعليه ما عليهم من الواجبات.

وهل انطبق هذا التحديد على غير اللبنانيين من جميع عناصر الدولة.

إن حكومة لبنان من شعبه وهي مطلقة اليد في إنشاء المشاريع ومنح الامتيازات بتعدين المعادن وتوليد الكهرباء فبقي أن نكون رجالا لنصلح أنفسنا.

فبقي أن نبذل المال «لإنشاء المصانع التي تدار بقوة الكهرباء وتتولد من شلالات الأنهر الكثيرة».

إن تذلل اللبنانيين لقناصل الدول وتراجمتهم نتيجة الجهل. أما النظام الذي وضعه أقطاب السياسة الأوروبية فلا يخلق بنا أن نعده وهما.

وقد خلط «ق . م» بين الاستقلال المطلق والاستقلال الإداري. لهذا كان كلامه خارجا عن الدائرة اللبنانية في كل نقاطه الأولى.

☆☆☆☆

أنا لا أسمي هذا العيد استقلالا إذ ليس كذلك ولا أنظر إليه معتزا لأنه جاءني عن طريق العار. وأنا أول لبناني يطرح[٨] الحجاب على يوم ٦ أيلول[٩] وينظر إلى حالة لبنان الحاضرة كنتيجة لمقدمة منسية.

البرق، ١٩٠٩، عدد. ٥٩، ص:١

****

هـذا الجبـل

إذا لم ينهض اليوم فسينهض غدا. وليمزقنكم بردا وليزلزلنّ بكم عرش الظلم، وليدكنّ بكم صرح الجهل. فإذا ختم على قلبه فإنما إلى حين وإذا أغمض الجفن فإلى أمد أقصر من قيد الرمح، فاستبدوا واظلموا فمصيركم الهاوية لو تعلمون.

كونوا أرقاء، وكونوا مأجورين، وكونوا أذلاء وكونوا كما بوأكم سيدكم، فإن إرادة السيد يا عبيد مقدسة، واطعنوا صدر وطنكم بحراب يضعها في أيديكم وما تطعنون بها سوى أنفسكم وأنتم لصغارة في نفوسكم وعماء في قلوبكم وكلب على وظائفكم بتم لا تميزون.

ساعدوا ما شئتم على تفريق العناصر وبثوا رسلكم في شعاب لبنان ومنعطفاته. وقولوا بعد ذلك إن خصومكم تعمل على تكدير الأمن ونشر الفوضى ولو كنتم عقلاء لعمدتم إلى غير هذه الوسائل التي ستجنون منها الدماء طاهرة وتذكون بها جذوة فوضى قد يطير لها صوابكم وتتقطع لها قلوبكم فيرجع كيد الكائد إلى نحره وتسقطون في حفرة نبشتموها، لقوم لا ذنب لهم سوى أنهم غضاب عليكم لأنكم خونة.

أحكومة مطلقة.. نكون حزبا يناضل حزبا آخر، ورئيس حكومة مطلقة أقل صفاته الحقد وأعوان وأذيال لا يقدسون سوى مصلحة أنفسهم يعملون على خنق الأفكار وقتل الضمائر وإحياء الضغائن ومع هذا فحكومة الآستانة تنظر ولا تمدّ يداً الى جسم هذه المشاكل الداخلية. كأن فتيان الترك يجهلون ان الفتنة أقرب من الأقرب بعد حوادث القتل التي تجري بين بعض جهلة الدروز والمسيحيين وكأنما الدول تنتهز هذه الفرصة حتى تمد يداً الى ثلمة في لبنان تنفتح معها مسألة لبنانية هي قادرة على سدها اليوم وقد يصعب الخرق على الراقع فيما بعد.

نحن من غير رأي الذين يقولون بالالتجاء الى غير الدولة ولكن هذا الإغضاء من دولتنا العزيزة يوقع القلوب في اليأس، وهل من فرق بين اليأس والموت والشعب يطلب نوراً ويطلب حياة.

يقول لنا الشعب اللبناني علامَ لا تجيبنا حكومة الآستانة إلى مطاليبنا ولا تصيخ إلى شكاوينا ولا تحرك إصبعها لتزيل هذا الظلم عنا، أفلا تدعي أنها والدة لنا فأين هو حنانها ونحن في حالة تتفتت لها أشد الصخور قساوة، أين هو ذلك الحنان؟

ونخشى إذا بقيت هذه الحكومة الحزينة لا تفكر سوى نصب المكايد لخصومها السياسيين ومحاكمة الصحافيين منهم أن يزيد حبل الأمن اضطرابا، وتزيد الفوضى انتشارا، ويقع ما نحن خائفون وقوعه فيبقى ذلك عارا مرسوما على جبين المتصرف وكل رجال سياسته الخرقاء.

إذا لم يبال هذا المتصرف بنا فقد سبق له واستخف بالحكومة نفسها ذلك يوم داس قرار محكمة التمييز بنقض الجناية إذ أعاد دعوى زوين لدائرة الاتهام بعد أن أوجب مجرد النقض إخلاء سبيل أسيره ولم يفعل

لم يفعل لأنه يريد أن يسجن زوين بك لانتقام شخصي، ولأنه اعتمد على أصنام متحركة لا ضمير لها ولا عاطفة ولا شعور، ولأنه يريد أن يسترجع هيبة سحقت بأرجل الوفد من أهل لبنان يوم بيت الدين.

لم يفعل بأمر الصدارة لأنه على ثقة من أن محكمة المتن تصدر مثل الحكم الذي أصدرته على جرجي بك زوين وهو الذي بلغنا هذه الساعة ونحن عند هذه العبارة.

قالوا حكمت محكمة المتن على جرجي بك زوين بالسجن سنة وثلاثة أشهر وبتغريمه أربعين ليرة عثمانية رسوما ومصاريف.

لو علمت هذه المحكمة أنها سجلت بيدها وصمة عار على نفسها ولو علمت بما يقوله فيها الناس لاختارت تحت هذه الأرض نفقا وحسبها أننا نعتقد فيها بعد عملها هذا رقاً لا تنبته نفس نريدها لرجل نعرفه.

كل ما دلت عليه أقوال الشهود الذين سمعنا لا يستوجب حكم محكمة المتن، فكيف يريد هؤلاء الناس أن نقول إن حكمهم لم يُلَقَّنوه تلقينا ومن الصغار أن رجلا يدعي الشرف ونقاوة الضمير يسلم قياده لقوم لا شرف لهم ولا ضمير

يقولون إن فارس أفندي مشرق يتجول في قرى المتن عاملا على تقوية حرب المتصرف

وقالوا لنا إنه قصد إلى المتين لمناهضة بيت عقل شديد، وقالوا إنه خاطب بعضهم في المروج وفي غيرها بشأن إدخالهم في الماسونية كأنما هو يريد أن يجعل حزب الحكومة من جماعة البنائين، وإنه ليضحكك إذا عرفت من الذي خاطب ومن الذي ينتقي

لا لوم على فارس أفندي لإنه افتتح بماسونيته قارة جديدة ولكنه يلام لتدخله في المسألة التي نحن بصددها كما بلغنا

نعود إلى مخاطبة الدولة. نقول لها إن الشعب لن يصبر على إهانة هذه الحكومة الحزبية له وسجن نائبه واختلال الأمن في ربوعه وإراقة دماء ذويه فهو يلتجي إليك رجاء أن تنقذيه ويهمس في أذنك ما يردده عقلاء قومه في هذه الأيام

نرى خلل الرماد وميض نار
ويوشك أن يكون له ضرام[1]

بشارة عبدالله الخوري

البرق، ١٩١٠، عدد ١٠١، ص ٣٩٧

****

دمعة على طلل

تلك ربُوعهم، فقف بها وقفة امرئ القيس على الطلل البالي وهذه أمجادُهم تُداس لا بأخفاف المطيِّ بل بأخفاف الليالي، وابْكِ العزَّ عفَتْ معالمه، والمجدَ أشجاهُ طاسِمُه.[1] فقد خُنتَ الوطنية إذا لم تقف في معالم القوم، وقوف شحيحٍ ضاع في الترب خاتمُه[2].

ثم سَلْ إذا صادفتَ مُجيباً غير الغدير، يئنُّ بين الصخور كالمرأة الثكلى خطف الذئبُ وليدها؛ فهي وراءه تهرول أو كالسهم زلَّ عن القوس، فهي تُرنُّ وتُعوِّل. وما أنين الغدير،على غير وطنٍ خانه بَنُوهُ، وجنف عليه ذووه. فهو لباسٌ للمسح، أو ينفلق فجر الإصلاح، وزحاف على الحضيض، أو تخفق راية الفلاح. فقد علت يدُه إلى عنقه وما اجترحت نكراً، ويبس لسانه في فمه وما نطق هجرا، ولكنه خمول القوم مجلبة هذه الطوارئ، وكفى بها عبرة ذكرى.

وإذا سألت عن الداء، وقد تقادم به العهد، فحول نظرك إلى هذه المعمعة، وقد عقد عليها العثير سُرادقَ مطنبة؟ ترى الأخ يحمل على أخيه، والولد يطعن في صدر أبيه، والنمّام ينفثُ سمه في الصدور، والمداهن يلين لك مجسه، حتى إذا انقلب، كان عقرباً يسعى، أو هو الأفعى. فلا صلة للألسنة مع الضمائر، ولا تنم الوجوه بما انطوت عليه السرائر، حتى كأن السماء غضبت على الأرض، فلا تُنبت لساناً حراً، ولا جناناً برّاً، أو تمطرنا غيثاً مدرارا، فيغسل هذا الدرن المتراكم؛ أو تنفحنا ريحاً إعصاراً، فيجرف هذا الوباء المتفاقم، فإننا ورب الوجود، قد سئمنا الوجود.

ودونك عن شعب لبنان جوابا وأنت غير سائر، شراذم تنقاد كما انقادت لراعيها السوائم بلا علمٍ يكون حجة على القائد القومَ إلى الهاوية لمطمع يبغيه، ولا نصلٍ في كف أروَعَ يشق الصدر فيستطلع خافيه، ولا جامعةٍ توجه العقول فتحكم بالألفة فتنشد، ولا رابطةٍ بين القلوب فتقضي بالوطنية، فتُعبد، ولا قدمٍ تسعى إلى المجد فنسعى وراءها

عشرات ومئين ولكنهم يسعون إلى مصلحة أنفسهم، فيتوزعون قطعانا لا رأي لهم فيُسمع، ولا قول لهم فيُتبع، ولا هم يُرحَمون.

ذلك ذنب الشعب وقد هضَّه[٣] الضيم وما نهض، وبلَّه الذل وما انتفض، وكان أجداده بالأمس دفّاعي الأذى أن يُلمَّ بجيرانهم، ومنّاعي الحيف أن ينزل بإخوانهم فهو اليوم طعمة الحاكم يطبخهم كيف يشاء، وأُكرة[٤] الزعيم يوجههم أين يشاء. وهم لا يبدون على هذا الجور احتجاجاً، كأن حياتهم سُخرت لهؤلاء الزعانف أو كأن دمهم استحال ماءً صراحا، وكانت تغلي مراجله من قبل

ويحاً له من شعبٍ فروعه نابتة على غير أصولها، يقوم فيه الهزاؤون ناهجين السبيل غير قويم القصد، صائحين لغير ما مُهْزة[٥] في النفس أفلم يتصل بك النبأ في الأمس: «المؤامرة وما أدراك ما المؤامرة، نارٌ من الحقد حائرة، في نفس صاغرة»، تلك هي المؤامرة؟

رجلٌ عميد في المنكر، ولوع ليس بالأسود بل بالأصفر. قالوا إنه اعترف – مجانا – بأن عصابةً من أهل السوء معادية لحكومة لبنان، دفعت له بضع مئاتٍ من الليرات ليذهب بحياة جماعةٍ معلومة فأحجم، وكان لا يحجم عن عشر هذا المبلغ، لو صحت الرواية، ولكن الصدق لا يصلح له كل لسانٍ. فهو نادر وجوده، والشرف لا ينبت في كل نفس، فهو قليل عديدُه

وما نحن بالمهتمين للأمر، شأن الجرائد العاقلة من قبل ومن بعد؛ ولكن يؤلمنا أن يصم سافلٌ جبينَ لبنان بوصمة لا يرضى بها أديبٌ لوطنه، وفيه عظام الأجداد. وبقايا الأمجاد، تحرسها أرواحهم طاهرةً ذكية.

وايمُ الله، لو وُجدَ في هذه البقعة الجرداء، مَنْ يجودُ بنصف هذا المبلغ، مندفعاً مع التيار أيّاً كان مصدره، لما بقي لبنان يتحركون دونه وهو جامد. ويرفلون في مطارف الحياة وهو مطروح على أقدام الموت، تصيح حوله الجرائد نادبات نوائح.

فانحرافاً الى الحكمة وأنتم تفلحون. وميلاً إلى الروية في ما تقولون وفي ما تفعلون! أما وربِّ السماء، لو مطرت ناراً سنةً بلياليها، لما طهرت جراثيم الفساد،

ووكرها قلوبكم، ولما أكلت هشيم الأحقاد، وتربته صدوركم. فقد حان لكم – رؤوس البلاد – أن تعقلوا بعد الطيش. وقد حان للشعب الذي أشقيتموه، أن يندفع عليكم كالنمر وقد شاهد دمه، وعرف خصمه

فما الثورة، تترك عرش الظلم، بالتي ندعو إليها بني قومنا! فطيروا إليها زرافات معرضين صدوركم للقذائف تُمزقهم أشلاء. ولكننا ننظر في سماء المستقبل، إلى غيمةٍ نخاف أن تحمل الوبال في جوفها إلينا؛ فهي في صورة التنين، له لسانٌ من نارٍ مندلعٍ وقد تدلي به هذه الجلبة إلى الجبل، فيلتهم الذخيرة الواقية ويمحو الأمل المبتسم.

ومَنْ يجعلِ الضرغامَ للصيد بازَهُ

تَصَيَّدَهُ الضرغامُ في ما تصيدا[6]

بشارة الخوري

البرق، ٥ تشرين الثاني ١٩١٠، مج:٣، عدد ١١٢، ص ٦٩

****

رجال الغد

عفواً يا فتى لبنان إذا قطعت عليك حديثك فإن على اللسان كلمة إذا لم يلفظها أحرقته وفي الخاطر حديث إذا لم أقله حسبتني النفس جانيا عليها. وما كان حديثي إلا ليطربك وليطرب أمثالي وأمثالك من فتيان لبنان فاسمع وعِ.

رأيتك تفرغ جام اللوم على الرؤوس البارزة في البلاد وسمعت صنواً لك يعول وينوح على لبنان كأنه ذلك النبي الشاعر يعول وينتحب على أطلال أورشليم وكلاكما لو عرف قدر نفسه لما أعول ولا لام

ترى في السياسة اختلالا فنقول للحكومة أنت سبب هذا الاختلال ونجد في البلاد خمولاً فنصيح في وجه البطريرك أنت يا أيها الشيخ الجليل أصل هذا الخمول، وفي اعتقادنا أن الحكومة والبطريرك قادران على إصلاح الحال، ثم نلتفت إلى كبار القبائل صيادي الوظائف ونصرخ في آذانهم حي على الفلاح فلبنان سائر على الطريق الذي تريدون! إن آباءنا والذين تقدموهم من آباء وأجداد قد علموا أن الأحوال لا تتغير بمجرد إرادة الحكومة ورضى البطريرك ومساعي الزعماء فما بالنا نحن المتأخرين المتعلمين لا نرى طلوع الشمس إلا من وراء ابتسامة الكبار ولا نرى غروبها إلا من وراء عبوسهم.

ولقد علمنا نحن أننا سلع يتاجر بها ذوو النفوذ وأبواق يصيحون بها ليخيفوا الخصوم حتى إذا كان يوم وكان فيه اتفاق بينهم وبين من خاصموا سكتوا وأشاروا علينا بالسكوت.

ألا فليقل لي فتيان لبنان أية فائدة جنوها أو جنتها البلاد من سيرهم وراء الرؤوس الكبيرة وأي المبادئ الشريفة قد أيدته اجتماعاتهم العديدة بذوي الوجاهة. فهل نرّ قرن الإصلاح في لبنان وتحسنت حال فلاحه وأنشئت في قراه المدارس؟

لا لعمري بل وقع النفور واشتد بين فتيان البلاد ذوي القدرة على عمل شيء جيد، لِمَ لم ينشقوا وينضم كل منهم إلى زعيم ليكون لديه بمثابة درجة جديدة للسلم التي أعدّ أو يعد للصعود إلى الوظيفة التي يريد.

ألا ويحاً لنا من شبيبة ثابتة في تربة الذل لا تجد لها لذة إلا في العبودية وتعسا لفتيان يركض الواحد منهم وراء الوجيه إلى أن يقيء مِعاه[1] ثم يجيب العاتب عليه أنا «نصبة» زيد أو بكر من الزعماء.

بالأمس كان هذا الأمير أو هذا الكبير من رجال الحكومة يبيح لرئيسها هتك ضميره وهو ينادي تبارك الرب الذي أرسل إلينا حاكما هذه صفاته وكان فريق كبير من الشبان يردد هذا النداء ويسبّح حكومة لبنان.

واليوم هوى ذلك الأمير أو الكبير عن كرسي الوظيفة فصار للحكومة عدوا يطيل عليها لسانه وينسب لها التقهقر والجاسوسية ويلصق بها هضم حقوق الشعب الذي هو «خادمه» واندفع وراءه فريق من الفتيان يقول قوله ويلعن تلك الحكومة المستبدة الجائرة.

أنا لا أعتب على الكبراء لتقلبهم فقد عودونا من قبل ذاك ولكني أضن بالشبيبة أن يكون شأنها شأنهم وأن تبقى كالآلة بين أيديهم يديرونها كما يريدون أو كالبوق يقول عن غير علم بما يقولون.

وهلا علم شبان لبنان أنهم إذا اتحدوا قوة كبيرة تفعل في البلاد ما تقصر عن فعله الفرق والأحزاب؟

ألا فلتفق الشبيبة اللبنانية ولتكن القوة التي يجب أن تكون فينهض لبنان بنهضتها ويصير الى ما سننتظر عبثاً صيرورته بسعي البطريرك[2] وإرادة الحكومة.

شاب(بشارة الخوري)

البرق، ١٠ حزيران ١٩١١، عدد ١٤١٠، ص ٣٠٥

****

فتاة الدستور
لسنة ١٩١٠



في الهوى لها العلمْ
والحسام والقلمْ

دولة الجمال بها
خافق لها علم

تحت بندها ازدحمت
أنفس وتزدحم

تلك ربّة سجدت
عند مجدها الهمم

تاجها لآلئه
بالنجوم يبتسم

الحجى أريكتها
صولجانها الحكم

والجلال بردتها
والوقار والحلم

والعقول وهي إذا
روّضت لها خدم

في ربوعها هبطت
من سمائها الشيم

✡✡✡✡

إيه فالهوى حكم
في النفوس ترتسم


وهي فوق سدته
حفّ عرشها العظم
شمسها التي لمعت
فالظلام منهزم
والعيون إن شخصت
غضّ جفنها الألم

✡✡✡✡

«غادة العلى» قدماً
فيك هامت الأمم
جئتهم وكان دم
جئتنا وليس دم
والذي له القدم
ما سعت بنا قدم
كان شحمنا ورما
زال ذلك الورم[1]

✡✡✡✡

مرحباً ومرحمة
شفّ جسمنا السقم
زرتنا معايدة
عاش ذلك الكرم

الثمي ثغر الشرق تحييه، وعانقيه تبعثيه حيا. وضاحكيه تنعشيه، وصافحيه يعود فتيا.

ساجلي أطيار السحر، وداعبي أوراق الشجر، وكوني ابتسامة في ثغر الزهر، وابعثي من نورك إلى الزنبق في الحقل، تفتر ثناياه. واسكبي دمعة على وجنة الفل، تفوح رياه.

أنت عشيقة الحكيم. أنت قيثارة الشاعر. أنت حياة الشعوب. آية أنت كتبتها يد القدرة في صدر الفلك الأعلى حتى لا ينالها الخامل ابن التراب وابن الجهل.

كانت طريقك إلينا مفروشة بالسوسن والريحان فخفضت لنا جناحك لطفا وأنلتنا من وصلك ما لم نحلم به. فكنا كمن ورث مالاً ثم أضاعه فما حزنت عليه نفسه ولا بكت عليه عيناه

جئتنا لعام مضى وكنا لم نباشر عملا صالحا فقلت إنهم أطفال في الدستور. وجئتنا في هذا[٢] العام ونحن لم نباشر عملا صالحا فماذا عساك تقولين؟

أيتها الحرية

تقول تواريخ الأمم إن السنتين من حياة الأمة بعد انقلابها لا تكفيان لترميم ما تهدم وإصلاح ما تخرب وأنهما لا ضير من أن تعد الأمة فيهما عدتها للسير في سبيل الرقي

أيتها الحرية

العلم هو الأساس القائمة عليه هذه المدنية. ونحن في عصرنا البائد لم نتعلم سوى ما يعود بنا الى الوراء ولم يكن لنا من قبل - كما هو اليوم - من يلقننا دروس الوطنية وأماثيل الاتحاد. لم يكن لنا من ينزع من قلبنا بذور التعصب وجراثيم الفساد. بل كنا إذا فتحنا نافذة للنور أغلقتها اليد الحاكمة وزجت بنا في الهاوية حيث الظلام أبدي

أيتها الحرية

الأمة جاهلة ألفت الخمول السنين الطوال. فهي لم تعتد الإقدام على المشاريع الوطنية. والحكومة ضعيفة لا تقوى على توطيد الأمن توطيداً مكيناً. فللأمة عذر في الاحتفاظ بأموالها وللحكومة عذر لرخص بنائها ولأنها محاطة بالفتن مهددة بالحروب.

ونحن أيتها الحرية نقنع بخلوص نية أولياء الأمر. ومتى خلصت النية مهدت سبيل المصلحة العثمانية ومتى مهدت هذه السبيل اندفعت الأمة كالسيل الجارف الى منازعة الأمم الأخرى بقاءها فزرعت أموالها في الأراضي المخصبة فأنبتت ذهبا وفضة ومجداً وسؤددا.

نحن نقنع بخلوص نية قادة الرأي ومتى خلصت نية هؤلاء لا يلعبون بالأمة على أهوائهم ولا يضحون بالراحة العمومية لنيل مأرب نفسي كما هو شأن هذه الجمعيات قديمها وحديثها، فقد أصبحنا ولا طاقة لنا على احتمال النوائب ومصادمة أهل الرجعى.

هذه صفحة من حياتنا الجديدة نرسل عليها الحجاب. هذه حقيقة لا ريب فيها أيتها الزائرة بعد طوال غياب. إن لك في قلوبنا لمقاما رفيعا وإن في ما نحن صانعون من ضروب الزين ومشعلون من الأنوار دليلا ساطعا على شغف النفس بك وإن كنا نجهل حقيقتك وللجاهل كل العذر.

أهلا ومرحبا أيها العيد وتحية وسلاما.

البرق، تموز ١٩١٠، مج ٣، عدد ٩٨، ص ٣٧٣

****

شـــــوارد

من عبدالحميد إلى عمانوئيل

أنا ناقل لكرام القراء كتابا بعث به شيخ الاتيني[1] إلى رصيفه عمانوئيل عاهل البرتوغال. يظهر أنه شق عليه أن يرى العرش يسقط بعد العرش والإطلاق يستحيل إلى التقييد والأثرة تستبدل بالشورى، ساءه ذلك فجاش في خاطره ما صبّه في هذه الكأس الملأى بأنفاسه الطيبة. الكتاب أوردته الجالية ونصه ما أنا ناقل:

قصر الاتيني. في ...

ولدي وأخي المحبوب عمانونيل في جبل طارق[2]

إذا دعوتك بولدي فجائز لي لأنك بمثابة أحد أولادي في العمر. وإذا دعوتك أخي فجائز أيضا لأنك أخي في المصائب. لقد بلغتني مصيبتك مع حشمتلهما[3] والدتك وجدتك المكرمتين. لا تغتظ أيها الحبيب مما وصلنا إليه ولا تبك على مجد زائل وعظمة فارغة. ألسنا مرتاحي البال. من كل قيل وقال ألسنا بمعزل عن السياسة ورجالها. بعيدين عن المتطفلين عليها وجهالها.

كانت مصيبتي بهؤلاء المشايخ والأئمة الذين سيطروا على عقلي وجعلوني أعتقد فعلا أنني ظل الله على الأرض كمصيبتك بالقسوس والرهبان الذين جعلوك تعتقد أنك فوق بني الإنسان.

دعوني عبدالحميد فظننت أن لي علاقة فعلية معه جل جلاله. ودعوك عمانوئيل الذي تفسيره (الله معنا) فظننت أن سلطتك من الله وأنه أرسلك رحمة برعيتك مع أنها كانت تئن من مظالمك (اسمح لي أن أخاطبك بحرية ضمير فنحن في الهوى سوا).

كانوا يكثرون لي من السراري حتى عميت أبصاري ويكثرون لك من الممثلات ما أخذ عقلك وجر عليك الويلات. وما كنا ندري أنهن كالطعم الذي يلقى لصيد الأسماك.

تالله لقد فات ما كان يجب استدراكه فليس الذنب على من يصنع المفاتيح الكاذبة ولا الذنب على من يبيع آلات القتل بل على من يقتل بها.

أواه لقد لعبوا بذقني قبل أن لعب بها الشيب ولكن لا عتب عليهم ولا تثريب. ثم إذا كنت قد خطّأت نفسي وخطّأتك معي لاغترارنا بظواهر الأمور وانغماسنا بالملذات فلا يجب أن نبرر غيرنا ...

صدقني ياعزيزي عمانوئيل أن كل الناس مثل بعضهم البعض والسر في الشراب لا في الإناء.

نعم لا أنكر أن البلاد لم تكن كما يرام خالية من تداخل الأجانب. ولكني كنت أعرف من أين تؤكل الكتف وأعرف كيف أؤجل المطالب وأهزأ بالطالب.

أنا الذي كنت أهزأ بالملوك والقياصرة. أنا الذي كنت ألعب بعقول دهاقنة الساسة كما تلعب الأولاد بالأكر. فيا حسرتي على نفسي لقد أخذت على حين غرة وسقت إلى سلانيك[٤] رغماً ووضعت في بيت سمّوه قصراً كانت اسطبلات خيلي أفخر منه

فماذا أقول وإلى من أشكو؟ أأشكو، إلى السلطان محمد الخامس[٥] الذي كنت أقيه مثل مطعوم النجاص. وأداريه مثل العين الرمداء. وأخشى عليه من خطرات النسيم أن تجرح خديه، ومن لمس الحرير أن يدمي بنانه. وقد نسي فضلي عليه؟ أواه يا عزيزي عمانوئيل. أواه من بني البشر ما أكثر تقلبهم وما أكثر نكرانهم الجميل. لقد نسوا فضلي وفضلك. لقد نسوا معروفنا. نعم لقد نسوا لأنهم ليسوا أكثر من بشر. وعلى هذا يجب أن ننسى إساءتهم ونغفر لهم حسبما قال سيدنا عيسى في إنجيلكم.

عزيزي عمانوئيل

أرجو من بنوتك إذا ذهبت غداً إلى انكلترا أن تذكرني أمام جلالة الملك جورج[٦] البريطاني ابن أخي المرحوم إدوارد[٧] بالماسونية[٨] لعله يسعى بفكي من الأسر فقد أصبحت شيخاً هرماً لا خوف مني أن أطمع بعد بملك فأقوم بدسيسة ومكيدة ضد

شقيقي السلطان محمد هنأه الله بملكه السعيد وأطال أيامه. وغاية ما أتمناه أن أزور لوندرا[٩] ثانية لأني حافظ منها أفضل أثر جعلته دستور أعمالي مدة ٣٢ سنة ذلك هو دستور الحرية والمساواة والإخاء. ففي لوندرا رأت عيناي النور وفي لوندرا أريد أن أرى الظلمة الأبدية.. الساعة الآن الثانية عشرة. ولا يؤذن لي أن أسهر إلى ما بعد هذا الوقت من الليل. ولكني قبل أن أودعك أخبرك أنه انتهى إلي بطريقة من طرقي الكثيرة أن قد ألفت جمعية سرية ولكن مخبري زاد على ذلك أن الجواسيس كشفوا أمرها وفشوا سرها.

ألا قبّح الله الجواسيس المناحيس وقبح تلك الساعة التي استخدمتهم فيها وعلّمت الناس أن يستخدموهم بعدي. فهم أشبه بغربان السوء

فهل نظرت كيف أن طابخ السم آكله؟

يا عزيزي عمانوئيل

كنت أود أن أخوض أكثر في شأن مصيبتنا وأعطيك بعض الإشارات الفعالة لدسيسة هائلة إذا كانت عينك لاتزال تطمح إلى العرش (وهو ما أظنه لا بل أؤكده) فإنني لو كنت (شاباً) مثلك أو كان لي من العمر ضعف عمرك على الأكثر لكنت أعمل أعمالاً ترقص لها عجايز (   )[١٠] ولكني كالأسد المسن المقيد فلم يعد بطاقتي أن أقوم بعظائم الأمور، أما أنت فكل شيء موفور لك وإنما تنقصك الإرادة فقوِّ قلبك وشد حيلك وضع في بالك نابليون[١١] لما رجع من منفاه في [ألبا] وعاد إلى عرشه قوة واقتداراً وعليه فليس عودك إلى العرش مستحيلاً ولا تكون أول من خلع وأعيد. أمس حررت إلى إخواننا في المصائب مظفر الدين شاه العجم[١٢] وعبدالعزيز سلطان مراكش[١٣] والامبراطورة أوجيني[١٤] لتأليف جمعية بيننا لا نقبل فيها إلا الملوك الخلعاء غايتها توحيد كلمتنا ورفع شأننا كغاية أكثر الجمعيات، فعسى أن يصادف اقتراحي هذا آذاناً واعية لننهض بهمة وعزيمة تفلان الحديد.

ولو أتيت لأكتب كل ما في حافظتي من الأخبار لما كفتني الأوراق التي بين يدي مع ذلك فأرسل لك مع هذا صورة أحد المكاتيب التي أرسلتها الى العزيزة أوجيني ومنه تعلم ماضي وحاضري بأجلى بيان

فالآن اسمح لي أن أودعك من صميم الفؤاد راجياً أن تنوب عني بتقديم واجباتي الاحترامية لحشمتهما الملكتين والدتك وجدتك المكرمتين. وإذا نظرت حبيب القلب عزت باشا فبلغه سلامي وقل له إنني وقعت في الشرك ولا مناص منه على ما يظهر

سلامي له ولجميع المحبين الذين يسألونك عن أسير اللاتيني.

عبدالحميد

بشارة الخوري

البرق، ٤ شباط ١٩١١، مج. ٣، عدد. ١٢٤، ص. ١٧٦

****

يا وطناً لم يغب عن الفكر

يميناً! لم ننس واجباً للبنان وإن جنف ذووه، فإذا كدر معينه يوماً فهي الأيام لا تدوم على حال والليالي حبالى من الزمان يلدن العجائب!

لبنان! وهل رأيت بلداً طيب الهواء، طيب الماء، كهذا البلد المقدس التربة، الرامز الى جمال القدرة بما فيه من جدول صاف، وزهر بسام، وطير مغرد!

لبنان! وهل رأيت بلداً رجاله كرجالك لهم قلوب ولكن جامدات، وعقول ولكن مظلمات، يندفعون ولكن في غير سبيل الحق، ويتهالكون ولكن على هيكل الانتقام، فيا لنكبة الوطنية بمثل رجالك!

ورب الوطنية! إننا لنكبر على هذه اللحى والشوارب من المتربصين فى زوايا القصور والمتربعين في كراسي المناصب، أن لا يقوم فيهم عميد يدعو إلى نهضة إصلاحية يترامى صداها من شمال لبنان إلى جنوبه، فتهب على هذه الأرواح الرواقد نسمة من نسمات الإصلاح تنتعش لها القولب وتنتفض بها الجوانح!

سكتنا بعد أن هززنا الرجال وكشفنا عن الضمائر ثم عدنا وكانت اليك عودتنا يا وطناً لم يغب عن الفكر.

ما كان:

ذلك الماضي سافر النقاب، وتلك حوادثه لم تطو في حجاب، وإن نسيت لا تنس ضعف الحاكم يوم وقف فى وجهه مجلس الإدارة فاستعان بحكمة ذويه فكانت حادثة زوين وضانقة الوثيقة ومطاردة الصحف.

وإن نسيت لا تنس دعوى الميرووقوف الحاكم ورجاله خصوماً لخصومه وبين هؤلاء ثلاثة من أعضاء المجلس عاكسهم الحاكم في الانتخاب الأخير حتى إذا فازوا تهدد الأولين بإفساد الانتخاب فصالحاه ثم وقفا على منبر (لبنان الرسمية)[1] يكذبان أصحابهما غير حاسبين للانتقاد حساباً.

وإن نسيت لا تنس حملات الجرائد على ظلم استفحل أمره، وانتقام كبر على العدل احتماله فلم يسلم الحاكم وأشياعه من مطاعن الجرائد اللبنانية حاشا «لبنان» و«لبنان» - مطاعن سددتها إلى صدره فهاج يحمل الحاكم لتصدر الأحكام على الجرائد تباعاً دراكاً.

ولا تنس إن تنس ما كان من أمر دعاة الحرية وخيانة بعضهم تزلفاً إلى أرباب السلطة زاحفين إليها صغاراً على التراب - وهي لعمر الحق جناية في نظر العدل تستحق قطع العنق وسل اللسان، وماذا تؤمل من ذي سيرة ملطخة بالأوحال جاء يزركشها بالسمسرة والبرطلة[2]، على ما هنالك من جهل ذميم، هذا وبعض الأفراد من رجال الحكومة وأبناء الشعب يتزلفون إليه ظناً أن له مكانة عند المتصرف[3] مهدها له اعتقاد الناس بأنه سمساره الخاص وباطلاً يعتقدون.

ذلك مثال مصغر لما كان فدونك بعض ما يكون:

أما والسياسة لبست غير زيها الأول، فهي اكليركية النفوذ ماسونية اللسان، ولقد شعر المتصرف بدنو يومه فعمل على مصافحة الطيلسان، ولكن فاته أن قلبه - على كبره - لا يوزع بين الزعامتين زعامة الاكليروس وزعامة الماسون، وفاته أن الاكليركية في لبنان لن تكون متفقة من وجه مع سياسة اللبنانيين الأحرار، فأين هي الحكمة اللامعة في التوفيق بين النقيضين والجمع في وقت واحد بين الماء والنار!!

أما السياسة في قبضة الحاكم يدير دفتها كيف شاء، فهو اكليركي منذ الساعة تعاهد على ما علمنا مع شيخ بكركي[4] وهو القنوع المسالم ولسوف تكون

هذه المسألة مجحفة بحق المنتمين الى هذا الكرسي من جميع الطوائف فينفر بهم هذا الإجحاف عنه أو ينضمون إلى من يحترم حقوقهم ويصون مصالحهم وما أكثر هذه الحقوق والمصالح!

ما يكون ! .. وهو اعتقادنا قلناه في ما سبق وقد تم، ونقوله في ما يجيء وقد يتم.

تنمر المتصرف أو أستأسد من بعد أن بطش بالمجلس فبات طوع بنانه، ولسوف يعيد نائبي المتن بعد أن يأخذ عليهما عهود الأمانة حتى لا يكون داخل جدران المتصرفية من لا يسبّح باسمه، وحتى لا يكون في من حوله غير الصادع بالأمر إنْ خطأ وإنْ صواباً!

وسلني أجبك عما ستؤول إليه محاكمة زوين ولا إخالك تجهل الرجل - تلك قضية أن يكون الحكم فيها أقل من سنة ليكون للمتصرف شبه حجة بكف يد النائب ومباشرة الانتخاب وقد يكذب وجدان المحكمة ظننا فلا يكون للمتصرف سبيل الى غايته، وقد تبرهن المحكمة إذا شاءت على استقلال في الرأي يجعلها أمثولة لصغار القلوب من زعانف المتزلفين.

وهنالك - في قضاء الشوف مسألة هي مسألة المسائل عند إخواننا الدروز، ألا وهي دعوى المير شكيب[٥]! وأوراقها اليوم (تحت طراحة[٦] المتصرف) سياسة ودهاء ...

لقد قرر المجلس الإداري (مستنطقه ومدعيه العمومي) أن في قرارات الشهود ما يوجب وضع قائمقام الشوف تحت المحاكمة - وفي المتصرفية حزب عنيد لا يهدأ له بال بغير عزله فهو ينتظر - إلى حين - نتيجة قطع المتصرف فى هذه المسألة حتى إذا لم يصدر الأمر بالعزل انقلب ذلك الحزب عليه وكان قوة تذكر في كفة الخصوم.

وإذا نظرت الى الصحافة اليوم تراها كلها في جانب الحكومة تؤيدها تصريحاً أو تلميحاً حتى إن بعضها انقلب سريعاً من العداوة الشديدة إلى الصداقة الشديدة وسرعان ما ينقلبون !....

ما يجب أن يكون:

لا نعرف أن رجلاً فيه ذرة من العقل يقبل بالحالة وهي كما هي - فوضى في المجلس وفوضى في الأحكام وفوضى في السياسة، تيار لا يصد بغير تيار مثله من رجال الإصلاح يهيبون بمجلس الإدارة أن يكون كمجالس البشر ويقولون للمتصرف اعتدل أو اعتزل(٧) ويطلقون ضمائر الحكام من القيود قاطعين بسيف الحق سلاسل الوسائط تضيع بها حقوق الضعفاء.

إن بارقا للأمل يلمع من سماء النهضة، ونافذاً كالقضاء يشق (مصراً) إلى لبنان ليستلم لواء الزعامة خافقاً للظفر، ومصفقاً للفلاح.

ولقد تكون - البرق - الجريدة المعارضة أبداً - في طليعة متطوعي هذه النهضة ويومها بإذن ربك قريب.

البرق،٢٠ أيار ١٩١١، مج ٣، عدد ١٣٨، ص ٢٨١ - ٢٨٢

****

للمقابلة [١]

يظنون، ونحن ننقل لهم تاريخ الثورة، وأقوال كبار الرجال، أننا نقصد التاريخ مجرداً. ولو فطنوا لعلموا أننا نريد من ذلك ما هو أسمى مما هم يظنون.

نريد أن نقف باللبنانيين على الروح التي انبعثت من قلب فرنسا، فكهربت الأمم الأخرى، أو على الشرارة التى طهرت الشعوب عن درء الخمول والانقياد.

نريد أن ننقل لكم أقوالاً هي عظمة الشعب متجسمة. بل هي القنابل رمى بها الشعب المستنير عرش الاستعباد، فيدكّه من أسّه وما لشعب - لو يعلم أهل لبنان - سوى القوة والحق متكافلين متضامنين، وحيث يكون هذان فهناك كل شيء.

«اذهب وقل لمولاك: إننا قد اجتمعنا في هذا المكان بإرادة الشعب، فلا نخرج منه إلا على رؤوس الأسنة ».

كلمةٌ وجه بها أحد النواب عهدئذٍ، إلى ملك فرنسا، وهناك السلطة المطلقة والقوة الضخمة، والعرش المنيع؛ وهناك أيضاً الشعبُ ومنه السلطة وفيه القوة وله العرش.

وحيث يكون الشعب فهناك الكفة الراجحة، ولا ترجح بغير الحق والقوة.

إن الشعب لواحد أين وجد وكيف سُمِّي ولكن هو الجهل يسطو عليه الدهاء.

وما الجهل إلا أليف الشعب في الشرق، فهو راسف في قيده حتى ينشق الحجاب عن عينه فيبصر النور

ولقد قرأت رجال التاريخ، وسمعت كبار رجال الثورة يقولون «لا نخرج إلا على

رؤوس الأسنة» فأرسلت بنظرة إلى المجلس في بيت الدين، وأعدت على ذاكرتي نواب اللبنانيين واحداً واحداً وأنا أقول ..

وإذا لُمتَ هؤلاء الكرام، قالوا لك إن الشعب لا يسند نوابه، كأنهم جهلوا اندفاع بني لبنان، على ظمأهم، إلى رجال الإصلاح؛ أو كأنهم جهلوا أن الشعب هو الأفراد القلائل يضحون بنفوسهم على مذبح الوطنية. فعلام لا يكونون هؤلاء الرجال؟

بشارة الخوري

البرق، ٩ أيار ١٩١١، مج: ٤، عدد: ٢١٥٣، ص: ٣٩٧

****

للمقابلة [٢]

لينزل أبناء سوريا، أو ليتنازلوا، فنقف بهم ساعةً في محكمة التاريخ، ولا نعرف أعدل منه حكماً وأنزه منه ضميراً.

قد أسيء إلى قومي إذا أنا جئتهم بنتيجة صارمة، على شدة شغفهم بالإطراء؛ وقد أوجعهم إذا قلت إنهم كالماء الراكد أسنت نفوسهم؛ فما هى تلك الضمائر النقية؟. وما أفلحت بلادٌ رجالاً لها هؤلاء.

أصيبوا بأن ورثوا مجداً موهوماً؛ فهم أبداً يتكلون عليه. وأصيبوا بأن ورثوا حكومة هي الجرادُ، بل أشرُّ، ولا تترك فى حقولهم شيئاً أخضر، ولا في جيوبهم شيئاً أصفر ولا أبيض. وقد يقول القارئ إني قصدت حكومة عبدالحميد، فالأمر كما قال

ورزح بنو قومي تحت أثقالهم، بل جمدوا جموداً هو الموت، بل شر من الموت على حد قول القائل: إنما الميت ميت الأحياء[1] ولبثوا على جمودهم حاشا قرقعة بعض جرائدهم وشعرائهم، لو صحَّ أن تسمى القرقعة حركةً، والحركةُ التي على هذه الصورة، حياة.

ولقد يبلغ الهوس ببعض حملة أقلامنا، بأن يجردوا، متى استعرت نار الحرب بين دولتنا وأية دولةٍ، فيلقاً جراراً من القصائد ذات الأوتاد والأعاريض مؤلفة (فرقها) من التبجح بمجد الأجداد والقنا المتكسر، والسيوف المواضي، والرصاص المزمزم حتى إن الشاعر ليحسب نفسه خاض المعركة محجَّلاً وعاد غير محجلٍ.

قوة في اللسان نقول معها، مع شكر الله وحمده (القناعة كنز لا يفنى). كأن الأقوال قدمت شيئاً في مصالح الأمم من قبلنا، ولكننا نعمد في مسلكنا هذا، إلى القول المأثور (من فاته اللحم فليشبع من المرق).

إلى هنا وصل بنو قومي ولبثوا جامدين. هبطوا من حالق النباهة إلى حضيض الخمول من غير ما أسف على ما فات

منذ شهور لو أخذت بيد السوري ووضعته إلى جنب الصيني لأنف أن تنزله هذه المنزلة. بل لعدَّ ذلك منك إهانة. عجباً أإبن ماء السماء إلى جنب واحدٍ من عبيد ابْن السماء؟ وابن سوريا مهبط الوحي ومبعث الأنبياء يقاس برجلٍ ذؤابته المرسلة من رأسه إلى قدمه شعارُ العبودية؟.

مهلاً بني قومي! سار القوم ونحن جامدون. وتحركوا وضمائرنا مبنيةٌ على السكون. فلا عجب إذا نظر إلينا ابنُ الصين اليوم، نظَرَنا إليه في الأمس. إن المرء ابن يومه. ويومه ابن جدِّه، وجدُّه هو ما قدمت يداه من صالحٍ لنفسه ولقومه

إن الصين أصبحت جمهورية!

هنالك قادة الرأي، علموا أن القصائد والأقوال المزوَّقة لا تقيم قائمة إصلاح. هنالك علموا أن الجهل هو العدوُّ اللدود؛ فحاربوه بكتائب العلم كتائبُ، سلاحها الأدبي مِنْ مدارس أوروبا ومجتمعاتها وصحفها.

أجل. شرعنا - والحمد لله - نُرسل بالبعثات تباعاً دراكاً إلى مواطن العلم الحقيقي. فعسى أن يكون لنا على يد هؤلاء الإخوان أسباب حياةٍ جديدة دعامتاها العدل والتساهل.

للصينيين نَشيد حريتهم، وفيه أمائر الروح الحية، ولنا أناشيد نظمتها العبودية في رقابنا، وما نثرت - يوم نثرت - غير الدمع في المحاجر.

إن يوماً لا نقابل فيه قذائف العدو بقذائف الشعر، هو اليوم الذي تلده لنا ليلة القدر، وما أدراك ما ليلة القدر!

البرق، ٢٧ كانون الثاني ١٩١١، مج ٤، عدد ١٧١ ص ١٤٦

****

بشرى للبنان

لقد ظمئت نفس لبنان إلى حاكم صالح مصلح حكيم عامل عمومي حساس فظفرت في شخص ذي الدولة، أوهانس قيومجيان باشا[1].

نهض منذ وصوله أو بعد قليلا إلى تحسين خزينة لبنان فخاطب الآستانة بلهجة العثماني المخلص من جهة أنه وكيل السلطان وناضل عن حقوق لبنان من جهة أنه حاكمه وراعيه فصرف معظم لياليه مفكرا كاتبا حاسبا منذرا مستعطفا إلى أن فاز أمس بالأمنية ونعم الأمنية.

لقد وقفت منذ الشهور شركات الريجي والديون العمومية وقفة في وجه الحاكم العزيز لنزعه من أشداقها حقوق لبنان بعد أن استطابته سنين طوالا على عهد حكامه السابقين حتى بلغ من إدارة الديون العمومية أن أرسلت مندوبها فكسر أجران الملح على شواطئ الجبل ولكن أوهانس باشا بختمه مستودعات هذه الإدارة ثأر للبنان منها فشفى بذلك غلاً كمن بين الضلوع.

ولقد كان من نتائج المفاوضات بين الصدارة العظمى[2] وحاكم لبنان من جهة وبينه وبين شركة ريجي التنباك من جهة ثانية أن وردت على دولته البرقية الآتية خلاصتها:

«نظر في مطالعاتكم السديدة بما يتعلق بمسألة التنباك وحيث كان من المسلم استثناء لبنان من أحكام الحصر «كما ذكرتم» وكان عدم توريده الى الجبل في السابق ناتجا عن عدم وجود أسكلة لبنانية ترسو فيها البواخر كما هو حاصل الآن فقد زال هذا المحظور بفتح اسكلتي جونية والنبي يونس وعليه فيستحسن أن تتفقوا مع شركة الحصر على ما يوافق مصلحة الجبل والشركة وإذا تعذر ذلك فلكم تعيين المقدار اللازم لمقطوعية لبنان وتوريده بطريق الاسكلتين المحررتين مع شدة المحافظة على منع التهريب».

ولم تصل البرقية إلى سراي بعبدا[٣] حتى خفقت القلوب سرورا فنهض مجلس الإدارة وفي طليعته رئيسه المفضال[٤] ودخلوا على الحاكم ليشكروا له بلسان الشعب اللبناني تفانيه في سبيل استرداد حقوق لبنان المهضومة منذ القدم فأجابهم بكلمات خلاصتها:

«إني أشكر لكم ما أظهرتموه لي من صدق شعائر الشعب اللبناني غير أني أعتبر عملي هذا وسائر ما أنا مباشره من الأعمال النافعة من أوجب الواجبات فإذا حق لي أن أسرَّ فبالثقة التي لي عند الحكومة الرئيسية هذه الثقة التي أشعر بمثلها في الرأي العام اللبناني فهي وحدها خير ذريعة أصل بها إلى خدمة الجبل بكل ما فيّ من الميل إليه».

هذا وما اقتصر الانتفاع بتصريح الباب العالي[٥] على التنباك فقط بل تناول كل احتكار في السلطنة بحيث استدر دولة الحاكم لخزينة الجبل لا أقل من ٤٠ ألف ليرة سنويا. ألا فليحيَ الحاكم

أما وقد انتهت مهمة الحاكم أو كادت مما أخذه على نفسه تجاه الآستانة فقد بقي على المجلس ان يقوم بما عليه من واجبات الوطنية. إن دولة الحاكم لا يهمه إلا أن تكون المصلحة اللبنانية فوق سواها وأن يكون له ما يريد إذا احتكوت الريجي تنباكنا ودخاننا، لما أن هذا الاحتكار يقطع ألوف الأيدي اللبنانية العاملة في معامل لبنان فنكون بذلك قد دفعنا بهم الى الهجرة التي إنما تعمل الحكومة ويكتب الكاتبون إيقافا لتيارها

أما إذا كان لا بد للحكومة من الاحتكار فأمامها في الوطن ومصر[٦] كثير من ذوي الثروة فعليها أن تحثهم للعمل إذا هم لم يقدموا تخوفا فإنهم إذا تألفت الشركة منهم أشغلوا الأيدي اللبنانية فنفعوا من جهتين

لقد أخذنا على المجلس سكوته في الماضي فعساه ينطق الآن.

البرق، ٧ شباط ١٩١٤، مج ٦، عدد ٢٦٢، ص ٥٦٤ – ٥٦٥

****

السـوري المحـارب

لم أشاهد منذ عهد بعيد كفجر أمس فَجْرا،

مرَّت بي فرقة من إخواني السوريين المتجندين تحت الراية الفرنساوية الشريفة

كان ذلك عند نهر بيروت، الحد الذي يربط الجبل بالمدينة

جُند سوري في أحسن زي وأحسن صحة، جاء وفي صدره عدا الحنين لبلاده سَوْرة من سَورات الانتقام.

جند سوري يمشي على تراب الوطن المقدس: وما الوطنُ سوى الأحبة الذين غادرهم على سطحه، يبتسمُ الجمالُ في ثغورهم وتسطع الطهارة في وجوههم، ويتمشى النشاط في أبدانهم.

جنْدٌ منا ولنا

قِطَع من أكباد الأمهات السوريات، ذكرت العهدَ وقدَّست الواجب. رجعت طيور لبنان إلى أوكارها، والآساد عادت إلى العرين.

إلى أين؟ إلى أين؟

واستمروا في طريقهم لا يَلْوُون على شيء، ولكنَّ صدى أغانيهم الوطنية كانت[1] تصدَع الفؤاد.

دخلوا حدود لبنان، تَسْطع الحرابُ على أكتافهم كما يسطع الدمعُ في عيونهم.

كانوا يُنشدون. واستمرَّ الجُند في سيره.

وكـان على جـانبي الطريق بعضُ مَنْ غَلِطَ الزمـانُ بهم فـأبقـاهم، ولكنـهم كـانوا كأخشاب السفينة المحطمة: قطعةٌ عند كلِّ صخر.

أين العذارى يَضفِرن لهم الأكاليل؟

أين الأمهاتُ يَهتِفن لهم بالأغاني؟

أين الشيوخُ يَضُمُّون إلى صدورهم حرَّاس البلاد؟

لا أشبـال في العـرين، ولا زغـاليل في الأوكـار، والأزهار التـي غـادروها ريَّانةً بسامة، لفحتها السموم فذوت، ثم ضربتها الزعزع[٢] فتناثرت.

✿✿✿✿

وأطلوا على قرية قريبة هي مَسقطُ رأس أحد الجنود. - وكان الجندي في مقتبل الشباب، غادر في القرية والدين وإخوةً وأقارب وأحبابا.

غـادر القـرية يجـري فيـهـا دم الحـياة؛ النسـاء يَعملن في البيـوت، والرجـال في الحقول، والأولاد يملأون الفضاء صياحا.

وأحسَّ الجندي بخفقة عظيمة في قلبه.

تالله قد صدق النبأ.

خاطرٌ مرَّ كلمح البرق في رأسه، ولكنه وعى شيئاً كثيرا.

وعى الأنباء المتوالية عن المصائب التي حلّت: المجاعة وقتلاها والأوباء.

وكأنما كان بين قلبه وقلوب إخوانه، أسلاك كهربائية وحدت بينهم الشعور، كما وحدت بينهم المصائب؛ فوقفوا، وعلى كل وجه، أسطر للكآبة محتها الدموع أو كادت.

وبرز الجندي الشاب عن الصف، ثم قدم الى البيت القائم على كتف الطريق، ولم يكن يحتاج إلى قرع الباب، لأن الباب نزع كمعظم أبواب القرى ونوافذها وسقوفها؛ نُزعت وبيعت لتُمسك في الناس رمق الحياة، ولكنها لم تستطع.

وأسند الجندي رأسه إلى يده، ويده على الجدار وبكى ..

لقد فهم كل شيء. لا دَيَّار(٣) في الدار.

وشعر الرفاق بالخطب الذي نزل بالرفيق، فنكسوا سلاحهم احتراما لحزن رفيقهم، وبعد أن حيُّوا تلك القرية بل المقبرة، واصلوا المسير

افتتاحية

البرق، ١٩١٥، عدد ١٠-٣-٤٠٣، ص ١

****

الانتقام العادل

لم ننس، والجرح لا يزال طريا، بربرية[1] الألى فتكوا بالشعب فتكتهم الذريعة. بل كيف ننسى وعظام الضحايا البشرية ورفاتهم لا تزال متبعثرة هنا وهناك تذكرنا بالويل الذي كابدت والهول الذي تجرعت.

عشرات الألوف من بني سوريا لم يراع بهم هؤلاء البرابرة رحما ولا ميزوا مذهبا فالسلم الأشعبي[2] والتكالب على حطام الدنيا.

لقد طفحت حقول الجرائد على اختلاف أديانهم، بمطالبة الحكومة بعقاب هؤلاء المجرمين من جمال السفاح الى أحقر رجل في هذا البلد تعمد قتل الفقير ليملأ كيسه من ماله المنغمس بالدموع والدماء، تعمّد قتل الفقير لسرقة دريهماته التي هي حياته وحياة بنيه وكم كان في هؤلاء البنين كأفراخ القطا لم ينبت عليها الريش.

قلنا وقالت معنا الجرائد بوجوب الانتقام العادل من أولئك الولاة الأتراك - إن الإنسانية لا تخلع الحداد حتى يعاقب قاتلو بنيها والتجأنا والتجأ الجميع من أرامل وأيتام وعجائز وكل ضعيف، التجأ كل هؤلاء الى رحمة الحكومة، إلى رحمة الحلفاء النبلاء الذين حاربوا ليثأروا للعدل المضاع وللضعيف الذي انتزعت روحه من صدره إشباعاً لمطامع الأسافل.

إن شعوب الأمم المتحالفة في أوروبا قررت معاقبة الجناة من الألمان والنمساويين والأتراك، قررت ذلك ونفذت أو كادت قراراتها هذه ولكننا نحن الشعب الضعيف الذي يشكو من بعض أبنائه كما يشكو من الغريب المعادي نريد أن ننتقم فلا تقوى يدنا الضعيفة على الانتقام فنلجأ إلى الحكومة التي تمثل الحلفاء النبلاء ليجعلوا لنا ما

جعلوا لأنفسهم من حقوق الانتقام من أعداء الإنسانية انتقاما مبنياً على عدالة القانون وعدالة الوجدان

كنا ولا نزال نعجب بصحة وجدان سعيد أفندي زين الدين مدعي عمومي الاستئناف إنه الرجل الذي برهن في كل أدواره على الجرأة الأدبية والوجدان الحي فإننا نطلب إليه بلسان من نكب من بني قومنا، بلسان الذين تجرعوا الموت غصصا، بلسان الذين آكلوا الجيف وأكلوا أبناءهم، نسألهم بلسان هؤلاء أن يتجرد لمعاقبة القتلة ومن ساعد على القتل من غير ما مراعاة في المذاهب - داء البعض من أبناء هذه الأمة الشقية.

ليضرب المسيحي المرتكب والمسلم المرتكب بسيف القانون الذي يموت على حده نفوذ المتنفذين وعواطف المتفعين من أية طائفة كانوا

إن حكومة اليوم غير حكومة الأمس، هي قوية فلا تبالي في سبيل خدمة الإنسانية بعوارض الأشياء

إن اليوم الأعظم بل الموسم الأكبر بل المهرجان الفريد هو ذلك اليوم الذي يساق به جمال وطغمة جمال، يساقون أذلاء بعصا القانون والعدل ويحاكمون ومن كان لهم يد على قتل أبناء سوريا وما ذلك اليوم على حكومة اليوم بكثير ولا موعده كما اتصل بنا ببعيد.

البرق، ١٩١٩، عدد ٤٤-٤٣٧، ص ١٧٤

****

أثر الأقدام

تبارك الله! كيف استحال القصر جنة أزهارها العيون والمباسم، وأغصانها القدود تتراوح بين الهوى والهواء.

هي ليلة في إحدى قصور بيروت، ليلة راقصة، وما أولع قصورنا بأمثال هذه الليالي - هكذا كانت على عهد الترك، وهكذا هي على عهد الفرنسيس، وهكذا ستبقى إلى أن يرث الأرض وارثوها.

وكانت الحفلة متنوعة بين شرب ورقص، وربة البيت بين السيدات كالبدر بين الكواكب، وفي الحضور كان بعض الضباط الفرنسيس دعوا فما رأوا جميلاً أن يرفضوا.

قامت حرسها الله تدعو ضابطا إلى الرقص وساءها أن رفض على ما هو مشهور من خضوع أبناء السين لحكمهن في الجور والعدل.

- علام ترفض الرقص يا سيدي وإنما أحيينا هذه الليلة إكراما لكم.

(وكانت عينا الضابط لا تبرحان البساط)

- عفواً يا سيدتي.

(واستمرت عيناه في البساط)

- نعم إني كثيرالخجل يا سيدتي.

- ولماذا؟

- لأني... لأني... أرى...

- وماذا ترى؟

- انظري «وأشار إلى البساط» ألا ترين آثار أقدام جمال باشا وضباطه عليه؟

- وجاء صباح اليوم الثاني وقد نشرت البسط على مماشي ذلك القصر وسطحه.

أإذا نظفوا البساط فهل نظفوا أنفسهم؟!..

ملاحظ

بشارة عبدالله الخوري

البرق، ١٩١٩، عدد ٩٤-٥٠٥، ص ١

****

حول مجيء عزمي[١]

هول الليالي الخوالي.. هل رن في أذنيك

سوف لا يذكر التاريخ صفحةً أوجع للمروءة الوطنية، وأنفذ في قلب بيروت من موقف صحافتها وأغنيائها عند مجيء عزمي بك الوالي التركي الرهيب!

لم نكن لنعلم أن يخطر لعزمي بك أن يزور بيروت وهي لا تزال حفلى بذكريات المشانق سالت على حبالها أرواح إخواننا طاهرةً بريئة؛ يقينٌ أن في هذه النفوس بقية ذكرى لا تلبث أن يثور بركانها متى هي تمثّلت أحبابها معلّقين لا لذنبٍ إلا لأنهم كانوا في طليعة شباب الوطن إقداماً وإخلاصاً ووطنية

ولكن عزمي بك جاء... وجاء يحمل إلينا تلك الذكرى الأليمة، فإذا بعضنا من صحافيين ومثرين يطوي تلك الذكرى ويأخذ بتعداد محاسن الرجل ويتسابق إلى الحفاوة به وهو لو نظر إلى أي بقعة في سماء بيروت، لحدجَته عيونُ الشهداء تترقرق فيها الدموع ملامةً وأسفاً

لسنا في مقام محاكمة الرجل، أهو بريء في نفسه، أو غير بريء مما جناه الاتحاديون علينا. لكنه كرجل يجُرُ وراءه ذيول ذلك العهد، عهد الإرهاب والإبعاد والقتل والتجويع؛ فقد كان علينا – حتى على اعتقاد براءته – أن نقف خاشعين للنكبة، موجعين للتذكار، فتصدر صحفُنا أجمع على إحدى زواياها إطار أسود.

احتراماً وإنعاشاً لعظام شهداء الأمة

ولو فعلنا ذلك من غير أن نقول كلمة في الرجل، ومن غير أن نتجاوز عليه كضيفٍ، لكان أول من احترمنا، ولكان الافرنسيون الذين يعدُّون علينا أنفاسنا ليعرفوا مبلغ تربيتنا السياسية ودعوانا الوطنية، يعترفون لنا بأننا أمة لها مزيّة الأمم الحية التي إذا ألّمت بها ذكرى أو جرحت لها كرامة توحد شعورها إزاء الذكرى، واتحدت أيديها ذيادا عن الكرامة المجروحة

ويأبى العدل علينا، أن ننكر على مجموع الأمة، شعورها الصادق ووطنيتها البريئة وما[٢] هؤلاء الذين راحوا يشربون نخب عزمي فوق عظام الراقدين في «الرمل» فقدماً لم تخل منهم أمة، إلا عاراً.

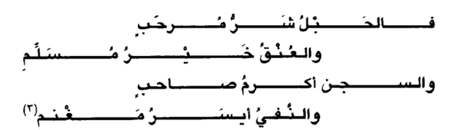
وإلى الذين نسوا تلك الخطوب المدلهمة، والمجازر الخرساء، نعيد نشر بعض الكلمة التي افتتحنا بها «البرق» بعد انحجابه طيلة مظالم الحرب وهي هذه:

«حنَّ اليراعُ إليكا
فابسُطْ له راحَتَيْكا
يا برقُ لا كان يومٌ
ألقى الحجابَ عليكا
هَوْلُ الليالي الخوالي
قد رَنَّ في أُذنيكا
ولم تَزَلْ تَتَمَشَّى
الأشباحُ في ناظِريكا
قالوا قضَيتَ فسالتْ
حُمْرُ الدموع عليكا
أجلْ وهذا رشاشٌ
منه على بُرْديكا
عُدْنا أنا ويراعي
قُمْ واعتنق أخَوَيْكا»

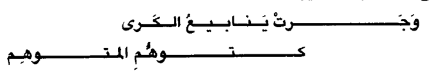
من أي ليل إلى أيِّ ضياء، بل مع أي قفص إلى أيِّ فضاء، خَرجَت هذه النفوسُ بعد أنْ رَسَفتْ طويلا طويلاً في سلاسل البؤس والعناء؟

ليالي لم تَقَعْ على مثلها عيونُ البواكي، ومَجازرُ لم يَرْوِ المؤرخ لها مثيلا، ومظالمُ تَركَتْ ظلم نيرون في جنبها قليلا، ومحَتْ مساوئَ أتيلا، وصيَّرتها شيئا جميلاً، كانوا:

لا يسألونك إنْ قُضِبْتَ أَثِمتَ أم لم تَأثَمِ


فالحَبْلُ شَرُّ مُرحَبٍ
والعُنْقُ خَيْرُ مُسَلِّمِ
والسجن أكرمُ صاحبٍ
والنُّفيُ أيسَرُ مَغْنمِ[٣]

ونشر الإرهاب رايته، فكنتَ تتخيل كلَّ شبحٍ جنديا مطارداً، وكل كتابة حُكماً بالإعدام مُبرماً، حتى قلقت المضاجعُ بالناس فلا تتذوق عيونُها الكرى إلا غراراً، خيفة شرّ يفاجئ، أو خطب مستطير.


وَجَرتْ يَنابيعُ الكَرى
كتوهُّمِ المتوهِّمِ

البرق، ١٤ آذار ١٩٢٧، عدد: ٢٧٤٩، ص.١

****

جمعية الإنسان الوحش

(مؤتمر مؤلف من ذئب وخنزير وثعلب وكلب)

- عن برق ٣ تشرين الثاني ١٩١٨ -

لتطمئنَّ الجثث في قبورها، ولترجع الأرواح إلى عزلتها، لأن العدل أخذَ مجراه.

عجباً للمقابر وهي مقرُّ السكينة، أصبحت مقر الضوضاء، فمن حفيف الأرواح إلى قضقضة العظام والأقحاف[١].

عجباً للمقابر وهي هيكل القدس، ومرقد الحق، تصبح للدنس مقاما، وللرياء جلبابا.

مَنْ هؤلاء الأشباح الذين يقلقون هدوء ذلك الليل، ويلطخون بأنفاسهم الفاسدة، نسيماته النقيَّة. وماذا تراهم يريدون من هذه المدينة الساكنة في هذا الليل الساكن؟..

وكان في وسط المقبرة ضريح مرتفع من بلاط مصقول، وعلى ذلك البلاط رُفعت أربعة كراسي جلس عليها أربعة رجال.

وكان في الوسط طاولة عليها أربع جماجم مفرغة، ولكنها مترعة من الدم.

وساد فجأة سكون عميق كالسكون الذي يخيم عادة في منازل الأموات.

وكان القمر يبرز من وراء جبال لبنان، فاستضاء به المكان فكشف عن وجوه الرجال الأربعة؛ فإذا على تلك الجثث رؤوسٌ ترتعش لها المفاصل - رؤوس حيوانات على هياكل بشرية.

ولم يكد يظهر القمر بتمامه من وراء الجبل، حتى تنحنح كبير المجلس، وكان بين كتفيه رأس ذئب، وبعد أن فتح فكيه متثائبا، أخذ الجمجمة التي أمامه بيده وقال:

«إن جمعية الإنسان الوحش» التي لي الشرف أن أترأسها، مندوباً عن جمعية «الاتحاد والترقي»[٢] قد أنجزت والحمد لإبليس، مهمتها تماما وكمالا».

«إننا قد أخذنا على عاتقنا تمزيق البلاد وقد نجحنا، وإهلاك العباد وقد نجحنا وهما كما تعلمون الأُسَّان اللذان ينبت عليهما مقاصد جمعيتنا الكريمة».

«لقد ضمَّتْ جمعيتُنا هذه أهم أعضاء الهيئة البشرية. وقد أخذ كل عضو منها على عاتقه، أن يبُثَّ روحَه الخبيثة في نفوس زملائه لتتعزَّز بهم قوة الجمعية، وتستعين بهذه القوة على إنجاز مقاصدها».

«وقد اجتمعنا بعد أن خرجنا من هذا المعترك ظافرين، ليُقدِّم كلُّ مندوبٍ منَّا بياناً وجيزاً عن أعماله».

«أما «الاتحاد والترقي» التي أتشرف بأن أكون مندوبها، فقد أنجزت مهمتها بكل نشاط فهي بملء الفخر، تصرح أنها هي التي مسحتْ بإصبعها عن الخارطة لون السيادة التركية».

«فلنشرب على سر الاتحاد والترقي».

ووقف [الأربعة][٢] وشربوا نهلةً من تلك الجماجم، ثم جلسوا وهم يمسحون قطرات الدماء عن أشفارهم الغليظة.

وأخذ الثاني وهو مَنْ – يحملُ بين كتفيه رأس خنزير – الجمجمة بيده وقال:

«إنَّ ما رأيتم وترون من أهوال المجاعة وضحايا المجاعة، يرجع به الفخر إلينا.

لقد خزنَّا الحنطة وسائر أنواع الحبوب، وتركنا الناس يحلمون بالرغيف ولا يرونه

تركنا الصبية الصغار يقطعون قلوب الأمهات ببكائهم، والأمهات يقطعن قلوب الرجال. وتركنا الموت يقطع قلوب الجميع.

لقد حكمنا على الإنسان الضعيف بالموت، وأنفذنا حكمنا فيه. فكنت تراهم منطرحين في الشوارع جُثثاً هوامد».

«لقد نزعنا منه دريهماته ثم أراضيه، ثم أخشاب بيته، ثم ثيابه ثم روحه».

«لقد احتكرنا كل شيء، ولقد كنا نحتكر الماء والهواء لو وجدنا إليهما سبيلا».

«أجل! لقد كان لنا مِنْ علي منيف[٤] وعزمي[٥]، عَضُدان قويان لتنفيذ غايتنا السافلة: ذاك باحتكاراته المتنوعة تحت الأسماء المتنوعة، وهذا بشركاته الخفية مع أهم أعضاء جمعيتنا البيروتية».

«وحسبُنا فخراً أننا قتلنا لا أقل من مائة وسبعين ألف نسمةٍ من أهل لبنان، ولا أقل من خمسين ألفاً من بيروت، قتلناهم بعد أن سلبناهم، ثم بنينا على جماجمهم قصور ثرواتنا الطائلة».

«فلنشرب على سر المحتكرين – وحالاً وقف الجميع وأخذوا نهلة من تلك الجماجم وهم يقولون: لنشرب على سر المحتكرين»!.

ثم وقف من يحمل على كتفه رأس ثعلب فأخذ الجمجمة بيده وقال

«لقد فخر كل من سيدي الذئب والخنزير، بأعمالهما الفظيعة التي ملأت الأسماع والأبصار، فخراً بهذه الأعمال بعد أن جعلاها هدفاً لسهام العدى، وعرَّضاها بإعلانها لأسنة الملام غير أننا معاشر الثعالب جئنا من الأعمال ما هو أدهش وأفظع. فالمشانق التي نصبت، والعائلات التي أبعدت كانت نتيجة أعمالنا الخفية؛ ولا يخفى ما تهدم بذلك من البيوت وتشتت من العائلات»

«لقد فعلنا ما فعلناه مستعينين بالكتمان فدفعنا بذلك عن أشخاصنا أسنة اللوم ونجونا من العقاب إذا كان ثمت من عقاب»

«ولقد كانت وظفيتنا أيضاً ، العمل على تلطيخ العفاف في العقائل والأوانس، فبذلنا في ذلك السبيل فوق ما بذله بعض المحتكرين تزلّفاً إلى الحاكم ببذل ما عزٍّ من الشرف والمروءة»

«فلنشرب على سرٍّ الجاسوسية والجواسيس والقيادة والقوّادين»!.

ووقف الرجال الأربعة ووغلوا[٦] وغلة في الجماجم التي بأيديهم يقولون: لِنَشرب على سر الجاسوسية والجواسيس والقادة والقوّادين!.

وأخيرا وقف رأس الكلب بعد أن قبض على الجمجمة بكلتا يديه وقال:

«من المعلوم أن لكل هيئةٍ رسمية سجلاً تُكتب فيه أعمالها ويُخلَّد فيه تاريخُها ولمَّا كانت أعمالكُم يا سادتي تحتاج إلى تدوين، ومبادئكم إلى تعميم وتلوين، وولائمكم إلى تشهير، فقد أخذت وزملائي هذه المهمة على عواتقنا، وجاهدنا فيها جهاد الأبطال فكنا إذا عقدت شركة احتكارية نقول:

«لقد اهتم بعض أفاضل الثغر بإنزال أسعار الحنطة رحمةً بالفقير».

«فمن هنا يا سادتي تعلمون عظم مسؤوليتنا (وشرف) مهمتنا. ولا إخالكم إلا شاربين معنا على سر الألسنة المخلصة والأقلام المخلصة».

ووقفوا جميعاً وقالوا، بعد أن أفرغوا بقية الدم من كؤوسهم: لنشرب على سر الألسنة المخلصة والأقلام المخلصة.

وكانت غيمة كثيفة قد حجبت وجه القمر، عندما أعلن الرئيس ختام الجلسة، فنزلوا عن الضريح وقد تأبط كل منهم الجمجمة بكل الكأس التي سكر بها في تلك الليلة

وحجبت الظلمة أشباحهم، فلم يكن يُسمَع سوى قضقضة العظام تحت أرجلهم - عظام قتلى الجوع والخيانة.

البرق، ١٦ آذار ١٩٢٧، عدد: ٢٧٥١، ص.١

****

ثانياً : عهد الانتداب

لماذا نريد حكومة لا دينية

الطائفية سبب انحطاطنا- مثلا روسيا واسبانيا - ماذا نحاذر وماذا نريد؟

قبل أن أقول كلمة في ما أنا قائل اليوم، أرغب إلى القارئ أن يعلم علماً يقيناً أني أحترم كل دين وليس في سوريا، والحمد لله، دين لا يأمر بطاعة الله.

أحترم الأديان، وأثق بالمتدينين فوق وثوقي بالجَحَدة، لأن الدين هو أساس كل فضيلة.

ولكني ! ولكني إذا علمت أن الدين - مع احترامي الفائق للدين - يحاول أن يندغم بالسياسة فيتألف منهما حكومة عالمية. حكومة دينية زمنية وقفتُ إذ ذاك موقف الخائف الوجل على حكومة أتصور شعبها يرجع القهقرى حينا، وتتفجر براكين تعصبه حيناً، ويكون مصيره إلى الأغلال التي لا تزال آثارها في عنقه.

أخاف ويحق لي أن أخاف، من شعبٍ رضع التعصب حتى جف ثدي التعصب، أخاف منه وعليه إذا وُضعت على رأسه حكومة لا يمكن، على ما قرأت وسمعت واختبرت، إلا أن تكون دينية؛ حكومة في بلد تنوعت مذاهبه، وسجل التاريخ على أهله أسطراً لم يجف حبرها بعد.

قد يقال. لماذا يخشى هذا المتطرف مثل هذه الحكومة؟

هنالك أسباب أهمها أني أريد التقدم للبلاد التي أنا منها ولا يمكن التقدم إلا إذا تجرد الدين عن الحكومة، وحلَّت الجنسية الوطنية محل الجنسية الدينية.

وتريدون مثلا؟

هذه روسيا، وكان قيصرها جامعاً بين السلطتين الدينية والمدنية - أفلا تعجبون من رُقيِّ روسيا؟!

وهذه إسبانيا، ولا تزال السلطة الدينية مسيطرةً فيها، وكانت والتاريخ أصدق

شاهد، لا تغيب الشمس عن ممالكها في العالَمين القديم والحديث، وهي اليوم لا تعد في الدول العظمى لأسباب هي التي أنا أخشاها.

تشهد صفحات هذه الجريدة على محاربتي كل ما هو طائفي في البلاد، على أمل أن أرى أبناء هذه البقعة، كأبناء البلاد الأخرى، لا ينتسبون إذا نسبوا إلا إلى وطنهم.

إن الطائفية في لبنان وسوريا، هي التي فرّقت أهله أشتاتاً، وهي التي حكمت عليهم بالضعف. فمن أجل ذلك حاربناها؛ وكذلك كان شأن الفرق المذهبية الأخرى، وانقسامها بعضها على بعض، بحيث تلاشت قواها وطمع بها الطامعون

من أجل ذلك، من أجل أن لا نعيد على مسرح الحياة تمثيل الأدوار السالفة، ومن أجل أن لا يكون للدين دخل ولا شبه دخلٍ في الحكومة الرفيعة المستقلة التي ننشدها، نطلب أن تكون هذه الحكومة جمهوريةً ديموقراطيةً مفصولة فيها السياسة عن الدين.

قرأت في إحدى (الرصيفات) – هي في نظري أرقى الجرائد من نوعها – لكاتبٍ هو في نظري من أرقى الكتّاب في نوعه، مقالاً عربياً دينيا سياسيا، أَيْقَنْتُ بعده استحالة انفصال الحكومة العربية عن الدين

لم يكن ذلك المقالُ يَخلق فيَّ هذا الاعتقاد، ولكنه أيّده وثبّت دعائمه. فأنا بعد اليوم، أُحاذر هذه الحكومة على شدة حُبِّي لها، وعلى ما أحفظُ لها من التذكار الجميل في نفسي ومن الاحترام الذي ما بعده احترام.

ولكنني مع ذلك، أتمنى وأطالب بحكومة وطنية لغتُها العربية – بحكومة مستقلة – بضمانة ومساعدة أمةٍ لها من شرفها وسابق مجدها ما نأمل معه إخلاصها وصدق نيَّتها – وذلك إلى أن ننشأ وطنيين لا نُدخل الدين في شؤوننا الزمنية والسياسية، كما هو شأننا بين الأمس واليوم.

افتتاحية

البرق، ١٩١٨، عدد: ٣١-٤٢٤، ص: ١

****

بين عام وعام

- العام الجديد يلوّن خارطة العالم - الأمل برجال المؤتمر - برهان الدول على الإخلاص

الورقة التي سقطت أمس من شجرة الدهر، هي ورقة السنون[1] الأربع التي حملت مصائب العالم وويلاته.

تاريخٌ حِبره من الدمع والدم، وأوراقه الصدور الخافقة الضئيلة التي لم تُبْق منها العواصف سوى ما تبقي من ورقة الخريف، مادةٌ ولا روح، ولَونٌ كلون سكان القبور، وخَفوقٌ كالرداء المنتشر في مَهبِّ الأرياح.

سنونٌ أربعٌ هي في نظر البشر سَنَةٌ واحدة،

وحَّدت بين الدموع والمُقل، والمخاوف والقلوب، والطَّوى والبطون.

ليلة واحدة ولكنها طويلة!. طويلة حتى قيل إنها الأبدية

فغرت الأرض فمها وابتلعت الضعفاء في سوريا، وابتلعت حتى الأقوياء في غيرها – تلك كانت السنة التي فاض نفسها الأخير على عتبة الأمس.

واليوم – مطلع عام ١٩١٩ – يحمل باليد الواحدة الكرة الأرضية، وباليد الثانية ريشةً حقيرة الشكل، جليلة الخطر، وأمامه المحابر من كل لون.

إنه يشرع بتخطيط خارطة العالم.

إذا كان في الأرض أمة ضعيفة فنحن تلك الأمة لا سيفنا قاطع ولا بارودنا حام؛ ويا ليت ذلك كان وحده علة الضعف فينا!

فلقد أنهكت جسمنا الضئيل أمراضه وهل كان الجهل والرِّقُّ والانقسام والتعصب، سوى أمراضٍ ضاعت بها حيلة الحكيم؟.

✡✡✡✡

العام الجديد! ولا ننكر عليه يده البيضاء. إنه أقبل والأمل لامع في نظره، والحنان خافق في قلبه، والأمانيُّ أمانيُّ الشعوب الضعيفة، أمانينا نحن أبناء لبنان، وأبناء سوريا، سوف لا نَعدم منه نصيرا.

أجل! أقبل العام الجديد فحَيّته الثغور الباسمة، والعيون اللامعة، وكان يُقبل فلا يُرى سوى ما يُقذي العيون ويصدع القلوب.

إنها يد للعناية علينا، يد للحكومة الحاضرة، مَن كفر بها كان من الآثمين.

فيا شمس هذا العام! إذا جئت باريس حيث تُقسم الحظوظ في الناس، فخبِّريهم أن في سوريا، بقعة جارت عليها الطبيعة، وجار عليها البشر، فلم يبق منها سوى عظام قتلى الجوع، وتربةٍ كتلك العظام؛ كانت تدُّر اللبن والعسل، وتُنبت سهولها السنابلَ كالذهب، فما زال بها الطمع السياسيُّ والتعصب الدينيُّ، حتى اقتطع منها سُهولها واغتصبها مرافئها؛ فهي ضحية الأتراك منذ كانوا – هي لبنان!...

يا شمس هذ العام! إذا ما جلس الرئيس ويلسن «الانسانية المجسمة» مجلس الحكم في مصير الشعوب، فابعثي إلى قلبه من أشعتك، رسولاً يقول له إن لبنان شهيد هذه الحرب من كل سوريا، له عندك شفيع مشفع، أبناؤه الألى حاربوا تحت راية أمتك الكريمة، أبناؤه – شيوخا وشبانا وأطفالا – الذين شملتهم عناية أميركا الحرة، فدرجوا على أديمها، ونشقوا هواءها، وشربوا ماءها، وأكلوا ثمارها – الألى ضم ترابها أجساد الكثيرين منهم، هؤلاء شفيع هذا الجبل الأجرد إليك – هذا الجبل الذي مازالت عيونه تبكي سهوله المغتصبة وثغوره المغتصبة.

يا شمس هذا العام! قولي «له» و «لهم» ولكل قلب نبيل يضمه مؤتمر الصلح. إن أهل سوريا لا يعرفون وطنيةً، سوى الدين - نشأوا مذاهب ونحلاً - تعوَّد قويّهم أن يسود ضعيفهم، وجاهلهم أن يسود نبيههم، يريدون أن ينهضوا ولكنهم لا يقدرون، ويحاولون أن يتقدموا فتجذبهم إلى الوراء سلاسل التقاليد التي ربطت حاضرهم بماضيهم ربطاً محكما.

أذلَّهُم الأتراك عصورا، وشنعوا بهم طيلة هذه السنين الأربع، وهم يمضغون الضيم مضغاً، وإنما، إنما صبر المجموع السوري على الضيم، لأن الأتراك عرفوا كيف يصطادون هذه القلوب التي هي أشبه الأشياء بالسمك السابح في بحر التعصب؛ قلوب جميع الطوائف السورية، ما خلا الفئات المتعلمة من هذه الطوائف وما أعجز هذه الفئات!

إن الأمم التي حاربت مخلصة، الأمم التي يمثلها لويد جورج وكليمانصو وويلسن[٢] ، الأمم العظيمة التي حملت النور والسلام للعالم، سوف تجعل من شمس هذا العالم بشيراً لهذه البلاد بالحياة، وبما تشتمل عليه الحياة من العلم والتساهل والإخاء والوطنية.

إن الدول العظمى، باختيارها فرنسا الشريفة لتكون معلماً وقائداً لنا في حياتنا الاجتماعية هذه، قدمت برهانا جديداً على أنها حاربت في سبيل سلام العالم، في سبيل العلم والرقي والمدنية.

مرحبا بالعام الجديد، ففي أشعته حرارة الأمل وإيمانه، ولا معنى للحياة بدون الأمل.

افتتاحية

البرق، ١٩١٩، عدد: ٣٨-٤٣١، ص ١

****

المهاجرون والمقيمون

حسناتهم وسيئاتهم - أيهم أحق باختيار مستقبل البلاد - الوسط هناك والوسط هنا

أما وقد انفتح البحر ومشى بيننا البريد، فعلموا وعلمنا حقيقة ما فعلوا وفعلنا، وقرأوا وقرأنا حقيقة ما كتبوا وكتبنا، تحمل ذلك إلينا وإليهم صحفهم وصحفنا، رسائلهم ورسائلنا - أما وقد انكشف لنا كل ذلك، قد أصبح من السهل أن نقول كلمة في موضوع تناولته أقلام بعض أفاضلهم هناك، ألا وهو تنازع الحكم على مستقبل البلاد - بلادهم وبلادنا : سوريا ولبنان

تنازعوا في أيٍّ من الفريقين المهاجرين أو المقيمين، له الحق أو له الأفضلية باختيار شكل الحكومة الداخلية واختيار الوصي، إذا كان لا بد من وصي.

قال بعضهم: إن المتخلفين[1] هم أحق باختيار شكل الحكومة، وتسمية الوصي، لِما كابدوا في هذه الحرب من الشدائد ولما تجرعوا من الأهوال، ولما حصد منهم مِنجلُ الجوع، ولما أنهم أعلم بروح البلاد من إخوانهم وراء البحار.

وقال البعض الآخر: إن المهاجرين هم أحق باختيار شكل الحكومة وتسمية الوصي، لما أنهم ركبوا الأهوال في سبيل جمع المال، ليرسلوه إلى المتخلفين الذين إنما هم عيالٌ عليهم، وأن الوطن السوري واللبناني لم يزدهر بالعمران إلا بمال المهاجرين من جهة وبما نقلوه إليه من روح الديموقراطية والمعارف من جهة ثانية.

قال الفريقان ذلك، ووقفا عند هذا الحد؛ فإذا جاز لنا أن يكون لنا رأي في الجماعة قلناه.

إن الذين ذهبوا ضحية المشانق وضحية الجوع - إن هؤلاء هم حجة على المتخلفين لا حجة لهم.

نحن نعلم أنه لو ثارت ثائرة أو بدرت بادرة من المتخلفين عند شنق القافلة الأولى[٢]، لوقف جمال عند حده، أو لشعر على الأقل مع جماعته الأتراك، بوجوب تعديل سياسة الإرهاب.

ولكن المتخلفين، وخصوصا المطالبين منهم بحق الاختيار، الواقفين على رؤوس الفرق السياسية، كانوا - ولا خجل - يصادقون، بما يُولمون وبما يتظاهرون، على أعمال السفاح، وهي سيئة في كفة المتخلفين من حيث حسبوا وحسب غيرهم أنها حسنة

أما قتلى الجوع، فكلنا نعلم أن المتخلفين، وخصوصاً زعماء الفرق ودعاة الوطنية اليوم، هم الذين كانوا يداً أثيمة على قتل هذه الألوف المؤلفة من إخوانهم، بما رفعوا من أسعار واحتكروا مِنْ أقوات وأدانوا من ربا ما فوقه ربا، وهي سيئة بل جريمة في كفة المتخلفين من حيث حسبوا وحسب غيرهم أنها حسنة.

لقد كان الحق بالاختيار للأُلى شُنقوا والأُلى قتلهم الجوع.. أما وقد أصبح هؤلاء في عالم العدم، وأصبح معظم الذين لا يزالون في قيد الحياة يتنعمون بما اغتصبوه منهم، فأيُّ حقٍّ لهؤلاء إلا إذا كانوا قد أخذوا منهم قبل أن أجهزوا عليهم، وكالةً شرعيةً باختيار مستقبل البلاد وشكلِ حكومة البلاد.

إن تجار المتخلفين، ما خلا العدد القليل منهم، جَنَوا على البلاد بما أرهقوا أبناءها، بينما كان تجار المهاجرين يتسابقون إلى إمداد أهلهم في الوطن بالمال، على ما هنالك من الخسائر الباهظة في تبديل الورق بالذهب.

إن صحافة المتخلفين كانت بلا استثناء، تُهلل وترحب وتحبذ بقوافل المشانيق، وتنشط جماعة المحتكرين في مواقف كان يمكنها فيها السكوت، بينما كانت صحف المهاجرين، في جميع مواقفها، دموعاً وأنيناً واحتجاجاً على مصير الوطن وإرهاق أبناء الوطن.

إن شعراء وأدباء المتخلفين، ما خلا القليل القليل، كانوا يصنعون من القصبة مزمارا ينشدون عليه مدائح العتاة وينسجون من أشعارهم كفوفا حريرية بيضاء،

يحجبون بها يدهم المنغمسة بدماء إخوانهم - بينما كان أدباء وشعراء المهاجرين، يصنعون من اليراع قيثاراً يوقعون عليه باكيات المراثي.

إن من المتخلفين من اتخذ الوشاية والسفالة، آلةً لإبعاد إخوانه، والقضاء عليهم؛ فضلاً عن أن البوليس الوطني، والجندرمة الوطنية في سوريا ولبنان، كانا آلة للانتقام والإرهاب والإعدام، كما هو مأثور ومعروف، بينما كان المهاجرون يتطوعون أفواجا أفواجا، ويُعرِّضون صدورهم لحراب العدى دفاعا عن المقيمين، وقياماً بالواجب الوطني الذي دنَّسه أكثرنا بأعماله.

أما القول بأن المتخلفين أعلم بروح البلاد من المهاجرين، فهو قول صواب، ولكن ما هو هذا الروح في البلاد؟

أهو الروح الذي نطالعه خلال السطور ونجسُّه خلال الصدور؟

أهو هذا روح التعصب الذي أصبح المتعلم لا يستنكف في سبيله من أن يُولِّي عليه أو يربط نفسه برجلٍ أو بيئةٍ هي دونه بمراحل، علماً ومدنيةً ورقياً - إذا كان مسلما - أو أن يقيم على رأسه راهباً قد لا يكون يُحسن القراءة - إذا كان مسيحيا؟ أقول هذا ولا أعمم، لأن فينا من هناك ومن هنا، فئةً هي فوق كل هذه السفاسف، ولكنها في العدد دون سائر المجموع.

هذا ذنب الوسط الذي نعيش فيه، وهو على عكس الوسط الذي يعيش فيه المهاجرون؛ والإنسان ابن وسطه كما يُقال.

لا جدال في أن الوسط الذي يعيش فيه إخواننا في كل المهاجر، هو أرقى من وسطنا - فهم بما تشربوا من رقي ذلك الوسط، أحق من المتخلفين باختيار شكل الحكومة. هذا إذا كان مؤتمر الصلح - إذا كان ويلسن ولويد جورج وكليمانصو - مُثلث مؤتمر الصلح - يريدون أن يجعلوا الاختيار بحسب الرقي لا سواه.

إن فئة كبيرةً من كل طوائف سوريا، هي في كفة الرقيِّ - في الكفة التي تقول بإسناد الاختيار إلى المتعلمين والمتشربين الروح الديموقراطي، لأننا نريد أن نسير إلى الأمام، وأن نسير على النور - وأن لا نعاكس تيار المدنية الجارف لئلا نداس تحت الأقدام.

بشارة عبدالله الخوري

البرق، ١٩١٩، عدد ٥٥-٤٤٨، ص ١

****

القضية الوطنية

مطالب اللبنانيين، طريقة الطلب، الفوضى الحاضرة، الأخلق بنا أن نقول نريد من أن نقول لا نريد.

من يُنكر علينا - معاشر اللبنانيين - حقنا في طلب (الحياة)؟، من ينكر علينا قولنا، إن هذه الصخور التي دفعَنا إليها الظلم، لا تفي بمطالب الحياة لشعب له حقه في الحياة؟ ومَنْ هذا الذي يُنكر أن بيروت وصيدا وطرابلس والبقاع إنما هي في لبنان ومن لبنان، ولا غنى للبنان عنها؟

لم يُنكر علينا حتى الساعة، أحد هذا الحق. وكيف ينكرون إذا نحن سلكنا إليه من اللين سبيلا، واخترنا له الرقيق من الكلام، والمبين من البرهان، وجعلنا الابتسام في ثغور السطور، والإخلاص في صدورها؟.

نريد لبنان الكبير - أو لبنان الطبيعي - ومتى قلنا ذلك فكأنما نريد أهل هذه البلدان، وفيهم السَّريُّ والأديب والفاضِل، على اختلاف الأميال[1] والمذاهب.

نريد لبنان الكبير، وقد يكون القائل من أصحاب الحرف الواطية اتخذ الصحافة مهنةً - والصحافةُ عندنا أُمُّ العجائب. فكيف نريد - وقد فهمنا معنى قولنا: نريد لبنان الكبير - أن يَحني هؤلاء السُّراة رؤوسهم لمثل هذا القائل، ويقولون له: شأنك بنا وما تريد.

أجل، إننا لَنَطلب لبنان الكبير، لَنطلبُ إلى هؤلاء الإخوان، بما لنا مِنْ حق الجوار، وحق المصلحة المشتركة، ضاربين صفحاً عن حقنا بالحياة، وحقنا الطبيعي، إننا لَنَطلبُ إليهم، أن نكون - هم ونحن - جسم هذا الوطن. أن نقول لهم: نحن لا نريد إلحاقكم بنا،

بل نريد أن لا يحول حائل بيننا، أن نمتزج بكم امتزاج الماء بالراح؛ أن نُوحِّد مصالحنا ونوحد نظاماتنا؛ وأن يكون حق الوطني كالمطر أو كالنور يستوي عندهما كل حي

إننا إذا قلنا ذلك لهم، فماذا عساهم يجيبون وفيهم مَنْ فيهم من رجال الفضل وزعماء الأدب؟

إن أقلَّ ما يُجيبوننا به: مقابلة العاطفة بمثلها، وهي خطوة إلى التفاهم كبيرة!

وبعدئذٍ. بعدئذٍ ندعو هؤلاء الإخوان إلى مؤتمرٍ عامٍ، وهم إما أن يضعوا يدهم بيدنا، وإما أن يُبينوا الأسباب التي تحول دون هذا الامتزاج.

فإذا تمكن الفريق من إقناع أخيه، فهي المنى وإن لا، تفارقوا أحباباً أخداناً، وعمل كل منهم بما يوحيه إليه وجدانه: حتى إذا تمَّت للواحد بُغيتُه، لا تكون ذراعاه بعيدتين عن أخيه، ليضمه إليه ويسير وإياه تحت الراية الواحدة والنظام الواحد

لقد خِفنا ويحق لنا أن نخاف، أن تتحول مسألتنا الوطنية إلى مسألة دينية، وهناك المكانة العليا التي نُمهدها لنا في صدر العالم الأوروبي الذي إنما نتزلف إليه، بما ندعيه من الرقي والمدنية - إنما نتزلف إليه بهذا، ليأذن لنا بالحكم الذاتي، ويمنحنا استقلالنا الوطني، ويكون لنا منه المساعدة الخفيفة المحدودة إذا لم يكن لنا بُدٌّ منها.

كنا نود أن يقتدي دعاة السياسة بغبطة السيد الكبير بطريرك الطائفة المارونية[٢] الذي - حفظه الله - نهض لمعالجة المسألة الوطنية بالحكمة المزدان بها شخصه الكريم. فإنه على ما بلغنا، سيعمل على دعوة كبراء البلاد من رجال الدين والدنيا، من جميع الطوائف اللبنانية، ليبحث معهم في مسألتنا الوطنية ويقرروا الخطة الحكيمة التي يمشون وأهل البلاد، عليها.

إن قولنا: لا نريد هذا ولا نريد ذاك، لهو قول فوق اقتدارنا ولقد كان الأخلق بنا أن نقول: نريد هذا ونريد ذاك.

إن ويلسن نفسه ولويد جورج وكليمانصو، لا يتجاسر أحدهم أن يقول: لا أريد، أما إذا كان أحدنا يشعر من نفسه بقوةٍ فوق قوة هؤلاء، فهو أمر آخر.

نحن نريد لبنان الكبير، نريد أن نؤلف من النفوس والأراضي التي تعتبر من لبنان وطناً واحداً، ولا فرق بين أن نلتحق بهم أو أن يلتحقوا بنا، نريد أن نحترم رأي إخواننا جميعا، نريد حقنا في الحياة، وللمؤتمر حكمه النافذ ورأيه الموفق بإذن الله

بشارة عبدالله الخوري

البرق، ١٩١٩، عدد ١٣٥-٦٤٥، ص ١

****

أرميه بورقة فيرميني بحجر

.... عذيرك من خليلك ..

لقد زال معظم الخلاف فعَلام نجرُّه بقرنيه؟

وكان من نعم الله علينا، أن طوينا شقةً واسعة إلى حُسن التفهم، فكيف نعود إلى أول الطريق؟!

لقد ذلّلنا نحن وبعض الرصفاء[1] كل عثرة! وحرقنا أنانيتنا بقدر الاستطاعة على هيكل المصلحة العمومية!

تلك صفحاتُنا شهودٌ على أعمالنا، وتلك مناظراتُنا تُؤيد ما ندعيه'لم نسلم من الخطأ أحيانا، وحسبنا أن لا ندّعي العصمة

وأعظم خطيئاتنا هي التي ركبنا لها الحدّة، وأعظم منها هي التي ركبنا لها التحامل. وأعظم منها هي التي ركبنا لها الحطّ من كرامة الآخرين؛ على أننا لم نرتكب كل هذا، ولكننا نعترف به لنمحوه.

والآن، وقد أزلنا من طريق التفاهم، عثراتٍ كبيرةً، والآن وقد انطوت كل قضية اختلفنا عليها – لم يبق أمامنا سوى لفظتين معناهما واحد الوحدة والتجزئة: وحدة سوريا، واستقلال لبنان.

إن لكل من الفريقين رأياً، على الآخر احترامه! فكما نحن نحترم القائلين بالوحدة السورية، ولا نرى بدعة في طلبهم، كذلك نرجو من هؤلاء الإخوان أن يعاملونا – منّةً وكرماً – نفس المعاملة ولا نطلب مزيدا.

– ما هو المقصود بالجدل؟

- الوصول إلى الحقيقة.

الجواب صحيح. ولكن كيف نصل إلى الحقيقة، ونحن نجعل لها من مهاتراتنا أكفاناً؟

لقد شاء - الميت الحيُّ - أحد الذين يكتبون في رصيفتنا «الحقيقة»[٢] أن ينتقد قرار مجلس إدارة لبنان، القائل باستقلاله عن بقية القطعة السورية - وله حقه في ذلك، لأن الكلام مباح ولأننا نطلب لأنفسنا حياةً ديموقراطية غير أنه أخطأ بأن ألبس نقده ثوباً من التحامل ليس الآن محله.

لا نكران أنه إذا حق لفردٍ أو لأفراد أن يتكلموا في مصلحة البلاد، فمجلس إدارة الجبل أولى بذلك الحق.

وإذا كنا نرغب إلى المنشئين والصحافيين، أن يحترموا بعضهم عندما يتناظرون في المسائل الوطنية، وهم يُحسبون من عائلة واحدة، فكم يجب أن نرغب اليوم، إليهم في احترام الآخرين، ولا سيما إذا كانوا من ممثلي جماعات الوطنيين على اختلاف مذاهبهم.

إن بحثنا هذا الآن، هو في نظرنا أهم وأفيد من تبيين حقوق لبنان، وقد مُلئت بها الحقول والصحف أربع سنواتٍ بأسرها - هذه الحقوق التي لا نظن الكاتب يستطيع إنقاصها، كما أننا لا نستطيع زيادتها مهما حاول وحاولنا أن ينقص وأن نزيد.

نحن نعلم أنه مهما بلغت مسافة الخلف بيننا، فإننا سنلتقي في نقطة واحدة. أفيجوز أن نلتقي - متى التقينا - وقد هشم أحدنا الآخر، وملأ قلبه حقداً ووجهه عُبوساً؟ أم الأفضل أن نلتقي - ولا بد أن نلتقي - وملء قلوبنا صفاء وملء وجوهنا ابتسام؟.

ما هو الفرق بين قولك لمُناظرك «لقد خُنت وطنك وسخرت ضميرك، وعبدت مصلحتك» وبين قولك له: «أظنك أخطأت ما تقصد من خدمة وطنك ومصلحة قومك، مع ما هو معروف من صدق ضميرك ونزاهة قصدك».

أظن الفرق واضحاً كالصبح لِذي عينين، وأظن أنه لو سارت مناظراتنا على هذا النمط، لكنا طوينا مسافة الخلف كلها

أيُّ كاتبٍ لا يمكنه أن يملأ السطور سفسطةً ومغالطاتٍ؟، بل أي كاتب لا يمكنه أن يملأها ألفاظا فارغة، على كثرة ما عندنا من المترادفات والمتقاربات؟ ولكن الكاتب هو الذي يكتب ليفيد، وهو الذي إذا سكت أحيانا فإنما هو الذي يسكت ليفيد.

أراد حضرة الكاتب في «الحقيقة»، أن يهزأ بقرار المجلس، ويأخذنا بكتفه؛ وكان في إمكاننا أن نجيبه بلهجته ولغته – حذوك النعل بالنعل – ولكننا لا نفعل لأننا اختبرنا الأمور وعرفنا أن أكبر الواجبات هو غسل القلوب وتوحيد الأميال وتمهيد السبل بين العواطف والمصالح.

قصد دمشق بضعة وعشرون نفراً من لبنانيين وبيروتيين[٣] قصدوها ليسلموا على الأمير[٤]، وليعلنوا في هذه المناسبة، ميلهم إلى الوحدة السورية. ولقد كنا نؤثر السكوت اعتقاداً أن لكل إنسان حق الرأي وحق الاعتقاد وحق التصرف؛ واعتقاداً أن الكلام يوقظ الخلاف، وهذا يوقظ التنافر. ونحن في حال من التطور، أحوج بها إلى السكوت مع التيقظ، ومن الكلام مع العظة ولكن الكاتب في «الحقيقة» أراد أن يقول في معرض كلامه عن الوفد.

«يعذرنا أصحاب فكرة «لبنان الكبير» لعدم تسميتنا هذا الوفد باسم «وفد لبنان الكبير» لأننا ما زلنا نجهل من قرار مجلس إدارة الجبل، الأخير، ما يجهله صاحب «البرق» وهي لسان حال لبنان الكبير، أو بعبارةٍ أوضح: حزب لبنان الكبير».

كان على الكاتب لو تروّى، أن يترك الجريدة تورد الخبر تحت أي عنوان شاءت. ولقد كان من المحتمل أن تسكت الجرائد المعارضة عنه، لا تصديقاً على زعم الجريدة، ولكن تجنباً للنفور الذي يجره الجدل؛ وعندئذٍ كان يسير الوفد يُظلله السلام ولا تنهشه الأقلام.

لذلك قلنا: إن السكوت أحياناً هو أفيد من الكلام.

يا حضرة الأخ الأديب:

إن لبنان، سيكون كبيراً حتى ولو ظفرت أنت ببغيتك من توحيد سوريا، إن سمو الأمير فيصل، وحزب الوحدة السورية، الذي أنتم منه، وكذلك الدول العظمى، كل هؤلاء يساعدوننا على لبنان الكبير فإذا كنا نحصل على لبنان الكبير، والظفر في جانبكم، فكيف تريدون أن لا نحصل عليه والظفر في جانبنا؟

نحن نحمد الله أن أزلنا كثيراً من أسباب الخلاف، تلك الأسباب التي أشرعنا لها الأقلام شهورا؛ نحمده لأنه لم يبق لدينا سوى هذا الخلاف البسيط – الوحدة والتجزئة – الخلاف الذي لا يتناول شره وخيره سوانا، ولا يتناول حلّه سوانا. وما ضرنا أيُّنا جذب الآخر إليه. فهو إنما يجذبه إلى صدرٍ مليءٍ إخلاصاً – كذلك يجذب الأخ أخاه.

فإذا كان بعض اللبنانيين قصد دمشق، لتحية الأمير، فقد سبق أن حييناه؛ أو لإكرامه، فقد سبق أن أكرمناه؛ إننا نحييه ونكرمه لشخصه الكريم، من جهة، وإكراما لإخواننا من جهة ثانية – كذلك نحن ننتظر منهم أن يُحبوا مَن نُحب ويُكرموا مَن نُكرم.

ولماذا لا تتوحد القلوب وتتفق الأميال، وهذه بعض أسبابها؟

بشارة الخوري

البرق، ١٩١٩، عدد. ١٣٦-٦٤٦، ص١٠

****

العرس اللبناني

الجنرال غورو يعلن لبنان الكبير

اليوم يضحك ثغر لبنان وترقص عرائس المروج فيه.

اليوم يضفر للشيخ - لبنان - الذي عرك الأيام وعركته، إكليل من أرزه الأبدي.

لا ترى فيه اليوم غير قلبٍ خافق، ووجهٍ طليق.

اليوم تلبس عروس لبنان «زحلة» أبهى حُللها، وتَسكبُ على رأسها أطيبَ عُطورها، وتُرسل من صفصافها على ظهرها ذوائب، وتوقع أناملُ النسيم على نهرها الطروب، أبدع الأغاني

اليوم يقف فخامة الجنرال غورو[1] في زحلة ليعلن ضم البقاع إلى لبنان.

إنها فاتحة النِّعم، وإنها أول الغيث، وإنها طليعة وعود فرنسا الصادقة للبنان.

اليوم تأخذ «زحلة» نصيبها من الجهاد؛ تأخذ الحق الذي سلبتها إياه جائرات الليالي. وغداً يفتح لبنان ذراعيه أو يبسط النسر الأبيض جناحيه على سائر البلاد اللبنانية - عندئذٍ يحتفل بعرس لبنان الذهبي. ثم عند تشكيل الحكومة الوطنية، الحكومة النيابية الديموقراطية، يحتفل بعرسه الألماسي؛ وهنالك يسير لبنان برعاية فرنسا الصديقة الشريفة، الصديقة منذ القدم، الأم الحنون على الشعوب الضعيفة، الثملة بالانتصار الأدبي، هنالك يسير الشيخ في ثياب الشباب، وبرعاية فرنسا الصديقة الصادقة في سبيل الحياة الحرة، والحاكمية الذاتية؛ هنالك يرجع الهاربون من الاستعمار التركي واستعباده، وهم يرددون آيات الامتنان للسيف المحرر. سيف فرنسا، وللقلب الحنون على الفكر البشري: قلب فرنسا

البرق، ٣ آب ١٩٢٠، عدد: ١٠٥٨، ص ١

****

لبنــان الكبيــر

بيروت العاصمة: الاحتفال بالعيد

هي أولى الأماني وبيت قصيدها، هي فجرها الذي لا مساء له، هي النغم الذي لا يمل، بل هي الصلاة الوطنية وما أحبها من صلاة.

لبنان الكبير!... أجل إن اللبناني الذي لم تسعه بلاد كولومبس ولم تحل دون جده مخاطر البحر، إن اللبناني الذي نبغ في مصر ونبغ في أوروبا ونبغ في أميركا لم ير في هذا الوكر (لبنان الصغير) منبسطا لجناحيه فطلب توسيعه، طلب لبنان الكبير وبنى طلبه هذا على قاعدة حق الإنسان بالحياة

لبنان الكبير - إن اللبناني الذي أبى إباؤه عليه أن يذل للقوي الغاشم، إن اللبناني الذي أبى أن يستباح عرضه وماله وحريته، إن هذا اللبناني أخذ يرجع مصعدا في الذرى، معتصما بالشناخيب[1]، أخذ ينسحب تاركا سهولة وثغوره مرسحا للمظالم التركية - إن هذا اللبناني - وقد استطلع وجه العدل - طلب إرجاع ما اغتصب من أراضيه، طلب لبنان الكبير وبنى طلبه هذا على قاعدة إرجاع المغتصب.

لبنان الكبير - إن اللبناني الذي كتب بدمائه، بمصائبه أفجع صفحة من صفحات الحرب الكبرى، إن اللبناني الذي صاحب الفقر فخورا، ومشى إلى الموت جسورا، إن اللبناني الذي سقط قتيل الإجاعة وكان عرضة للانتقام التركي الفظيع، إن اللبناني الذي تحمل كل ذلك في سبيل فرنسا ثم في سبيل الحلفاء طلب أن يكافأ على ما قدم من التضاحي، طلب لبنان الكبير وبنى طلبه على قاعدة الغنم بالغرم.

ونظر اللبناني إلى بعيدات الأجيال فلم ير أمة حنت عليه طفلا، وحضنته يافعا وسندته كهلا، لم ير أمة أخرجت للعالم المتمدن مثل ما أخرجته هي من الرجال، ولا كتبت بدم أبنائها مثل ما كتبته هي من المبادئ، إن من بعض ما كتبته بها (حقوق الإنسان) - لم ير اللبناني في ما رأى من الأمم أمة تعمل في سبيل هناء العالم وحرية العالم أكثر مما تعمله هي، لم ير أمة احترمت كل دين وساوت بين كل دين كالأمة الفرنساوية النبيلة فأصر على أن تكون هي الدولة المشرفة على سوريا، وحكمته أن سوريا مهد المنازع الطائفية فلا تصلح لها سوى فرنسا، لما أن غيرها[٢] من الدول متشبث بتقاليده الموروثة، تلك التقاليد في الإعلام والاصطلاحات التي قد تسيء إلى إخواننا غير النصارى الذين نريد أن نعيش معهم إخوانا في الوطن أعوانا على السراء والضراء

إيه دولة العدل والإنسانية! لقد كدت تتخلين عن البلاد العربية بأسرها في سبيل وعد صادق وولاء مستديم

إيه دولة العدل والإنسانية! لقد كدت تقنعين بهذه الصخور الجرداء ليعلم الملأ أنك ما نكثت عهدا ولا قعدت عن نصرة ضعيف.

إيه دولة العدل والإنسانية! إنك ألقيت على العرب أجمع درساً في الوفاء عريقا فبينما كان بعض إخواننا يشكون نكص الوعود، والهزء بالعواطف ، واللعب بالمصير[٣]، كنا معاشر اللبنانيين مطمئنين إلى مكين ودك، وصادق عهدك.

إن إخواننا هؤلاء الذين شكوا نكص غيرك في الأمس يكبرونك اليوم.

إن هؤلاء الإخوان خافوا أن لا تكون فرنسا للجميع وها هم الآن وقد تبددت تلك المخاوف، ها هم الآن وقد علموا أن فرنسا للعدل وأن العدل لا لون له ولا دين.

أجل لقد وعدت بلبنان كبيرا وأنت اليوم للوعد تنجزين.

أما وقد وجد لبنان الكبير اليوم بفضل فرنسا فماذا تراه ليصنع ليكافئ فرنسا على يدها الكريمة هذه.

أن يعمر بالمهاجرين من بنيه لتعمل اليد اللبنانية في الأرض اللبنانية.
أن ينصرف كل إلى ما طبع عليه من صناعة أو تجارة أو زراعة
أن تتوحد الطوائف اللبنانية في طائفة واحدة هي الطائفة الوطنية.

أن تنمو عواطف الإخاء وتبادل المنفعة بين اللبنانيين وإخوانهم السوريين المشمولين بالإشراف الواحد.

أن يثقوا بفرنسا في تأليف الحكومة اللبنانية على الشكل الذي يريدها اللبنانيون إذ ليس شكل الحكومة في نظر اللبنانيين بأقل أهمية من توسيع حدودهم.

هذا كل ما تريده فرنسا من اللبنانيين في مطلع حياتهم الجديدة، لتكون فرنسا واسعة الصدر، طويلة الأناة فما نحن في حياتنا الجديدة وحكومتنا الجديدة سوى كالطفل إذا عثر أحيانا كان له منها نعم المرشد ونعم المعين.

بورك طالع الجنرال غورو إنه كان سعيدا، ففي عهده نال لبنان أمانيه، وبحسن سياسته وإقدامه تغلب على المصاعب والمكايد.

إن لبنان لن ينسى اسم غورو ولن ينسى أن يحفر هذا الاسم العظيم إلى جنب استقلال لبنان وتكبير لبنان.

إن فخامة الجنرال غورو، سيلفظ غداً [٤] كلمة خالدة على الأيام والليالي.

سيقول للبنان هذه ثمرة الوفاء فاستطبها، لك ما طلبته من فرنسا أمك، هذه البقاع وبعلبك وتلك حاصبيا وراشيا، ثم هذه بيروت «درة تاج عثمان» جعلتها لؤلؤة في جيدك، ألا فلتحيا فرنسا وليحيا غورو ولتحيا بيروت عاصمة لبنان الكبير.

البرق، ٣١ آب ١٩٢٠، عدد: ١٠٧٠، ص١

****

إعلان لبنان الكبير

في ١ أيلول عام ١٩٢٠

يوم أعلن الجنرال غورو في أول أيلول من عام ١٩٢٠ استقلال لبنان بحدوده الطبيعية، يومذاك حققت فرنسا الشعار الأكبر من أماني اللبنانيين، ألا وهو تكوين القومية اللبنانية، والمحافظة عليها.

فإذا نحن شكرنا لفرنسا يدها، فلأننا بدونها لم نكن لنستطيع أن نحقق هذه الأمنية من استعادة الحدود والاحتفاظ بالقومية.

ولكن الذي لا تستطيع أن تمنحه فرنسا للبنان، هو الاستقلال السياسي لأنه لا يصلح أن يكون هبةً لاستقراره في نفس اللبنانيين، لا ينشأ إلا بهم، ولا تتم قواعده إلا بما يتم لهم من أسبابها فهل هي متوفرة فيهم؟ إذا لم تكن متوفرة، فهل يعملون على إيجادها؟

لا نرى في لبنان سياسةً يصلح أن يُطلق عليها اسم السياسة الوطنية بل نحن لا نرى في كل ما عرفه اللبنانيون من ضروب السياسة سوى سياستين. السياسة الطائفية والسياسة الشخصية

وكلا هاتين السياستين، من مناقضات الاستقلال، بل هما إذا استمرتا قتلتاه شيئاً فشيئا وفي جسمنا السياسي ما مشهوده منهما.

ومن أسباب الاستقلال، الاستغناء عن الغير، ونحن، مع اعترافنا بحاجتنا في جميع أحوالنا إلى أوروبا، لم نفكر ولا خطر لنا أن نفكر بالاستغناء عنها، ولو ببعض ما نستطيع عمله عندنا؛ لا بل ببعض ما نستطيع الاستغناء عنه، من ضروب الزينة اقتصاداً بما في أيدينا، لأن الفقر لازمة الاستعباد.

فإذا كان الاستقلال هو من مرادفات الاستغناء، فكيف نستغني، ونحن لا نعمل إلا للمادة، وهي كما تعلم قيد في عنق صاحبها؟

كلنا يشكو ذلك القيد.

وهنالك كثير من أسباب الاستقلال، ولكنها في نظرنا فروع لهذه، أو نتائج لها؛ كالاتحاد مثلاً. هو لا يتم ما دامت السياسة طائفية أو شخصية، والجمعيات السياسية وهي لا تتم إذا لم يكن هنالك الزعماء الذين يبذلون لها من نفسهم ومالهم، ومن أين يوجد المال وهو يُحرق ويُبذر؟

أجل، لقد تم لنا اليوم الاستقلال الجغرافي، كدولة صغيرةٍ لها من يحمي حدودها، ويحافظ على الأمن في داخلها. فهو والحالة هذه أساس استقلالنا الآخر. فإذا جاز أن يؤسس لنا غيرنا، فما جاز أن يقيم البناء.

فنحن إذا احتفلنا بيوم أول أيلول، كيومٍ أوجدته فرنسا الأخت والصديقة، فعلى رجاء أن نحتفل به كيومٍ له أثره اللامع.

افتتاحية

البرق، ١٩٢٢، عدد. ١٦٣٤، ص. ١

****

تاريخ لبنان يخص اللبنانيين جميعا

لكل لبناني نصيب من الحمد والذم - متى يسحقون رؤوس الأفاعي

هذه فجائع كموج البحر لا تني تدفع الواحدة الواحدة.

هذه صحفات سود يقرأها التاريخ على الملأ ولا يرحم سمعة ذويها

هذا لبنان تلعب به أيدي أعدائه لتحط به من شامخٍ إلى سافل.

لنقول عنه إنه يدعي الكفاءة للاستقلال، وهو إذا ارتفعت عنه يد القوة تطاحن بنوه، لا على محمدة يتلألأ لها الجبين، بل على مخزية يستمر معها غضيض الطرف حييا

لا ويرحمك الله: فما هو بالبلد الفذ الذي يشتمل على البنين الجهلة، وما هو بالبلد الفذ الذي يشتمل على اللاعبين بشرف البلاد من أجل بلغةٍ، وما هو بالبلد الفذ الذي تمثل فيه هذه المآسي.

إن للطائفية فظائعها في الغرب، إن لها فظائعها في كبرائهم يأتونها ولا يسترونها، وحسبك بما حملت إلينا أنباء هولندا مما تشمئز له النفوس وتحمر له الوجوه.

لا وشرف لبنان أن ليس للطائفية يد في هذه المنكرات؛ فهؤلاء أدباء لبنان على اختلاف طوائفهم ما امتزج ماء براحٍ، وكان أصفى من امتزاجهم، ولا تبادلت الثغور الابتسامات وكانت أنقى من ابتساماتهم؛ وكذلك قل عن هذه الطبقة الساذجة التي أخذت من تربة لبنان جودتها، ومن هوائه نقاءها. ولكن هناك فئةً صغيرة هي كالأفاعي تنفث سمومها وتلجأ إلى أوكارها فمن لنا بنبش هذه الأوجار وسحق هذه الرؤوس.

إننا لنربأ بلبنان أن يشتمل على غير طائفتين، لكل منهما دينها وعملها. وليس الدين الذي نعنيه سوى الوطنية، ولا العمل الذي نعنيه سوى الإصلاح، يقابلهما من الجهة الثانية الخيانة والإفساد

إننا لنربأ بلبنان أن يشتمل بعد الآن، على غير طائفتين، بعد أن يكون قد لف تلك المذاهب الدينية بمنديل ووضعها باحترام في المعابد. أجل، إننا نريد أن يقوم فينا طائفتان تشتمل الواحدة على المصلحين المخلصين من جميع المذاهب، والثانية على الخونة الأشرار من جميع المذاهب، فتُصْلي الأولى الثانية حربا عواناً[1]، حرباً لا تنطفي نارها قبل انطفاء الروح في صدر هذه الفئة الباغية.

أجل إن من واجبنا جميعاً أن نطهر البلاد من الفساد والمفسدين. إن من واجبنا أن نفعل من أجل تاريخ لبنان، والتاريخ لنا جميعا.

ومن أجل استقلال لبنان، وهو لنا جميعا.

ومن أجل ازدهار لبنان وهو لنا جميعا.

بل من أجل كل ثمرة مشتهاة، وهي للبنانيين جميعاً.

فإذا نحن عرفنا هذه الواجبات واعترفنا بها، ساعدنا رجال الأمن على مهمتهم وكانت لنا يد على البلاد كثيرة البركات.

نحن نرجح، بل نؤكد أن اليد القاتلة هي واحدة تقتل اليوم، الدرزي لتثير ثائرة المسيحي، وغداً تقتل المسيحي لتثير ثائرة الدرزي. فمن واجب الفريقين إذن سحق هذه اليد في سبيل التآخي وفي سبيل المروءة.

البرق، ٢٠ كانون الثاني١٩٢٣، عدد:١٧٤٠، ص ١.

****

رؤوس أقــــلام

لو كـانت لي السـيطرة على مـدارس لبنان، لأمـرت بأبيـات أمـين تقي الدين[1] التي ستطالعونها، أن تكون صلاة الطلبة بُكرةً وعشياً. لعلها تكون شفاء لأمراض الطائفية فيـه.

ولكن ماذا قلت؟ أنا الضعيف المسكين تكون لي سيطرة لا يحلم بها مدير المعارف نفسه؟... إن معظم مدارسنا جزر صغيرة في قلب البحيرة اللبنانية، وهي أمنع جانباً من الدردنيل – قبل اليوم – لما قام عليها من رشاشات الامتيازات، ولكن: مالي ولكل هذا؟ فأنا أتمنى – مازال باب التمني مفتوحاً – نعم أتمنى على جميع مدارسنا، أن توجب على الطلبة حفظ هذه الأبيات وتكرارها مرات.

قال الأديب اللبناني:

يـــا بـــنـــي لـــبـــنـــان! لـــبـــنـــانَ إذا
مـــــا تـبـــــاهَـيْنـا دعَـــــوْنـاه أبـا
نَـسَـبٌ شَـــــــــرُفَـنـا بَـيْـن الأُلَــى
قِـــيـل عـنـهـمْ يـدَّعـــون الـنَّـسَـــبـــا
مَــــــرٌ بـالـدهـر أبـونـا أمـــــردا
وتمشَّى فـــيـــه شـــيـــخـــاً أشْــيَـــبـــا
فـــروى الـتـــاريـخُ عـــهـــدا طيـــبـــاً
وروى الـتـــاريـخ عـــهـــداً طيـــبـــا
نـحْـنُ لـلـشـــيـخ، بـنـوه. والـوَفَـــا
أنْ يـــرى أنَّـــا بـــنـــوه، الأدبـــا
إنـمـا نـحـن اخــــــتـلـفْـنـا بـيـنـنـا
حين يقـضـي الـفـضـلُ أن نَـعْـتَـصـبـا

فـــــــذهَـبـنـا كـلٌ آنٍ مَـــــــذهـبـــــــأ
وركـــــبْـنـا كلَّ يـومٍ مَـــــرْكـــــبـــــا
لـيس فـــــــيـنا رجـلُ الـشـــــعـب الـذي
إنْ دعـــــــا الـواجـبُ لـبَّـى الـطَّـلـبـــــا
إنمـا الـشـــــــعـبُ الـذي أشـكـو لـه
صُـــحُفَ الشـــعْب فكان الشُّــغَـــبـــا
وجــــعَلْـنـا الديـنَ فــــيـنا فـــارقــــاً
فـــتــــفـــرقنا بـه أيـدي سَـــبَـــا
ويــحَ لـــبـنــــان إذا داعٍ دعَـــــــــا
فَــــبَـنُـوهُ عـن بـنـيـــــه غُـــــرَبـا
كــــان فـي لـبـنـان عَــــهْـــدٌ طـيِّـبٌ
رحـمَ الـلـهُ الـزمـــــان الـطـيِّـــــبـــا

البرق، ٤ شباط ١٩٢٣، عدد: ١٧٥٣، ص.١

****

أعيدوا إلى الأقضية محاكمها
تُعيدوا إليها دماءها وحياتها

ماذ ينفع الراسُ إذا هلكت الأعضاء؟

ليس غير أعمى البصر والبصيرة، مَنْ لا يرى الأضرار البليغة التي لحقت بالأقضية اللبنانية التي حرمت محاكمها، فكانت من قبل ناميةً زاهية، فإذا هي اليوم جامدة جافّة.

وليس غير هذا الأعمى، مَنْ لا يرى أن المحكمة في القضاء هي قلبه الخافق، يتوزّع منه دمُ الحياة إلى القرى والدساكر، فإذا هو عجز عن أن يُنعِشه فلا أقلَّ من أن يُمسك له بقيةَ رمقه.

وليس غير الصلب الفؤاد، المتحجِّر العواطف، مَنْ لا يُشفقُ على ذلك العجوز المتوكئ على عصاه، القاطع الأميال البعيدة في طريقه إلى المحكمة.

بل ليس غير المتحجر العواطف، مَنْ لا يُشفق على بلادٍ بأسرها أنهكتها الحربُ واجهزت عليها الأزمة، تنتزع منها محاكمها وهي مشكى ضيمها ومرجع قضاياها؛ فتُضطرُّ إلى تجشُّم المسافات، وتكبد النفقات، وهي بحاجة إلى ساعة قصيرة تُنفقها في طلب الرزق لتستطيع الوقوف على رجليها.

لم نسمع من قبل، ولا روى لنا راوٍ، أن بشريا يبيع قلبه ليشتريَ به إكليلاً لرأسه.

بل إنْ حكومتنا تفعل ذلك... أفليستْ هذه الأقضية هي بمثابة القلب للبنان، تضنُّ عليها الحكومة بالفلس لتشتري من مجموع هذه الفلوس، درّةً للرأس الذي هو العاصمة؟

ومِنْ اين يستمد هذا الرأسُ حياته وجماله، إذا لم يكن يستمدُّهما من القلب؟

لقد قلنا في «برق» أمس، إنّ نفقة دائرةٍ واحدة تكفي لإعادة المحاكم كما كانت عليه من قبل الاحتلال.

وإعادة المحاكم إلى ما كانت عليه، معناه إعادة الدماء إلى الجسم اللبناني.

أعيدوا محكمة الكورة[١] تُنْعِشوا جميع أهل الكورة.

وأعيدوا محكمة البترون[٢] تُنْعِشوا جميعَ أهل البترون.

وأعيدوا محكمة المتن[٣] تُنْعِشوا جميعَ أهل المتن.

وأقيموا لزغرتا[٤] محكمةً ولا تَنسُوا عكار[٥] ! واذكروا المحاكم التي أُلغيتْ في لبنان الجنوبي..... أعيدوا جميع تلك المحاكم إلى ما كانت عليه تُنعشوا الأمة بأسرها.

ولا بأس إذا مَحَوتم من سِفْر هذه الدولة اللبنانية نِظَارةً أو نظارتين[٦]. بل لا بأس إذا استغنيتم عن المجلس النيابي بأسره، وهززتم أكتافكم لمشروع شورى الدولة.

لقد أكثرتم وضع الألحفة على «الرأس» حتى كاد يختنق، فانزعوا عن هذا الرأس لحافاً واحداً وغطوا به بقية الجسم، فإنه عارٍ والبرد كبرد اليوم، شديد.

أما المجلس النيابي، ويا خجلتاه مما فعله في موازنة ١٩٢٤.

لقد رحم الأفراد وقتل المجموع.... بل هو وقف في وجه الحكومة، عندما قررت إلغاء بعض النظارات، وصرْف بعض كبار الموظفين.

ليت شعري؛ بأيِّ وجهٍ سيقابل هؤلاء النوابُ مُنتَخبيهم، يومَ يقولون لهم: لقد أحييتم العاصمة وقتلتموني، فاذهبوا إلى العاصمة لتنتخبكم، فشأنُكُم غير شأني[٧].

إنَّ النظارات التي حافظتم عليها هي للعاصمة لا لي .. وكبار الموظفين الذين جاملتموهم هم للعاصمة لا لي..... والدوائر التي حافظتم عليها وأنفقتهم عليها، هي للعاصمة لا لي.

إن ما هو لي – أنا القضاء الشاسع الذي رفعكم على أكتافه إلى كراسي النيابة – إن ما هو لي، المحكمة التي لا حياة لي بدونها، المحكمة فقط فأين هي؟

إن وقت الحساب أصبح على الأبواب، وسيكون لنا – معاشر الأقضية – مواقف معكم يا نواب الأقضية.

افتتاحية

البرق ، ١٩٢٤، عدد: ٢٠٢١، ص: ١

****

الخيال اللبناني الأسمى

ما هو؟ وأين أثره في لبنان؟ وهل يعرفه أولو الأمر منا؟

في سبيل إنقاذ الجمهورية

ما جاهد اللبنانيون القدماء في سبيل الوطن اللبناني الكبير إلا جرياً وراء ما يسمونه الخيال الأسمى ألا وهو وطن لبناني يتسع لهؤلاء الذين حصرتهم مظالم الأجيال الغابرة بين الصخور الجافة فأقاموا فيها مؤثرين الضنك على أن تمس حرياتهم أو تنال كراماتهم حتى إذا انفتح لهم طريق البحر طاروا من وكناتهم إلى حيث اقتنصوا الثروات وحملوها إلى لبنانهم وحملوا معها ما نراه فيه اليوم من آثار العمران.

وليس ما كان يربط المهاجرين بلبنان ويؤجج في صدورهم لظى الحنين إليه ما تركوه وراءهم من زوجات وبنين، لا ليس هذا الذي كان ولا يزال يربطهم بلبنانهم لأنه ليس أسهل على المهاجر من حملهم إليه، بل الذي كان يربطهم به ويؤجج فيهم نار الحنين إليه هو نشوؤهم تحت سمائه الصافية الحرة، وتمتعهم فيه بالحكم الذاتي وعدم شعورهم بثقل الضرائب التي كانت ترزح تحت أعبائها الولايات القريبة منهم فاللبناني في بيته لا ينفق غرشاً إلا إذا كانت الحاجة ماسة إلى الإنفاق، وإلا إذا اقتنعت العائلة جميعها بوجوب هذا الإنفاق.

ولم يكن ذلك الحرص منهم فطرة فيهم، بل لم يكن إحدى شوائب البخل، ولكنه كان لازمة جدب جبالهم، أفلم تر كيف دفعتهم الحاجة إلى نقل التراب إليها حتى يستطاع زرعها قليلا من الحبوب والكرمة والزيتون سداً لإرماقهم، ودفعاً للمجاعة عنهم.

على أن اللبناني لم يكن ليحتمل كل ذلك الضيق لولا تنشقه ريح الحرية بفضل الحماية الدولية[1]، ولولا تمتعه بالحكم الذاتي أيام كانت الولايات تتحكم فيها الأتراك الحكم المطلق.

ومن هناك نشأ ما يسمونه «الخيال السامي» ألا وهو أن ينتقل لبنان بمثل حاله الأول إلى وطن أكبر يستطيع معه أن يقيم حاجزا منيعا ضد تيار المهاجرة. وعلى ذلك يجد اللبنانيون - قدماؤهم وحديثوهم - وطنا حرا رخيا خصيبا تحل فيه فرنسا محل الدول السبع التي حمته من قبل.

فهل توصل أصحاب ذلك «الخيال» إلى خيالهم.

وهل أحد يجرؤ على القول إن لبنان اليوم يتمتع بمثل حاله الأول؟

وهل نقلنا إلى الأراضي التي عادت إلينا شيئا من تلك المزايا التي كانت للبنان؟

لا... إن معظم الذين يقبضون على أزمَّة الأمور في لبنان الكبير يجهلون ذلك «الخيال السامي» لأنهم غرباء عنه وكيف يدافع الرجل عن شيء يجهله، عن شيء لم تحبل به شعوره.

لقد نشأ معظم هؤلاء السادة تحت حكم الولايات فهم والحالة هذه يجهلون حلاوة الحياة اللبنانية التي تقدم وصفها على ما كان يرافقها من الضنك.

ولقد نشأ هؤلاء السادة أصحاب مهن حرة لا متاجر لهم فهم إذن يجهلون مرارة الضغط التي كان يتذوقها ملاك الولاية وتاجرها بسبب الضرائب مثل جهلهم حلاوة الحياة اللبنانية من هذا القبيل، أما الملاك والتاجر في الولاية فقد كانا ينظران إلى تلك الحلاوة ويشتهيانها، وبهذا وأمثاله كان العاملون في القضية اللبنانية يحاولون إغراء هؤلاء بالانضمام إلى لبنان عن نفس راضية.

لقد انعكست الآية تماما، فبدلاً من أن يحمل لبنان للولاية مزاياه المحببة حملت الولاية إليه مزاياها البغيضة.

فماذا حصل عن هذا؟

– وهل حصل عنه إلا ما هو واقع الآن؟ وهل هذا الواقع الآن إلا نتيجة طبيعية للحال الحاضرة.

إن اللبناني القديم كان يحلم بتوسيع لبنانه على مثل ما كان من قبل مع تحمل شيء من النفقات مقابل ما يحصل عليه من الفوائد.

واللبناني الجديد كان إذا طمع بالانضمام إلى لبنان فللتمتع ببعض ما كان يتمتع به اللبنانيون من قبل.

فما هو الحاصل الآن؟

لبنان القديم ينتحر ...

واللبنانيون الجدد نكبوا فوق ما كانت تنكبهم به الولاية.

فالفريقان غاضبان، والفريقان محقان

قد يقولون لنا لقد طلبتم إنشاء حكومة نيابية، وهذه الدوائر من لزوم تلك الحكومة. فنقول: أجل! طلبنا حكومة نيابية نستطيع تسييرها بنصف الأموال التي تنفقونها عليها.

أجل لقد طلبنا لبنان على شكله هذا، ولكننا نريد أن يعيش، ونحن نرى أنه لا يمكن أن يعيش مع هذه الحال، فنحن بموقفنا هذا ندافع عن حياة الجمهورية اللبنانية، ندافع عن هذا الخيال السامي الذي حرقنا على هيكله شبابنا ضد الذين يجهلونه ولا يزالون يجهلونه

البرق، ١٤ آب ١٩٢٦، عدد: ٢٦٣٦، ص ١

****

لمصلحة من أنشئ لبنان الكبير

هل توجد بلدة أو قرية أو مزرعة في جبل لبنان تقول لنا إنها استفادت من تكبير لبنان؟ ما هي فائدة اللبنانيين من تكبير لبنانهم إذا حل الأرمن محلهم؟ ما أحدثه مقالنا أمس في الأندية اللبنانية الصميمة من الأثر البليغ وما صادفه من الرضى والقبول.

الأمير فؤاد أرسلان يقول لنا إن ٤٠ ألف درزي يمضون في إعادة لبنان إلى ما كان عليه لزوم عقد مؤتمر لبناني يمثل جميع الأقضية اللبنانية وجوالي المهاجرين.

لقد آلينا أن نمضي في الذياد عن الحظيرة اللبنانية وإنقاذها حتى النهاية ونحن لا نذود عنها ولا ننقذها إلا إذا وضعنا أولياء الأمور بين أمرين لا ثالث لهما: فإما أن يعملوا على ما يوطد أقدام اللبنانيين في بلادهم وهذا لا يكون إلا بإنشاء إدارة صغيرة لتخفيف الأعباء عن المكلف اللبناني، ثم بجعل مقدرات البلاد في يد أصحابها ليعملوا على تسهيل عودة اللبنانيين إليها لتعمر البلاد بأبنائها.

ونحن ما دمنا نرى أولياء الأموز سالكين مسلكهم الحاضر الذي يقضي قضاءه المبرم على اللبنانيين في بلادهم، ونحن ما دمنا نرى البلاد اللبنانية تقفر من اللبنانيين لتمتلئ بالأرمن وغيرهم من العناصر الغريبة، ونحن ما دمنا نرى ذلك فسنعمل جهدنا لإنقاذ البقية الباقية من بني قومنا ولا سبيل إلى إنقاذها إلا باستخلاص لبنان القديم من الهوس الذي أخذ به فنرجع به إلى حاله الأولى وهنائه الأول.

لقد خدمت القضية اللبنانية المصلحة الفرنساوية في مطلع الاحتلال خدمات لا تقدر بثمن وخدم اللبنانيون هذه المصلحة بغيرة قد لا تجول في صدور الكثيرين من

الفرنساويين الذين عرفناهم، وحسب الذاكرة أن يرجعوا إلى عام ١٩١٩ يوم طافت اللجنة الأميركية فلسطين وسوريا ولبنان فما وجدت المصلحة الفرنساوية متكأ ناعما لها في الخلافات بينما كانت الدعاية الانكليزية والجانب الانكليزي يقضان مضاجعها في جميع البلدان السورية ومنذ ذلك الوقت تعززت فكرة لبنان الكبير في المفوضية العليا في بيروت ليكون للقضية الفرنساوية مرتكز حصين في الأراضي السورية، ولم يكن تكبير لبنان من مذهب الكثيرين من كبار مفكريه لبعد نظرهم وصدق فراستهم ولكن العاطفة اللبنانية الفرنساوية تغلبت على الحكمة، والثقة تغلبت على المجازفة فقاموا شعباً وصحافة - يطالبون بلبنان الكبير على نحو ما هو عليه، ولم يكونوا ليحلموا من قبل بغير ضم البقاع الغربي ومدينة بيروت إليهم.

إذن فما يقال من أن تكبير لبنان عمل لمصلحة اللبنانيين محض خطأ، وإذن فلا يمنًّ علينا احد بعد الآن بهذا التكبير وقد كان من حقنا أن نمنًّ به نحن لولا أننا نراه أبخس ما وهبناه للصداقة الفرنساوية، فما وهبنا لهذه الصداقة حماية الدول العظمى ومزقنا تحت أقدامها البرتوكول[1]، وخلعنا من أعناقنا تلك الامتيازات الغالية.

ونحن غير راجعين عما قدمناه وغير جاحدين مقابل ذلك نبل الروح الفرنساوي ولا سخاءه على الإنسانية ولكننا لا نطيق أن يمنعنا أحد عن المضي في ما نراه واقياً لكياننا المهدد كلبنانيين صميمين يرون بلادهم تخرج من أيديهم بسبب الفوضى الضاربة أطنابها في دوائرهم الرسمية وبسبب الضرائب التي لا تتحملها طبيعة الجبال القاحلة، وبسبب الحواجز الخفية التى تقطع خط الرجعة على المهاجرين وهم المحور الذي تدور عليه آمالنا بتجديد شباب لبنان، أضف إلى ذلك جلاء المئات والألوف من اللبنانيين في كل عام.

وماذا يفيد اللبنانيين لو خفقت الراية اللبنانية على جميع الشرق العربي وأطلق على سكانه اسم لبنانيين، وهم هم لا أثر لهم في لبنان ولا مصلحة يرجونها منه، أفلا يكون الأفضل لهم ألف مرة لو حفظوا كيانهم الصغير واستمروا على تعزيزه واستقلوا بإدارة أنفسهم على نحو ما يرونه لها كما كان شأنهم في السابق.

بل ماذا يفيدهم اليوم وهم في شر حالتين: اقتصادية وسياسية أما الاقتصادية فهذه التي أجمعت الصحف على ترديدها وأجمع أولياء الأمور على (التمسيح) بها. وأما السياسية أو قل القومية فهذه التي يذوب فيها اللبنانيون في العناصر الغريبة، ولو أنهم ذابوا في الوطنيين المنضمين إليهم لكانوا إخواناً ذابوا في إخوان. أما وهم يذوبون في الأرمن الذين منحوا جميع حقوق اللبنانيين دون أن يكون عليهم شيء من واجباتهم فإن ذلك الذوبان لبلية عظمى هي عفاء العنصر اللبناني قريباً.

وبعد فهل يجسر أن يقول لنا نواب لبنان ولا سيما نواب بيروت والبقاع أنهم يمثلون العنصر الوطني أم هم يمثلون العنصر الأرمني، وليس هذا فقط بل هم اشتروا من العنصر الأرمني نيابتهم وهو منتهى الزراية بالكرامة اللبنانية.

أجل لقد حبل صدر اللبنانيين من هذه الحال، وشرعوا يميزون بين حالهم الأول وحالهم اليوم، فإذا هم نهضوا لإنقاذ الموقف فقد نهضوا لإنقاذ كيانهم المبعثر وإقالة عثرتهم السابقة، ولا نخال فرنسا وقد تمركزت في البلاد تضن عليهم بالمساعدة الكلية للوصول إلى هدفهم، بل لا نظنها تمنع عليهم الاجتماعات التي ستشرب بروح الود لها على كل حال.

ولا ريب في أنه كيف رأى اللبنانيون أن يصرفوا وجه القضية أأعادوها إلى حالها قبل عام ١٩١٤ أم إلى حال غيرها فسيكون لفرنسا موقفها الممتاز عندهم، كما أنهم يأملون منها أن تعطف على فكرتهم هذه لتستبقي لها القلوب التي رضعت حبها منذ مئات السنين.

ولا يغرّن فرنسا ما يسمعه رجالها من بضعة نفر هي التي أوجدت معظمهم من العدم، وهم لم تربطهم بلبنان رابطة من قبل، لا يغرن فرنسا أن هؤلاء يعبرون عن الروح اللبناني السائد اليوم، فإن الذي يعبر عنه حقيقة التعبير إنما هو نحن بدليل ما سمعناه أمس من جميع الذين لقيناهم من الصحفيين اللبنانيين عن وقع مقالنا فى نفوسهم وتأكيدهم لنا أنه الصدى الصادق للأندية اللبنانية أو بالأحرى للحقول اللبنانية، ثم

بدليل ما قاله لنا الأمير فؤاد أرسلان يوم السبت الماضي من أن ٤٠ ألف درزي في جبل لبنان يؤيدون فكرتنا هذه.

ولا نريد أن نستقل بتبعة هذا الأمر بل نحن نقترح أن يعقد له مؤتمر لبناني عام يجمع إليه العناصر اللبنانية كافة، وتمثل فيه الجوالي اللبنانية في جميع المهاجر على أن ندرس هذا المؤتمر في أعدادنا القريبة إن شاء الله.

البرق، ٢٥ تشرين الأول ١٩٢٧ ، عدد ٢٨٩٦، ص ١

****

شقاء لبنان الصغير
بلبنـــان الكبير[١]

مـاذا استفاد اللبنانيون القدماء من تكبير لبنان اللهم إلا خسرانهم الامتيازات وإرهاقهم بالضرائب وانتزاع المنافع منهم؟ أين عظمة سراي بعبدا وازدهار سرايات الجديدة وأميون وجزين وكيف أصبحت قبوراً بعد أن كانت قصوراً.

خذوا لبنانكم وردوا علي لبناني

لقد انطفأ آخر أمل للبنانيين ولا سيما اللبنانيين القدماء بالإصلاح وهو عندهم تأسيس إدارة تتناسب مع اقتدارهم وعددهم، فإذا الأمر ما برح توقيعاً وإذا الوعد ما برح تعليلاً.

ولا غرو إذا استشعر أهالي جبل لبنان بالفرق العظيم بين ما كانوا عليه من هناء ورغد في حياتهم المادية ومن عزة وتمتع فى حياتهم السياسية. كيف لا وقد كانوا يجهلون أسماء هذه الضرائب الجديدة التي أخذوا يرزحون تحت أعبائها، وكيف لا وقد كانوا في معقل حصين من حماية الدول العظمى لا تكاد تنزل بهم ملمة بل لا يكادون يتحسسون بضيم حتى تمخر السوابح وتتحرك الجيوش.

إذن فللبنانيين القدماء عذرهم إذا استشعروا الفرق العظيم بين ماضيهم وحاضرهم، ليس من جهة المذلة التي يعانون بعد تلك العزة، وليس من أجل هذه الرسوم وقد كانوا يجهلونها، وليس من أجل خسرانهم تلك الامتيازات التي سيبكون عليها بدم المهج، ليس من أجل هذا فقط بل من أجل بوار قراهم العامرة ومزارعهم الزاهرة، حتى أصبحوا ذنباً لبيروت تستعملهم لهش الذباب عنها، وما قصدنا أهل

بيروت حتى ولا مدينة بيروت بل قصدنا هذه الدوائر القائمة فيها وهؤلاء الرجال القائمين على رؤوسها لا يتحسسون بما يتحسس به اللبناني القديم لأنهم ولدوا بين ذل الولاية وضغط الولاة ثم سكروا بما يترشفون من خمرة السلطان وما تعودوها من قبل، فتغلغل اليأس الى القلوب وكادت تدق أجراس الفوضى لولا الرهبة، مع ذلك لا يصحون من سكرتهم ولو علموا أن للموت سكرة لصحوا ولو قليلاً.

وكيف لا يكون للبنانيين القدماء عذرهم وهم إنما ارتقبوا هذا العهد ارتقاب الساري طلعة البدر، فإذا هم يعوضون من الزيادة بالنقص وكيف يملك اللبناني القديم مشاعره إذا مر في بعبدا وإذا هو دخل سرايها فهاله هذه الوحشة بعد ذلك الأنس وهذا الجمود بعد تلك الحركة، إن سراي بعبدا كانت قصرا تفتح عيناها على قرقعة سيوف الجند وصدحات الموسيقى وصرير أقلام الحاكم فإذا هي اليوم قبر له جميع نعوت القبور.

وما يقال عن سراي بعبدا يقال عن سراي الجديدة، وما يقال عن هذه يقال عن سرايات أميون وجزين والشويفات وأقضية غيرها يوم كانت تضحك في تقاسيمها الحياة، ويوم كنا معاشر أبناء لبنان القديم نأمل أن تكون أشد ازدهاراً وأروع مستقبلاً فإذا الأمر ينقلب إلى عكسه.

أما سراي بيت الدين[1] ذلك الأثر التاريخي العظيم وملتقى رجال الحكومة في صيف كل عام فقد أصبح في خبر كان.

إن الانتداب ليخطىء أعظم الخطأ إذا حسب أن لبنان هم هذا النفر الذي سوَّده رغم أنوف اللبنانيين عليهم، وإن الانتداب ليقصر إذا هو لم يدخل الى مكامن الشعور في صدر الشعب اللبناني (ونريد به أبناء لبنان القديم) ليتعرف الى هذه الثورة الهائلة المشتعلة في قلبه وإلى هذا التطور الغريب الذي طرأ على نفسيته القديمة، وحسبه أن يعلم أن الشعب اللبناني الصميم أصبح لا يرى في عمل الجنرال غورو منحة هو المقصود بها[2] لأنه أصبح يقول على ملأ من الناس «أي فائدة لي من أن يقال عني أني صاحب هذا القصر وأنا لا أملك حتى الدخول إليه، ولا حتى الاستفادة منه اللهم إلا

أنهم يطالبونني بثمن ورواتب أسياده حتى إذا بخلت على الأرض بما يفرضونه عليّ أعملوا سياطهم في ظهري ولا ينفكون حتى أقطع عن أطفالي غذاءهم وأحمله إلى سادة القصر ممزوجاً بدمي ودمعهم».

إن شعباً هذه حقيقة حاله ما تراه يهمه من حديث الوزارات والمجالس بقيت الوزارة أم استقالت، أظفر الجسر[٢] بالرئاسة أم ظفر بها نمور، أتدخل أسقف في الانتخاب أم لم يتدخل، شعباً هذه حقيقة حاله لم يعد يطيق عليها صبراً، وهو إذا لم يقم على معالجته طبيب عالم حازم لم يكن الذنب ذنبه إذا استشرى الداء بل كان الذنب ذنب طبيبه وقد شكا له علته وأفضى اليه بجميع أعراضها.

أجل لم يعد أبناء لبنان القديم يطيقون صبراً على هذا المهازل التي تمثل وهم يدفعون ثمنها من أبدانهم وأرواحهم. ولقد ذكروا - مع الألم - زمناً كانوا فيه سادة أنفسهم لا يشاركهم أحد لا في سلطانهم ولا في أموالهم، ولذلك فإن فكرة قوية تتمخض وهي أن يجتمعوا في مؤتمر يضعون فيه مطالبهم ثم يحملون هذه المطالب إلى البطريرك الماروني من حيث إنه تولى في بادئ الأمر تصريف القضية اللبنانية ومن حيث إنه مسؤول بنتائجها وهي المحنة التي يعانيها اللبنانيون ولا ينكرها هو.

وغير بعيد أن يدنو اليوم الذي ينهض فيه اللبنانيون القدماء - إذا استمرت الحال على ما هي - ويهتفون بصوت واحد على ملأ من العالم قائلين:

خـــذوا لبنانكم وردوا علي لبناني.

بشارة الخوري

البرق، ١٩٢٧، عدد ٢٨٩٥، ص ١

****

شقاء لبنان الصغير
بلبنـــان الكبير[٢]

نقترح على مفكري اللبنانيين القدماء تاليف وفد يطوف القرى اللبنانية ويضع لنا تقريراً ضافياً يقابل فيه بين حالات لبنان عهد البرتوكول وحالاتها بعده.

المجلس النيابي يتمخض بفكرة لبنان القديم

الأستـاذ ابراهيم منذر والأستـاذ دموس ورئيس حزب التضامن اللبناني يؤيدوننا في موقفنا.

النائب الدكتور تلحوق يغضب لامتصاص بيروت الملحقات، إما لبنان الكبير وإعادة جميع دوائر لبنان القديم إليه وإما لبنان الصغير كما كان قديماً. لفتة إلى فرنسا نصيرة البؤساء والمستضعفين.

لم يسعد مقال في جريدة بل لم يكن لمقال من صدى في جريدة أشد وأوقع من الصدى الكبير الذى أحدثه مقالنا حول شقاء لبنان الصغير بلبنان الكبير حتى إننا لم نكن نلتقي مفكراً ولا وجيهاً من أبناء تلك البقعة الهانئة في الأمس التاعسة اليوم إلا وحمد لنا فكرتنا أيما حمد وأطرى إقدامنا أيما إطراء وتعهد لنا بأنه سيكون بوقاً صارخاً في تلك القباب والحقول البالية في استنهاض ما بقي من الهمم لاسترجاع الحياة الى من وما بقي في الشقي (جبل لبنان) الذي جنى على نفسه بانخداعه لبوارق الآمال وكواذب الوعود، وسياسة التقلب

ولا نطلب الى مفكري اللبنانيين من صحافييهم الى شعرائهم الى كبرائهم الحقيقيين - تمييزاً لهم عن كبراء هذه الأيام - لا نطلب إليهم إلا أن يؤلفوا وفداً يطوف البلاد اللبنانية القديمة فيضع فيها تقريراً ضافياً يقابل فيه بين جميع حالاتها عهد

البرتوكول وحالاتها بعده فيقول لنا مثلاً: كم كان عدد سكانها قبل عام ١٩١٨ وكم أصبح اليوم يهاجر منها في السنة وكم كان يعود إليها من المهاجرين

كم كان يرسل المهاجرون من الأموال وكم يرسلون اليوم.

كم كان فيها من البنايات ويحرث من الأراضي بأموال المهاجرين وكم يبنى ويحرث فيها اليوم.

حتى إذا انتهى الوفد من هذا كشف لنا أسبابها مهما كانت هذه الأسباب موجعة.

ثم ليقل لنا كم كان معدل سعر الأراضي والعقار فيها وكم أصبح اليوم ثم يستخرج لنا الفرق بين أسعار الأمس وأسعار اليوم لنرى جسامة هذه الخسارة وليقل لنا عن أسبابها مهما كانت هذه الأسباب موجعة.

وليقل لنا الوفد كم كان مبلغ الضرائب والرسوم التي كان يؤديها اللبنانيون القدماء وكم أصبحت اليوم وكم هي الطرق التي كانت تشق في العام وكم هو طولها وهل كانت الضرائب تنفق كما تنفق اليوم على فخفخة فارغة ودولة لو مثل الوهم لكان أقرب إلى الحقيقة منها وليحدثنا الوفد عن الخسارة الأدبية والمادية التي لحقت بالأراضي اللبنانية القديمة من جرّاء تنازلها عن الامتيازات وخضوعها للديون العمومية وما أصاب اللبنانيين بسبب هذا التنازل الأحمق عن ثروة ومتعة لو ملكهما أصغر الشعوب لكان في خير حال.

وليحدثنا الوفد عن الجو اللبناني الحاضر والجو اللبنانى السابق، ليحدثنا عن التنفس والضغط والتآلف والتفتت بل ليحدثنا عن الدستور السابق والدستور الحالي وليقل لنا أيهما كان أضمن للسيادة الشعبية، وأطبق على الأماني اللبنانية ثم ليقل عن الإدارة السابقة وما كان فيها من ضبط ودقة وسرعة وعن الإدارة الحالية المضعضعة (إدارة الأوراق والدبابيس).

ليحدث الوفد عن كل ذلك ويبين الفوارق بين كل ذلك ليرى اللبنانيون أية خسارة خسروا وأية خديعة خدعوا ثم ليقل لنا الوفد عما يصير إليه لبنان القديم واللبنانيون الصميمون إذا استمرت الحال عشر سنوات على هذا المنوال. ليقل لنا كم يبقى في لبنان من أبنائه، ومن هو الشعب الذى يرث اللبنانيين ومن يكون غداً رئيس الجمهورية ونواب المتن والبترون وكسروان أسركيس قيومجيان أم أوهانس ابليان.

ليبين الوفد للبنانيين هذه الحقائق السوداء المخيفة الساحقة القاتلة لعل بقية دم تجري في العروق ولعل بقية عقل تقيم في الدماغ، فتستدرك الخطر قبل وقوعه، وتنصب لهذه الصاعقة المنقضة القضيب اللاقف.

ولقد أدرك - والحمد لله - بعض النواب اللبنانيين خطورة الموقف فرأى الدكتور جميل تلحوق أن القرى اللبنانية أهملت وبارت فوقف صارخاً في المجلس على مسمع من مندوب المفوض السامي وأولياء الأمور « إن هذه حالة لا تطاق الى متى تمتص بيروت الملحقات أفكلما قامت مصلحة هناك هدمت وأرسلت أنقاضها إلى بيروت لتضخيم بنائها».

ولقينا أمس الأستاذين دموس والمنذر فقال لنا الأول إني أصبحت على رأيكم وسوف أصر عليه ولو رجعتم أنتم عنه ثم التفت إلى الأستاذ المنذر وسأله عما إذا كان هو أيضاً من هذا الرأي فقال بالإيجاب. ولقينا أمس رئيس حزب التضامن اللبناني فحمد لنا موقفنا وقال لنا إن حزبه سيهتم بهذا الشأن متى بدأت أعماله وليس هذا فقط فإن هناك دوياً خفيفاً في نفس اللبنانيين أشبه بالدوي الذي يبقيه الرعد في الآذان بعد انقضائه لكنه دوي مستطيل ما زالت رعود السراي الصغير ونريد بها ضرائبها وضرباتها متوالية.

لقد قلنا مراراً إن الذين طلبوا تكبير لبنان فهم إنما طلبوه على نية أن يحملوا الى الأراضي المنضمة إليهم النعم التي كانوا يهنأون فيها فإذا الأراضي المنضمة تحمل إليهم النقم التي كانت تتشوى عليها.

لقد صبر اللبنانيون القدماء طويلاً على هذه الحال ورضوا للمتنعمين بالوظائف استمرار هذا التنعم ببقاء لبنان كبيراً على نحو ما هو الآن ولكن بشرط أن لا تستنزف هذه البهارج وتلك المرتبات دماء اللبنانيين، وبشرط أن لا يصبح لبنان القديم خراباً يباباً، وبشرط أن يعمل على استرجاع المهاجرين لتعمير القرى اللبنانية فإذا في الآذان صمم وإذا الوظائف الكبيرة تخلق محاباة ومساندة وإذا الفلاح يجر السكة بكتفه بدل الحيوان، وإذا الضعفاء يأكلون الزوان بينما الموائد تقام في كل مكان من أموال هؤلاء الضعفاء أنفسهم فمن يطيق هذا إلا إذا كان حجراً أصم، أو حيواناً أعجم.

لقد قلنا لهم خفضوا ١٥ في المئة من مرتبات الوزراء والنواب والمحافظين ورؤساء الدوائر.

وقلنا لهم أعطونا وزارات أربع على الأكثر.

وقلنا لهم أعطونا مجلساً مؤلفاً من ثلاثين على الأكثر.

وقلنا لهم لا تعطوا الموظف أكثر من معاش واحد.

وقلنا لهم اجعلوا المحافظين على درجة واحدة فلا يتناول أحدهم المئة ويتناول الآخر الخمسين.

وقلنا لهم عودوا بنا إلى التنظيم الإداري الصحيح الذي كان للبنان القديم فتقتصدوا بثلث الموظفين وبثلثي الوقت وتوفروا على طلاب المصالح أموالهم وأوقاتهم.

ثم قلنا لهم إننا معاشر أبناء لبنان القديم نصر كل الإصرار على أن تعود جميع الدوائر والمحاكم التي كانت لنا قبل تكبير لبنان إلى ما كانت عليه فإنها دواء قرانا ومبعث حركتها الاقتصادية وسبب نهضة أثمان أملاكنا.

قلنا لهم كل ذلك فقالوا لنا بسكوتهم موتوا فلا رحمكم الله.

وقالوا لنا بأعمالهم نحن وإخواننا وبنو أعمامنا وكل نطفة تنتسب إلينا قهرناكم على هذا الملك نعمل فيه ما يطيب لنا فإن حركتم ساكناً قتلنا أرواحكم في صدوركم

وأقمنا في وجوهكم الزحافات تحمل النار والحديد، فأطرقنا رهبة للقوة ولفتنا وجهنا - نحن معاشر اللبنانيين القدماء - جهة فرنسا وقلنا لها والدموع ملء عيوننا والأحزان ملء قلوبنا. يا أم الحرية! ويا قوة المستضعفين ويا نجدة المقهورين على حقوقهم: بالوفاء الذى عرفته فينا، وبالضحايا القديمة والحديثة التي قدمها كل منا للآخر أعيدي علينا لبناننا الصغير وهناءنا الصغير وسيادتنا الصغيرة.

أعيديها إلينا فتبقي في هذا الشرق ذلك الخمير الذي فعل ويفعل فعله العجيب في نفوس أبنائه لحبك وعظمتك.

بشارة الخوري

البرق، ١٩٣٧، عدد ٢٩٠٠، ص.١

****

لا تجوروا على الأطراف
وتحافظوا على الرأس

لا نوجه خطابنا الى فخامة العميد فهو منشغل عن لبنان بسوريا ولا تحمل بطيختان في يد واحدة، إذن فنحن نوجه خطابنا الى الأستاذ إدة[1] الذى علق عليه لبنان آماله، وما هدأت تلك الثورة التي احتدمت على عهد الوزارة الخورية[2] ولا سكتت الصحف بعد ذلك الصخب إلا على رجاء إنقاذ الموقف بعمل مجاني كبير تستريح إليه النفوس وتطمئن إليه الخواطر.

يجب أن يعلم الأستاذ إده أن الأمر الوحيد الذي وطد له الثقة في نفوس اللبنانيين هو ما اعتقدوه فيه من الإقدام على جلائل الأمور، والإقدام على جلائل الأمور في عرف اللبنانيين هو محاسبة كبار رجال السراي عما يتناولون من مال الدولة غير مراعٍ في ذلك مقاما، ولا عاصم منه أحداً.

ويجب أن يعلم الأستاذ إدة أن لمعانه في سقوطه وهو يقارع الرؤساء عما يغرفون للترف اليوم، وعما يكنزون للترف غداً في حين أن الشعب نسي شكل الرغيف لطول العهد به، أجل يجب أن يعلم الأستاذ إدة أن لمعانه في سقوطه وهو يقارع في سبيل اللبناني البائس لهو أبقى على الدهر من بقائه وهو يحاول جر الإصلاح بملقط صغير.

نحن لا نقول للأستاذ إدة أن قف مشاريعك في القضاء والإدارة برغم ما فيها من التضحية بكثير من البيوت، ولكننا نقول له اجعل عملك في أطراف البلاد وعملك في العاصمة على قدم المساواة فلا تسحق الضعيف الصغير لتزيد في ترف القوي الكبير، بل إذا اضطررت الى هدم الكوخ في القرية فلا يجب أن تقف عن هدم شرفة القصر في المدينة

من المسلم به أن إغلاق المحاكم في القرى والاستغناء عن عشرات الموظفين في الدوائر على ما فيها من تعميم الضائقة لا يأتي بمثل الفائدة المالية التي تنتج عن تعديل

قانون التقاعد وإنزال مرتبات الرؤساء والوزراء شيئاً في المئة وإلغاء التعويضات جميعها، والاكتفاء من السيارات بسيارة لرئيس الجمهورية، إلى آخر ما هنالك من الزوائد التي إذا قطعت عن أصحابها يستطيعون أن يعيشوا بما يبقى لهم من الأصول إذا لم يكن (بالزنطرة) التي يظهرون بها اليوم فبكثير من السعة التي لم يألفوا خيالها قبل هذه الأيام.

لقد لمس رئيس الوزراء هذه الأيام بؤس البيوت اللبنانية ورأى بعينه دموع أرباب العيال يتلمسون الرغيف عن طريق الوظيفة فلا يجدونه، أفيجوز ضميراً أن يموت هؤلاء شقاء وجوعاً في حين أن باحة السراي تكتظ بسيارات الرؤساء والوزراء والأقوياء وهي عصير هذه القلوب المنسحقة التي مثلت هذه الأيام في حضرة الأستاذ الرئيس

وإذا كان الشعب اللبناني شعباً أليفاً مسالماً لا يعرف أن يثور أفليس في أفراده ونابغيه والأستاذ إدة في طليعتهم من يعرف أن يثور في سبيل العدل وفي سبيل الإنسانية.

عندما قلنا في لبنان مجاعة أنكروا علينا القول، غير أن رئيس الوزراء نفسه شهد هذه المجاعة الخرساء التي تعض العائلات المستورة من الطبقة الوسطى، تلك العائلات التي تؤثر أن تفنى عن آخرها دون أن تظهر بمظهر المحتاج، تلك العائلات التي تطوف بأبنائها على الدوائر الحكومية فتراها مقفلة وتطوف بها على البيوت التجارية فتراها مقفلة، وتطوف بها على شركات الاستثمار فتراها مقفلة، فتصور رجوع أرباب هذه العائلات الى بيوتهم مخفقين، وتصور موقفهم بين نسائهم وأطفالهم وهم في مثل هذا اليأس الخانق.

قل لي بربك ماذا ينفع هذه البيوت الجائعة أكان لها جمهورية أو لم يكن، أكان لها وزارة أو لم يكن، أكان لها مجلس نواب أم لم يكن، أفنلومها بعدما رأت من إرهاق الوضع الحاضر وجشع رجاله إذا هي لجأت الى ممثل فرنسا بإنزال الستار على هذا المرسح الى أن تستعيد البلاد انتعاشها الاقتصادي.

ولكن البلاد انتظرت الأستاذ إدة وعلقت آمالها على الأستاذ إدة وقد رضي الأستاذ إدة أن يأخذ على عاتقه مهمة الإنقاذ فماذا تراه فاعلاً؟

إن الأستاذ إدة لا يستطيع أن يفعل شيئاً إذا لم يدعمه اثنان هما رئيس الجمهورية ومندوب المفوض السامي.

وإذا كان لا بد من ركوب الديكتاتورية الى الإنقاذ فأحبب بها مركباً.

أما أن نبقي هذا الرأس الضخم فى سراي بيروت بوزاراته الست ونوابه الأربعة والأربعين وما ينبت على جذوعهم من الطفيليات ثم نعمد إلى رجليه فننحتها حتى تصبح كالخنصر وإلى جسمه فنضغطه حتى يصبح كالرق فإننا ننتقل من قزم قبيح إلى قزم أقبح ومن عيش عسير إلى عيش أعسر.

بشارة الخوري

البرق، ٢٨ تشرين الأول ١٩٢٩، عدد ٢٢٨٨، ص ١.

****

الديموقراطية وشاهدنا عليها

- الإنصاف الضائع - وعد سمو الأمير للجمعية اللبنانية في باريس - حق لبنان في تقرير مصيره.

لم نكن لنهتدي إلى العلاج الشافي؛ ضاعت الملطِّفات، وهدرت المراهم، والمريض لا يزال على حاله، حتى بتنا نخاف أن يشتد به الداء ويمشي به إلى الفناء.

نحن إذا عمدنا إلى الصراحة قالوا: إنك تَجرح العواطف وتثير الكوامن، وإذا نحن عمدنا إلى التلميح قالوا إنك لا تشفي عليلا، ولا تنفع غليلا

حِرْنا وحار القارئ على السواء. كيف لا، وقارئنا اعتاد الحياة الديموقراطية والفكر الحر، ولكن الوسط الذي نحن فيه لم يعتدهما، فلْنُسَمَّرْ ولْيُسَمَّر القارئ في مكانه، إلى أن يعتاد الوسط تلك الحياة، وهذا الفكر، ولا بأس! لا بأس أن نخطو في سبيل الحياة خطوة واحدة في كل قرن..

نشرنا مقالةً في العمر أُفْعِمَت[1] من الفكر الحر والروح الديموقراطي؛ أُفعمت مُرَّ الحقائق التي لا تُدحض؛ أفعمت منها ومن أدب الكاتب معا. وها قد مضى الشهر تلو الشهر، ولا نزال نُرمى بأننا أنغرنا[2]الصدور ولم نقصد بها - والله شهيد - إلا خدمة الحق، وخدمة البلاد.

أجل إن المجموع الذي نحن فيه، لا يزال متأخرا عن الفئة المتعلمة، متأخراً كثيرا؛ فإ ذا اضطرت هذه الفئة أن تساير هذا المجموع بأفكاره، أن تمشي إلى جنبه، وتُسَخِّر أقلامها ومعارفها لأمياله وتقاليده، فأية فائدة لتلك الأقلام وهذه المعارف؟ خَيرٌ لها أن لا تكون مِنْ أن تكون على حالها هذه! خير لها لو ظلت تلعب والنسيمَ على ضفة النهر.

أمامنا أقاويل كخيوط العنكبوت، إذا عصفت بها ريح الحقيقة عصفةً مزَّقتها تمزيقا وسكتنا تجاه هذه الأقاويل لا إقراراً ولا تصديقاً، ولكننا سكتنا حتى لا نرمى بما رُمينا به من تهمةٍ نبرأ إلى الله منها

يقولون إننا ندعو إلى الحياة الديموقراطية، والحكومة الديموقراطية.

فما هي هذه الديموقراطية إذا لم تلبس الحرية دثاراً، وتتخذ الجرأة الأدبية مناراً؟ بل ما هي هذه الديموقراطية التي ينشدونها إذا نحن لم نجسر أن نوجه إلى الكبير انتقاداً، مهما التزمنا جانب الأدب والاحترام فيه؟؟؟

يقولون: نريد أن نجاري الغرب؛ يقولون ذلك وهم يرون فتكات الأقلام في رؤساء حكوماته، وكبار زملائها؛ يرونها كيف تنتقد، وكيف تخاطب، وكيف تُكرم، وكيف تُحقَّر: ثم إذا حاول أحدنا أن ينبه إلى تقصيرٍ عندنا، قامت عليه القيامة، كأنه انتهك قدس الأقداس وجاس سدرة المنتهى.

لا ! لقد سبق القلم إلى التشاؤم مُرغما.

لا ! فإن الروح الديموقراطي تربع في الصدور. ومهدت العلوم العصرية في الرؤوس مقاماً للحرية.

لقد قال سمو الأمير(٣)، أعزَّه الله، في إحدى خطبه النفيسة.

«استقلالنا أولاً، وبعد، فالمساومة على المساعدة»

ونحن – معشر اللبنانيين – نريد أن نستسنَّ سُنَّة الأمير وننهج نهجه؛ نريد أن نقول على نحو ما قال: «استقلالنا أولا وبعد، فالمداولة في الصلة».

لقد نقل إلينا بعض أعضاء الجمعية اللبنانية في باريس، قول سموه لهم، ذلك القول المملوء بالروح السامي والحرية الجميلة.

لقد قال: «اطلبوا استقلال لبنان وأنا أساعدكم عليه وعلى توسيع حدوده، وعلى كل ما يعود عليكم بالرغد والهناء».

ولم نُكبر ما نقله إلينا إخواننا في باريس ونحن أعلم الناس، بما في صدر الأمير من الحب للبنان وأبناء لبنان

وها نحن نطلب استقلال لبنان، ووعد الأمير مُنجَزٌ!

قالوا إن قلب سوريا يتحسس بروح الفتح، وهي إنما تمد يدها للوحدة الاقتصادية، إذا مد لبنان عنقه للوحدة السياسية

أجل، لقد قالوا ذلك. ولكن قولهم يحتاج إلى برهان!

وقالوا: ما ضرَّ سوريا وهي القائلة «إن لبنان بمنزلة العين واليد مني» لو تركت له استقلاله السياسي، وارتبطت به العروبة الاقتصادية؟ ما ضرها، وهو يرى سوريا أعز من روحه، يتوقف نُموه على نموها، وازدهاره على ازدهارها؟ ما ضرها، وهو يبسط من موانيه أيدياً تستقبل الصادرات والواردات، إذا كانت المسألة الاقتصادية هي الأصل في التوحيد؟.

وعندئذٍ لا تعمل سوريا على قتل لبنان إذا صدقت دعوى المحبة، ولا نُضطر أن نقول (وقتلوا ملكا معي).

إن الحب الصحيح هو الحب الذي يجلُّ عن المساومة، وهذا لا يتجاوز الوحدة الاقتصادية بعكس الوحدة السياسية التي تشف عن روح السيادة، شف الثوب الرقيق عما تحته.

«يقولون إن للشعوب الحق في تقرير مصيرها ومستقبلها» فإذا كان ذلك كذلك، فلماذا يُمنع شعب لبنان من تقرير مصيره؟».

إن لبنان كان ولا يزال، قطعةً مستقلةً له حكومته، وله ماليته، وله امتيازاته، وله حقوقه في سجلات حكومات العالم المتمدن. فكيف يريد إخواننا هؤلاء أن يترك لهم كل ذلك، ولا يمهلونه ليرى ما سيكون من شأن حكومتهم الجديدة، وعندئذٍ لا يصعب عليه أن يعانق سوريا، تضمه ويضمها سياسياً، بعد أن تكون ضمتهما الوحدة الاقتصادية، والأمور مرهونة بأوقاتها.

افتتاحية

البرق، ١٩١٩، عدد: ١٤٠-٦٥٠، ص: ١

****

ومــن لــم يـــذد
عن حوضه بسلاحه... يهدم [1]

سكتنا حتى أصبح السكوت عبئاً. ولو أنصفونا لقالوا: أبيٌّ يأنف التسفُّل إلى الصغائر، فلا يستعد لمناوأة الخصم سوى بكلمات لا تستخف ولا تنبو.

عجباً لهم! أوَ كلُّ الجرائد التي تُماشي الانتداب، هي مشتراة؟ حتى الغنية بمادتها والغنية بأدبها؟

ذلك ما كتب به مراسل جريدة «الاستقلال» التي أحياها جبرائيل بك تقلا[2] إلى جنب جريدة «الأهرام»؛ أجل ذلك ما قاله عن معظم الصحافة البيروتية.

وكان من قبله ضرب على هذا الوتر فريق من الجرائدية الصغر، هزأنا بأقوالهم لما نعلم من سابقاتٍ لهم صرفوها بين خفض و «نصب».

ولكن هل لتقلا بك أن يقول لنا، لماذا بعث «بالاستقلال» من قبره، وهو نفس الأهرام حرفاً وشكلاً، اللهم إلا ما خصص منه لمناوأة الانتداب الفرنساوي، مقابل ثمنٍ ينقده من دعاة الحجازية[3] وهم كثر؟

ولقد عُرف عن «الأهرام» نفسه أنه ماشى السياسة الانكليزية؛ فكانت هذه المماشاة سلَّماً إلى الثروة التي جمعوا. لقد عرفنا ذلك، فقلنا لبنانيان لم يكن لهما وطن في ذلك العهد، فخدما نفسهما وجعلنا لهما مخرجا.

أما ولصاحب «الاستقلال» ثروته، وله تربيته وله عرقه اللبناني، فكيف يجوز له أن يضع هذا السلاح في يد خصوم ذويه، مهما بلغ الثمن ومهما بُولغ فيه.

صدر «البرق» على أثر انجلاء الترك، ثم أقبل الفيصليون[٤]، ثم تلاهم الإنكليز، وللبرق نزعته اللبنانية لا يرضى عنها بديلا

وكان «البرق» عرضة للتجارب، فبذل له عن سعة رغبة استمالته، لا سيما ولم يكن هناك غيره جريدة لبنانية لها روحها السياسي، يتألب حوله شعب بأسره، ولكن «البرق» انتصرت على التجارب إلى أن ماشت الفرنساويين

أجل، لقد ماشت الفرنساويين بعد أن عاهدوها، وعاهدوا قومها على استقلال لبنان بحدوده الطبيعية، ثم السير به إلى الاستقلال السياسي القائم على السيادة اللبنانية، كما هو مبين في الوثيقة التي رفعها الصحافيون، إلى اللجنة الأميركية وقد أنشأها يومئذٍ صاحب «البرق» نفسه

وكانت «للبرق» منذ ذلك اليوم، مواقفه. فكان الجريدة الوحيدة التي تقول باستقلال لبنان مع الانتداب الفرنساوي، وكانت الوحيدة بين عشرات الجرائد الأخرى تتلقى وحدها السهام داميةً، وتردها الى راشقيها بعد أن تنزع منها الحديد.

وكيف يليق بنا أن نعقَّ الفرنساويين، ونحن وكل لبنان يعلم أن لبنان الكبير ما قام إلا بالمال الفرنساوي، ثم بالدم الفرنساوي؟

وكيف كان يمكن «البرق» أن يكون على غير ذلك، ولا تنكره جماعته ويبرأ منه إخوانه، لا سيما بعدما أثار دعاة الأمير فيصل، أو بالأحرى دعاة الإنكليز، العاطفة الدينية في قلوب العامة حتى عمت المخاوف، ثم زاد في الطين بلَّة سياسة العصابات والتقتيل الذي جرى في الجنوب والشرق، مما جعل الأقليات أين كانوا يرتقبون منقذاً كائناً مَنْ كان؟

وكيف نُلام على الاعتراف بحاجتنا إلى الانتداب، وهذا الأمير فيصل في الأمس، على جليل قدره، كان مِنْ أكبر دعاة الانتداب الإنكليزي؟ فلقد روى لنا بعض الصحافيين الدمشقيين أنه عندما قدمت اللجنة الأميركية عام ١٩١٩ أقام لهم مأدبةً ونقد كل واحدٍ منهم مبلغا من المال، محاولا إقناعهم بأفضلية الانتداب الإنكليزي.

لقد كنا حقيقة من الذين باعوا نفوسهم، لو أننا خالفنا تقاليد الأمة التي ننتمي إليها، أو أننا ماشينا إحدى الدول التي يذكرها اللبنانيون، ولا سيما نصاراهم متى ذكروا مذبحتهم الأخيرة ومذبحتهم الأولى، أو أننا اعتنقنا في حياتنا السياسية سوى مبدأ واحد، هو تكوين قوميةٍ لبنانية، مستندين لضعفنا إلى ذراع يساعدنا عليها.

ليغضب علينا من يحلو له الغضب، فحسبنا رضى الأمة التي نحن منها، علينا. وهذا رضاها ظاهر بإقبالها على «البرق» حتى لَنُعدُّ أكثر الجرائد انتشاراً. وما كنا لنرتكب هذه السماجة في المباهاة، لولا أننا نُريد أن نُعزز البرهان بكل محسوس.

لقد سمعنا أن الأفراد يرتشون، ولكننا لم نسمع شعباً بأسره يرتشي

فقد طلب اللبنانيون الانتداب، وردَّدنا نحن صدى ذلك الطلب فإذا كان هنالك من ذنب ولا نخاله، فهو ذنب الأمة

على أن الأمة[٥] اللبنانية، - وفيها كبار مفكريها، وكبار قادة الجماعة فيها - أدرى بمصلحتها من أفرادٍ طرحتهم مطارح النوى كل مطرحٍ، فكتبوا إما حسداً وإما جهلاً، وإما لمآرب لا تخفى على البصير.

على أننا لَنربأُ بمَنْ كان لهم بقية احترام في نفوسنا، أن يجازفوا بكرامتهم، فيلقون الكلام على عواهنه.

وكيف يتهموننا وهم أولى بالتهم منا لأنهم يماشون دولةً لم تصادق بغير المال[٦]، ويقتفون مبدأ لا يتفق مع مبدأ الجماعة، فضلا أن لهم في المساومة على الأقلام والمبادئ شهرة تملأ الخافقين[٧].

البرق، ١٩٢٢، عدد ١٥٨٤، ص ١

****

١٤ تمــــوز[١]

كان للإنسان حق ضائع، بل حق مغتصب، فاهتدت إليه رؤوس الأسنة وكرات المدافع

وكان طريقه النجيع الأحمر، نُثرت عليها الجماجم.

كانت التيجان مستمسكةً بالرؤوس، فكفت ضربة من الشعب الفرنساوي حتى تقلقلت في الهامات، ثم تدهورت عنها· وكفت ضربة حتى ساوى القانون بين الملك والرعية

لا ميزة إلا للعقل، ولا مكافأة إلا للعمل، ذلك هو فضل ١٤ تموز على العالم

فمن أجل هذا التاريخ اللامع في سماء المجد، أثر الشعب اللبناني صداقة فرنسا

ومن أجل أنها نثرت الحريات على العالمين الجديد والقديم، اختارها لتغذّي حريته.

ومن أجل أياديها البيض، في الليالي السود، وثق بها عهوده.

فإذا هو أحبها، فللحرية نفسها وإذا هو آثرها على غيرها، فلأن أرواح أديانها[٢] لم تترك في قلبه فراغاً لسواهم.

هو ذا تذكار ١٤ تموز في لبنان، مثله حتى في فرنسا نفسها، رايات خافقة، وجوارح خافقة، وثغور تبتسم للآمال.

فإذا كان لـ ١٤ تموز بركته في أميركا[٣]، وبركته في اليونان، وبركته في كل مكان تحرر بعد رقٍّ، فله أيضا بركته في لبنان وما يوم أول أيلول[٤] سوى وليد ذلك اليوم.

فباسم الشعب اللبناني نرفع للشعب الفرنساوي ولحكومته المعظمة أصدق التهنئات، ويتلطف المندوب السامي فخامة الجنرال غورو بأن يبلغ ذلك عنا فليحيَ ١٤ تموز

بشارة عبدالله الخوري

البرق، ١٥ تموز ١٩٢٢، عدد: ١٦٠١، ص ١

****

أطائفيــة؟
يا للعار - ويا للخسار

دعونا أمس إلى توحيد قوى الشبيبة على اختلاف مذاهبها ونريد بالمذاهب هنا المذاهب السياسية لأننا لا نرضى أن يسجل علينا التاريخ هذه المذمة ألا وهي التفريق الطائفي في عصر انطوى على أعظم نهضة شرقية خرجت بشعب كالشعب التركي من مجاهل التقاليد البالية إلى معالم المدنية الصحيحة.

وإنه ليخلق بكل ذي مروءة وطنية أن يطوي إلى الأبد هذه الطائفية الممزقة المبددة فهي كالمعاول تعمل في أساس الألفة وتفت في ساعد القومية وتجيء على جميع المصالح العامة لا تستثني مصلحة طائفة ولا مصلحة فرد بل يسقط الجميع تحت ريحها ويؤدي الجميع ثمنها من دمهم ومالهم وكرامتهم وقد رأينا العبر في نفوسنا، ولكن من البلية أننا لم نعتبر.

لقد صفعنا المسيو دي جوفينيل[1] منذ حين صفعة توازي فناء أمة بأسرها ذلك يوم قال: إنني أحمل لكم كل الحريات ما خلا حريتين إحداهما فناء بعضكم بعضاً بحرب دينية

فلقد وددنا والله أن تسيخ الأرض بكل من في لبنان وسوريا، من شيخها البالي الى طفلها الرضيع ولا تعلق... بنا هذه الوصمة التي لا تسلم معها كرامة شعب ولا يصح معها الدليل على كفاءته لما هو راغب فيه من سيادة.

ولقد كنا نؤمل أن ننهض جماعات وأفرادا إلى محو هذه الوصمة التي جناها علينا بعض إخواننا فإذا نحن نتوغل في حمأة الطائفية، وإذا نحن ننشر أعلامها وإذا نحن ننفخ في أبواقها.

والله لو أن في أعماق هؤلاء المتوغلين الناشرين النافخين ذرة من عقيدة طائفية لقلنا إن للعقائد احترامها أما وهي رقوة المصلحة أو تعويذة الوظيفة فيا للخسار ويا للعار.

أفأمّة كبيرة تجرح كرامته من أجل مصلحة زيد أو غرام عمرو، - والأمة ترضى بشيبها وشبانها، بعقلائها ومفكريها، وبكل نابض فيها.

لقد كان يهون علينا أن تصاب جسومنا وتسلم أعراضنا وعقولنا، فما بالنا أصبحنا يهون علينا ما لم يكن يهون من قبل.

لقد أشرنا أمس إلى الخطر المداهم إلى الدستور الذي يستقل بوضعه المجلس النيابي وخشينا أن تكون الطائفية هي إحدى أسسه ثم علمنا أن خشيتنا في موضعها وأن الدستور سيكون طائفيا لا للطائفية ولكن لإشباع أهواء المتاجرين بها، الخاطبين لوظائف باسمها.

مسكين هذا الشعب. غداً سيرهق[٢] فوق إرهاقه بوزارات سبع. وبمجلسين ضخمين... - وسيرهق فوق ذلك بنظام طائفي سيجعله إلى الأبد عبد الشقاق والشقاء

ومع ذلك فالشبان سكوت وهم كما قلنا أمس أُساة هذه الأمة.

قرأت في صحف أمس دعوة إلى تأليف الأحزاب السياسية وقد قلنا مرارا إن الأحزاب السياسية هي التي تقتل بها الأحزاب الطائفية ولكن هذه الأحزاب لا تعيش إلا في حكومة دستورية كل الدستورية لا دستورية مرقعة كما نخشى أن تكون.

ولكن هذا لا يمنع من اجتماع المفكرين من كل الطوائف للتعاضد على إخراج دستور يليق بكرامة الأمة ويساعد على إنمائها ويؤلف بين قلوبها - ويمهد الطرق لنيل جميع الرغائب.

البرق، ١٩٢٦، عدد ٢٥٥٤، ص: ١

****

السياسة

لعنة الله على السياسة

لا يلعنون السياسة عبثاً، فلهم براهينُهم على أنها تستحق لعناتهم.

ولكن، قبل أن تضم إليها لعنةً جديدةً نود أن نعرف ما هي.

إنها في الأصل، حُسن القيام على الشيء، أو قل: إنها حسن التدبير. إذن ولدت طاهرةً بريئةً ولكنها - ويا لسوء حظها - عندما تعرفت إلى البشر.

كأن يقال: ساس الطفل وساس البيت وساس الرعية، فيستفاد من قولهم، عناية بالطفل لينمو، وبالبيت ليعمر، وبالرعية لترقى.

هكذا كانت السياسة!

وجدت الشجرة لتقي مستظليها حرارة الشمس، ولتفرح القلوب بأزهارها، ولتشبع المِعَد بأثمارها، ولتدفئ المقرورين بحطبها.

فما ذنب هذه الشجرة إذا جعلوا منها قبضة سيفٍ، وخشب بندقية؟!

وهكذا السياسة لا ذنب لها إذا صيرنا خيرها شراً، ونفعها ضراً.

من ذا الذي لا يستعمل السياسة بمعناها الآخر؟؟ وأريد بمعناها الفاسد الضار؟!

فتَّشتُ كثيرا... لعلي أهتدي إلى ذي نُطقٍ كان في نجوةٍ منها فما وجدته. من ذا الذي لا يُلبس الكذب ثوب الحقيقة، والجور ثوب العدل، والقسوة ثوب الليونة، والرياء ثوب السذاجة؟

استعرض طبقات الناس: من الحكام، إلى الرؤساء، إلى التجار، إلى الصحافيين، إلى المحامين، إلى الكهان، إلى إلى...

استعرض جميع الطبقات وقل لي - إذا استطعت - إن (السياسة) ومعناها جر الربح عن طريق الأذى، غير موجودةٍ أو غير ذات أثر.

وهذه الدواهي التي نتجرع سمومها - معاشر أهل البلاد - أليست نتيجة السياسة؟!

أفما التفريق بين قلوبنا، سياسة؟ أفما الضائقة التي نعاني، سياسة؟. أفما القتل الذي يقع والعمار الذي يدمر، سياسة؟ أفما إهاجة الخواطر وإثارة النعرات، سياسة.

وليس للسياسة مهب واحد. فقد ينفخ ريحها من وراء البحار، ومن رجال الأموال، ومن سرادب المعابد، ومن مكاتب رجال الأحكام، إلى آخر ما هنالك إذا كان هنالك آخر.

وكثيراً ما تكون السياسة زجاجةً من السُّمِّ المُعطَّر.

وكثيراً ما تكون بغيّاً في ثوب عذراء.

وكثيراً ما تكون نفاقا في سُبحة المُصلي.

وكثيراً ما تكون بسمة الخنجر المصقول.

وكثيرا ما تكون... وكثيرا ما تكون.

فلعنة الله على السياسة، وأحاذر أن أقول: على السياسيين.

البرق، ٢٨ شباط ١٩٢٦، عدد. ٢٥٤١، ص:١

****

دستور البلاد عنـوانهـا

بعض أعضاء المجلس يجهلون خطورة العمل الذي انتدبوا له - العالم يتطلع إلينا - لا طائفية في الدستور - فعل مصطفى كمال لا قول نابليون، الطائفية عار الأبد واستعباد الأبد.

نرى من أقدس واجباتنا أن لا نقف سكوتاً تجاه ما يسمونه القانون الأساسي الذي يستقل المجلس بوضعه، وعلى مسؤوليته؛ والذي - لسوء الحظ - يجهل بعض أعضاء المجلس، مبلغ التبعة التي وُضعت في أعناقهم. فإما أن تحمل لهم بركة الأبد أو لعنة الأبد .

أجل، إن بعض أعضاء المجلس يجهلون خطورة هذا الأمر، فهم لا ينظرون إليه من حيث هو أساس لحياة أمةٍ توّاقة إلى النهوض، بل ينظرون إليه كعلاج مسكّن للأهواء، كفيل بالإرضاء، جاهلين أن الدستور من الأمة كالأساس من البنيان، وأن البنيان لا يكون قوياً ولا يعيش طويلاً إلا إذا كان أساسه راسخاً متيناً خالياً من العيب.

إن سوريا، بل إن لبنان المهاجر، بل إن العالم الذي يهمه أمرنا يرسل إلينا نظر الناقد المترقب، وهو لا يلبث أن يلفظ حكمه لنا أو علينا، عندما يطّلع على الأساس الذي نُشيد عليه بنايتنا الوطنية. فإذا كان هذا الأساس على نحو ما يريده معظم أعضاء المجلس أن يكون، فلا كان لبنان ولا كان الدستور.

يريدون أن يقيموا أساساً طائفياً، وأن يشمل هذا الأساس حتى الوظائف: إدارية وقضائية؛ أي يريدون أن يرجعوا بنا إلى نظام لبنان القديم. أي يريدون أن يَسُمّوا البلاد بهذا الروح الخبيث فلا تُشفى منه إلى أبد الأبيد.

ويقولون إن البلاد لا تزال خاضعةً لعنعنات الطائفية، مأخوذةً بنفوذها، وإن الوقت لم يحن بعد لاقتلاع هذه الجرثومة... إن الوقت لم يحن بعد... فهل سُمع بأسخف من

هذا القول؟ وهل إذا كان الوقت لم يحن بعد، نقوم نحن - المُنكرين الطائفية، المُقبحيها - فنحفر خندقاً في قلب دستورنا حتى نزيدها تمكينا؟

سوف لا نجادل أنصار الطائفية في هذا المقال، بل نرجئ الجدل إلى ما بعده، فقد يطول بحثه. ولكننا نريد أن نعلن براءة موقف المقاطعين الذين أبوا أن يشاركوا المجلس في أمر لا يستطيعون معه أن يُعدلوا أو يُرجّحوا مادةً أو يبطلوا حرفاً من الناموس الذي يضعه المجلس الكريم.

يقول رئيس المجلس في خطابه: إننا نريد أن نحكم الناس كما يريدون لا كما نريد نحن وهذا القول وإن نُسب إلى نابليون، فهو مغلوط ولا سيما في الشرق الذي قال فيه فيلسوفه: «إنه لا يصلح بغير مُستبدٍ عادل»[1].

ومن الأمثلة الدالة على صحة هذا القول، موقف مصطفى كمال باشا[2] مع الشعب التركي فإنه لو شاء أن يحكمه، كما يريد الشعب، لكان اليوم كما كان من مئات السنين يرعى في مجاهل الانحطاط ويضرب في مغاور الجهل.

إن التاريخ يُنبئنا أن الأفراد هم الذين كانوا ينهضون بالأمم، لا الأمم هي التي كانت تنهض بالأفراد. فإذا كنا نريد أن نماشي العامة، فمصيرنا ولا ريب، إلى القرون المتأخرة؛ لأننا في الحالة هذه نكون نمشي إلى الوراء ونمشي بمضاء القوانين وسلطة المُنفذين.

لا مشاحة في أن مجمل الشعب اللبناني هو من أرقى شعوب العالم، فلا يُعوزه للوثوب، إلا زعماء مخلصون كل الإخلاص، زعماء نهضةٍ لا زعماء وظائف، وزعماء أمة لا زعماء طوائف.

إن الشعب اللبناني مُجمع على تقبيح الطائفية، إذن فهو شعب فهيم. وإذا قام مَنْ يقول بإبقائها «موَقتاً» فليعلم أن هذا «المُوقت» هو الخلود بعينه.

إن الطائفية عنصر فاسد في جسم الوطن. وطبُّ الأرواح كطب الأجسام. فكما يقضي هذا ببتر كل فاسدٍ من جسم الرجل، فقد وجب على ذاك أن يقضي على كل فاسد في جسم الوطن.

نعود فنقول: إن الشعوب يجب أن تُحكم كما يريده العصر الحالي، حتى لا يسحقنا دولابه فلا الإسلام ولا المسيحية بدافعين عنا أذىً يلحقنا من مجرد التعصب لهما. بل بالعكس؛ فإننا بوضعنا الطائفية في صلب دستورنا، نكون قد سلَّمنا العالم المتمدن صكاً رسميا يشهد علينا بأننا لا نستحق حتى الانتداب، من الدرجة الأولى.

أجل، إننا لَنَدفع إلى العالم المتمدن، هذا الصك وكأننا نقول لهم فيه: إننا قوم لا يأمن بعضنا البعض الآخر على مصالحه ومرافقه، حتى في منصات القضاء ولذلك فقد جعلنا لكل طائفةٍ منا رقيباً على مصالحنا ومدافعاً عنها.

وإذا قلنا لهم ذلك فلا ننس أنهم يقولون لنا: إذا كنتم أنتم لا تأمنون جانب بعضكم، فكيف تريدون أن نأمن نحن جانبكم، على مصالح رعايانا؟ فأنتم الذين حكموا على أنفسهم وأقروا عليها، والمرء يؤخذ بإقراره

البرق، ٢٦ أذار ١٩٢٦، عدد ٢٥٦٠، ص١

****

الدستور قدس أقداس الأمة

إن من يفرط بحرف منه فقد طعن شرفه

إذا اعلولى صوتنا بالشكوى لهذا التبذير، وإذا اعلولى صوتنا بالإنذار بسوء المصير، وإذا تململنا من تتبع الحكومة الجديدة، سياسة الاسترضاء التي أنهكت الأمة، وقضّت مضاجعها، وشردت أبناءها هرباً من ضغط الضرائب تُنفق على المظاهر والزخارف - إذا اعلولى صوتنا من جميع المهازل والفواجع، فقد يهون كل ذلك إزاء ما نخشاه من إقدام الحكومة - من إقدام أول حكومةٍ وطنية على التفريط بالدستور

إن كل ما تقدم يُستطاع إصلاحه بالحزم والتجرد والإخلاص' أما أن يُفرط بحرفٍ من الدستور، فإنه لا يُستطاع تعويضه، وإنه لجناية على مستقبل الأمة وشرفها وخيالها الأسمى

الدستور! وهو ناموس الأمة، يجب أن تذود عنه بأرواحها، حتى إذا تجرأ أحدٌ على مسه ولو تأويلا، رفسته برجلها فهوت به من حالقٍ إلى الحضيض.

الدستور' وهو خلاصة أماني الأمة، بل وليد جهودها، بل رمز مجدها فإذا ما جرؤ أحد على استخدامه لمصلحته أو تعطيله لمصلحته، فقد أعلنته البلاد خائناً، ونبذته نذلاً، ورذلته وغداً.

ونحمد الله! نعم نحمد الله' أن الرجال الذين عُهد إليهم بتنفيذه - ونريد بهم حكومة اليوم - هم من خيرة الرجال لهم ماضيهم؛ وهو مما يجعلنا نطمئن إلى أن الدستور لا يفرُط به مهما حاول المتنفذون، كائناً من كانوا، أن يستفيدوا من هذا التفريط. وما الدستور إلا نصُّه، وما هو إلا السيادة الداخلية المطلقة في الإدارة المالية والقضاء، ما خلا تحفظاتٍ طفيفةً يقضي بها صكُّ الانتداب للدولة المنتدبة. وقد لا تتعارض والدستور بشيء.

فـإذا كـان هناك تفـريط، وإذا كـان هناك تأويل، فـإنما المسـؤول بـه أصـحـابه المباشرون، وهـم رجال الحكومة الذين عرفوا مقدار ثقتنا بهم من حيث شرف الضـمـير، ولم نقل من حيث المضـاء، ولا من حـيث حُـسن التـدبير، لأننا ننتظر الأعـمـال، ولأننا أصحاب رأي في شكل الإدارة، صرحنا به مرارا ورجونا من الحكومة أن تسلكه فمتى سلكته أو جنحت إلى سلوكه وقفنا في صفوفها ورفعنا لها ألوية الحمد.

كثيرا ما تأخذ الحكام نشوة الحكم، فيتـذرعون بكل الوسـائل لاستمرار هذه النشوة. وقد يُقدمون على تسخير الدستور لمآربهم، ولكن الدستور المُستمد من روحية الأمة، هو الذي ينتصر في آخر الأمر، والمنتصر الحقيقي هو المنتصر الأخير

إنها لتبعة شديدة الخطورة هي هذه التي تُلقى على شرف الوزارة الجديدة وقد حمدنا الله – كما قلنا – أنها مؤلفة من خيرة الرجال، أصحاب الضمائر الحية والعلم الصحيح. ذلك لأننا نعتبر أن أقل خرقٍ في الدستور، أو أقل تساهلٍ فيه، تصبح سابقةً للحكومات التي تلي، تجني على مقدرات الأمة، وتحطم آخر سلاحٍ لها بما تدعيه من كفاءة.

إن أمام الحكومة تجارب كثيرة لا نبالي منها أي تجربة مهما بلغ خطرها. إذ إنه يُستطاع إصلاحها، اللهم إلا تجربة الأمانة على إنفاذ الدستور بحرفه مهما كلَّف الأمر

البرق، ١١حزيران ١٩٢٦، عدد ٢٦١٠، ص ١

****

دستور!...

لا جدال في أن الحوادث برهنت على أننا لا نصلح لِحُكم أنفسنا بأنفسنا ليسمع هذا جميع مَنْ لهم أذان

وإلا فليقولوا لنا إذا كنا لم نرجع خطوات إلى الوراء منذ عام ١٩١٨ إلى عام ١٩٢٩ بمعنوياتنا ومادياتنا، دون أن نفكر بوقف هذه الحركة الرجعية

وإلا فليقولوا لنا إذا كنا عرفنا قدر النعمة التي ألقاها الحظ في يدنا، ونريد بها هذه الخطوة في سبيل الحكم الوطني والسيادة القومية

وإلا فليقولوا لنا إذا كنا منذ أيار ١٩٢٦[1] إلى ١٩٢٩ استطعنا أن نصون الدستور من الشوائب أو إذا كنا عرفنا له قيمته، فَلِمَ نُساوم عليه حتى في أحقر المصالح الشخصية وأتفهها؟

لا يجرؤ أحد الإنكار أن القوم في السراي الصغير، إنما استعملوا الدستور لقضاء شهواتهم، بكل ما في الكلمة من المعاني، ولقضاء مصالحهم من جميع أطرافها

وإلا فليقولوا ماذا أثمرت المعارك الوزارية منذ بدء نشوبها؟ وبكلمة أوضح، ماذا فعلت الوزارات التي حلَّت محلَّ سابقاتها من خيرٍ للمصلحة العامة، وماذا اتخذت من حيطة لِصَون سُمعتنا كشعب ذي كفاءة لحُكم دستوري؟

أجل! ماذا فعلت الوزارات المتتالية على لبنان، إلا اتباع سياسة الاسترضاء، واستثمار المصالح؟ وفي عهد أي وزارة لم يدخل أفواج جديدة من الموظفين، فوق الأفواج التي أدخلتها الوزارات السابقة؟ وفي عهد أية وزارة لم تكن خزينة الدولة كالأثداء تقطر المال في أفواه المتزاحمين عليها؟

لقد دخلت أفواج الموظفين باسم الطائفية، ودخلت أفواجهم باسم المصالح الانتخابية، ودخلت أفواجهم باسم الحماية الوزارية. وبعد ذلك يطلبون إلى الشعب اللبناني أن يُحب الدستور وأن يُصلب للدستور

إن الذي يظن أن هذا التحمس للمعارك الانتخابية ناتج عن روح دستورية، فقد أخطأ، وأن الذي يقول ذلك فقد مَوَّه

إن الانتخابات في لبنان، يقوم بها الأفراد الذين يطمحون إلى استثمار المصالح عن طريقة النيابة - وللقاعدة شذوذها - إذن فهذا الإقبال على صناديق الانتخاب ليس مصطنعاً فحسب، بل هو مُشْتَرىً بالمال، محمول عليه بالوعود لصغار العمال، مدفوع إليه بالنكايات والمصالح المحلية.

ولقد كان الأمر غير ذلك، لو شاء أولو الأمر أن يزينوا للبنانيين الحياة الدستورية، بالترفيه عنهم من جهة الضرائب، وبإجراء العدل على السواء بين الخصوم والأصدقاء. ولكن شيئاً من هذا لم يكن، بل هم تمادوا في إرهاق الأعناق بالضرائب، وفي قتل العدالة انتصاراً للحزبية، الأمر الذي حمل الشعب على المقابلة بين الماضي والحاضر، فكان فرقاً جسيما، وكان خطبا أليماً.

وأين هي هذه الروح الدستورية في صدور اللبنانيين؟ وأين هو هذا الإخلاص في صدور المرشحين؟ فلا الأولون طالبوا مرشحيهم بالمناهج، يتقيدون بها لمصلحتهم، ولا الآخرون تحسسوا بالروح الدستوري، فنظموا أحزابهم، ونشروا خططهم، ليقال إن هناك على الأقل شكلاً دستورياً يستحق هذا الثمن الذي هو كناية عن إرهاق أمة خائرة القوى تحت عبءٍ لا تقوم به الجبابرة

لقد أرسلنا هذه الكلمة تمهيدا لكلماتٍ، على رجاء أن ينبعث في القوم روح جديد، فنقرأ للمرشحين وعودهم ونسمع للبنانيين إرادتهم - إذا كانوا حقيقةً يريدون أن يُقلدوا البلاد الدستورية، ويستمروا على اعتناقهم الحياة النيابية.

بشارة الخوري

البرق، ١٥ نيسان ١٩٢٩، عدد ٣٢٠٦، ص.١

دستور ولكنه
دستور من عجــين

لو بعث الشهداء اليوم لشنقوا مرة ثانية - تجارة البلاد تستغيث - نأكل في حصيد الأتراك.

دستور من عجين

لا تظننا نهزل إذا قلنا لك إن الدستور اللبناني مصنوع من العجين· وأنت تعلم أن دساتير العالم مصنوعة من جثث بنيها ممزوجةً بدمائهم. فلذلك كان الدستور اللبناني - العجين - قابلاً - بحكم رخاوة مادته - لأن تقتطع منه ما تشاء، وأن تُكيف منه أية صورة تشاء، بعكس الدستور المصنوع من جماجم الضحايا الصلبة، التي لا تموع في يدٍ، ولا تتفتت تحت إزميل

والدساتير لم تكن في وقت من الأوقات منحة· والمنحة ترد إذن، فبأيّ حق يرفع بعض اللبنانيين عقيرتهم على المفوض الإفرنسي، إذا هو شاء أن يقتطع قطعةً من تلك «العجينة الدستورية» التي عجنها بيده وتصدَّق بها عليهم من فضله وكرمه؟ بأي حق يرفع هؤلاء عقيرتهم، وهم لم يُريقوا قطرةً من دم، ولم يرفعوا علماً لثورة، ولم ينقلوا قدماً إلى تضحية؟

أجل، لماذا يتبجح هؤلاء الرافعون عقيرتهم، بالاحتجاج على مس الدستور، رغم أنه مساس بكرامة اللبنانيين، في حين أنه لا علاقة لكرامة لبنان في الأمر، فالدستور اللبناني ثوب عاريةٍ نسجته يد الدولة المنتدبة، وخلعته على لبنان. فهي إذا رأته طويلا قصرته، أو ثقيلا خففته، وإذا كان الفصل حاراً رقّقته، وإذا كان الفصل بارداً سمّكته؛ ولا حق ولا شبه حق لأي لبناني أن يتدخل في الأمر، وإلا فلينسج هو دستوراً لنفسه إذا كان في وسعه أن ينسج

ولكن أنَّى للبنان أن «يعجن» دستوراً، والدستور شعلة علوية ملتهبة هي أعلى وأعلى وأعلى بكثيرٍ مما يُعفِّر به «أسياد» الموقف اليوم، جباههم، من أجل منصبٍ زائل لا يُساوي - على ضخامة اسمه - شِسْعَ[1] نعل الدستور.

الحياء من الشهداء

وَدِدنا أن لا يكون شيءٌ وراء الطبيعة يُدعى خلودا، حتى لا تُطل من ورائه أرواح المستشهدين منا فترى إلى المهازل - ولا سيما مهزلة رئاسة الجمهورية - التي تُمثل اليوم، قريبا من الساحة[2] التي قام عليها نُصبُهم التذكاريُّ الحزين، وحتى لا تلتقي عيونُهم بعيون هؤلاء الذين اتخذوا من تلك الضحايا سُلَّما رفعها لهم القدر، يصعدون بها إلى سراي عزمي[3]، صنيعة جمال، ليواصلوا (پروغرامه)[4] بطريقة منظمةٍ على أصول مرعيَّة

لقد استفادوا في تمزيق الأمة طوائف، بل ساعدوا على هذا التمزيق، بأن مثلوه حتى في هذا النصب الهازل الشاحب، طائفتين مسلمةً ومسيحيةً، ثم غنوه «صليباً وهلالا» وهم أبداً يُمثلونه على هذا الشكل في كل مظهر من مظاهرهم الرسمية وشبه الرسمية.

ولو أعطي الشهداء الأعزة نعمة البعث - لا بل شقوته - وعادوا سيرتهم الأولى من انتقاضٍ على الظلم واحتجاج على تفريق عناصر الأمة، وثورةٍ على جلاديها لَشُنُقوا مرة ثانية، بلا رحمةٍ وفي نفس الساحة التي أقيم فيها ذلك النصب: بقية القرون الوسطى وصبابة الفن البالي.

ولكن السادة المتنعمين بفضل تلك الأشلاء المقدسة - أدركوا ما يضمره لهم أصحابها من عتاب مُرٍّ - والأرواح لا تحقد - فآلوا أن لا يزوروا تلك الساحة يوم ذكرى إعدامهم، ذلك اليوم الذي تهبط فيه أرواحهم لمصافحة الأحرار الصادقين؛ فتحولوا إلى اليوم الثاني من أيلول ذلك اليوم المجهول منهم، فأمنوا بذلك اصطدام النظر، وما ينطوي عليه من متطاير الشرر.

التجارة تستغيث

تعالت أصوات الاستغاثة من كل بلدٍ لمقام المفوض السامي[5]، بإيقاف العمل بالقرار الأخير الذي زاد فيه الرسوم الجمركية على مواد وبضائع شتى.

ويعتب رؤساء الغرف التجارية في جميع البلاد السورية - بالدالة طبعا - لعدم أخذ رأيهم في الأمر، قبل إصدار القرار ليُتاح لهم بسط الأضرار البليغة التي تُنذر البلاد بما هو أفظع وأفتك.

وعندنا أن فخامة المفوض السامي، هذا الرجل الحريص على سمعته وعلى مصلحة البلاد التي استؤمن عليها، سيَرجع إلى القاعدة الحكيمة القائلة. «مَنْ طلب الزيادة وقع في النقصان» والزيادة الجمركية الأخيرة في آكثر بنودها، تدخل تحت حكم هذه القاعدة

والشيء بالشيء يذكر

وغير خفيٍّ أن هذه الزيادة في الرسوم الجمركية، إنما أريد بها سدُّ العجز في الموازنتين (اللبنانية والمفوضية) بسبب النقص في الواردات الجمركية؛ ولم يقتصر العمل عند زيادة الرسوم هذه، بل تعداها إلى مفاوضة باريس بشأن تخفيض الأقساط السنوية المستحقة على البلاد المشمولة بالانتداب، أو إيقافها تمثلاً بالأتراك الذين لا يطالبون بالتخفيض أو التأجيل فحسب، بل إلغاء هذه الديون إلغاءً مطلقا. ونحن على كل حال نأكل من حصيد الترك بقوة إحدى مواد الاتفاق الذي عقده حضرة أديب باشا وربط مصيرنا في هذه الديون بمصير الأتراك لا أكثر ولا أقل

بشارة عبدالله الخوري

البرق ص١ - عدد ٢٤٣٣ - سنة ١٩٣٢

****

الدستــور
بين الباكين عليه والمتباكين

شرعوا الآن يلغطون بالدستور وبعد أن ساد البلاد سكتة كانت نتيجة طبيعية للحدث المفاجئ بوقفه أو قل بتعليقه كما هو الأصح[١].

ترى هناك جماعة وهنالك أخرى يرفعون الصوت فيصدعون به ذلك السكون المخيم، ثم يلتفتون إلى الأمة يعاتبونها، وإلى فرنسا يطالبونها رغم أن الدستور حق من حقوقهم، فهو إذن لا يجوز انتزاعه منهم، حتى ولا وقفه، حتى ولا تعليقه

لقد كان مقضياً على الدستور بهذا المصير، ولقد كان أكثر المشفقين اليوم على مصيره، والمطالبين ببعثه، في طليعة المشفقين على البلاد من «حماة» دستورها، وهم يرونها ويرونهم كالشاة في يد الجزار يذكر الله ويذبح وكثيرا ما كان يذبح ولا يذكر الله

من هم الذين يطلبون الدستور؟ ولمن يطلبونه وعلى أي الأسس يطلبونه؟

لقد كان المعقول أن يكون النواب الموقفون[٢] في طليعة من يطالبون بالدستور لأنهم أعلم الناس به وأخبرهم بمنافعه ومضاره.

أفلا ترى أن في سكوتهم عن المطالبة اعترافا صريحا إما بمضاره وأما بعدم كفاءة الأمة له؟

فإذا كان الدستور «قتيلا» كما يقولون فإن النواب أهله فكيف يجوز أن يبكي الأصحاب عليه في حين أن أهل القتيل لم تُرقْ لهم عليه دمعة؟!

حسن! إننا نخطب الدستور هذه العروس الجميلة ولكن ما هو المهر الذي أعددناه لها؟ ما هي الجمعيات السياسية التي ألفناها؟ وما هي المناهج التي وضعناها وهل جرؤ رجل من جميع هؤلاء الدستوريين إعلان الإضراب عن دخول الانتخاب إذا عاد الدستور مشوَّهاً؟

فإذا لم نهيئ لهذا الدستور كما يهيئون له في الأمم الدستورية، فإلى أي مأدبة تدعو هذا المسكين الذي شوّهنا جماله بقبح أعمالنا وأنزلناه من عليائه إلى الدرك الأخلاقي الذي نحن فيه.

ألنجعل منه آلة للحكم الإقطاعي كما كانت حاله في الأمس؟

ألنخرق شمل أهل القرى ونزرع فيهم الأضغان والتحاسد؟ أم لنعيد به تلك الفوضى في الدوائر والمجالس؟

نحن لا نفهم بالدستور سوى شيء واحد هو حكم الأمة نفسها بنفسها، وبكلمة، لا نفهم فيه سوى سيادة الأمة، فهل أمكن في الأمس أو يمكن غداً إذا عاد الدستور أن تكون السيادة للأمة فتحكم نفسها بنفسها؟

فإذا كان هذا لا يُستطاع مع الانتداب سيد البلاد الأول، فلماذا هذه المهازل التي ندفع ثمنها غاليا من مالنا وكرامتنا؟

قبل أن تطلبوا الدستور أيها السادة هيئوا له التربة التي يستطيع أن يعيش فيها وإلا استمر آلة في يد فريق صغير من الناس يسحق بها الفريق الأكبر.

بشارة عبدالله الخوري

البرق، ١٩٣٢، عدد ٣٤٣٨، ص١٠

****

الحركة الجامدة
أو إذا شئت الجمود المتحرك

ومن أنكر أن هناك حركة جامدة أو جمودا متحركا جئنا به إلى لبنان وسوريا ووضعنا يده موضع الجرح فلا يبرح إلا وقد أيقن أن هناك الحركة الجامدة التي لا ريب فيها.

وأية فكرة أشبه بالجمود أو هي الجمود نفسه إذا لم تكن هذه المشاهد التي تطلع بها الأيام على هذه البلاد، فمن حكومة تلي حكومة ومن انتخاب يلي انتخاب ومن قانون يلغى بقانون ومن وجوه تبدل بوجوه، حتى إذا انفتحت العيون على الحقائق رأتها حيث كانت تدور على نفسها دون أن تنقل خطوة إلى الأمام.

إن الأرض نفسها في دورانها على محورها لم تكن لتفعل شيئا في حياة الحيوان والنبات فراحت تدور حول الشمس تستمد منها فصولها الأربعة فيمهد واحدها للآخر، هذا النظام الفريد في إبقال الأرض وإنضاج الثمر وحفظ الحياة.

ومع ذلك، مع معرفة القائمين بالحكم فينا هذه الحقيقة الأولية تراهم يولونها ظهورهم فهم إذا تحركوا فإنما يتحركون حول أنفسهم وليس بين هذا النوع من الحركة والجمود فرق، بل هو نوع آخر من الجمود بما يقتضيه من مشقة

ومن استعاد الأدوار التي مثلت على مرسح سوريا منذ سنوات عشر أي منذ حاكمية حقي العظم[١] إلى حاكمية الشيخ تاج[٢] - يرى صوراً متنوعة ويسمع أصواتا متناكرة فيظن أن القافلة تسرع الخطى فما هو أن يسفر الصبح حتى ينجلي الموقف الحاضر عن نفس الموقف الغابر وفي نقطة الارتكاز الأولى فلا يسعك إلا أن تعرف بأن هناك حركة جامدة تسمع وقع خطاها ولكنك لا تراها...

وأي فرق بين سوريا سنة ١٩٢٥ وسوريا سنة ١٩٣١ وقد بدلت من ثورة السلاح ثورة نفسية هي أشد خطرا على العلاقات الافرنسية من الثورة الأولى، بل أي فرق بين حالة دمشق سنة ١٩٢٥ وحالتها سنة ١٩٣١ وهذه شوارعها ترتج تحت دواليب الدبابات والمصفحات مع العلم بأنها كانت في الماضي لكبح الثورة المسلحة وهي اليوم لكبح الثورة العزلى على وحدة الغاية من الثورتين.

فإذا سلمت معنا بهذه الحقائق، إذا سلمت بأن الموقف لا يزال حيث كان منذ خمس سنوات، وأنه كان منذ خمس سنوات مثله منذ الخمس الأولى، سلمت أيضا بأن الحركة التي تقرأها في الرسائل الرسمية وتلمسها في المكاتب الحكومية إنما هي الحركة الجامدة بعينها تسمع لها جعجعة ولا ترى لها طحنا.

وليس لبنان أسعد حالا فهو قد ألف الجمود حتى نسي الحركة وتعوّد الموت حتى نسي الحياة، ولزم السكوت حتى نسي الكلام. وليست هذه الجمهورية الاسمية سوى كفن جميل لهذا الميت النبيل

من يهن يسهل الهوان عليه
ما لجرح بميت إيلام[٢]

فعسى أن يستيقظ أولو الأمر إلى حقيقة ما يحيط بهم من بأس البائسين، وصبر الكاظمين فيبدلوا من سياسة الجمود المتحرك في كلا البلدين السوري واللبناني بحركة يجني ثمارها الفريقان ويحمدها القلب واللسان.

بشارة عبدالله الخوري

البرق، ١٩٣٢، عدد ٣٤٢١، ص ١

****

هل عندنا زعماء؟

- الزعامات اللبنانية - الزعامات الحقيقية -

أضحك مع الذين يقولون بوجود الزعامة في لبنان، حتى إني ضحكت من نفسي مرارا عندما كنت أعتقد، لا بوجود زعيم، بل بإمكان إيجاده.

لقد كانت تُطلق كلمة زعيم، على نفرٍ من أبناء لبنان يفتح لهم الحظ، أو تفتح لهم الوسائط على أنواعها، طريقاً إلى أحد الكراسي العالية الهزازة في إحدى دوائر الحكومة.

فالزعامة اللبنانية إذن مستمدة من سُلطة الحاكم الأعلى الذي بيده الفصل والوصل؛ يُفَسِّر ذلك أنه عندما كان يرضى المتصرف عن أحد بكوات لبنان أو بشواته[1]، ويُجلسه على ذلك الكرسي، كنتَ ترى بيته محطةً لفريق كبير من الناس ينعتونه بالزعيم، أو برجل البلاد، إلى آخر ما تفيض به قرائحهم في ذلك الموقف؛ ويتوقف فَيَضان القريحة على أهمية الغاية التي ينويها صاحب اللسان المستفيض.

ومما يفسر أيضا أن الزعامة اللبنانية مستمدة من الحكومة، هو أن ذلك الزعيم لا يرى في بيته، وقد استقر به الكرسي، سوى طلاب الوظائف وأصحاب الدعاوى والمقاصد الأخرى التي يحسبون أن لموظفهم أو زعيمهم تأثيراً عليها أما بقية الشعب المؤلف من العامل والتاجر والزارع، فلا ترى لهم أثراً في بيته، وربما لم تكن أحسّت بوظيفة سعادة الزعيم، لأنها لا تعترف بأدنى علاقةٍ لها به. فهو إذا كان موظفا فلمصلحة نفسه وآله، وإذا كان زعيماً فعلى هؤلاء وعلى مَنْ يَمِتُّ إليه بغاية مثلِ غايته.

ويُفسر ذلك أيضا أنه، عندما كان يغضب الحاكم على هذا وأضرابه، ينقضُّ عليه حالاً غضبُ إخوانه وأخدانه ومحسوبيه بالأمس، فتُقفر أعراصه وينزوي في بيته، وتُنزع عنه حالاً ألقاب الزعامة، وتخرسُ تلك الألسنة بغتةً عن الاستفاضة في تعداد المناقب والمآثر.

أجل، لقد حاول بعضهم أن يستمد زعامته من الشعب ومِنْ هؤلاء الرجال الذين قصدوا إلى بيت الدين، في مطلع الدستور العثماني، ليُسقطوا يوسف فرنكو[٢] ويُجبروه على أن يقسم يمين الأمانة للدستور وللاتحاديين. أجل، إن هؤلاء استطاعوا في ذلك الثَّوران الدستوري، أن يرأسوا أُلوفا من الشعب ويذهبوا بهم لعملٍ عمومي وما هم إن وُعدوا بالكراسي حتى صافحوا يوسف فرنكو، وانكفأوا إلى بيروت ولمعظمهم وظيفةٌ تُرضيه

وكانت المرة الأولى والأخيرة التي خُدع فيها الشعب بكبرائه، وعرف هؤلاء الكبراء بما في نفس الشعب منهم، فرجعوا إلى الحكومة يستمدون منها زعامتهم كشأنهم السابق

هؤلاء هم زعماؤنا وهذه هي زعامتهم.

لا ننكر أننا حاولنا أخيرا، أن نوجد منهم زعيماً شعبيا يعمل على تأييد المصلحة المشتركة؛ لا ننكر أننا أخذنا نمهد لهذا الزعيم السبل إلى قلب الشعب، بما كنا نكتبه على صفحات «البرق»؛ لا ننكر أننا حاولنا أن نحمل هذا الزعيم على تضحيته بشيء من آماله، فأبى بعد التردد. ولعله لم يشأ أن يخاطر بما كان ينتظره من الزعامة المستمدة من الحكومة، لأجل زعامةٍ شعبية لم تُمحِّصها التجارب.

إذن، فالزعامة التي يعرفها العالم الراقي، غير موجودة عندنا.

إن للزعامة شروطها. وفي مقدمة هذه الشروط: التضحية. فأيُّ دعاة الزعامة منا يستطيع أن يقول إنه ضحى شيئا ولو من أنانيته، في سبيل المصلحة الشعبية، ولا نقول من مصلحته المادية؟

إن من شروط الزعامة، أن يكون لأحد مُدَّعيها هؤلاء مأثرةً وطنيةً تُذكر. فأيُّ دعاة الزعامة هنا، يستطيع أن يدلّنا على إحدى تلك المآثر؟.

إن من شروط الزعامة أن يكون ماضي مدعيها نقياً وأن يكون فيها سطر واحد في كل ذلك التاريخ يستفاد منه أن فلاناً آثر مصلحة بلاده على مصلحة نفسه.

وأخيراً فإن من شروطها ولا سيما في هذه الأيام أن يقوم طالب الزعامة في وسط الشعب ويقول هذه خطتي صريحة مسجلة وهذا مالي كله أو بعضه أبذله في سبيل تأييد تلك الخطة، وإذا اقتضى الأمر إلى دمي فهو أهون ما يبذل في تنفيذ هذه الخطة

لم يقف في دعاة الزعامة إلى الآن من قال أو من افتكر بأن يقول هذه الكلمة، ومع ذلك فهم يقولون إن عندنا زعماء.

افتتاحية

البرق، ١٩٢٠، عدد ١١٠٥، ص ١

****

القوي معبود الضعفاء أين كانوا

حكمة جمال الدين الافغاني في أن الشرق لا يصلح إلا بالمستبد العادل.
إغراق المعارضين في تعظيم الأستاذ إدة - مسؤولية الأستاذ على مقدار الثقة به
مسؤولية الوزارة والمفوضية تجاه اللبنانيين

أجمعت الصحف كما أجمع النواب من قبل على الإعجاب برئيس الوزارة لموقفه الصلب وصراحته الجافة حتى إنه لم يشأ ولو مجاملا أن ينقض حرفا واحدا من هذا الذي دعاه برنامجا وهو في الحقيقة «ناموس».

ويدلك هذا على أن الشعوب بين مشارق الأرض ومغاربها تؤله القوة على أن تكون هذه القوة حكيمة عادلة، بل يدلك على أن الشعوب التي فككها فساد الأخلاق وسادتها الفوضى لا تنهض على الأغلب إلا بواسطة أفراد أفذاذ من بنيها كما هو موسوليني[1] في إيطاليا ومصطفى كمال[2] في تركيا وكما كان بوانكاره[3] في فرنسا، وحسب هذا أن يجري في أرقى الأمم ليهون وقعه على عنجهية البعض منا، بل حسب هذا أن يجري في أرقى الأمم لتبرير قول جمال الدين الأفغاني من أن الشرق لا يصلح بغير مستبد عادل وهو لو عاش إلى اليوم ورأى ما نرى لربما ضم الغرب إلى الشرق أيضا

ومن الأدلة على أن الناس تحب القوي العاقل وتحترمه هو ما سمعناه أمس في المجلس النيابي من المعارضين أنفسهم فلقد رأيناهم يجعلون لكل ملاحظة أو انتقاد على البيان الوزاري بطانة سميكة من الثناء والإعجاب حتى لقد أغدقوا على الأستاذ الرئيس وابلاً من التقريظ عجبنا بعده كيف يجيزون لأنفسهم البقاء في مقاعد النيابة ما دامت لهم برئيس الحكومة هذه الثقة العمياء، بل عجبنا وخفنا في وقت واحد كيف لم يغرق الرئيس على صغر جسمه في هذا الخضم المزبد من الثناء.

وبعد فلم نتبسط في هذه المقدمة إلا لنطالب رئيس الوزارة على مقدار ما اشتمل

عليه من ثقة مطلقة وإرادة مطلقة، فهو والحالة على ما وصفنا ربان هذه السفينة والمسؤول عن إيصالها إلى الميناء الأمين بعد أن تحطمت تحت مطرقته كل إرادة، واستسلمت إليه كل قوة.

وإنه ليلزمنا أن نصارح المفوضية العليا بما لابد منه لإنجاح الأستاذ إدة في مهمته لأن القوم في لبنان بل في كل مكان يعتقدون أن يد رئيس الوزارة في يدها لإخراج لبنان من فوضاه التي كادت تمحقه محقا عن طريق البطالة والكساد والمهاجرة، فنجاحه نجاحها وإخفاقه إخفاقها، وهي تعلم أكثر من كل أحد ما يترتب على هذا الإخفاق وذاك النجاح من النتائج التي لها ما بعدها، فماذا عليها إذن تجاه الوزارة الجديدة؟

نحن نعلم أن للمصالح الفرنساوية مآربها في لبنان ونعرف للفرنساويين فضلهم وأسبقيتهم، فإذا عرفنا لهم ذلك فإنه ليحسن بهم أن يعرفوا مقدرة لبنان على الوفاء لذلك الفضل وهذه الأسبقية، ومتى عرفوا مبلغ هذه المقدرة بعد أن يستعرضوا شقاء اللبنانيين، وفراغ معظم قراهم وبطالة الباقين من أبنائهم، اتأدوا أن يرهقوه بمطامح المستثمرين من إخوانهم وضغطهم، فتبقى لنا ولهم الصداقة القائمة على دعامتيها اللتين لا بد منهما لبقائها وهما الشعور المتبادل والمصلحة المتبادلة.

وعلى هذا فهل يجوز أن نرمي بمئات من العائلات اللبنانية بين أشداق العوز وما وراءه من ضياع الفضيلة وما وراءهما من التنكر للصداقة الفرنساوية لنقيم بما قطعناه عن فم هؤلاء البؤساء ومعدهم مطارا بحريا لشركة مستثمرة أقل ما يقال فيه إنه من الأعمال الكمالية وكفى.

نحن نفهم أنه لو كان هذا العمل ضروريا لسلامة فرنسا لكنا نحن الذين نقتحم المفوضية العليا بشيبنا وشبابنا متطوعين له مضحين بكل عزيز في سبيله، أما وهو عمل كمالي لفئة من المتمولة تستثمره لمصلحتها الخاصة على ضنكنا وبؤسنا فهذا ما لا نحسب الحكومة الفرنساوية تجازف به، لأن المجازفة به مجازفة بعواطفنا التي لا غنى للنفوذ الفرنساوي عنها في الشرق كما أنه لا غنى لنا عن عطف فرنسا علينا فيه

ولا نقول عن المشاريع الأخرى ما نقوله عن محطة الطيران لتضارب آراء

اللبنانيين فيها ولانتفاع الخزينة منها، وفي هذا دليل على أننا معاشر اللبنانيين لا ننكر الأمور تعنتاً ولا نسد الأبواب جفاء ولكننا جرحى وللجريح عذره في أنينه.

لقد قلنا إن فوز الأستاذ إدة وإخفاقه يعودان عليه وعلى المفوضية في وقت واحد، فمن واجبها إذن أن تمهد الطريق أمامه لاكتساب العطف العام لأنه لا يستطيع مهما كان له من المكانة وبلغ من المقدرة واستمتع من الثقة أن يفعل شيئا يستحق الذكر إذا لم يكن مؤيدا بالرأي العام اللبناني فهو على ضعفه يوازي تأييد المفوضية العليا

ولا تكون المفوضية العليا قد مهدت هذا السبيل لوزارة الأستاذ إدة إذا أرادتها على إنفاذ مشروع محطة الطيران، والمشاريع الأخرى التي أجمع اللبنانيون على إنكارها.

ولا نظن المفوضية والحكومة تهزلان فتقولان لنا إن المشاريع ستحال إلى المجلس فننفذ منها ما أراد ونمتنع عن تنفيذ ما لا يريد، والمجلس في عرف المفوضية والحكومة لا إرادة له معهما، أفما أريد في الأمس على نحر نفسه فانتحر؟

إن اللبنانيين بعد اليوم لا ينظرون إلى غير المفوضية العليا والحكومة اللبنانية ولا يعتبرون غيرهما مسؤولا عنهم، وهو موقف يتنادون له في لبنان ومصر وأوروبا وأمريكا، ولقد علقوا عليه خيرا عميما وأملا كبيرا، فيجدر بالمفوضية والحكومة أن لا يضيعاه في سبيل شهوة المستثمرين، هذه الشهوة التي إذا أنكرها اللبنانيون اليوم فقد يقبلونها غداً عندما تصان مصالحهم وتنتعش حقولهم وأسواقهم ويجدون في بلادهم ما يكسبون به قوت عيالهم.

وإننا لنشفق أن يتناول منجل الحاصد غداً صغار الموظفين وأرباب العيال منهم دون أن يتناول الذين يتمتعون بالرواتب الضخمة والمخصصات الضخمة عن طرق القوانين التي وضعتها المصالح، ونامت عنها عين المراقب الصالح، الأمر الذي نربأ بالأستاذ إدة أن يأتيه وهو من أجمع حتى خصومه على الاعتراف له بالحزم الذي ما بعده حزم والوطنية التي لا يشوبها باطل.

بشارة الخوري

البرق، ٢٠ كانون الأول ١٩٢٩، عدد. ٣٣١١، ص ١

****

بطل لبنان يعود إلى عرينه

بين الأمس واليوم

لقد عاد يوسف بك كرم[1] البطل اللبناني الأشهر إلى عرينه، وعلى صهوة جواده، يتفقد ما تم لهذا البلد بعده، أهو خطا خطوته في سبيل الرقي والاستقلال، أم هو تأخر إلى الوراء، أم هو لا يزال جامداً مكانه، والجمود شر من التأخر؟

لقد عاد - أو نحن الذين عدنا بالروح إلى عصره - فالتقينا على مسطح واحد، فماذا رأى وماذا رأينا؟

إنه ولا شك مندهش من معالم العمران وتأنق الناس في لبنان؛ ثم هو مطمئن إلى المصير الذي انتهت البلاد إليه، وكان هو المؤسس، مأخوذاً بهذا الفضاء الرحيب تتلاعب فيه فرسان إهدن[2] ولبنان، ويتعانق فيه القلم والسنان.

هذا ما يراه أو بعض ما يراه هو؛ أما الذي نراه نحن، فهو هذا الفرق الكبير في الأخلاق، ويتفرع عنها: الزعامة وكان يؤدي الزعيم ثمنها من ماله ودمه؛ ثم الإخلاص الذي تقتضيه مثل هذه الزعامة من المزعومين، فيفدونها مثل تفديتها إياهم؛ ويتفرع عن الأخلاق الوفاء والصدق والعمل، وغيرها من المزايا العالية التي كانت مزية اللبنانيين في الأمس. هي التي حفظت كيانهم، وهي التي أوصلت إلينا ميراثهم، فرُحنا نُجازف به ونغامر.

ومع هذا، فلا نكران أن «الشمال» عرف كيف يحتفظ بهذه الأمانة المقدسة، مقتفيا آثار الآباء الكرام، عاملا على ترقية البلاد بما أنشأ فيها من المصانع، وأقام فيها من

المشاريع، راكباً لها متون البحار مستهدفا في سبيل تحقيقها، للمخاطر في المهاجر، مقدماً في كل يوم برهاناً جديدا على إحياء المجد القديم، وإنماء المجد الحديث وحسبُك يوم ١١ أيلول من سنة ١٩٣٢[٣] دليلا على هذه المتانة في الأخلاق، وهذه العبقرية في الفتح أدبا وعمراناً.

بشارة عبدالله الخوري

البرق، ١٩٣٢ العدد ٢٤٤٥، ص.١

****

الـزعيـم ؟

هذا رجل إذا غضب غضب لغضبه مئة ألف من بني تميم، دون أن يعرفوا لماذا غضبوا. قيل هذا عن الأحنف[1] في ملاحاة له مع معاوية.

وفي الهند رجل إذا ثار ثارت خلفه الملايين من بني قومه، لا يسألونه، لشدة إيمانهم به، لماذا ثار. وهو إن أومأ لهذه الملايين وقفوا دون أن يسألوه لماذا، وقد علمت أنه غاندي، معبود الهنود

هذا هو الزعيم وتلك هي الزعامة.

ولكن هل انقياد الجماهير هذا الانقياد لرجلٍ واحد، دليل على رقيها أو انحطاطها؟ وبكلمة أخرى، هل انقياد المئة ألف من بني تميم للأحنف، ثم انقياد الملايين من الهنود لغاندي، ويمكنك أن تزيد عليها انقياد ملايين المصريين لسعد[2]، هل هذا الانقياد مما يطعن في كفاءة هؤلاء وعلمهم، أم أنه محمدة من محامدهم وآية من مفاخرهم؟

إن الجواب على هذا، يتناول بالطبع ما إذا كان هذا الانقياد انقياداً أعمى يطبخ عليه الزعيم مصالحه، بعد أن يجعلهم حطباً للموقد، أو أنه انقياد البصير بما تحلى به القائد من التضحية، في سبيل أتباعه والتهالك على مصالحهم، كأمةٍ لها حقها في الحياة، ولو انتهى به الأمر إلى التلف.

فإذا كان الأول، فهو الجهل بعينه، وأقل ما يستحقه أولئك الأتباع أن يعدوا في الحيوان، يُسخرهم ربها لمصالحه؛ حتى إذا انتهى منهم أرسل حبلهم على غاربهم.

وإذا كان الثاني، فهو الحكمة بعينها، لأن الزعيم إذا شد الجمهور أزره، علا صوته واتسع نفوذه، فغنم منهما لأمته وبلاده من الخير، غايته المستطاعة.

فزعامة غاندي في الهند كزعامة سعد زغلول في مصر، من الزعامات التي تُشرف الأتباع قبل أن تشرف المتبوع، لأن الأمة التي تقضي على أهواء أفرادها في سبيل مصلحة المجموع، لهي أمة رشيدة. فما قولك إذن بمن تختاره لزعامتها؟

فلقد اتصل بك ما تحمله سعد زغلول من ضروب الإرهاق في سبيل بلاده، مِنْ سجن ونفي، واعتداء؛ وفيه ثمن عادل لزعامة الأمة المصرية وهذه أسلاك البرق تحمل إلينا اليوم عزم غاندي السجين على الإضراب عن الأكل عشرين يوماً، إذا لم يعدل الانكليز عن قرار يعتبره مُضراً بوحدة الهند، وهو إذا قال. فَعَل.

أفنظرت إلى الزعامة، كيف هي في بلاد الناس؟ فحدثني بربك عن الزعامة في لبنان، وقل لي إن استطعت، عما إذا كنت ترى فيه زعيماً، كا كانت الحال مع سعد زغلول في مصر، وكما هي مع غاندي في الهند؟

لا نكران أن الزعامة فضيلة لأنها كناية عن تضحية الأفراد في سبيل المجموع؛ فالزعيم الذي يتحمل النفي، والزعيم الذي يمتنع عن الطعام، يعطيان المثل الأعلى للتضحية. كما أن من يليهما من أفراد الأمة البارزين، يُضحون أيضاً بكبح أهوائهم، وتسخير مواهبهم للزعيم الأول وهلمَّ جراً.

ولكن لبنان مع الأسف، معدومة فيه الفضائل، فضائل التضحية في مَن يدعون التزعم، وهم في الحقيقة عبيد. السلطان هو الذي يمنحهم الزعامة وهو الذي يمنعها عنهم. والويل للبلاد من مثل هذه الزعامات!

بشارة عبدالله الخوري

البرق، ١٦تشرين الثاني ١٩٣٢، عدد. ٣٤٤٦، ص١٠

****

غانـــدي[1]
سر الفداء العظيم

وبعد، فقد اعتنق غاندي صيامه لا يُثنيه عنه شيءٌ، إلا أن يتساوى منبوذو الهنود بالطبقات العليا في الحياة الاجتماعية والسياسية؛ وإلا أن يُرجع عن القرار القاضي بجعل المنبوذين طائفةً منفردة لها ممثلوها، ثم لها مكانتها الدنيا، يُحيط بها الرجس من كل جانب

وإذا علمت أن أشد ما يقتل الهند، هذه العقائد الدينية واختلاف الطبقات الاجتماعية؛ حتى لَينظُرَ الهندوكي الهندي إلى المنبوذ الهندي، نظره إلى الرجس وعلمت ما تُذكيه هذه العقائد من الأحقاد، حتى لتصبح كل طائفةٍ حرباً على الأخرى؛ إذا علمت كل هذا أو بعضه، ظهر لك جلياً أي خدمة أداها غاندي لبلاده بضم صفوفها بعد إزالة تلك العقائد البالية منها، وظهرت الهند في بوتقة واحدة. حتى إذا تألفت أجزاؤها، أصبحت قوةً هائلة لا تقف في وجهها أي قوة عالمية.

وحسبُك، لكي تعرف مبلغ خطورة هذا الأمر – أي انشقاق الهنود عقائد وخرافاتٍ – أن غاندي رأى حياته أقل ما يبذله ثمناً لها، فأعلن صيامه حتى الموت. وما كاد يذيع هذا النبأ الداوي، حتى اضطربت له الهند من أقصاها إلى أقصاها. كيف لا وغاندي معبود الهنود على اختلاف الطوائف والطبقات.

وآخر ما جاءنا أن مندوبي المجلس التشريعي عرضوا على غاندي معاملة الطبقات المنبوذة معاملة جميع الهندوكيين؛ وقد قابله في سجن بافار السر تاج سابرو والمستر تايا كان، ثم قابله آيد كار زعيم المنبوذين والبادات ملافيا.

أما غاندي فسيبقى محافظاً على صومه حتى يتأكد من أن هذه الحلول أُنفذت.

وإلى القارئ الآن بعض ما حملته إلينا البرقيات من العبرة، وكله جدير بالحفظ والتكريم:

«لقد شكا غاندي من التعب عندما انصرف من لَدُنه آخر زائر. ولا يبعد أن تتدخل الحكومة لتخفيض عدد الزائرين، حرصاً على راحته، وقد جيء بالسيدة روجيني نايدو[٢]».

«ولحظ الذين يترددون على غاندي، الآونة الأخيرة، أن قواه الجسمية آخذة بالانحطاط؛ ويعزون هذا إلى إجهاد قواه الجسمية في محادثة زائريه الكثيرين. ومع هذا فإن غاندي يقوم بعمله اليومي على مغزله[٣]، ويُتمم واجبات الصلاة صباحاً ومساء، ويتجرع الماء بين فترة وأخرى؛ وهي المادة الوحيدة التي تدخل جوفه».

إن في غاندي شعلةً من الألوهية تلمّع مرةً في كل جيل، جبين أحد أصفيائها فتطلع به على الكون نبياً كريما وقائدا حكيما

بشارة الخوري

البرق، ١٩٣٢، عدد ٣٤٤٦، ص ١

****

النهضة التركية وتأثيرها على الشرق

القبعة - السفور - الأحرف العربية واللاتينية - ترجمة القرآن

جريدة الرأي العام وقنصل تركيا

إن كلمة الأفغاني[1] في أن «الشرق لا ينهض بغير مستبد عادل» لقيت في مصطفى كمال[2] صاحبها. فهو هو ذلك المستبد العادل، وهو هو الذي هدم تلك الهياكل البالية من التقاليد، ومزق تلك العصائب الواهية من الأوهام، وجرد الدين عن الدنيا، فرفعه عن السفاسف، ونزهه عن الصغائر، واختط للشرق سَنَناً[3] واضحا سيحمده له الشرق، فهو - في هذه - كبير أنصاره، ورافع مناره.

إن من يُمعن في ما صنعه مصطفى كمال للشرق عامةً وللمسلمين خاصة، لا يتمالك عن إكبار هذه الأعمال متى فهم مكنوناتها وقطف ثمراتها. فهي وحدها الكفيلة بنهضة الشرق من عِثَاره، وجعل كل قطعةٍ منه قبيلاً واحد اتخذ القومية معبوده الأول، وسار سيرة الغرب في فصل الدين عن السياسة؛ فلا يعني الواحد من أمر جاره سوى أنه سوريٌّ مخلص لسوريا، أو عراقي مخلص للعراق، أو تركي مخلص لتركيا، أو لبناني مخلص للبنان، أكان هذا الجار دهريا أو أحمديا أو عيسوياً[4]، لا يُغمط له حق ولا يفوته واجب.

أجل، إن نهضة الترك اليوم، لا ولن تقتصر فوائدها عليهم. فسوف نكون - مهما تعنت المتعنتون وتردد المترددون - أول من يقتفي آثارها، فنحن لا نجهل أن للترك مكانة أدبية تركتها لهم في النفوس، سيطرة القرون الطويلة، لا سيما وقد ملكوا زمام الخلافة، وكانوا قبلة الإسلام إلى عهد بعيد.

لقد قامت نهضة الترك على الإخلاص، وكل عملٍ يقوم على الإخلاص، فهو عملٌ خالد، فما عهدنا قبل مصطفى كمال وعترته[٥] من القابضين على زمام الأحكام، يتهالكون هذا التهالك على تعليم الشعب وتثقيفه، وتنويره، واضعين بين يد كل فرد من أبنائه ميراث الأمة التركية من مجد وثروة وسلطان.

لقد علم الكماليون[٦] أن ما أدخل على الدين من تقاليد - حتى أصبحت جزءاً منه - هي الحائل الوحيد دون رفع الأمة فأمروا بهدمها دفعةً واحدة كالطبيب لا يرى حيلةً في نجاة مريضه إلا بجرعة قوية من الدواء، ففعل وأنقذ المريض.

فإذا كان الطربوش - هذه الكسوة المضحكة الغريبة التي لا تقي الرأس مطر الشتاء ، ولا تمنع عنه حرارة الصيف، إذا كان هذا الطربوش الذى لم يعرفه الإسلام ولا العرب إلا منذ عهد قريب، أصبح أو كاد رمزاً دينياً أو رمزاً شرقياً، وأصبح العدول عنه إلى غيره بدعة فما قولك بغيره من الفسائل التي نبتت على جذع الدين وتفيأت بظله؟!!

لقد أصبحت القومية هدف الأتراك الأوحد، وخيالهم الأسمى - ولم يسد الغربُ الشرقَ إلا بهذه - ولا يكون للقومية هذا المقام إلا إذا انتزع من عقلية الشعب تلك التقاليد التي أصبحت كما قلنا جزءاً من الدين. وها هي اليوم قد انتزعت بجرأة غريبة، فقطع التركي بهذا، العلاقة بكل مسلم على الأرض إلا بأخيه التركي لعلمه أن الوطن لا يقوم على سواعد الغرباء، ولا يمشي على بخار الأوهام، والأشواق ، والصلوات. ويميناً لو أنه جاز للمسيحي أن يكون تركياً لكان في نظر الترك أخاهم المفدى لا يبيعونه بألوف المسلمين من غير الترك.

ونحن إذا شئنا أن يكون لنا وطن مستقل، فلن يكون لنا هذا الوطن إذا لم نحذُ حذوَ الترك؛ فلا نبيع ابن وطننا إذا كان مسلماً بألوف النصارى الأجانب عنا؛ وإذا كان مسيحياً بألوف المسلمين الأجانب عنا.

ولا نصل إلى هذا ما لم يتوحد نظام العائلة عندنا، وما لم نقتدِ بالأتراك، فنعزل الدين عن السياسة، ونجرده من التقاليد البالية التي نُعيذه ونُجلهُ أن يكون منها.

وما اعتَدتْ النهضة التركية على جوهر الدين، إذ ما كانت الملابس والأزياء جزءاً منه، ولولا هذه الدعوة التي قام بنشرها مصطفى كمال وجماعته، بإبدال الأحرف العربية بالأحرف اللاتينية، لما كان لنا ما نأسف عليه؛ لأننا جماعةً لن نرضى عن العربية والأحرف العربية بديلاً، ولأن اللغة التركية ولأصحابها، مكانتهم تحت الشمس، يُعززون بأمر فهم العربية جانب لغتنا، ويحملون أصحاب المصالح من المغاربة(٧)، على درسها، وفي هذا من تعميم الآداب العربية والشرقية، ما فيه من النفع الأدبي والمادي.

إن الإقدام على إبدال الأحرف العربية بالأحرف اللاتينية لياذ (٨) لا يخلو من صَغار، وإذعان لا يخلو من احتقار، ولماذا يعترف الأتراك - وهم من أكبر الدول الشرقية - للأمم الغربية، بتقصير حروفهم عن تأدية ما يحتاجون إليه لآدابهم ومصالحهم؟ ولو كانت الأحرف أحرفهم وحدهم لما كان لنا ما نقول، ولكنها أحرفُ أقوام عديدة يتحفز معظمها للنهوض. فإذا ما أبقى الأتراك على أحرفهم، كانوا وهؤلاء الأقوام، خير نصيرٍ لهذه الأحرف التي رافقت القرون، وأبطال هذه القرون الذين ملأوا التاريخ أدباً وعلماً وحكمة.

أجل، لقد غلا دعاة الترك في هذه، وغلوا في ترجمة القرآن الكريم، ولو نظروا إلى الغرب وإلى الشرق أيضاً، لرأوا أن اللغات الدينية - وهي لغات ميتة - لا تزال تستعمل في المعابد؛ ومع ذلك فهي لا تزال تُعلم في الصفوف العليا، للتوسع في العلوم كاللغة اللاتينية واللغة اليونانية القديمة وغيرهما.

فإذا كانت هذه اللغات - وهي من اللغات الميتة - لا تزال تستعمل دينياً، وتُعلم توسعاً أو تفلسفاً، فأحرى بأن يبقي الأتراك على القرآن عربياً، وعلى الأحرف عربيةً، فلا يكونون بذلك إلا مقتدين بأوروبا نفسها، إذا أرادوا الاقتداء بها في كل شيء.

لقد كان يجوز لنا أن نعتقد بأن النهضة التركية بفرنجتها الأحرف العربية، تحاول أن تقطع كل صلةٍ في الماضي، ولا سيما بالإسلام، فتعمد إلى فرنجة الكتب التى تروق لها، فتدخلها مدارسها. وهكذا على التمادي، تصبح الكتبُ التي لا تروق لها نسياً منسياً، فتقطع بذلك الحلقة التي تربط الحاضر بالماضي، ولكن تتريكها القرآن يفسد علينا هذا الاستنتاج أو قد يفسده.

على أن أشد ما يهمنا، من النهضة التركية الحديثة ويهم كذلك الدولة المنتدبة، هو عدول الأتراك عن سياسة التوسع - إذا استثنينا مسألة الحدود - إذ لو كان ذلك في نفسهم وفي خطتهم، لما حطموا أمضى سلاحه وهو «السياسة الدينية»، ولا يدلك على ذلك أكثر من موقف القنصل التركي، في عيد المولد النبوي في العام الماضي، وفي هذا العام.

وعلى ذكر القنصل التركي سعادة عبد الغني سني بك(٩) فلا يجوز لنا أن نمر بحملة الزميل الفاضل طه أفندي المدوَّر(١٠)، عليه، تلك الحملة التي لم نر لها مسوغاً، لأنها تجاوز على الحرية الشخصية، وهو من أنصارها؛ ولأن أي قنصل، ملزم بأن يتقيد بأوامر حكومته، ومقررات مجلسها. وليس من ينكر على سني بك - وقد عاش بيننا زمناً طويلاً - تلك الآداب السامية التي يتحلى بها؛ ولم تكن الآداب ليحتكرها زي من الأزياء أو عادةٌ من العادات، بل هي مشاع بين البشر، يأخذ منها كل فردٍ بمقدار ما تساعده عليه تربيته البيتية والاجتماعية.

والعجيب أن يحمل الزميلُ الفاضل، على سني بك، لخروجه في الشوارع مع ذويه متبرنطين - سافرين - وهو يقول في نفس مقاله ما نصه بالحرف:

«نحن لسنا من أعداء القبعة ولا السفور بل ربما لبسناها بعد حين، وأسفرنا عن وجوه نسائنا.. لكننا موطدون العزم أن لا نفعل هذا، إلا يوم نعرف بأن سجايانا العلمية والمدنية اختمرت وصارت توزن بمكيال الأمم الراقية».

هذا ما قاله الزميل، وهو من أنصار التجدد كما ترى، بل هو سيلبس القبعة وسيعمل على السفور بعد أن ضرب لذلك موعداً هو وزن الأمة بمكيال الأمم الراقية. وله رأيه في وزن أمته، ولكن الأتراك - ولهم رأيهم أيضاً - لا يريدون أن يعترفوا لغيرهم من الأمم بأنهم أرقى من أمتهم؛ ولذلك استعجلوا هذا الموعد، فلبسوا القبعة وأسفروا متمثلين بقول الشاعر.

إذا كنت ذا رأيٍ فكُنْ فيه مُقْدما

فإن فساد الرأي أن ترددا

وليس أنصار الطربوش في هذا البلد، جماعة المسلمين وحدهم ولا المترددون في لبس القبعة هو طه أفندي وحده، بل إن في النصارى للطربوش أنصاراً وفيهم كذلك المترددون كطه أفندي؛ ونحن من هؤلاء المترددين.

وخلاصة القول، فإننا شهد الله علينا - لا نتوخى من إيقاظ هذه النهضة، سوى تعزيز القومية وملاشاة النعرة الدينية أو الطائفية، لأن البلاد لا تنهض بغير نهضة الأكثرية. فهي إن سارت سرنا وإن توقفت توقفنا.

وللمسلمين وحدهم في هذا الشرق أن يقولوا:

إذا نحن سرنا سارت الناس خلفنا

وإن نحن أومانا إلى الناس وقفوا(١١)

بشارة عبدالله الخوري

البرق، ١٩٢٥، عدد: ٣٤٤٥، ص: ١

****

نهضة الهند وأثرها في الشرق

الحرب العالمية كانت خير لقاح للأمم المستضعفة

هل يستريح الذين على طريق الهند؟

لا غرو إذا كانت هذه الثورة السلمية الناشبة في الهند، قد أقضت مضاجع الإنكليز واستلفتت الدول الاستعمارية كافةً إليها.

فلقد نقلنا أمس كما ننقل اليوم، من أخبارها ما يكفي لإثارة المخاوف في صدور أولئك الذين يعملون على استثمار البشر كما تستثمر الأرض والحيوان

وحسبك أن تعلم أن الذين تظاهروا لرئيس المؤتمر الهندي، عند وصوله إلى لاهور،[1] المدينة التي يعقد المؤتمر فيها، كانوا نحو مليوني شخص، ليتضح لك جلالة الموقف ولتثق أن الفيل الهندي الذي كظم غيظه طويلاً، انتفض اليوم تحت وخز الحراب، فراح يقحم القلعة الانكليزية لا يلوي على شيء ولا يبالي بشيء.

وأين هذه المبالاة من هذه القرارات التي عجموها في المؤتمر بمقاطعة المجالس التشريعية، والنكول عن دفع الضرائب، الى آخر هذه القنابل التي فجروها بين أرض الهند وسمائها، فراحت كالعاصفة تكتسح إرادات الملايين من الهنود لا تهمد ثوراتها ولا يهدأ دورانها قبل أن تنال الهند استقلالها ويخرج آخر إنكليزي منها مشيعاً بالكرامة.

لقد كانت الحرب العالمية لقاحاً للأمم المظلومة بتحكم الأغيار فيها. فلقد استكشف الشرق قيمة الوعود التي أمطرها ساسة الغرب عليه إبان النكبة، وتمرس الذين تجندوا من أبنائه بالعنفوان العسكري. وقد كان للهند وحدها نحو الميلونين في ساحة الوغى، ناهيك عما كان لقواعد ولسن[2] ذلك الإنساني العظيم من أثرٍ في نفوسهم رفعها عن

مستواها القديم، وهوّن في سبيل تحقيقها بذل النفوس، حتى أصبح الشرقي لا يتردد عن غسل الإهانة بدم صاحبها. كل هذا تجمع حتى أصبح حساً عاماً يرمي إلى هدفٍ عام، هو نزع سيادة الأغراب ليسودوا هم أنفسهم ويتصرفوا أحراراً بشؤونهم.

وإنه ليدهشك - على علمك بما بين الهندوس والمسلمين من البغضاء - أن يقف رئيس لجنة الاستقبال وهو مسلم، والمسلمون في الهند أقلية فيغرق إغراق الهندوس أنفسهم في محاسبة الإنكليزي على أموال الهنود والرجال الهنود بكلمات جاءت صورةً فظيعة لقسوة القوي المستبد وعجرفته.

ولا يجب أن ننسى أثر الروس في هذه الحوادث، وهم لا يغمض لهم جفن ولا يطمئن لهم بال إذا لم يعكروا على الانكليز خاصة، فنحن على مثل اليقين من أن لهم يدهم في الهند، كما أن لهم يدهم في الصين، كما أن لهم يدهم في إفريقيا الانكليزية، فكأنما هم آلوا على أنفسهم أن يعصفوا على الراية البريطانية في جميع البلاد التي تخفق عليها بدون حقٍ مشروع.

وإذا كانت الحركة الهندية تهم أحداً من الناس، فهي تهم على الأكثر، هذه الشعوب التي نثرها الله على طريق الهند، فكانت سبباً لبسط السيادة الانكليزية عليها. أفترى تطمع هذه الشعوب أن يقطع الهنود الطريق على الأسد البريطاني، فتسقط تلك الحجة «الواردة» وتتنفس مصرُ وفلسطين والعراق، وغيرها الصعداء؟ أجل إنه لحلم، ولكن قد تصح الأحلام.

بشارة الخوري

البرق، ١٩٣٠، عدد: ٣٣١٦، ص: ١

****

ثالثاً : موقفه من سوريا

في سبيل دمشق

زار الأخطل الصغير دمشق فكتب في جريدة «سوريا الجديدة»[١] المقال البليغ الذي يلي عن دمشق:

ها أنا أستمد الوحي من سماء دمشق، من برداها، وما قام على ضفتيه من بواسق الحور، ومثمرات الجوز والرمان! ها أنا أستمد الوحى لأكتب سطراً في سبيل دمشق.

دمشق مرضع سوريا الحنون! دمشق الجدول العذب في وسط الرمضاء! دمشق عشيقة آلهة الغابات! دمشق أجمل عرائس المروج!

قالوا إن دمشق عاقرٌ، كأن في عيونهم عمىً عن سرواتها[٢]

هي إهانة لكل دمشقي بل لكل سوري؛ بل هي كفران بواجب هذا البلد الطيب أن لا يُنبت رجلاً حقيقياً بأن يكون كرجال البلاد الأخرى، تعقد له الرئاسة مقيدةً برأي الأمة.

إذا طلبت دمشق الاستقلال، قيل لها: إن أمة تطلب ما تطلبين، لزمها أن تنبت ما تنبته البلاد المستقلة؛ فأي الرجال أنبتِّ؟ وبأيهم وثقت؟ وعلى أيهم اتكلت؟

قيل لها، إن ذلك حق لك لا يُنازع، فقدِّمي الأكفاء من بنيك!

تقولين: إن سوريا للسوريين، ذلك هو القول العدلُ، فأشيري إلى سوري يتطوع في حمل أثقالك، وتحقيق آمالك. إن في السويداء[٣] رجالاً فقدمي واحداً من رجالك!.

قيل لها: إننا جئنا لنؤيد حق السوري لا غير. لنقدم مصلحة السوري لا غير، لنشارك السوري لا غير.

قيل لها لقد علمتنا الأيام القلائل التي صرفناها في حضن سوريا شرف الفطرة السورية، وطيب العنصر السوري. وإنما أفسد تلك الفطرة وذلك العنصر – إلى حين – اختماره بالأفكار الغريبة الفاسدة، أفكار طرداء بلادهم، أبناء الصدف وحملة مشاعل الأوهام.

قيل لها. إننا جئنا باسطين يد الإخاء، فقابلتِها بيد العداوة. باسمين عن ثغرٍ السلم، فقابلتِه بثغر قطوب. معلنين لك وللملأ أنك أختنا الصغرى، لك منا حنان الأم وعطف الشقيق، فإذا أنت تعمدين إلى السيف مندفعةً بالعوامل الخبيثة وراء المضلين.

وها إن الشفرةَ الحادة التي لعبت بها جرحت يدك الناعمة.

لقد أثرت غضب الوالد(٤) ولن يدوم ذلك الغاضب. هو درس كان ثمنه غالياً، فعسى أن يكون مفيداً

يقولون: لا كلام للمغلوب، ولكن ذلك يكون إذا كان الغالب عدواً، ولكننا نرى الغالب يمسح الجراح بمنديل الرحمة، ويكفكف الدموع التي أراقتها نزعات الجهل بأنامل الحنان. إذن فليس هنالك من مغلوب وغالب. بل هنالك عمليةٌ كان لا بد منها تقليصاً لظل الفوضى وتمكيناً للأمن المضطرب، وإرجاعاً لحق السوري إليه. إن حقه كان ضائعاً، ومصيره كان على أسلات الألسن الطائشة ترمي في مهب الأرياح.

لقد جربت فيصل(٥) في من جربت؛ فأي حربٍ جرها وأي ويلٍ ساقه؟

قد يكون الأمير طيب القلب، طاهر الذيل. ولكن كان ولا جدال، عاملاً لتلك «السلطة»(٦) مؤتمراً بأوامر أصغر رجالها؛ خاضعاً – حتى في موقف الخطر على سوريا – لكل إشارة تبدو من صغار عمالها غير المسؤولين.

لقد يكون من المعقول لو استند إلى مواعيد كبراء رجالها، إلى المسؤولين منهم، إلى رجال الوزارات، إلى المفوضين الرسميين؛ لأن مصير الأمة السورية، ومصلحتها، ودماء أبنائها، تستحق هذا الحذر، وهذا التحفُّظ، وهذا الضمان ولكنها المجازفة بكل هذه أدت إلى ما نحن فيه

مَنْ لا يذكر يوم جاء بيكو لمقابلة الأمير، وعرض ما عرضه من الضمانات، وإلحاحه على الأمير بتوقيعه ذلك الميثاق، أنه لو أمضى يومئذٍ لكانت الوحدة السورية، وكان الاستقلال السوري، ولانصرف جميع مَن في الساحل وفي الداخل إلى المطالبة بفلسطين، الجزء المتمِّم لسوريا. ولكن الأمير استشار، فقيل له (لا)! وعلَّلوه وكان أقتل الأشياء ما به علَّلوه، [7] وكيف ينصحون يومئذٍ بالاتفاق، ولم يكن مؤتمر سان ريمو[8] قرر ما قرر، وقسم ما قسم، وأعطى ما أعطى

وبعد مجيء الجنرال [غورو][9] كم عرض على الأمير من الأمور التي ترجع لخير الأمة السورية، وتسير بها شوطا بعيداً في سبيل الرغد والترقي، في سبيل الحكومة التي يطلبها السوريون مبنىً ومعنىً!

لقد قيل لي إن أحد الأمناء سقط يومئذٍ على يد الأمير يُقبِّلها، ويرجوه أن يُوقِّع – ذلك الميثاق – لأنه نظر إلى ما وراء الوعود وعلم ما وراءها.

لا غرو أنه لو كان الأمير سورياً[10]، لما جازف بمُجازفته تلك. إذن فلا طيبُ النجار، ولا شرف العاطفة، ولا أية المزايا الكريمة، تدفع المسؤولية الكبرى التي نرى نتائجها؛ بينما كان في الوُسع أن ننال أكثر ما نريد على أحسن ما نريد.

إن دمشق كالنهر الذي يجري فيها هادئا ساكنا فما هو ذنب النهر إذا رماه بعض الطائشين بالحجارة فخضخض مياهه؟

إن الدمشقيين أعشق الناس للهدوء، امتازوا برقة الخُلق كامتيازهم بعذوبة النطق، فإذا طرأ عليهم عارض خارجي، ومؤثِّر خارجي، فإنما المذنب سلامة النية خُدعوا فانخدعوا، وينخدع الكريم.

سيرى الجنرال غورو كيف تستقبله دمشق اليوم؛ سيرى أنها غير التي علم عنها؛ سيرى صفاء الوجوه وصفاء الذين صوروا دمشق مُشوَّهة، الذين رموا ذلك النهر بالحجارة فكدَّروه، ليسوا الآن فيها.

فدمشق - كما يراها الزائر العظيم - مرْضع سوريا الحنون!

دمشق الجدول العذبُ في وسط الرمضاء!

دمشق عشيقة آلهة الغابات!

دمشق أجمل عرائس المروج!

البرق، آب ١٩٢٠، العدد: ١٠٦٣، ص:١

****

لنعمل لسوريا ولبنان

في سوريا ولبنان

لم نكن على خطأ يوم قلنا إنه يجب العمل لسوريا ولبنان في قلب سوريا ولبنان ومع الدولة المشرفة عليهما.

ولم نكن على خطأ يوم قلنا بقطع كل علاقة مع الخارج حتى لا نثير ظنون الدولة المنتدبة بنا فتطمئن إلى أننا نطلب بأنفسنا لأنفسنا لا بدافع دافع وتغرير مغرر.

ولم نكن على خطأ يوم قلنا إن فرنسا لا تطمئن - وحقها أن لا تطمئن - إلى الدعوة الشريفية[١] ما زال الشرفاء لا يستطيعون التمرد على إرادة إنجلترا وكثيراً ما تختلف مصلحتها ومصلحة فرنسا.

وإذا كنا منصفين فيجب أن نعذر فرنسا إذا عملت لمصلحتها إلا إذا كنا لا نعذر أنفسنا إذا عملنا لمصلحتنا.

وليس لمصلحة فرنسا وحدها يجب علينا تجنب الدعوة الشريفية بل هو لمصلحتنا أيضاً للمصلحة التي من أجلها نهض العرب في كل مكان لمقاومة هذه الدعوة بعد أن بشروا بها.

علموا أن المسألة لا تخرج عن أحد أمرين: إما أن يتمرد الملك حسين وأنجاله على الإنجليز وإما أن يذعنوا لإرادتهم.

أما التمرد فهو مستحيل، لأن الإنجليز هم الذين رفعوهم ملوكاً ولولا الإنجليز لابتلع ابن السعود[٢] الحسين[٣] ولرفض العراقيون فيصلاً[٤] ولانتصر ابن العدوان[٥] ومن ورائه أحرار السوريين على عبدالله[٦].

ولولا الإنجليز لما كان المال والمال لابد عنه حتى مع وجود الإنجليز بطياراتهم ودباباتهم.

إذن فلابد من الأمر الثاني وهو الإذعان.

والإذعان لإرادة الإنجليز لا يتفق بشيء مع مصلحة الوطنيين إلا إذا كان من مصلحة الفلسطينيين والعرب عامة:

١ - الاعتراف بوعد بلفور.

٢ - إلحاق حكومة الشرق العربي بفلسطين وجعلها كفلسطين وطناً قومياً لليهود.

٣ - ضم سكة حديد الحجاز من نصيبين حتى عمان إلى سكة حديد فلسطين.

٤ - التنازل عن العقبة وتبوك للإنجليز وهي قطعة من البلاد المقدسة عند المسلمين(٧).

٥ - تقييد العراق بالمعاهدة الإنجليزية - العراقية وهو قيد يعد الانتداب عنده استقلالاً، وحسبك أن تعلم أن إنجلترا تريد أن تُخرج العراق بهذه المعاهدة من تحت نفوذ جمعية الأمم لتكون هي وحدها مرجعه.

فإذا لم تكن هذه جميعها من مصلحة الوطنيين فلماذا لا يهدمون الجسر الذى يمشي الإنجليز عليه للحصول عليها.

وإذا كانوا لا يريدون هدمه فلماذا يعملون على شده وتمكينه.

فإذا كانت النكاية فلن نضر - لو نعقل - إلا أنفسنا، وإذا كان الخوف من العامة فللعامة دواؤها لا سيما وأن بعض المفكرين هم الذين خلقوا هذا الداء.

نحن لا نقول بالاستسلام إلى الفرنساويين بل نقول بوجوب إنصافهم إذا نحن قابلنا ظلهم الخفيف مع ظل غيرهم الثقيل، ثم وقد أنصفناهم - والإنصاف مدعاة للثقة - فيمكننا عندئذٍ أن نتفاهم معهم على ما يضمن المصلحة المشتركة مع المحافظة على الكرامة القومية.

إن الذي أثار الحفائظ عندنا هو ما أدخله عمال الدعوة الإنجليزية باسم الشرفاء من أن الفلسطينيين والعراقيين هم من كل الوجوه في حال أحسن من حالنا. غير أنه ما كاد ينقشع غبار المعمعة حتى ظهر من تحته البلاء الذي يكابده جيراننا وإخواننا، أما في فلسطين والشرق العربي فأمرهما جلي واضح، وأما في العراق فهذه حادثة أمس التي سقط فيها القتلى من النواب دليل على مبلغ الضغط والألم المخيمين في عاصمة الرشيد.

فحريّ بمن يمدون بأبصارهم منا إلى خارج الحدود يستمطرون الآمال أن لا ينسوا حكمة القائل:

إن من ترجو به دفع الأذى
عنك يأتيك الأذى من قبله

البرق، ٢٦ نيسان ١٩٢٤، عدد ٢٠٧٩ ص ١

****

أَحَرْبٌ بين إخــوان!

فإذا رشقتُ أصابني سَهمي

يرانا القارئ نُمسك كلَّ الإمساك، عن طرق باب الوحدة والانفصال الذي ولَجتْه وتلجُه الأقلام: هذه هجوماً وتلك دفاعاً، إذن فنحن في مثل ساحة حربٍ لا ينجلي غبارُها - وسوف ينجلي قريبا - إلا عن جراحٍ دوامٍ في صدور إخوان أعِزَّة.

وأيُّ هذه الصدور لا يعزُّ علينا؟

وأيُّ هذه الجراح لا نضمدها بالقلوب والأجفان؟

أجل سينجلي الغبار عن صدورٍ جريحة، لأن السلاح الذي يتحاربون به مشحوذٌ، وللأقلام وخزاتٌ أوسع من وخزات الأسنة، بل إن وخزات الأسنة لها التئام، وأي التئامٍ لوخزات الأقلام؟!

وكأن هؤلاء المتحاربين نسوا أنهم إخوان فسددوا السهام باسم إبليس ورموا؛ ولقد تُسكِرُ الحربُ كما تُسكر الخمرُ. فإذا ما صحا الفريقان غداً، بكوا ندماً وقاموا يعملون بأنفسهم على ضمد الجراح التي أسالوها بأيديهم.

ولو أنصفوا أنفسهم، لذكروا هذه الخاتمة المفجعة قبل أن يبدأوا بأول أدوارها - كذلك يفعل الحكيم!

وكان يهون الأمر لو اقتصرت هذه الحرب على مُوقديها، ولكننا نراها تتجاوز العامة من الفريقين؛ وما أدراك بما تزرعه في تلك القلوب من سموم التعصب، ووراءه الحقد، فالتمزق، فالضعف، فالانحطاط، فالاضمحلال.

أبى الله أن نعتقد بأن مصالح الأشخاص تحجب هذه الحقائق المؤلمة.

وأبى الله أن يكون فينا من يستسهل التسلية بإحراق بلدٍ، ليولع لُفافته. فنحن جدُّ واثقين بطيب أرومة إخواننا جميعا، وجدُّ واثقين بطهارة وجدانهم. ولا نحسب هذه الحرب المضطرمة اليوم، إلا منطفئةً غداً. فما هي إلا وليدةُ عاطفةٍ ثائرة يكفيها قليلٌ من ماء الروية لتهدأ وتهمد.

أجل، ليس من العقل، بل ليس من الوطنية أن يستمر هذا النزاع بين فريقين من أبناء الوطن، على قضية أساسية كقضية الوحدة والتجزئة، حتى لَبَست أو كادت، ثوباً طائفيا كريها. وليس في لُبسها هذا الثوب، تشريف للفريقين المتنازعين، وليس فيه تعضيد لإحدى الحجتين، بل هي تفتُّ في ساعد الوطنية حتى يَهون[1]، وإذا وهن ساعد الوطنية فقد وهنت قضية الوطنيين جميعاً من غير ما تفريق بين صاحب المبدأ هذا، أو صاحب المبدأ ذاك

لا نكران أن الفريق المنادي بالانفصال عن لبنان، للالتحاق بسوريا، يشكو إجحافا، فهو يقول إنه كطائفةٍ كبيرة يغذّي الخزينة اللبنانية تغذيةً كبيرة، ولا يناله من هذه الخزينة ما يقابل تلك التغذية، - هذا هو جوهر القضية - في عرفنا - وكل ما يقال غير ذلك فهو طِلاء.

إنه لقولٌ حقٌ وإنه لمطلب عدل؛ ولكن هذا الأمر يعترضه خوف الفئة القائلة باللاطائفية، الحالمة بالحكومة الديموقراطية، المتحفزة لتأليف الأحزاب السياسية أجل يعترض هذا الأمر خوف الفئة التي لا تبالي، أتولى هذا المنصب مسلم أو مسيحي أو دهري، على شرط أن يكون كفؤا نزيها وأبياً.

فإذن نحن أمام عقدة لا نخالها تُحَل، بل لا يمكن أن تُحَل بهذه المقالات التي نطالعها، وهذه المواقف المتنافرة التي يقفها كل فريق بل هي تُحَل عن طريق الاجتماعات الأخوية وعن طريق العدل وحُسن النية.

نحن على ثقة أن الحال الراهن والكيان القائم اليوم، صعبٌ تبديلهما، ولكننا نأبى أن ينطوي جناحا هذا الوطن على فريقٍ مستاء من أبنائه، ونأبى إلا أن يأخذ العدل مجراه ذاكرين دائما وأبداً أننا كنا إخوانا وسنبقى إخوانا

فإلى اجتماعات الإخوان ندعو بني أمّنا، وإلى تصافح الإخوان! وإلى تفاهم الإخوان!.

البرق، ٢٤ كانون الثاني ١٩٢٦، عدد. ٢٥٠٩، ص:١

****

الشقيقان المتعانقان

لبنان أخو سوريا أحبَّ أم كره، أحبَّتْ أم كرهتْ، أحبُّوا أم كرهوا

إلامَ نحترق ليطبخ الطاهون، ويشبع الجائعون، ويسود الخاملون؟

بماذا يستقلُّ لبنان عن سوريا؟

«ولقد شارك السوريون اللبنانيين في هذا الاستنكار، وعدُّوا هذه الظاهرة الجديدة في حياة لبنان البرلمانية، والقيود التي قُيِّدت بها سلطةُ الأمة في لبنان ما يمكن أن يبرر الأقاويل التي يتقوَّلها الناس من جعل دستور سورية صورةً طبق الأصل عن دستور لبنان.

وبدأنا نلمس في رئيسيات الصحف اللبنانية، دعوةً حارة بالعطف على سورية وضرورة مناصرتها في الدستور الأساسي الذي تطلبه حُرًّا موضوعاً، يوحي مصلحتها العامة، ليجد اللبنانيون في سورية ودستورها محقِّقا لرغباتها العامة، ما يؤمِّن لهم ما يرجون مِنْ حريةٍ ومن طمأنينة.

ونحن الذين حملنا باسم السوريين الأحرار، أعباء الدعاية للقضية الوطنية، ووقفنا جريدتنا للدفاع عن أغراضها العالية ومبادئها السامية، نرحب بهذه الفكرة؛ فكرة التقرب السوري اللبناني؛ ونرجو أن تزداد قوةً وشأناً، وأن يتعاون رجال الشعبين الكريمين، سوريين ولبنانيين، على توسيع هذه الفكرة وإخراجها إلى حيِّز الوجود، بالصورة التي يثبتُ معها للعالم، أن مصالحنا إذا اختلفت في بعض الأمور فهي ترمي في الغايات كلها، عن هدفٍ واحد، وعن قوسٍ واحد، وعن الاستقلال والحرية اللذين نسعى إليهما سعي غيرنا من أمم الأرض.

والسوريون أبداً ما استنكروا أن يتعاونوا مع اللبنانيين للوصول إلى الاستقلال والحرية، وما امتنعوا عن مدِّ أيديهم إلى إخوانهم في الجبل الأشم المنيع، تحقيقاً للغرض العالي الذي تسوقنا إليه مصلحة بلادنا الواحدة.

أمـا ونحن الآن نشـهـد هذه الحـركـة، في الرأي الـعـام اللبنانـي، وفي الصـحـف الكبـيرة، فليس يَسَعنا إلا ترديد صدى مـا تقوله الأندية السـورية، ومـا يقوله الرجـال السـوريون المـعروفون في الاسـتـعداد دائما للعمل مع اللبنـانيين في المضـي مـعـهم إلى الغاية الواحدة التي يسعى إليها الجميع وهي الاستقلال والحرية»

- العهد الجديد -[1]

هذه كلمات ثمينة نأخذها عن رصيفتنا «العهد الجديد» ونأخذ عليها العهد بالعمل في سبيل تحقيقها؛ وهي إذا استعملت لها نُفوذها الأدبي خطت بوحدة القلوب خطوةً واسعةً، تُقابلها الخطوة الواسعة التي شرعت الصحف اللبنانية تخطوها نحو الهدف الأوحد، ألا وهو السيادة القومية

إن أبلغ ما لحق بالبلاد من ضرر، هو تقسُّم أبنائها، ثم ما خالط هذا التقسم من إثارة نعرات وحكِّ حزازاتٍ. فكان أهل البلاد حطباً يطبخ عليه غيرهم، بينما هم يتآكلون؛ لقد كانت خطيئات لم ينج منها فريق هنا. وأي أهل بيتٍ واحدٍ لم يختلفوا أشد مما اختلف فيه السوريون واللبنانيون؟ وأي أهل بيت واحد لم يحدث لهم أن سالت دماء بعضهم على البعض الآخر؟ ثم ذكروا الرحم بعد أن سكن ثائرهم، فبكوا على طيشهم الغابر بقلوبهم القرحى.

لقد اقترف الجهل جناياته فينا، ولكن العقل يأبى أن يستمر الجهل في غيِّه لا سيما بعد ما مر بنا من التجارب، فكانت جميعها ويلاً على جميعنا.

وليس، في عرفنا، مَن تقع عليه تبعة ما نحن فيه غير أنفسنا؛ فمنا نشأ الذين عكّروا ليصطادوا. فطلاب الوظائف على ظهر التفتت القومي، منا. ومعفرو الوجوه على ظهر الكرامة الوطنية، منا. فنحن، نحن السبب الأولي في ما كابدنا ونكابد، وسنكابد، من مشقة ومذلة. أجل، نحن جميعنا السبب في كل ذلك. ولا نستثني أحداً. وعلينا جميعنا أن ننهض لنكفر عن الماضي، فنصل حيث فصلنا ونلأم حيث جرحنا.

لقد أخطأ الذي يزعم أن مصير سوريا غير مصير لبنان، حتى وإن بقيا على انفصالهما الإداري الداخلي. لأنهما سياسةً متحدان، واقتصاداً متحدان؛ ونقول إنهما يتحدان إدارة أيضا أفليست الإدارة العليا في يد ممثل الانتداب، يأمر على حدٍّ سواء في البلادين بما يستنه فيهما من قوانين؟

فأين هو الانفصال إذن، اللهم إلا في بضعة رجالٍ سوَّدهم الانتداب على البلادين؟ أين هو الانفصال بين لبنان وسوريا اللهم إلا في أسماء هؤلاء الرجال؟ ففي لبنان شارل أفندي دباس[٢] ورفاقه، وفي دمشق غير هؤلاء وكلهم متصلون بالمفوضية العليا التي هي مرجع الفريقين في الكبيرة والصغيرة.

إذن، فعلام هذا الخلاف بين لبنان وسوريا على الوحدة والانفصال، إلا إذا كان الحُمق عصب عيوننا، فأصبحنا لا نرى أن الوحدة واقعة مازال[٣] الرأس واحداً وأن ليس هناك من خلاف في غير أسماء الوُلاة فحسب؟

نقول ذلك حتى نكفكف من غَرْب[٤] الباكين من أجل أن البلاد غير موحدة؛ وحتى نكفكف من غرب الباكين من أجل أن البلاد موحدة أو هي صائرة إلى الوحدة؛ وما يفيد أهلُ البلاد إذا أُعلنت الوم الوحدة السورية أو إذا أعلن اليوم أن لبنان مستقل عن سوريا الى ما شاء الله؟ أفيظنون أن الوحدة تُبدِّل شيئا من وضع لبنان وسوريا الإداري؟ أفيظنون أن القائمين على كراسي الأحكام يتبدلون اليوم؟ ومَنْ هو الذي يُبدلهم؟، أهو أمير سوريا؟... أم مليكُها، أم رئيس جمهوريتها؟..

أما مُتُّم؟ أما شفتُم مَنْ مات؟..

ولكن أين هذا مما نحن فيه الآن؟ فقد أصبحنا بعد ما صرنا إليه، لا يهمنا، أتوحدت البلاد أم لم تتوحد. فنحن هنا ننشد اتحاداً قومياً علَّمتنا التجارب أن لا كرامة لنا ولا مصلحة لنا إلا به. ولقد استيقظ له أبناء البلاد بعد غفلة ونهضوا يعملون له فيجدر بنا ونحن من قضبان هذه الحزمة أن نعمل مع العاملين.

لقد سبق لنا القول ونُكرره هنا، بأن لا حياة للبلاد، إنْ في سوريا وإنْ في لبنان إذا استمر المسلمون يعملون منفردين عن المسيحيين، والمسيحيون منفردين عن المسلمين. وإذا عذرنا الجذوع العتيقة من الفريقين، فلا نستطيع أن نعذر النشء الجديد إذا هو لم ينهض لهذا الأمر وهو دعامة الحاضر ورجاء المقبل

وأول واجب على الذين يأخذون على نفسهم هذه المهمة المقدسة، أن يغسلوا القلوب من حذر عامة اللبنانيين من سوريا، ومن كره عامة السوريين للبنان؛ ومن ثم يؤسسون على قواعد صحيحة سليمة ومن بَعدُ يمشون صفاً واحداً متفاهمين غير متشاكسين

فنحن والحالة هذه نُرحب بفكرة الرصيفة الكريمة «العهد الجديد» ونطلب إليها وإلى سائر الرصيفات، أن لا يقفن عند حد في سبيل توحيد القلوب من أدرانها، فإن على القلوب المُعَوّل.

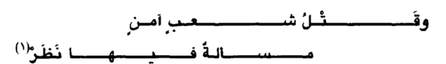
بشارة الخوري

البرق، ١٩ تشرين الأول ١٩٢٧، عدد ٢٨٩٢، ص ١

****

رابعاً : موقفه من القضية الفلسطينية

قتــل شعب آمن



قالت جريدة «بيت المقدس»[٢] إن الحدود التي يدعيها الصهيونيون هي هذه: خط يبدأ من شمالي الليطاني ويدخل فيه قسم كبير من مجراه، ويدخل فيه كذلك مقاطعات حاصبيا وبانياس والقنيطرة، ثم القسم الأكبر من اليرموك حتى المزيريب، ويلتقي بخط سايكس بيكو شرقي إربد.

لقد كان يوم أمس في لبنان، كالساعة التي تسبق العاصفة: سكوتٌ ولكنه مُخيف، وخوف ولكنه قاتل.هكذا وقف اللبنانيون عند طلب الصهيونيين الليطاني.

أهكذا شئت يا الله أن يكون لبنان ضحية الأمس وضحية اليوم؟ اخترع جمال[٣] الإجاعة، فقتل نصف لبنان، واخترع الصهيونيون البَضْع ليستنزفوا دماء البقية.

وأية بقيةٍ لهم من دماء الحياة غير الليطاني؟؟؟

زعموا يا الله، أنهم شعبك الخاص فنحن إذن شعب من؟

نحن مسلمي سوريا ولبنان ونصاراهما ودروزهما ويهودهما، إياك نعبد وإياك نستعين، .....

لم نكن يوماً من الكافرين!!!

ووعدتهم بالأرض كما زعموا، وخولتهم كذلك حق إرث الشعوب؛ ولكن الإرث يجيء بعد الموت، ونحن لا تزال فينا بقية للحياة؛ فليُمهلونا قليلا.

إذا كانوا يدّعون الإرث، فقد سبقهم الرومان، وتأخر عنهم العرب؛ فإذا كان الحق للأسبق، فما هم أصحابه. وإذا كان الحق للمتأخر، فما هم أصحابه

جميل في هذا العصر أن يحاربونا بـ «ياهو»[٤] وأن نحاربهم برب المسيح ورب محمد.

جميل أن يهبط أُولامب الإغريقيين علينا في العصر العشرين.

ليس للبنان غير البقاع[٥] وما عند القاسمية وصور سهلا.

وليس للسهل غير الليطاني نهرا.

فإذا استقل الصهيونيون بالنهر، فقد قُتل السهل؛ وإذا قُتل السهل، فقد قُتل شعبُ لبنان

ليس للبنان صناعة فيستعين بها على الحياة، وليس له تجارة غير ما ترشح به أسواق العالم رشحاً قليلاً، بأثمانه الملتهبة الكاوية. فلم يبق له إذن سوى ما تُنبته الأرض ليسد به فراغه، لا ليتّجر به ويجرّ من ورائه الأرباح.

لا يريد لبنان أن يزرع القطن للمزاحمة، وأنى له هذه النعمة، وسهله لا يزيد عن شبرين إذا قيس إلى السهول الكبيرة؟ ولكنه يطمع بأن يُبذر فيه القمح والذرة وسائر أنواع الحبوب، ليستعين بها على بعض ما يُعوزه من أوليات المعيشة، من لوازمها، من ضرورياتها.

لقد كان يستعين بشقيقته سوريا على حاجته، ولكن الصهيونيين لم يتركوا لها سهلا خصبا، ولا تربةً حنوناً. فهذه البلقاء والسلط والكرك والغور التي كانت أهراء سوريا التي لا تنفد، أصبحت في عداد مُقتنياتهم[٦] غير مبالين: عاش السوريون أم هلكوا.

والآن، وقد قضوا وطرهم من سوريا، فقد حوّلوا وجههم نحو لبنان.

عَمرَك الله، هل سمعتَ مثل دعوى الصهيونيين في الليطاني؟

نهرٌ يخرج من أرض لبنان، ويجري في أرض لبنان، ويصب في بحر لبنان ولا تجري إليه نقطةٌ من غير سماء لبنان، ولا منْ غير أرض لبنان.

ومع ذلك فالصهيونيون يُطالبون به، ويُريدون أن يَجرُّوا إليهم ماءه.

كأنَّ سهولَ صور وتلك المزارع، حول الليطاني (وقد أصبح نهر القاسمية) عليها العفاء.

كأنَّ لبنان لا يحتاج إلى الكهربائية حيث يسهل توليدُها هناك.

كأنَّ لبنان لا يحتاج إلى تقريب المسافة وتسهيل أسباب النقل

أيسرُّ الصهيونيين يا ترى، أن تبقى أرضنا مواتاً، بينما أراضيهم تضحك للحياة؟

أيسرُّهم أن نمشي في الظلمة أو على نور البترول، بينما هم يمشون على نور الكهرباء؟

أيسرهم أن نقطع المسافات وننقل المحصولات، على الحمير والبغال، بينما هم ينقلونها على القطر الكهربائية؟؟؟

كيف يريدون أن يسلبونا مياهنا وهي روح الحياة فينا، وبارقة الأمل في سماء مستقبلنا، والدعامة الوحيدة التي ترتكز عليها حياتنا الاقتصادية؟

أيُّ ذنبٍ جنيناه لنستحق هذا الحكم بالموت؟؟؟

قد يدفع العدم بالشقي إلى القتل، ولكننا لم نعرف أن يُسراً كيُسر الصهيونيين يدفع إلى القتل.

يستحي حتى الشقيُّ أن يَقتُلَ على ملأ من الناس، وهؤلاء جيراننا الصهيونيون الكرام يتعمدون قتل شعبٍ كاملٍ على مرأى العالم وسمعه، بل يتعمدونه في مؤتمر يزعمون أنه مصدر الحق والعدل.

عندما قالوا إن ويزمن[٧] وجماعته، يريدون أن يُصهْينوا كلَّ سوريا، بل أنْ يُصهينوا الشرق الأدنى بأسره قلنا إنها أحلام حالم.

قلنا ذلك، لاعتقادنا أن أهل هذه البلاد، شديدو النعرة القومية، عالمون بما تحمل الصهيونية من الخطر العظيم ليس على الإسلام والمسيحية كدين، بل عليهم جميعا كوطنيين أصحاب هذه البلاد وأبنائها.

أما الآن فقد أخذت تلك البروق تُمطر، وهذه صواعقُها تُنذر بالانقضاض علينا

أجل إن وراء الصهيونيين ملوك المال في لندن، وملوكه في واشنطن. أما نحن فوراءنا الحق، الحق الذي ادعى الحلفاء أنهم في سبيله حاربوا، الحق الذي مِنْ أجله مات نصف لبنان تجويعاً، وقُتل به نخبة أبناء سوريا شنقاً وبعادا.

لا يمكن أن تساعد انكلترا على قتل شعبٍ أمن، ولا يمكن أن تتخلى فرنسا عن شعب ألقى مقاليده إليها وجعل حظه في يديها.

هذا موقف لبنان وإنه لموقف مخيف!

إنه، بما اقتطعوا من حدوده، وبما يحاولون أن يستنزفوا من مياهه - إنه بذلك أشبه برجلٍ قُطع بعض جسمه فشوِّه، واستنزف معظم دمه فأشرف[8].

إن على الصحافة واجباً هو ما قُمنا به، وإن على اللبنانيين - مهاجرين ومقيمين - واجباً أكبر هو الذي نستصرخهم إليه!

البرق، ٣٠ تشرين الثاني ١٩٢٠، عدد . ١١٣٩، ص.١

****

في سبيل الإخاء

من لبنان إلى فلسطين

هنا ترامينا بالورد والياسمين، وهناك تراموا بالنار والحديد!.

هنا سقطنا صرعى الجمال والطِّيب، وهناك سقطوا صرعى الظلم بسيف الغريب!

هنا لم نترك وردةً في روضة، وهناك لم يتركوا دمعةً في مقْلة!.

هنا الابتسام والخيال والأحلام، وهناك البكاء والبأس والظلام! .

أما والله، لو أقامت الدول بيننا وبينهم سدَّ الإسكندر[1] لهزأت به عواطفنا، ولهزأ به إخاؤنا، ولهزأت به مروءتنا.

أي إخواننا الساقطين فداء الوطن؛ بعيوننا ما سال من دمائكم في سبيله؛ من صدورنا نقدم لكم أكفاناً!

أي إخواننا المتهالكين على تأييد النظام؛ لقد صيَّرتم عيدنا مأتما، وألبستمونا الحزن ملبسا، من قلوبنا نُعدُّ لكم أعوانا!

أي إخواننا الغرباء في بيوتهم، بنفسنا المضض الذي تُعانون، والويل الذي تكابدون!

لله درُّ بريطانيا العظمى؛ أيَّ شبك طرحت وأيَّ سمكٍ جرفت؟

جماعات من الروس من تلاميذ لنين[2]، كفاهم أن يكونوا صهيونيين ليجوز لهم الدخول إلى فلسطين ملوكاً أعزة.

كفاهم أن يكونوا كذلك ليغتصبوا البلاد وساكنيها.

كفاهم أن يكونوا كذلك ليؤلف منهم الحرس والجند وتصير إليهم الأسلحة.

تلك الأسلحة التي عززوا بها البلشفية[3]، وداسوا بها النظام، ونشروا بها الفوضى.

تلك الأسلحة التي قتلوا بها الأبرياء، أنصار النظام من أبناء البلاد.

مَنْ كان يحسب أن الرايات الحمر تخفق في فلسطين؟

مَنْ كان يحسبُ أن المناشير البلشفية تُلصقُ على جدرانها؟

من كان يحسب أننا نسمع صوت لنين وتروتزكي[٤] في كنيسة القيامة وعند المنبر الأقصى؟

من كان يظن أن عيون الإباحية الحمراء، تلحظ أغنياءنا عن قربٍ شزراً، وينبعثُ منها إليهم مثل اللهيب؟

أي خطبٍ مُداهمٍ هذا؟ بل أية هديةٍ أتحفت بها بريطانيا العظمى أصدقاءها العرب؟!

أيْ أغنياءنا الأُلى شهدوا معركة الأمس!

الألى تضاربوا بالأزهار والأحداق!

الأُلى تباروا في سبيل السبق وسبيل الجائزة!

لقد عرفنا فيكم الجواد الرقيق، وعرفنا فيكم الغيور الشريف.

هؤلاء إخواننا في فلسطين صرعى يتخبطون بدمائهم.

نساءً ورجالاً وأطفالاً قتلتهم القنابل العمياء

هذا ميدان للمروءة وأنتم أنصارها، ميدانٌ للإنسانية وأنتم خيرة أبنائها.

هنا تسابقوا يا سادتي في تخفيف الآلام! هنا تسابقوا يا سادتي في ضمد الجراح!

غداً يتبارى الصهيونيون في جمع الإعانات لمنكوبيهم، غداً تُغدق أكُفُّهم بالبلاسم لجرحاهم، فكونوا بالله عند ظنِّ المروءة بكم، إنَّ إخواننا هناك يتألمون، فكونوا بلسماً لآلامهم! ويائسون، فكونوا نجمةً في سماء آمالهم!.

البرق،٧ أيار ١٩٢١، عدد ١٢٥٥، ص ١

****

الإخلاص يملي فنكتب

المقالان اللذان نعنيهما، أحدهما، في سبيل فلسطين، كتبناه على أثر حوادث يافا والآخر مقال أمس «لا مسيحية ولا إسلامية»، كتبناه على أثر ما قام حول اللجنة الإدارية أو قل حول ميزانية المحكمة الشرعية، ولقد كان للمقالين - على ما يظهر - حظ فوق ما يستحقان فوردت علينا الكتب الثلاثة الأوّل من الجمعية الإسلامية المسيحية في فلسطين والآخران من صديقين لنا في العاصمة فننشرها[1] مع الافتخار.

✡✡✡✡

حضرة الكاتب الألمعي الأديب صاحب جريدة البرق الغراء

إن الجمعية الإسلامية في يافا قررت في جلستها المنعقدة في تاريخ ١٠ الجاري على أثر ما قرأته في جريدتكم الغراء تحت عنوان «من لبنان إلى فلسطين» أن تقدم لكم شكرها الخالص على تلك العواطف الشريفة التي دفعتكم إلى الانتصار لإخوانكم الوطنيين في فلسطين فضمدتم ببلسمها جراحهم وآسيتموهم في مصابهم.

كنا نظن أن الحواجز السياسية التي فرقتنا قد تحول دون تضامننا الجنسي والديني فإذا بهذه الكارثة التي حلت علينا قد أخلفت ذلك الظن وبرهنت لنا أن اللبناني والسوري والفلسطينى يتألمون معاً إذا تألم واحدهم، وأن ما يصيب الفرد منهم يصيب المجموع وتلك تعزية كبرى تحملنا على متابعة الجهاد رجاء أن تبقى بلادنا لنا مهما لعبت بها أيدي السياسة من الأدوار. إن فلسطين في جهادها هذا الشريف تحتاج إلى عطف وأقلام أمثالكم الكتاب المبرزين ليفهم المسلمون والمسيحيون في العالم أجمع أن

قضيتنا قضيتهم فعليهم أن يساعدوا على الاحتفاظ بوديعتها المقدسة التي أقامتنا الطبيعة حراساً عليها.

يافا في ١١ أيار سنة ١٩٢١

عمر البيطار

البرق، ٢٠ أيار ١٩٢١، عدد: ١٢٦٥، ص.١

أخي بشارة،

إن النابغ الذي ينظر إلى البعيد الآتي على جناحي الليل والنهار- يتألم من موقفنا وحوادثه أكثر من أنصاف الرجال ومن العاديين.

وإن الحساس الحكيم الكبير الوجدانية الذي يحترم ذاتيته وتاريخه وذاتية أمته وتاريخها - يشعر أكثر من المتصلب الفكر والعاطفة الذي يدرك إدراكاً محدوداً ويتطلب منفعة مؤقتة.

تلك حقيقة لا ريب فيها ولا غبار عليها. وإن حقيقة إدراك النابغ الحساس تمثلت بمقالتك التي صدّرت بها عدد الأربعاء بعنوان «لا مسيحية ولا إسلامية» وإنه يسرني أن أعلنك شعوري بعد مطالعتها تكراراً.

أتعلم يا أخي طرب الألوف الذي يجتمعون في يوم عيد بحفلة راقصة ينشدون ويشربون، ويرقصون، ويتغازلون.

إن سروري العقلي إثر مطالعتي مقالتك كان فوق طرب الجماعة تلك بعددها الكبير في يوم عيدها. الجماعة الراقصة على أنغام البيانو والمتبادلة أقداح الخمرة وعبارات الحب.

نعم كان طربي العقلي ما ذكرت والطرب العقلي الذي يشعر به الحساس في دماغه يفوق كل طرب يأتيه من الخارج.

وما كنت لأطرب وأندفع لتحيتك لولا أني شعرت بالإخلاص ينبثق من كل سطر من سطور مقالك والحكمة تسيل في كل عبارة من عباراتك.

حسبك أيها المنشئ الكريم فضلاً وتعزية وسروراً إذا لم يؤمن المحيط بما تكتب، حسبك أن تتطلع إلى المستقبل الآتي على كهربائية المدنية العلمية الحامل إلى العالم آيات وحدة العالم بالعلم، الوحدة التي هي فوق كل وحدة.

في ذلك المستقبل - وما ذلك المستقبل ببعيد - تعاد كلماتك وموشحاتك الفعلية المنظومة في «برقك» على مسمع الأبناء والأحفاد فيعلم جيل العلم والمحبة والآلفة أنك كنت خير دليل وأنك كنت ابن العلم البار به. أخلصت العقل البشرى التائه في فيافي ومجاهل المذاهب والطوائف في هذا القطر التاعس بسكانه لا بطبيعته ولا بجغرافيته

إذن تقبل يا أخي كلمتي هذه التي يرددها معي كل فرد من أبناء عشيرة الحرية والأدب والفكر. أولئك الذين تنقت أدمغتهم من مكروبات القديم المفرق العقيم. واسلم في يدك مشعل السلام.

لبيب الرياشي[٢]

البرق، ٢٠ أيار، عدد ١٢٦٥، ص ١

حضرة الصحافي اللبناني،

وردت في مقالك - لا مسيحية ولا إسلامية - هذه العبارة: ماذا يقول المهاجرون إن رأوا إخواننا يتهددوننا بتغيير لون الأرض إذا قلنا «بفصل الدين عن السياسة» واستدركت للأمر فقلت في الختام «نحمد الله على أن الأرض لا تزال ثابتة». كأني بك رجعت للتاريخ وأعادت إليك الذاكرة ما حل بـ (غليلي) لما جاهر أن الشمس ثابتة والأرض متحركة فجرحت هذه الحقيقة العلمية عواطف القابضين على زمام الأحكام ورقاب العباد فحكم عليه - وجارح الدين كالقاتل[٣] المتعمد - بموجب المادة ١٧ .

لتلك الأيام الخوالي عذرها إذا اضطهدت من يأتي ببدعة جديدة، - ولو راهنة لأنه إلى اليوم وبعد اليوم لا يظهر اختراع ينفع الإنسانية ويكلل بالنجاح إلا بعد تضحية بشرية.

قلت – وقولك هذا يؤمن عليه السواد الأعظم– «إننا نريد أن نجعل لبنان حكومة على شكل الحكومات الأوروبية الراقية» فإذا قامت قيامة رومية على «غليلي» في ذلك الزمان فإن «غليلي» قد ثار لنفسه من رومية عام ١٨٧٠ والتاريخ يعيد نفسه.

ولكن سفراء الولايات المتحدة واليابان والصين (أجل سفير ابن السماء أيضاً) قد رفعوا احتجاجاً عنيفاً لجمعية عصبة الأمم يظهرون به استياءهم من تخصيصك الحكومات الأوربية بفصل الدين عن السياسة وحصر هذه المزية بها فإذا نجوت هنا فلا تنجو من الملام هناك.

غليلي(٤)

البرق، ٢٠ أيار ١٩٢١، عدد: ١٢٦٥ – ص:١

****

في سبيل فلسطين

قرأنا ثم شهدنا ما قام به فريق من أبناء هذا البلد للهلال الأحمر يريدون به مساعدة جرحى الأتراك. وإذا بالأيدي التي لم تنبسط من قبل قد انبسطت بالعشرات والمئات وإذا بما جمعوه من أموال المتبرعين مبلغ له شأن في تاريخ إحسان بيروت أو بيروت المحسنة - هذا إذا صحت التسمية

في سبيل جرحى الأتراك سالت الأيدي بالنضار، ألا سلمت تلك الأيدي - إن الإحسان جميل كيفما زرع وأينما زرع.

وحدث أمس في الجانب الشرقي من هذه المدينة حادث هو من نوع «الهلال الأحمر»، وكان الاجتماع في أحد البيوت الكبيرة، فقال قائل: لماذا - ونحن تربطنا باليونان أسباب - لا ننهض للصليب الأحمر نهضة الناهضين للهلال الأحمر. قال: إذا كانت الإنسانية رائد إخواننا فالإنسانية لا تعرف الحصر، وإذا كانت الرابطة الدينية فقد ربطتنا نفس الرابطة بجرحى اليونان.

وما هو إلا اليوم أو غداً حتى يدار بكيس الإحسان لمساعدة الجرحى من اليونان.

وأمس نشرنا ونشرت الجرائد سطوراً، بل دموعاً وشعوراً.

وأمس نشرنا ونشرت الجرائد صورة للأطفال فقدوا آباءهم ولنساء فقدن رجالهن وللشبان تنزف جراحهم بالصديد. وأمس نشرنا كلمة لرئيس الجمعية الإسلامية المسيحية في يافا يقول فيها «ان قد يُتِّم في فلسطين كثير من الأطفال المسلمين النصارى، وترمل كثير من نساء المسلمين والنصارى، وإن جميعهم يئنون تحت الم

الجوع والفقر، ويؤملون من إخوانهم» فى الدين مد يد المعونة لهم بإغاثتهم في قوتهم الضروري اليومي وتخفيف بؤسهم وويلاتهم.

قرأنا ذلك أمس ولبثنا جموداً، بل انصرفنا إلى الأغراب نوسعهم مرحمة وجوداً، لله أبونا ما أبعد مرمانا وأسرع جدوانا، وأعطفنا على ما سوانا

يقولون إن فلسطين قطعة من سوريا وإن أبناءها هم لنا ومنا. وأن نصيبهم نصيبنا شراً كان ذلك النصيب أم خيراً.

وهذه فلسطين مسربلة بالسواد فأية يد مدت للعزاء. وهذه فلسطين مثخنة بالجراح فأية يد مدت للضماد.

بل هي تستغيث علناً ولا نخجل من السكوت. بلى نهضنا لجرحى الأتراك ونهضنا لجرحى اليونان[1].

أي إخواننا وأخواتنا الساقطين تحت فأس اليتم والثكل لا تدعوا لليأس سبيلاً إلى قلوبكم.

إن في البلاد رجالاً – وإن قلائل – لهم مروءتهم ولهم وطنيتهم ولهم إنسانيتهم.

إن في البلاد رجالاً يعلمون أن أولى الناس بالمعروف هم الأقربون وأنتم هم. هؤلاء هم الشفاء!......

البرق، ١ حزيران ١٩٢١، عدد: ١٢٧٥، ص:١

****

واجب اللبنانيين المقدس
إزاء نكبة إخوانهم في فلسطين

أيُّ شعب عربي يُنكَب، فقد نُكب العرب أجمع، ونُكب لبنان العربي في الطليعة. عاصفة العاطفة الوطنية تقتلع حواجز السياسة السخيفة، وتمحو بيدها القادرة، ألوان الخارطة الكذابة.

إن دماء الفلسطينيين دماؤنا، وأعراضهم أعراضنا، ومقادسهم مقادسنا

إن اللبنانيين بلا استثناء، يُنكرون بشدة أن يُنحر إخوانهم على أبواب معابدهم بيد غرباء؛ يريد الاستعمار الغاشم أن يُمَلِّكهم البلاد بالسيف والمدفع.[1]

إذا حالت الحواجز بيننا وبين إخواننا، فلن تحول بينهم وبين دموعنا تَغسلُ جراحهم، وأموالنا تَجبُر انكسارهم.

إن على رؤساء الأديان المسيحيين خاصة، واجباً عظيما، في النكبة الحاضرة من حيث إننا جزيرة صغيرة في الأوقيانوس الشرقي.

اللهم بارك ببيروت ثغر الشرق الجميل! فقد أحسنت القيام بواجبها أمس.

إن مصافحة الراية الصليبية الراية النبوية، يجب أن لا ينسى أحد حلاوتها وإلا كان خائناً لئيما مُريبا.

نطلب من المجلس النيابي باسم اللبنانيين كافة، أن يرفع احتجاجه إلى عصبة الأمم على فظائع الاستعمار الصهيوني في فلسطين.

ونطلب من الحكومة اللبنانية أن تقطع اعتماداً مالياً كبيراً لمساعدة إخواننا، كما تفعل كل حكومة شريفةٍ حساسة.

ونلتمس من فخامة رئيس الجمهورية العدول عن الاحتفال بيوم أول أيلول[2] حداداً على شهدائنا في فلسطين.

إن الصوت الذي يجب أن يدوي في سماء لبنان هو – لبيك فلسطين، إننا هنا!

ما ترانا نقول بعد هذه المقدمة، وقد أودعنا فيها شعورنا، ورأينا في نكبة فلسطين الكبرى؟ بقي أن ننهض للقيام بما يفرضه الواجب علينا، أما الاحتجاج على فظائع الصهيونيين فقد تم. وكذلك قد فزنا بالأمنية الكبرى في تظاهرة أمس، إذ شعر كل من أظلته سماء لبنان أنه لكل عربي شرقي أخ رحيم، وإذا كان الإخوان يعرفون عند الشدائد، فلم يعد يعوز إخواننا المسلمين برهان على أن النصارى في الشرق العربي، هم أولئك الإخوان الخُلَّص الذين يفدونهم بأرواحهم، ويحلّونهم من نفوسهم المحلَّ الأعلى.

أما الآن فإن واجبنا الأول هو أن نقوم بجمع الأموال لأولئك الذين ليس لهم ناصر سوانا، فيما أن لليهود في انكلترا نفسها، بل فى أوروبا جميعها، أنصاراً أقوياء بالمال والنفوذ، سيهزون بهما حكومات العالم، في سبيل قضيتهم الأثيمة، التي ساعدتهم عليها نية الاستعمار الخبيثة التي هي إضعاف العرب الوطنيين أنْ يقيموا لهم عنصرا عدوّاً في بلادهم يؤيدونه بما لهم من سلطان.

أجل إن واجبنا الأول بل واجبنا الأقدس، هو أن نسارع إلى جمع الأموال، لنضمد بها الجراح المتفجرة، ونواسي بها الأرامل، والأيتام والبائسين. وإننا نرى أن يسبق هذا الأمر سماحة رئيس مجلس الأمة اللبنانية الذي يعتبر عمله ترجمان شعورها، فيدعو إلى اجتماع عاجل يؤلف منه لجنة لجمع الاكتتابات، مؤلفة من كبراء البلاد على اختلاف طوائفهم.

هذا ما نراه من أقدس واجباتنا الآن. وعند الشدائد تعرف الإخوان.

البرق، ١٩٢٩، عدد: ٣٢٦٣، ص: ١

****

لبنان ومأساة فلسطين

فخامة رئيس الجمهورية يقتصر في «أول أيلول» على اقتبال التهاني مراعاة لشعائر اللبنانيين وخاصة المسلمين بنكبة فلسطين.

العدول عن إجراء الألعاب النارية وهي من مزايا الأعراس في حين أن البلاد اللبنانية بجوامعها وكنائسها في ماتم البراق.

رئيس مجلس الأمة اللبنانية الشيخ محمد الجسر يبرق إلى المجلس الإسلامي الأعلى معرباً عن شعور لبنان بنكبة شقيقته فلسطين الشهيدة محتجاً على مطامع الصهيونيين باعظم الآثار الدينية.

نائبا بيروت محمد أفندى الفاخورى والدكتور حليم ندورة يوقعان تفويضا من جميع النواب للحكومة بإرسال مساعدة مالية مستعجلة لمنكوبي فلسطين الوطنيين الذين ليس لهم سوى عطف إخوانهم في الشرق العربي.

البطريركية المارونية توعز إلى النائب البطريركي في فلسطين بان يبذل كل المساعدات لضحايا الاستعمار الصهيوني من إخواننا.

سيادة الحبر الوطني المطران مبارك يختصر جولته في الشوف ليجيء إلى بيروت فيبحث مع إخوانه رؤساء الطوائف الأخرى ما يجب اتخاذه لمساعدة الضحايا.

جعل اللبنانيون شعارهم «إن كل من لا يحس معنا بنكبة فلسطين ليس منا - وليرحل - بلا أسف - عنا».

إجماع اللبنانيين عامة والبيروتيين خاصة على شكر فرنسا لموقفها الحكيم الحليم.

لم نستغرب على الإطلاق هذا الشعور اللبناني الشريف إزاء نكبة الشقيقة الشهيدة. هذا الشعور الذى عم اللبنانيين شعباً وحكومة حتى إن فخامة رئيس الجمهورية[١] رأى - كما اتصل بنا - أن يقتصر على اقتبال التهاني في قصره العامر وقد أضربت الحكومة صفحاً عن الألعاب النارية التي اعتادت إجراءها أمام باحة السراي، وإظهارها بالألوان الملونة حتى لا تجرح مظاهر البهجة أمة اتحدت قلباً واحداً ولساناً واحداً كما دلت عليه تظاهرة .[٢] العظمى، تلك التظاهرة التى مشت فيها بيروت برؤساء أديانها، وشيوخها وشبانها، وأعلامها وصلبانها.

ولا غرو إذا أدمى الخطب قلب لبنان، وقد نكب مسلموه نكبة كبيرة بمئات من إخوانهم، ويحاولون أن ينكبوهم بأثر من أقدس آثارهم، وكيف نُشعر المسلمين منا أننا لهم إخوان صدق، وكيف نطلب إليهم إذا نحن نكبنا غداً - لا أذن الله - بأن يكونوا لنا معواناً في نكبتنا. إذا نحن رقصنا في مآتمهم وأرسلنا ابتساماتنا خلال مدامعهم.

ولهذا فنحن نحمد لفخامة رئيس جمهوريتنا وحكومتنا الموقرة هذه العاطفة النبيلة الحكيمة، وأي غرابة في الأمر وهذه الدول المتحاربة في الأمس، لو نزل بإحداها بعض ما نزل بفلسطين لأبطلت أعراسها ولسارعت إلى ضمد الجراح ومواساة المنكوبين وهو أقل واجبات الإنسانية على أبنائها.

أما سماحة رئيس المجلس[٣] فقد أحسن صنعاً بإبراقه إلى المجلس الإسلامي الأعلى معزياً، فهو إذا كان أوقف المجلس حداداً على المغفور له الأب كاتان اليسوعي لبراعة أدبه وكريم عنصره أفلا يكون من واجبه أن يبرق اليوم إلى المجلس الأعلى في فلسطين معزياً باستشهاد مئات الوطنيين وأن يوقف المجلس في أول التئامه حداداً عليهم، واحتجاجاً على ناكبيهم.

وإننا لنحني الرأس مع اللبنانيين كافة إجلالاً لذلك القلب الفياض بالحنان البشري، النابض أبداً بالعاطفة الوطنية الكبرى أردنا به ذلك الشيخ الوقور البطريرك اللبناني[٤] الذي سحقت [مأساة][٥] إخواننا في فلسطين قلبه، وحملته فوق ما يحمله من مصائب اللبنانيين مصيبة جديدة.

وغير غريب أن نرى سيادة الحبر الوطني الناهض المطران مبارك يقبل سريعاً إلى بيروت ليترجم عن عواطف غبطته وعواطف الموارنة خاصة، وهو السبّاق إلى كل عمل وطني صريح، ماشياً على روغان الثعالب، مهتدياً بنور ما مر به من التجارب.

ولا فضل للنواب المسلمين خاصة إذا هم شعروا بهذه النكبة فنهضوا لتخفيف وطأتها، على حساب الأمة اللبنانية التي تؤيدهم بكل ما فيها من شعور صادق.

وأخيراً فإنه لا يليق بنا أن نعق موقف الفرنساويين الشريف في نكبتنا هذه فلقد أحاطوا تظاهراتنا بعطف وذوق فرنساويين نرجو أن يتحلى بهما ولاة أمرنا، ويفعل الله ما يشاء.

بشارة الخوري

البرق، ٢ أيلول ١٩٢٩، عدد ٣٢٦٤، ص ١

****

أهذا هو العدل الذي انتظرناه؟

سكوت الدول الأوروبية عن المظالم في فلسطين جناية على المدنية الأوروبية

حوادث فلسطين تبطل حجة نصارى المشرق على مسلميه

إن الدول الغربية أو بالأحرى الدول المسيحية، لترتكب إثماً عظيماً يبقى على التاريخ أثره إذا هي سكتت عن المظالم التي تقع على عرب فلسطين. هذه المظالم التي لم يرو التاريخ لها مثيلاً، وتضاءل أمامها جنون نيرون[1] وفظائع أتيلا[2]

وإن الدول المسيحية الأوروبية بسكوتها، عن هذه المآثم التي تقترف على ضياء القرن العشرين لتطمس بيوم واحد جميع ما حملته السنون عن المدنية الغربية، بل جميع ما تناقلته المواقع الدامية بين الغرب والشرق من مزاعم التنوير والتعليم والتساهل، إلى آخر هذه البضائع التي ادعى الغرب أنه يحملها إلى الشرق، حتى أزيز الرصاص وصلصلة الحديد.

ولقد كانت هذه حجتنا نحن نصارى المشرق، الحجة التي قاتلنا عليها إخواننا في الوطنية، وهي جامعٌ شامل للمصلحة المادية والكرامة الذاتية، أجل لقد قاتلنا إخواننا بحجة أننا نريد أن نفسح للتمدن الغربي والتساهل الغربي القائمين على روح التعاليم المسيحية الرحيمة فتمتزجا قليلاً قليلاً بالعصبية الشرقية، وتجدا منفذاً إلى مصافحة تعاليم الإسلام العالية البريئة من كل ما وسمها بها أعداؤها أو بالأحرى جاهلوها.

أجل لقد كانت هذه حجتنا طوال السنين التي مرت؛ وكان يزيدنا تمسكاً بها تقهقر المسلمين، تحت ضغط السلاطين. وإننا ما برحنا متمسكين بها حتى الأمس

القريب (١٩١٨) برغم ما لمسناه من نهضة الشبيبة الإسلامية يقين أنها ما زالت رَخصة الساعد لا تقوى على دفع الرجعية الغاشمة وهي الأكثرية الساحقة في طول البلاد وعرضها

ومعاذ الله والوطنية أن يكون جنوحها إلى طلب المساعدة الغربية يومئذٍ لنعرةٍ أو لنقمة فنحن إذن طلبناها لتطلع علينا - مسلمين ونصارى - أنوار العلم الصحيح، وتغرس فينا حب الحرية، وتهدينا إلى محجة الوطنية، وتأتينا بالأدلة والأمثلة على العدل الذي زعموا وزعمنا معهم، أنه مفقود من البلاد. ورحنا نقول بشيء من التيه، لإخواننا المسلمين في جميع البلاد العربية: انتظروا قليلاً فتروا صدق ما كنا عليه! فانتظروا وانتظرنا، فإذا طليعة هذه العدالة ما نشهده في فلسطين من إعدام شعبٍ كامل بمساجده وكنائسه وتاريخه، إعداماً لو فكرت تركيا في بعضه، لاضطربت أوروبا من أقصاها إلى أقصاها، وماجت أميركا من أقصاها إلى أقصاها، ورفعت عقيرتها بالويل والثبور، وعظائم الأمور، ولكن هي انكلترا التي تفعل، وهي جمعية الأمم التي تشهد، فواخيبتاه. ثم واخيبتاه.

وبعد فإنهم يقولون:بلا خجل: إنهم أبطلوا تجارة الرقيق، يقولون ذلك بألسنتهم وأقلامهم، في حين أنهم مجِدّون فى استرقاق البشر واستعبادهم وإيلامهم وحسبك بهذه القسوة التى تجري في مهد المسيحية، حسبك بما يجري في سجون القدس ويافا وغيرهما من ضروب التعذيب، حتى إن أحد أفاضل القوم (مدحت الهباب) سُجن لأنه رفض أن يكون عبداً، ورُفِس بجزمة أحد الجنود فهلك أو كاد.

لقد أخطأت أوروبا إلى نفسها بسكوتها عن هذه المناكر، وهى إذا استمرت في سكوتها، فإنها تبطل حجج نصارى الشرق التي جادلوا عليها إخوانهم المسلمين، من جهة عدل أوروبا وعلمها وتساهلها.

فإذا كانت فرنسا تضطر إلى السكوت بسبب جوارها، فعلام تسكت إيطاليا، وعلام يسكت الفاتيكان؟ بل علام تسكت سائر الأمم المسيحية في أوروبا وأميركا عن هذه المظالم التي تجري بين مسامعهم وأبصارهم؟

إنها ليست خسارة قطعةٍ من الأرض أو قبضةٍ من البشر، ولكنها خسارة أمل الأجيال، وحجة الأجيال اللذين تسلح بهما نصارى المشرق في انتظار العدل والعلم والنور.

فأين هي في فلسطين؟!! .

بشارة الخوري

البرق، ٢٩ تشرين الثاني ١٩٢٩، عدد ٣٢٠٢، ص ١

****

هوامش الباب الثاني

مقالات سياسية

أولاً: العهد العثماني

هذا الشعب ١٠٣

١ - تركيا الفتاة، جمعية ألفها عدد من الضباط الأتراك لمقاومة استبداد السلطان عبدالحميد الثاني ، انبثق عنها حزب الاتحاد والترقي، بدأت جمعية عثمانية وانتهت جمعية تركية صرفة تهدف إلى «تتريك» الرعايا العثمانيين مثل العرب وغيرهم ودمجهم في البوتقة التركية، من أهم رجالاتها أنور باشا ومصطفى باشا (أتاتورك) ونيازي باشا وجمال باشا السفاح وغيرهم

لبنـــان ١٠٥

١ - هذا البيت منقولٌ مُعَدلاً من قول المتنبي، من قصيدة يهجو فيها كافوراً، ومطلع القصيدة.

ألا كلُّ ماشية الخيزلى
فدا كلِّ ماشية الهَيْدبى

والبيت المنقول المعدَّل:

وماذا بمِصر من المُضحكات
ولكنه ضحك كالبُكا

شرح العكبري لديوان المتنبي، جـ١/ص ٣٦و ٤٣.

٢ - بيت الدين، بلدة في محافظة جبل لبنان، وهي مركز قضاء الشوف، وهي العاصمة لحكومة جبل لبنان وكانت عاصمة الأمراء الشهابيين، بها قصر بيت الدين الشهير.

٣ - يوسف فرنكو، متصرف جبل لبنان، سبقت ترجمته.

٤ - الغزيريون، أبناء بلدة غزير، مَصيف مُطلٌ على مدينة جونية.

هذه الفوضى ١٠٨

١ - المنية: بلدة ساحلية تقع الى الشمال من طرابلس.

٢ - الولايات.

٣ - هذا البيت للمتنبي، من قصيدة يمدح فيها سيف الدولة، مطلعها:

لكُلِّ امرئٍ من دهره ما تعوَّدا
وعادةُ سيف الدولة الطَّعنُ في العِدا

ديوانه بشرح العكبري - ج١/ ص٢٨١ و ٢٨٨.

صيحة في واد ١١٠

١ - العبارة لعبدالرحمن الكواكبي (١٨٤٩ - ١٩٠٢) رحالة من الكتاب الادباء ومن رجال الإصلاح الإسلامي وكبار رواد النهضة الحديثة، ولد وتعلم في حلب، وأنشأ فيها جريدة «الشهباء» فاقفلتها الحكومة، وجريدة «الاعتدال» فعطلت. أسندت إليه مناصب عديدة، سعى به أعداء الإصلاح فسجن، ورحل إلى مصر واستقر في القاهرة إلى أن توفي، له من الكتب «أم القرى» و«طبائع الاستبداد».

٢ - الآتي: سيل الجداول والأودية ياتي من بعيد.

شـــيء عــن لبنــان ١١٢

١ - المزعوم: بمعنى المرؤوس.

٢ - الشنشنة: العادة الغالبة والسلوك المعتاد.

٣ - واصا باشا (١٨٨٣-١٨٩٢) المتصرف الرابع في جبل لبنان، خلف رستم باشا، تميز عهده بهجرة خطرة لقسم من اللبنانيين لانحاء الدنيا، شق في عهده عدد من الطرق الرئيسية، توفي قبل انتهاء مدة ولايته ودفن في الحازمية.

٤ - يوسف فرنكو باشا، المتصرف السابع لجبل لبنان، سبقت ترجمته

٥ - مظفر باشا المتصرف السادس لجبل لبنان (١٩٠٢ - ١٩٠٧) بولندي الأصل، لم يتحقق في عهده اي إصلاح عرف عهده بالفوضى وتسلط أسرته.

٦ - الصواب: الجوّالة، وقد استخدمها الأخطل بالسياق العامي، كالكثير من الفاظه وتعابيره. والجوالي هنا يقصد بها جمع الجالية.

٧ - الفائل، هنا، بمعنى الفاسد. وقد استند الى «الفال» الذي هو في الأصل التيمُّن بالشيء الحسن، لكنه يستعمل لدى العامة في ما هو مكروه.

٨ - إبراهيم بن ميخائيل المنذر (١٨٧٥-١٩٥٠)

- أديب لغوي من أعضاء المجمع العلمي العربي، ولد في قرية المحيدثة، اشتغل بتدريس العربية، درس الحقوق وتولى رئاسة بعض المحاكم، انتخب نائباً عن بيروت في مجلس النواب اللبناني ١٩٢٢، وظل ٢٠ سنة، عمل في الصحافة، وكان من المناضلين في سبيل العروبة له ديوان شعر وعدة مؤلفات، توفي في بيروت.

وطـن ضائـــع ١٢٤

١ - جبل في سلسلة جبال لبنان الغربية يشرف على بسكنتا وزحلة، يرتفع ٢٦٢٨ متراً عن سطح البحر، له شكل مثلث.

٢ - لعله يقصد لبنان، إذ إنه يذكره في بعض مقالاته باسم «الشيخ لبنان».

٣ - في الأصل حالت ولعلها خطا مطبعي.

٤ - بقي جبل لبنان محروماً من رسو السفن التجارية والشراعية في موانئه وشواطئه حتى عام ١٩١٢، حيث وافقت الدولة العثمانية في بداية ولاية المتصرف أوهانس باشا قيومجيان على رسو البواخر في ميناء جونية. وأضاف الصدر الأعظم كامل باشا ميناء النبي يونس في ساحل قضاء الشوف ليحقق توازناً مصلحياً بين فرنسا وبريطانيا

٥ - الدول الحامية هي الدول الأوروبية الست التي وقعت اتفاقية امتيازات جبل لبنان مع الدولة العثمانية وهذه الدول هي: فرنسا ، بريطانيا، روسيا، النمسا، بروسيا، ايطاليا.

٦ - متصرف جبل لبنان آنذاك هو يوسف فرنكو باشا الذي تولى المتصرفية من ١٩٠٧-١٩١٢.

٧ - مجلس إدارة جبل لبنان هو مجلس منتخب يساعد الحاكم (المتصرف) في فرض الضرائب والإشراف على إنفاقها.

٨ - وردت في الأصل المتوافر لدينا (يصرح) وعدلناها إلى (يطرح) فهي أقرب إلى السياق.

٩ - يقصد به الكاتب ٦ أيلول من عام ١٨٦٤م ، حيث تمت بعض التعديلات على نظام إدارة متصرفية جبل لبنان، كتمديد ولاية المتصرف إلى ٥ سنوات بدلاً من ٣ سنوات، وإمكانية تجديد مدة الولاية لأكثر من مرة وغيرها من التعديلات الجزئية انظر: تاريخ لبنان منذ أقدم العصور التاريخية إلى عصرنا الحاضر، فيليب حتي، دار الثقافة ، بيروت، د.ت، ص ٥٣٧.

هذا الجبل ١٢٧

١ - هذا البيت لنصر بن سيار (٦٦٦ - ٧٤٧م) والي خراسان للأمويين ، ورد ضمن أبيات أخرى أرسلها إلى مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية يحذره فيها من الوضع في خراسان، وورد البيت في ترجمة نصر بن سيار «الأعلام للزركلي» على هذا النحو:

أرى خلل الرماد وميض جمر
ويوشك أن يكون له ضرام

دمعة على طلل ١٣٠

١ - جزء من مطلع قصيدة للمتنبي يمدح فيها سيف الدولة، وهو

وفاؤكما كالرُبع أشجاهُ طاسِمُه
بأن تُسعِدا والدمعُ أشفاه ساجِمُهْ

ديوان المتنبي بشرح البرقوقي جـ ٤/ ٤٣.

٢ - كثيراً ما يستعير الأخطل أبياتاً أو شطوراً أو عبارات من المتنبي. وها هو يستعيد عجز بيت له من القصيدة نفسها:

تَليتُ بلى الأطلال إن لم اقف بها
وقوف شحيحٍ ضاع في الترب خاتمُهْ

(نفسه/ص٤٦)

٣ - هضه: كسره ودقه. فهو مهضوض.

٤ - الأُكرة. الحفرة في الأرض يجتمع فيها الماء..
٥ - المُهزة: الدُفعة، وقد أهمل هذا الجذر كل من الصحاح والجوهري، وهي في تاج العروس (الكويت) [مهز].
٦ - البيت لأبي الطيب المتنبي، من داليته الشهيرة، في مدح سيف الدولة:

لكلّ امرئٍ من دهره ما تعوّدا

(ديوانه بشرح البرقوقي، جـ١/ ص ٣ و ١٠).

رجال الغد ١٣٣

١ - المِعَى: المصير، واحد المصران [مذكر وقد يؤنث] جمعه أمعاء (المعجم الوسيط ج٢، مرجع سابق، ص١٧٨)
٢ - هو البطريرك الياس الحويك (١٨٤٣ - ١٩٣١) صار بطريركاً للموارنة عام ١٨٩٩.

فتاة الدستور لسنة ١٩١٠ ١٣٥

١ - البيت منظور فيه إلى بيت المتنبي من قصيدة «واحر قلباه» التي ألقاها أمام سيف الدولة، قبل أن يغادر حلب إلى كافور الإخشيدي في مصر:

أعيذها نظرات منك صادقة
أن تحسب الشحم في من شحمه ورم

ومطلع القصيدة:

واحر قلباه ممن قلبه شبم
ومن بجسمي وحالي عنده سقم

ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح البرقوقي، مجلد ٢، ص: ٣٤٢

٢ - في الأصل «فهذا» ويبدو أنها مصحفة.

شوارد ١٣٩

١ - يقصد بشيخ الاتيني السلطان عبدالحميد الثاني، و«الاتيني» قصر في سلانيك نفي إليه بعد خلعه من الحكم عام ١٩٠٩.
٢ - جبل طارق: المكان الذي نفي إليه ملك البرتغال عمانوئيل، وهو مستعمرة بريطانية صغيرة في جنوبي اسبانيا ولا يزال.
٣ - لقب تعظيم واحترام تركي بمعنى صاحبتي الحشمة.
٤ - مدينة في شمالي اليونان حاليا وكانت من أملاك الدولة العثمانية
٥ - هو محمد رشاد، الملقب بمحمد الخامس، (١٨٤٤ - ١٩١٨) استخدمه حزب تركيا الفتاة لتنفيذ أهدافه، صار سلطانا بعد عبدالحميد الثاني وحكم من (١٩٠٩ - ١٩١٨) وشهدت فترة حكمه الحرب العالمية الأولى وهزيمة السلطنة العثمانية

٦ - جورج الخامس ملك بريطانيا وامبراطور الهند آنذاك من ١٩١٠-١٩٣٦.

٧ - إدوارد السابع (١٨٤١ - ١٩١٠) خلف الملكة فكتوريا عام ١٩٠١

٨ - إشارة الى انتساب عبدالحميد للحركة الماسونية العالمية ودعمه لها.

٩ - مدينة لندن (العاصمة البريطانية).

١٠ - كلمة غير واضحة في الأصل.

١١ - نابليون بونابرت (١٧٦٩ - ١٨٢١) امبراطور فرنسا (١٨٠٤ - ١٨١٥) قاد حملة على مصر ١٧٩٨

١٢ - مظفر الدين شاه (١٨٥٤ - ١٩٠٧) الملك الخامس من سلالة قاجار في إيران ١٨٩٦، أقر النظام الدستوري ١٩٠٧.

١٣ - عبدالعزيز بن الحسن (١٨٨١ - ١٩٤٤) سلطان المغرب خلفاً لأبيه ١٨٩٤، قوي في عهده النفوذ الفرنسي. خلع ١٩٠٨. توفي في طنجة.

١٤ - ماري دي مونتيجو أوجيني (١٨٢٦-١٩٢٠)

- نبيلة اسبانية وامبراطورة فرنسية (١٨٥٣-١٨٧٠) بوصفها زوجة نابليون الثالث، أدت دوراً نشطاً في الحياة السياسية الفرنسية، وعرفت بتفانيها في الدفاع عن عقيدتها الكاثوليكية

- اشتركت في حفل افتتاح قناة السويس بمصر عام ١٨٦٩، وفي عام ١٨٧٠ لجأت هي وأسرتها إلى انجلترا بعد الهزيمة التي مني بها الفرنسيون في الحرب الفرنسية البروسية والتي أدت إلى سقوط الامبراطورية الفرنسية الثانية

- وبعد وفاة زوجها عام ١٨٧٣، مثلت دوراً رئيسياً في توجيه سياسة الأسرة النابليونية في المنفى

يا وطناً لم يغب عن الفكر ١٤٣

١ - لبنان الرسمية يعني بها جريدة «لبنان» التي أسسها داود باشا أول متصرفي جبل لبنان عام ١٨٦٧ في بيت الدين لتكون الجريدة الناطقة بلسان المتصرفية، ولذلك وصفها الكاتب بالرسمية

٢ - الرشوة.

٣ - المتصرف آنذاك هو يوسف فرنكو باشا.

٤ - هو البطريرك الياس الحويك.

٥ - هو الأمير شكيب أرسلان (١٨٦٩ - ١٩٤٦).

٦ - طَرّاحة: فراش مربع او مستطيل يُجلس عليه (عامية)، المنجد، مصدر سابق، ص: ٤٦٣.

٧ - إيماءة من الأخطل إلى التوقيعات، وهي عبارات موجزة بليغة تعوّد ملوك الفرس وولاتهم أن يوقعوا بها على تظلمات الأفراد، وحاكاهم خلفاء بني العباس وولاتهم. وهذه العبارة تذكرنا بتوقيع أحد الخلفاء لواليه: قد كثر شاكوك وقلّ شاكروك، فإما اعتدلت وإما اعتزلت

للمقابلة (٢) ١٤٩

١ - القول: عجز بيت مشهور لشاعر مغمور، هو عديّ بن الرعلاء الغساني، شاعر جاهلي ضاع اسم أبيه فنُسب الى أمه ، وتمام البيت:

ليس من مات فاستراح بمَيْتٍ
إنما الميت ميِّتُ الأحياء

انظر أبياتاً أخرى له في لسان العرب [موت] ٩١/٢ وخزانة الأدب للبغدادي (تحقيق هارون، القاهرة ١٩٨١- جـ ٩ /٥٨٣) ويليه:

إنما الميتُ مَن يعيش كئيباً
كاسفاً بالُه قليلَ الرجاء

بشرى للبنان ١٥١

١ - أوهانس قيومجيان باشا هو آخر متصرف لجبل لبنان وفق نظام الامتيازات الموقع بين عدد من الدول الأوروبية والدولة العثمانية. وافقت الدول الأوروبية العظمى الست على تعيينه متصرفاً في ١٩١٢/١٢/٢٣، وصدر فرمان سلطاني بذلك، وصل بيروت في مطلع عام ١٩١٣ واستقال من منصبه في ١٩١٥/٦/٤.

٢ - رئاسة الحكومة العثمانية.

٣ - مقر المتصرف آنذاك ومقر رئاسة الجمهورية اللبنانية حالياً

٤ - هو حبيب باشا السعد، وقد جرى العرف على أن يعيين متصرف جبل لبنان ، بسبب كثرة مهامه الإدارية والسياسية نائباً عنه لرئاسة مجلس الإدارة.

٥ - الباب العالي هو لقب السلطان العثماني ، وكان السلطان آنذاك هو محمد رشاد (محمد الخامس) الذي خلف شقيقه السلطان المخلوع عبدالحميد الثاني.

٦ - يقصد المهاجرين اللبنانيين الأثرياء المقيمين في مصر، حيث لا صلة بين الاحتكار في جبل لبنان ومصر من الناحية الاقتصادية، إذ إن بريطانيا احتلت مصر عام ١٨٨٢ بعد ثورة عرابي وأعلنت الحماية عليها عام ١٩١٤.

السوري المحارب ١٥٣

١ - هكذا وردت وصوابها كان يصدع الفؤاد.

٢ - الزعزع والزعزاع: الريح الشديدة العاتية. جمعها: زعازع.

٣- يقال: ما بالدار ديار، اي ما بها أحد.

الانتقام العادل ١٥٦

١ - لا يزال بعض الصحف والكتاب والمؤلفين يستخدمون مصطلح (بربرية) و(برابرة) بمعنى الوحشية والهمجية، وهو مصطلح غير دقيق ودخيل ، جاء أصلاً من الأوروبيين، ويعنون به العرب والمسلمين وخطرهم على الحضارة الغربية، بينما البربر كقومية ليسوا كذلك وكان لهم إسهامهم في بناء الحضارة الإسلامية ولا يزال.

٢ - لعله يعني بالسلم الأشعبي السلم المبني على المصالح الخاصة والطفيلية والنهم نسبة إلى أشعب الطفيلي، ولعل بها تصحيفاً أو سقوط فقرة.

حول مجيء عزمي ١٦٠

١ - عزمي بك، والي بيروت العثماني ، وصلها في ٨ تموز ١٩١٥، خلفاً لواليها بكر سامي بك، كان قبل ذلك والياً لمدينة طرابلس الشام، اتصف بالحزم وحب العمران، شهدت بيروت في عهده تنفيذ حكم الإعدام بالقافلة الأولى من شهداء العرب الوطنيين في ٢٠ آب ١٩١٥.

٢ - وردت في الأصل الذي بين أيدينا (أمـا) هؤلاء، ويبدو أنها خطأ مطبعي، فعدلناها إلى (ومـا) هؤلاء ليستقيم السياق.

٣ - سبق للأخطل الصغير أن استخدم الأبيات في أثناء الحديث عن سبب تسميته بالأخطل الصغير، في باب «من بقايا الذاكرة».

جمعية الإنسان الوحش. ١٦٣

١ - واحدها قحف وهي ثماني عظمات تكوّن علبة عظمية هي الجمجمة. المعجم الوسيط، ج٢، ص٧١٦، طبعة دار الدعوة، استانبول ، ١٩٨٩

٢ - جمعية الاتحاد والترقي، جمعية تركية دعت لإعادة العمل بالدستور في الدولة العثمانية، انظر ترجمة جمعية تركيا الفتاة.

٣ - وردت في الأصل (الخمسة).

٤ - علي منيف، كان مستشار وزارة الداخلية العثمانية، وصار أول متصرف تركي على لواء جبل لبنان عام ١٩١٥، بعد إنهاء امتياز جبل لبنان المستقل عن ولاية بيروت، خلف أوهانس قيومجيان باشا آخر متصرف لجبل لبنان بوضعه المستقل.

٥ - هو عزمي بك، والي بيروت، سبق التعريف به

٦ - وَغَل على القوم في شرابهم وغْلاً ووَغَلاناً: دخل عليهم فشرب معهم من غير أن يدعى إليه.

ثانياً : عهد الانتداب

بين عام وعام. ١٧١

١ - استخدم «السنون» على جهة الرفع، وحقها أن تُجر للإضافة. (السنين).

٢ - لويد جورج: الكونت البريطاني قائد الجناح الليبرالي في بريطانيا. ولد في مانشستر ١٨٦٣، شغل وظائف عالية بينها وزير الحرب في الحرب العالمية الأولى. وتوفي ١٩٤٥، وجورج كليمانصو، سياسي فرنسي بارز تولى وزارة الداخلية وساهم بمفاوضات فرساي، مع لويد جورج لإنهاء الحرب العالمية الأولى. توفي ١٩٢٩، أما توماس ويلسون، (١٨٦٥ - ١٩٢٤)، فهو السياسي الأميركي الكبير ورئيس الولايات المتحدة الأميركية المنتخب ١٩١٢، والفائز بجائزة نوبل للسلام لعام ١٩١٩.

المهاجرون والمقيمون ١٧٤

١ - قصد «بالمتخلفين» المواطنين الذين تخلفوا عن السفر والهجرة وبقوا في وطنهم.

٢ - القافلة الأولى: يعني بها أول كوكبة من الشهداء العرب الذين أعدمهم جمال باشا السفاح فجر العشرين من آب ١٩١٥، في بيروت وهم: عبدالكريم الخليل والأخوان محمد ومحمود المحمصاني وصالح حيدر وعبدالقادر خرسا وعلي آرمنازي ونورالدين القاضي ومسلم عابدين وسليم عبدالهادي ونايف تلو ومحمود العجم.

القضية الوطنية ١٧٨

١ - الأميال: جمع ميل وميل، الأول وحدة قياس مكانية، والثاني الرغبة والهوى، ويصح المعنى في كليهما.

٢ - هو البطريرك الياس بطرس الحويك (١٨٤٣ -١٩٣١) المولود في حِلتا - قضاء البترون - لبنان الشمالي - والمنتخب بطريركاً للطائفة المارونية ١٨٩٩، حتى وفاته، وقد رأس وفداً لبنانياً لمفاوضة مؤتمر الصلح في باريس لتحقيق مطالب رئيسية هي توسيع حدود لبنان والاعتراف باستقلاله التام وإنشاء مجلس نواب منتخب. وقد أيَّد هذه المطالب غالبية الطوائف اللبنانية مسيحية وإسلامية. (انظر كتاب راجي عشقوني. «آخر المطاف» لبنان ١٩٩٧ ص ٩٨ - ٩٩)

أرميه بورقة فيرميني بحجر ١٨١

١ - الرصفاء. الزملاء.

٢ - الحقيقة: جريدة أسسها أحمد عباس الأزهري في بيروت عام ١٩٠٩

٣ - لم يكن لبنان الكبير قد أعلن بعد، لذا يفصل الكاتب بين تسمية لبنانيين لأهل الجبل، وبيروتيين لأهل بيروت.

٤ - المقصود هو الأمير فيصل بن الحسين، ملك سوريا ١٩٢٠، ثم العراق ١٩٢١.

العرس اللبناني ١٨٥

١ - هنري غورو - Gouraud - جنرال فرنسي، قائد القوات الفرنسية في الشرق ١٩١٥ والمفوض السامي لكل من لبنان وسوريا ما بين ١٩١٩ و ١٩٢٣، وفاته ١٩٤٦.

لبنـان الكبيـر ١٨٦

١ - مفردها شنخوب : أعلى الجبل.

٢ - أي غير فرنسا.

٣- إشارة إلى بريطانيا ونكثها بوعودها للعرب بالاستقلال والحرية بعد أن تحالفوا معها في الحرب العالمية الأولى ضد الدولة العثمانية ولم يشر الكاتب إلى عدد من مواقف فرنسا العدائية ضد البلاد السورية كمعركة ميسلون في تموز ١٩٢٠ وإخراج فيصل الأول من سوريا في نهاية تموز من العام نفسه.

٤ - يقصد بـ «غداً» يوم ١ أيلول ١٩٢٠، أي اليوم التالي لتاريخ المقالة، وهو يوم إعلان دولة لبنان الكبير بحدوده الحالية. ولكن سنرى في مقالات لاحقة ضمن مقالات «عهد الانتداب» ان حماس الأخطل الصغير لدولة الانتداب وحكامها في لبنان من فرنسيين ومواطنين، قد أخذ يتخافت، وذلك لأسباب سياسية واقتصادية وديمغرافية.

تاريخ لبنان يخص اللبنانيين جميعا ١٩١

١ - الحربُ العَوان. المترددة من حرب إلى أخرى

رؤوس أقـــلام ١٩٣

١ -أمين تقي الدين: سبقت ترجمته ، وانظر صورة رسالته إلى الأخطل الصغير ونصها في كتاب «رسائل الى الأخطل الصغير»، مرجع سابق، ص (٢٥٩، ٢٦٠)

أعيدوا إلى الأقضية محاكمها تُعيدوا إليها دماءها وحياتها ١٩٥

١ و ٢ و ٤ و٥ - الكورة، احد اقضية لبنان الشمالي السِّتة، وفيها قضاء البترون، وقضاء زغرتا، وقضاء عكار، وقضاء طرابلس وقضاء بشرّي.

٣ - المتن، احد اقضية جبل لبنان الستة.

٦ - النظارة، الوزارة بتعبير اليوم.

٧ - يقتضي السياق أن يقول: (غير شُؤوننا) لأن المتكلم هو: المنتخِبون. وكذلك القول في: «لي» المتكررة ثلاث مرات. صوابها، (لنا) . إلا إذا ضمنها معنى. الشعب.. او القضاء كما أوضح في السطور الأخيرة من الافتتاحية.

الخيال اللبناني الأسمى ١٩٧

١ - يشير إلى الدول الاوروبية العظمى الست الموقعة على نظام جبل لبنان (الاستقلال الإداري المؤقت) عام ١٨٦١، وهي: فرنسا، انجلترا، روسيا، النمسا، بروسيا، وإيطاليا التي انضمت للاتفاق عام ١٨٦٧.

لمصلحة من أنشئ لبنان الكبير ٢٠٠

٢ - برتوكول امتيازات لبنان الذي وقعه المشير فؤاد باشا موفد الباب العالي عن الدولة العثمانية وخمس دول أوروبية عام ١٨٦١، ووقعت عليه إيطاليا عام ١٨٦٧.

شقاء لبنان الصغير بلبنـــان الكبير[١] ٢٠٤

١ - سراي بيت الدين: قصر في بلدة بيت الدين مركز قضاء الشوف في لبنان، بناه الامير بشير الشهابي الثاني، وهو الآن متحف شهير.

٢ - يبدو الكاتب هنا محبطاً لإعلان الجنرال غورو، دولة لبنان الكبير، لاسباب اقتصادية وسياسية وديمغرافية كالتي وردت في هذا المقال والمقال الذي سبقه والذي يليه.

٣ - الشيخ محمد حسين الجسر، (١٨٧٩-١٩٣٤) ، ولد في طرابلس الشام، انتخب نائباً عنها في مجلس المبعوثان العثماني سنة ١٩١١ ، ثم كان رئيساً لمحكمة الاستئناف في بيروت ١٩١٨ فناظراً للداخلية فرئيساً لمجلس الشيوخ اللبناني فرئيساً للبرلمان. توفي في بيروت ودفن بطرابلس.

لا تجوروا على الأطراف وتحافظوا على الرأس ٢١٢

١ - إميل إدة (١٨٨١-١٩٤٩) محام وسياسي لبناني، رئيس الجمهورية من ١٩٣٦/١/٢٠-١٩٤١/٤/٤.

٢ - الوزارة التي الفها بشارة خليل الخوري (١٩٢٨).

الديموقراطية وشاهدنا عليها ٢١٥

١ - أُفْعِمت: امتلأت وفاضت.

٢ - أنغَرْنا: من النَّغر والتَّغير، وهو الغليان والفوران.

٣ - يقصد الأمير فيصل بن الحسين (ملك سوريا ثم العراق فيما بعد).

ومــن لــم يــــذد عن حوضه بسلاحه... يهدم ٢١٨

١ - هذا العنوان، قسم كبير من بيت زهير بن أبي سلمى، من ميميته (المعلقة) التي مطلعها أمِن أُم أوفى دمنة لم تكلَّم.. وتمام البيت.

وَمَنْ لم يذد عَنْ حَـــــوضــــــه بســــــلاحــــــه
يُهــــــــــــدَّم ومَـنْ لا يـظـلـم الـنـاسَ يُـظـلـم

(ديوان زهير بن أبي سلمى/ ص٣ و ٣٠)

٢ - جبرائيل تقلا (١٨٩٠-١٩٤٣) هو ابن بشارة تقلا أحد أخوين لبنانيين أسسا جريدة «الأهرام» في مصر، وبلغ جبرائيل بالأهرام إلى مرتبة الجرائد العالمية.

٣ - يقصد بدعاة الحجازية وأحياناً يسمون دعاة الشريفية أولئك الذين يدعون إلى هيمنة ملك الحجاز الحسين بن علي أو أحد أبنائه على سوريا بحدودها الطبيعة وما وراء ذلك من نفوذ لبريطانيا على حساب نفوذ فرنسا في سوريا ولبنان ويعبر الكاتب عنهم أحياناً (بدعاة الأمير فيصل أو بالأحرى دعاة الانكليز) كما هو في الصفحة التالية وأحياناً (يسميهم الفيصليين)

٤ - نسبة إلى الملك فيصل بن الحسين بن علي الهاشمي. أمير حجازي، شغل منصب نائب في مجلس النواب العثماني، وانخرط في صفوف جمعية «العربية الفتاة» ثم عين قائداً عاماً للجيش العربي المحارب في فلسطين إلى جانب القوات البريطانية، وشارك في مؤتمر الصلح في باريس ونودي به ملكاً دستورياً على البلاد السورية ١٩٢٠، ثم نودي به ملكاً للعراق ١٩٢١.

٥ - يستخدم الأخطل مصطلح الأمة، بالمعنى اللغوي الاجتماعي العام، لا العقائدي الحزبي (راجع معاني «الأمة» في المعاجم).

٦ - يومئ إلى بريطانيا.

٧ - الخافقان: الأفُقان، قصد بذلك أفق المشرق وأفق المغرب.

١٤ تمـــوز ٢٢١

١ - ١٤ تموز، يوم العيد الوطني لفرنسا، ويصاف اقتحام الثوار سجن الباستيل في باريس يوم ١٤ تموز ١٧٨٩، فكان ذلك بداية الثورة الفرنسيـة وأصبح سقوطه رمزاً للحرية والانتصار على الاستبداد.

٢ - ربما تكون تصحيفاً، فكلمة (أبنائها) أقرب للسياق وبخاصة انه يستعمل ضمير الجمع للعاقل في قوله (لسواهم).

٣ - يشير إلى ماري جوزف دو لا فاييت القائد والسياسي الفرنسي (١٧٥٧-١٨٣٤) الذي حارب في سبيل استقلال الولايات المتحدة الأميركية.

٤ - إشارة مباشرة إلى يوم إعلان «لبنان الكبير» وكان ذلك بمساعدة فرنسا. وقد أعلن ذلك الجنرال غورو، في الأول من أيلول ١٩٢٠.

أطائفيـــة؟ يا للعار - ويا للخسار ٢٢٢

١ - هنري دي جوفنيل، من أبرز أعضاء مجلس الشيوخ الفرنسي، عين مفوضاً سامياً في ٢ كانون الأول ١٩٢٥ وفي عهده تحولت «دولة لبنان الكبير» إلى «الجمهورية اللبنانية»، أبرم دي جوفنيل الدستور ودعا إلى انتخاب أول رئيس للجمهورية، «شارل دباس».

٢ - وردت في الأصل (سيبرهن) وعدلناها إلى (سيرهق) ليستقيم السياق وواضح أنها خطأ طباعي.

دستور البلاد عنـوانهـا ٢٢٦

١ - القول للمفكر والفيلسوف الإسلامي المعروف جمال الدين الأفغاني

٢- مصطفى كمال باشا: المعروف بمصطفى أتاتورك انظر ترجمته في مقال النهضة التركية وتأثيرها على الشرق، في هذا الكتاب.

دستور ٢٣١

١ - يشير إلى تاريخ سن دستور الجمهورية اللبنانية في ٢٣ أيار ١٩٢٦، أما ١٩٢٩ فالأرجح أنه يقصد به تاريخ هذا المقال.

دستور ولكنه دستور من عجين ٢٣٣

١ - الشسع: سَير يمسك النعل بأصابع القدم، جمع أشساع، وشُسوع..

٢ - ساحة الشهداء في بيروت، حيث يوجد بالقرب منها مجلس النواب اللبناني، الذي يتم فيه انتخاب رئيس الجمهورية من قبل أعضاء المجلس.

٣ - عزمي بك ، والي بيروت العثماني، سبقت الإشارة إليه.

٤ - يعني برنامجه ومنهجه، مأخوذة من لفظها الأجنبي Programme

٥ - المفوض السامي وقت كتابة هذا المقال هو «هنري بونسو» خامس المفوضين السامين صار مفوضاً سامياً في ١٢ تشرين الأول ١٩٢٦.

الدستـــور بين الباكين عليه والمتباكين ٢٣٦

١ - تم تعليق العمل بالدستور اللبناني في ٩ أيار ١٩٣٢ من قبل «هنري بونسو» المفوض السامي (١٩٢٦ - ١٩٣٣) بسبب ترشيح الشيخ محمد الجسر لرئاسة الجمهورية وعدم اطمئنان سلطات الانتداب إلى سلوك السياسيين اللبنانيين انظر : «تاريخ لبنان الحديث، كمال الصليبي، دار النهار للنشر، ط ٦، بيروت، ص: ٢٢٢، ٢٢٣».

٢ - الموقفون: إشارة إلى حل مجلس النواب بعد تعليق الدستور

١ - حقي بك العظم (١٨٦٥-١٩٥٥) ولد وتعلم بدمشق قصد مصر واختير سكرتيراً لحزب اللامركزية الإدارية العثماني، عينه الفرنسيون حاكماً لما أسموه «دولة دمشق» التي زالت عام ١٩٢٥ بتوحيدها مع بعض أجزاء سوريا، تنقل بين رئاسة مجلس الشورى ورئاسة مجلس الوزراء إلى أن عاد إلى القاهرة (١٩٣٨) وأقام فيها إلى أن توفي.

٢ - الشيخ محمد تاج الدين الحسني (١٨٩٠-١٩٤٣) سياسي سوري، أستاذ العلوم الدينية في المدرسة السلطانية في دمشق وكان قاضياً للشرع، رئيس الجمهورية السورية ومن قبل كان رئيساً لمجلس الوزراء.

٣ - في الأصل ورد العجز هكذا: (ما لجرح ميت) وتم تصويبه والبيت لأبي الطيب المتنبي من قصيدة يمدح فيها علي بن أحمد المري الخراساني ومطلعها:

لا افـــــتـــــخـــــار إلاّ لمن لا يُضـــــام

مـــــدرك أو مـــــحـــــارب لا يـنـام

(ديوان المتنبي بشرح العكبري، ج٤، ص: ٩٢)

هل عندنا زعماء؟ ٢٤٠

١ - بكواته وبشواته أو باشاواته، مفردها بيك (بك) وباشا، لقبان تركيان، الثاني أرفع من الأول.

٢ - يوسف فرنكو باشا المتصرف السابع (حاكم) لجبل لبنان ١٩٠٧-١٩١٢ وهو ابن نصري فرنكو باشا المتصرف الثاني في سلسلة متصرفي جبل لبنان الدين حكموه وفق نظام الامتيازات من ١٨٦١ وحتى ١٩١٥.

القوي معبود الضعفاء أين كانوا ٢٤٣

١- بنيتو موسوليني، (١٨٨٣-١٩٤٥) دكتاتور إيطاليا أسس الحزب الفاشي في إيطاليا (١٩١٩) واستولى على الحكم ١٩٢٢، تحالف مع هتلر ودخلا الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٠، أعدمه الشعب بعد هزيمة بلاده في الحرب.

٢ - سبقت ترجمته.

٣ - سترد ترجمته لاحقاً.

بطل لبنان يعود إلى عرينه ٢٤٦

١ - مولود في إهدن ١٨٢٣، من فرسان السياسة والتحرير في لبنان طمح ليكون متصرفاً وطنياً للبنان بعد المتصرف الأجنبي داود باشا، فاعتقلة الباشا ونفاه إلى الأستانة ١٨٦١، فر عام ١٨٦٤ وعاد إلى بلده وكثر أنصاره فقاتل داود باشا، توسط له القنصل الفرنسي وأخرجه تحت الحماية الفرنسية إلى فرنسا عام ١٨٦٧، مات في نابولي بإيطاليا عام ١٨٨٩ ونقل جثمانه إلى إهدن. وكان رائد فكرة الوطنية والعروبة في أيامه. له عدد من المؤلفات في اللغتين العربية والفرنسية - الأعلام للزركلي جـ٢/٢٢١.

٢ - إهدن - مدينة الاصطياف الأولى في لبنان الشمالي.

٣ - يشير إلى الاحتفالات التي جرت في إهدن بهذا التاريخ بمناسبة إزاحة الستار عن تمثال يوسف بك كرم.

الـزعيـم ! ٢٤٨

١ - الأحنف بن قيس بن معاوية التميمي، سيد بني تميم وكبير خطبائها وفرسانها الميامين. عُرف بالحلم والشجاعة، عاش حتى خلافة معاوية الذي عاتبه في بعض مواقفه، فاغلظ الأحنف له الجواب. فسُئل عن صبره عليه فأجاب: هذا الذي إذا غضب، غضب له مائة ألف لا يدرون فيم غضبه، وعاش ما بين ٣ ق.هـ الى ٧٢ هـ/٦١٩م ٦٩١م (وفيات الأعيان، لابن خلكان جـ٢/٤٩٩ ٥٠٦) وشذرات الذهب جـ١/٧٨ و «سير أعلام النبلاء» للحافظ الذهبي جـ ٤/ ص ٨٦ وفي حاشيته عدد كبير من مصادر ترجمته.

٢ - قصد بذلك الزعيم المصري سعد زغلول (١٨٥٧ - ١٩٢٧) زعيم نهضوي بارز وشيخ الخطباء في زمانه وزمن الحركة الوطنية (١٩١٩ - ١٩٢٧)

غانـدي سر الفداء العظيم ٢٥٠

١ - موهانداس كرامشاند غاندي (١٨٦٩-١٩٤٨) اشتهر بلقب «المهاتما» أي النفس السامية، دعا إلى تحرير الهند من الانجليز بالوسائل السلمية والمقاومة السلبية بعيداً عن العنف وكان سلاحه الأقوى الإضراب عن الطعام، أدت جهوده إلى استقلال الهند عام ١٩٤٧، اغتاله أحد المتطرفين.

٢ - سروجني نائيدو (١٨٧٩- ١٩٤٩) شاعرة وخطيبة هندية لقبت بعندليب الهند ساهمت في السياسة وحركة تحرير الهند والحركة النسائية ، ترأست المجلس الوطني الهندي عام ١٩٢٥، ومؤتمر العلاقات الاقتصادية ١٩٤٩.

٣ - جاءت في الأصل (معزلة) وواضح أنها مصحفة عن (مغزله)، فقد كان غزل الصوف احد أساليب المقاومة السلمية التي ابتكرها غاندي، وبدأ بها بنفسه، ضد المستعمرين الإنجليز، ليستغني الهنود بذلك عن المنسوجات البريطانية.

النهضة التركية وتأثيرها على الشرق ٢٥٢

١ - عبارة للمفكر والفيلسوف الإسلامي المعروف جمال الدين الأفغاني (١٨٣٨-١٨٩٧) والملاحظ أن الأخطل الصغير كرر هذه العبارة في عدد لا بأس به من مقالاته ويبدو ميالاً إلى تطبيقها في الشرق، بل إنه يرى أن الأفغاني لو امتد به العمر سيرى تطبيقها على الغرب أيضاً.

٢ - مصطفى كمال باشا المعرف بـ (أتاتورك) أي أبو الأتراك (١٨٨١ - ١٩٣٨) من أبرز زعماء حزب الاتحاد والترقي قاد عدداً من المعارك في كثير من الأقاليم الخاضعة للدولة العثمانية صار رئيساً للجمعية الوطنية الكبرى، أعلن الجمهورية التركية وصار رئيساً لها منذ عام ١٩٢٣ وحتى وفاته ألغى الخلافة عام ١٩٢٤

٣ - السُنَن: النهج والمثال والطريق

٤ - دهري: الملحد القائل إن العالم موجود أزلاً وأبداً لا صانع له. أحمدي مسلم عيسوي: مسيحي

٥ - عِترةُ الرجل: رهْطُهُ وعشيرته وفروع القوم الذين يحيطون به

٦ - حزب كمال أتاتورك وأتباعه

٧- أهل الغرب.

٨ - اللِّياذ: مصدر لاذ يلوذ، لوْذاً ولِياذاً: لجأ وتحصَّن واستتر.

٩ - عبدالغني سني بك: مكتوبجي وهي وظيفة تعني (مدير القلم) أو (الأمين العام) في ولاية بيروت (١٩١٢) قبيل الحرب العالمية الأولى رحل إلى مصر وافتتح له مكتباً لتخليص المعاملات ، ثم عاد إلى لبنان، وصار قنصل تركيا في بيروت بعد هزيمة الدولة العثمانية وهو من أصدقاء الأخطل الصغير انظر صورة رسالته ونصها إلى الشاعر في كتاب «رسائل إلى الأخطل الصغير» مصدر سابق، ص (٢٣٣- ٢٣٦).

١٠- طه المدور مؤسس جريدة الرأي العام في بيروت عام ١٩١٠ .

١١ - البيت للفرزدق، من قصيدة فائية طويلة، مطلعها:

عـــزفتَ بـأعـــشــــاش ومـــا كـــدت تعـــزف
وانكرت من حـــــوراء مـــا كنت تعـــرف

(ديوان الفرزدق. دار صادر بيروت. لا تاريخ جـ ٢/ ص٢٣ و ٣٢).

نهضة الهند وأثرها في الشرق ٢٥٧

١ - مدينة في باكستان، وانعقاد المؤتمر الهندي فيها آنذاك باعتبارها مدينة هندية، لأن الهند لم تكن قد قسمت إلى دولتين.

٢ - رئيس الولايات المتحدة ، سبقت ترجمته.

ثالثاً: موقفه من سوريا:

في سبيل دمشق ٢٦١

١ - «سورية الجديدة» جريدة يومية، اسسها في دمشق توفيق اليازجي وحبيب كحالة في ٢٣ تشرين الأول ١٩١٨.

٢ - سَرَواتٌ، مفردها: سَراة. وسَرَاة الشيء، ارفعُ نقطةٍ فيه - وهنا سراتها اي رجالاتها. انظر المنجد ص ٣٣١.

٣ - السويداء، إحدى محافظات سوريا، تقع الى الجنوب الاقصى من دمشق، متاخمة لحدود الأردن. ومن معاني السويداء: حبة القلب.

٤ - يعني فرنسا التي كانت دولة الانتداب على كل من سوريا ولبنان، والأحداث التي جرت فيها مثل معركة ميسلون تموز ١٩٢٠ .

٥ - يشير إلى فيصل بن الحسين بن علي، ملك سوريا ١٩٢٠، الذي اخرجته فرنسا من دمشق بالقوة.

٦ - يقصد الأخطل الصغير بالسلطة «سلطة الحجاز» حيث الملك الحسين بن علي المتحالف مع الإنجليز ضد الأتراك عام ١٩١٦ وربما يعني بالسلطة (الإنجليز) الذين كان لهم نفوذهم لدى الملك حسين شريف مكة (ملك الحجاز) بحكم تحالفه معهم.

٧ - ورد في كثير من مقالات الأخطل الصغير أجزاء من ابيات او ابيات شعرية كاملة يقتبسها من شعر المتنبي او غيره، وهو هنا ياخذ من قصائده هو، حيث ورد بيت بهذا المعنى وهذه الكلمات في قصيدته (علِّ هذي الذكرى) ونصه:

عـــلـــلــوه فــكـــان اقـــــــــتـــل شـــيء
ذلك الصــــــد بـعــــــدمـــــا عــلــلــوه

انظر: «ديوان الأخطل الصغير»الصادر عن مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، بيروت، ١٩٩٨.

٨ - عُقد هذا المؤتمر في مدينة سان ريمو بفرنسا في شهر نيسان ١٩٢٠ بين الحليفتين فرنسا وإنكلترا تمّ فيه تقسيم البلاد العربية فيما بينهما: العراق وفلسطين وشرقي الأردن، تحت انتداب بريطانيا والباقي من سوريا ولبنان تحت انتداب فرنسا، وقامت بريطانيا بإبلاغ الملك فيصل في العراق بوساطة المارشال اللّنبي. (انظر كتاب «سوريا والعهد الفيصلي» ليوسف الحكيم. دار النهار للنشر طبعة ثانية. بيروت ١٩٨٠ ص١٥٥- ١٥٦) وبيكو، هو المندوب أو القنصل العام في بيروت، شريكه مارك سايكس، اللذان عقدا معاهدة سُميت معاهدة سايكس بيكو لاقتطاع أجزاء من الامبراطورية العثمانية. (انظر تفصيلا لذلك في كتاب: «يقظة العرب» لجورج انطونيوس دار العلم للملايين، بيروت ١٩٩٢ ص٣٤٩).

٩ - غورو: الجنرال هنري غورو، سبق التعريف به.

١٠ - يشير إلى الأصل الحجازي للأمير فيصل بن الحسين.

لنعمل لسوريا ولبنان في سوريا ولبنان ٢٦٥

١ - الدعوة الشريفية: أو الدعوة الحجازية ويعني بها دعوة الشريف الحسين بن علي (الملك) وربما دعوة الشريف (الأمير) فيصل بن الحسين (ثم الملك) وأعوانهما لوحدة البلاد السورية والحجاز تحت عرش الملك حسين أو أحد أنجاله.

٢ - عبدالعزيز آل سعود (١٨٧٦ - ١٩٥٣) مؤسس المملكة العربية السعودية وباني نهضتها الحديثة. استقر مع أبيه في الكويت واستعاد الرياض عام ١٩٠٢، ثم ضم إليها سائر مناطق المملكة العربية السعودية الأخرى. توفي بالطائف ودفن في الرياض

٣ - هو الشريف (الملك) الحسين بن علي، سبقت ترجمته.

٤ - فيصل بن الحسين بن علي، سبقت ترجمته

٥ - قد يكون ماجد بن عدوان، من معارضي تامير الشريف عبدالله بن الحسين (الأمير ثم الملك) على شرقي الاردن

٦- عبدالله بن الحسين بن علي (١٨٨٢ - ١٩٥١) ولد بمكة، أسس إمارة شرقي الأردن عام ١٩٢١، وأعلنها مملكة عام ١٩٤٦ باسم المملكة الأردنية الهاشمية، اغتيل في المسجد الأقصى ودفن في عمان

٧ - بعد هذه المقالة بسنة وشهرين، تم تنازل الملك علي بن الحسين ملك الحجاز عن ولاية (معان والعقبة) وضمت إلى إمارة شرقي الأردن بموجب ذلك التنازل وقبول شقيقة الامير عبدالله في ٢٤ حزيران ١٩٢٥. انظر «الآثار الكاملة للملك عبدالله بن الحسين»، الدار المتحدة للنشر، بيروت، ص ١٨٠.

أَحَرْبٌ بين إخــوان؟! ٢٦٨

١ - كانت (يهن) في الأصل، عدلها المراجع إلى (يهون) ولعلها (يوهن) إذ إن ما وراء ها من كلمات تعضد ذلك.

الشقيقان المتعانقان ٢٧٠

١ - العهد الجديد، جريدة لبنانية أسسها خير الدين الأحدب، في ٥ آذار ١٩٢٥

٢ - شارل دباس ، أول رئيس للجمهورية اللبنانية، توفي ١٩٣٥ . وقد انتخبه مجلس النواب رئيسا ١٩٢٦.

٣ - حقه أن يقول. مادام، توافقاً مع سياق الجملة ومقصدها..

٤ - الغرب - ههنا - الدمع ومسيله.

رابعاً : موقفـــه مـــن القضيــة الفلسطينية

قتـل شعب آمن ٢٧٧

١ - هذا البيت، للأديب الدمشقي أديب إسحق (١٨٥٦ - ١٨٨٥)، انظر مقدمة مارون عبود لكتاب أديب إسحق «الدرر»، دار مارون عبود، بيروت ١٩٧٥، ص٢٣.

٢ - بيت المقدس، جريدة ، أنشأها بندلي الياس مشحور في ٢٦ كانون الأول ١٩١٩.

٣ - المقصود به جمال باشا السفاح، قائد الجيش العثماني الرابع في سوريا خلال الحرب العالمية الأولى

٤ - ياهو: ملك إسرائيل نحو (٨٤١-٨١٤ ق.م) اغتصب الملك من يورام وقضى على سلالة أحاب. وضع حداً لعبادة الأوثان، (المنجد، ص : ٦١٨).

٥ - البقاع، هو سهل البقاع ومحافظته الشرقية ، والقاسمية، مصب نهر الليطاني في جنوبي لبنان إلى الشمال من صور.

٦ - واضح أن الكاتب يقصد حينها أن تلك المدن والمناطق واقعة ضمن الأراضي التي شملها وعد بلفور، ويوحي له بذلك وقوع فلسطين والمنطقة الشرقية من نهر الأردن تحت الانتداب البريطاني، ولم تكن الأمور قد تبلورت بعد، بتأسيس إمارة شرقي الأردن، حيث وصلها الأمير عبدالله بن الحسين في ٢١ تشرين الثاني ١٩٢٠، (أي قبل كتابة هذا المقال بتسعة أيام فقط) ولم تكن الأمور قد توطدت له بعد.

٧ - هو حاييم وايزمن، مواطن روسي يهودي. وأحد المنظرين للكيان الصهيوني في فلسطين، وهو أول رئيس لإسرائيل من ١٩٤٩ حتى وفاته ١٩٥٢، وكانت ولادته ١٨٧٤.

٨ - أشرف ، فيها إيجاز حذف، أي: أشرف على النهاية..

في سبيل الإخاء ٢٨١

١ - إشارة إلى ما ورد في القرآن الكريم في سورة الكهف، الآية ٩٤، عندما بنى الاسكندر سداً لصد يأجوج ومأجوج ونص الآية الكريمة ﴿قالوا يا ذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض فهل نجعل لك خرجاً على أن تجعل بيننا وبينهم سداً﴾.

٢ - فلاديمير لينين (١٨٧٠-١٩٢٤) قاد الثورة البلشفية عام ١٩١٧ والغى النظام القيصري في روسيا.

٣ - البلشفية، منظمة عمالية أنشأها لينين سنة ١٩٠٣ واتخذت اسم حزب العمال الاجتماعي الديموقراطي الروسي، والذي استولى على مقاليد السلطة في روسيا ١٩١٧ وهو التاريخ الذي حكم فيه النظام الشيوعي روسيا وسائر بلاد الاتحاد السوفييتي فيما بعد

٤ - ليون تروتسكي (١٨٧٩ - ١٩٤٠) أحد الماركسيين المساهمين في إنجاح الثورة الشيوعية البلشفية ورئيس المجلس الثوري الحربي ومؤسس الجيش الأحمر نفاه ستالين إلى المكسيك عام ١٩٢٩ اغتيل في منفاه على يد أحد أتباع ستالين.

صدى مقالين - الإخلاص يملي فنكتب ٢٨٣

١ - واضح أن الكتب الخمسة التي نوه الكاتب بنشرها لم ينشر منها في هذا المقال سوى ثلاثة.

٢ - لبيب الرياشي (١٨٨٩ - ١٩٦٦) صحافي، اديب لبناني، مدرس. ولد بقرية الخنشارة. هاجر إلى الأرجنتين وبقي فيها ٢٠ عاما يعمل بالصحافة في بيونس ايرس، اصدر في نهايتها جريدته الاسبوعية «القرن العشرين». له عدة مؤلفات. توفي في «الذوق» بجوار جونية ودفن في مسقط راسه.

٣ - هكذا في الأصل، ربما كانت (القاتل) المتعمد.

٤ - وقعت هذه الرسالة باسم مستعار «غليلي» وهو عالم الفيزياء والفلك الإيطالي المشهور. اكتشف حركة دوران الأرض حول الشمس ومن مخترعاته ميزان الحرارة والمنظار الفلكي.

الأقربون أولى بالمعروف - في سبيل فلسطين ٢٨٧

١ - يشير إلى جرحى المعارك التي نشبت بين اليونان وتركيا في الحرب العالمية الأولى وبعدها واحتلال الأولى لعدد من مدن الثانية.

واجب اللبنانيين المقدس إزاء نكبة إخوانهم في فلسطين ٢٨٩

١ - يلمّح الأخطل إلى الأحداث والصدامات الحادة التي وقعت بين اليهود وأهل فلسطين بشان حائط المبكى في الحرم القدسي، بعد انعقاد المؤتمر الصهيوني في زيوريخ بين ٢٨ تموز و١١ آب ١٩٢٩، مُنع سكان فلسطين المسلمون من سلوك طريق البُراق الشريف. تطور ذلك إلى مظاهرات دامية دوّت اصداؤها في المنطقة العربية (انظر كتاب: «الحركة الوطنية الفلسطينية امام اليهود والصهيونية» لناجي علوش. بيروت ١٩٧٤ ، ص١٦٠ وما بعدها).

٢ - يعني ١ ايلول ١٩٢٠ عندما اعلن الجنرال غورو قيام لبنان الكبير.

لبنان ومأساة فلسطين ٢٩١

١ - رئيس الجمهورية انذاك هو شارل دباس (سبقت ترجمته).

٢ - لم يكن واضحاً في الأصل اليوم الذي جرت فيه التظاهرة أهو الثلاثاء ام الأربعاء، ولم يكن تاريخها متيسراً لاستنباط اليوم.

٣ - رئيس المجلس النيابي في هذه المرحلة هو الشيخ محمد حسين الجسر الذي طالما قرّظه الأخطل الصغير في بعض مقالاته السياسية وافتتاحياته «البرقية» ولد عام ١٨٧٩ وتوفي عام ١٩٣٤.

٤ - غبطة البطريرك الياس الحويك.

٥ - اضفناها لاستقامة المعنى.

أهذا هو العدل الذي انتظرناه؟ ٢٩٤

١ - نيرون: (٣٧ - ٦٨م) امبراطور روماني (٥٤ - ٦٨) ابن كلوديوس بالتبني. طغى واضطهد المسيحيين واتهمهم بإحراق روما. اشتهر بفظائعه ومات منتحراً.

٢ - اتيلا: ملك الهون ٤٣٢ - ٤٥٣ م، اشتهر بغزواته الوحشية اجتاح بيزنطة والامبراطورية الرومانية. نهب مدن إيطاليا وعفا عن روما. انهارت مملكته بموته.

****

الباب الثالث

مقالات اجتماعية

الفقـر والغنــى
على باب الشتاء

«أبلغوا جميع جمعيات الإعانة للبنان وسوريا أن الحاجة إلى الطعام والملابس شديدة، فإن الشتاء صار على الأبواب». «مُكاتب المقطم البيروتي»[1].

أجل إن الشتاء على الأبواب؛ ومهما بلغ من عناية الحكومة بتخفيف وطأته، فإن الخوف منه لايزال ملء القلوب.

لقد كنا قبل هذا الانقلاب نتمثل الشتاء - وقد استمرت الحرب - كفناً عظيماً يضم في أحشائه من بقي ممسكاً رمقه من بني أمنا، بل كنا نتمثله بحراً تضطرب أمواجه، ونحن فيه كالسفينة حطمتها العاصفةُ فتعلّق كل واحد بخشبةٍ يستعين بها على بلوغ اليابسة.

إن الذين سلموا حتى الآن، هم الطبقة الوسطى وبعض الغنية، فأصبحت الوسطى فقيرة والغنية وسطى، ولم يسلموا إلا بعد أن تجردوا من حطام الدنيا، فهم قد لا يملكون اللحاف الذي يلتحفون، ولا السقف الذي يستظلون.

لا ريب أنه لو استمرت الحرب لكان أتى الموت على كل هؤلاء، ولم لا يأتي عليهم وقد صدر به حكم الترك، وساعد عليه بعض المستكلبين - من عبدة الترك وعبدة الدينار؟ ولكن ربك تدارك الأمر فحصل الانقلاب وتلاه قدوم الحلفاء يحملون لنا الأمل بالحياة.

إن الإعاشة هي أولى المسائل بل هي أساس كل ما نبنيه من قصور الآمال، ونحنُ إليه من جلائل الأعمال.

إن الجواهر البشرية أكثر ما تكون في الطبقتين الوسطى والفقيرة، فإذا لم نعمل على حفظ من بقي من هاتين الفئتين وإنقاذهما من مخالب الجوع، فنكون قد جنينا جنايةً لا تغتفر.

تُرانا نتكل على الحكومة الحاضرة في إعاشة إخواننا، ونتكل على مساعدة ذوي اليسر من الأجانب في إرسال الطعام والكسوة لنا، كأن على هؤلاء وحدهم أن يطعموا جياعنا ويكسوا عراتنا ويمهدوا لنا طريق الهناء؟

على هؤلاء وحدهم هذا الواجب الذي لا يمد له أغنياؤنا يداً، ولن يمدوها أبداً.

لا يعرف أغنياؤنا (ولا أعمِّم) هذا الواجب، ولكنهم يعرفون أن يتصدروا كل مجلس، ويترأسوا كل ناد. ولو فطنوا لخجلوا من نفوسهم وممن حولهم. ولو أنصفوا لانقلبت الحال بهم فأصبحوا للمجالس اذنابا، وشراً من ذلك.

بل ما لنا ولهذا، فليس هنا مجاله وإنما جئنا نستنهض ذوي الفضل لمؤازرة الحكومة على تخفيف ويلات الشتاء، وهذه ميازيب السماء تفجرت فحبست الفقير عن التجوال، ومنعته عن السؤال. وهذه طلائع البرد تلذع الأجسام وهي عوارٍ فتفتك بها فتك المنجل بسنابل الحقل.

لقد استغاث مُكاتب «المقطم» بأولي الفضل والمروءة في مصر، فلبوا نداءه وأرسلوا الكسوة والغذاء، ونحن نستغيث الآن بأغنياء هذا البلد لنرى ما يكون من كرمهم.

بشارة الخوري

البرق، ١٩١٨، عدد: ١٦، ص. ١

****

خطرات أفكار
بين القصور والأكواخ

في العدد الأخير من (البرق) نبأ عن وارسو[1] يقول.

«لما دخل البلشفيون[2] إلى كياف[3] نقلوا الفقراء إلى بيوت الأغنياء وجعلوا هؤلاء السادة في بيوت الفقراء»

جرى ذلك على نحو قولهم: تبادل فلان وفلان الوظيفة أي حل الواحد محل الآخر

تصوّر قصور بيروت الشاهقة وتصور سكانها أبناء الترف من كل مَنْ:

خطرات النسيم تجرح خديه
ولمس الحرير يدمي بنانه

وتصور من جهة ثانية تلك المنازل في سوق الفسخة (من قبل اليوم) وأمثالها من المشبهات القبور ثم تصور سكان هذه المنازل بين بائع الخس والملصق (الضهارة)[4] في ظهره يدخلون تلك القصور يتهادون على السجاد والحرير ويتنعمون فوق تلك الأسرَّة، ثم خذ بيد أولئك المتنعمين قبلاً وزج بهم في هذه الأقبية ليذوقوا مرارة الفقر ويعيشوا عيشة الشقاء شطراً من الحياة أو الحياة كلها.

لو شاهدنا ذلك على ستارة السينماتوغراف[5] لاستلقى معظم الحضور على أقفيتهم من الضحك لأن معظم الحضور يضحكون عندنا حتى في المآتم، إذ لا يتناولون من الأشياء سوى قشورها الغني يضحك وهو يرى نفسه مسحوباً برجله إلى قعر الهاوية، وإذا ضحك الفقير فلأنه يحسب ما يراه فصلاً من حكاية ألف ليلة وليلة.

إن في عمل البولشفيك هذا مجالا للنظر، أجل هو خرق لناموس الاجتماع في نظر البعض ولكن البولشفيكي، هذا الجندي الذي استهدف للعذاب والأوبئة وسائر أصناف

المنايا في بطون الخنادق وبين النار والحديد - يعذر نوعا - وقد عاد إلى مأواه فرأى أغنياءه - الذين حارب عنهم وعن أعراضهم وأموالهم فعلوا فيه، في أبيه وأمه وشقيقته وأخيه وأبنائه، ما فعله معظم أغنيائنا في فقرائنا: سلبوهم أموالهم وبعد أموالهم شرفهم وبعد شرفهم حياتهم.

✡✡✡✡

من ذا الذي لا تسكره خمرة الغضب؟!

ومع ذلك أليس في هؤلاء الفقراء الذين أسكنوهم قصور الأغنياء من هو أنبل خلقا، وأكرم عاطفة وأنفع للهيئة البشرية من عشرات الأغنياء.

إذا صح ذلك فلماذا لا يكافي المجتمع البشري الإنسان على حسب استحقاقه؟

أي فضل للوارث المال - وهو بلا أخلاق - على الذي تقذفه الطبيعة في حضن الفاقة فينشأ شريفا كريما.

أفلا يكون المجتمع مخطئا إذا صبر على ظلم هذا البريء؟

أنا من الذين ينقمون على البلشفيك في أكثر مباديهم وليس في كلها.

ابن عم لينين

بشارة عبدالله الخوري

البرق، ١٩١٩، عدد. ٩٣ - ٥٠٤، ص: ١

****

ليس الدائنون
كلهم بل الأسافل كلهم

أجل إنها لخساسة وإنها لدناءة.

وأية خساسة؟ بل أية دناءةٍ أسفل وأفظع من غني ترقب الحرب وأثقالها، والمجاعة وأهوالها، فجعل من ماله سلاحاً سافلاً، بل منجلاً قاطعاً يساعد إبليس على حصد أطفالٍ وشبان وشيوخ من بني قومه؟ بل أية بربرية هذه التي تجسمت في صدور أولئك الذين بنوا ثرواتهم على جماجم الضعفاء، وملأوا شرايينهم وشرايين ذويهم بما امتصوه من دمائهم؟ ولعمرك لا تفعل الضبع أشر من ذلك.

إن هؤلاء يا سيدي الزميل من نعنيهم من الدائنين.

ماذ يقول صاحب «الأحوال»[1] بالذين أدانوا اللبنانيين التعساء مبالغ من الورق التركي[2]، مرغمينهم على توقيع عقود تقضي بدفع هذه الديون الورقية ذهباً؟

يقول عنهم – ولا ريب – إنهم أدنياء أخسّاء.

ماذا يقول صاحب «الأحوال» بالذين اغتنموا المجاعة والشقاء في زمن الحرب، فأدانوا أموالهم بالربا الفاحش، آملين استعادة تلك الأوراق ذهباً رناناً.

يقول عنهم – ولا ريب – إنهم أدنياء أخساء.

ماذا يقول حضرة الزميل الفاضل بالذين شيدوا بالدناءه بناء ثروتهم لقتل المساكين وإشباع أهوائهم؟

لا نرى الزميل الفاضل يتردد بأن يقول عنهم إنهم أخساء أدنياء، بل قتلة مجرمون. لم يشهد خليل أفندي فظائع الحرب، ولم تقع عينه على أشباحٍ يجول في صدرها آخر رمق، وفي عينيها آخر دمعةٍ، وفي رأسها آخر أمل.

لم يشهد خليل أفندي هؤلاء وهم يأكلون العشب ويستمرئون الجيف.

لم يشهدهم يجيئون بصكوك أملاكهم إلى (الغني السافل) ويستعطونه ما يشاء بثمنها أو برهنها فينقدهم العشر ورقات ويكتب عليهم الصك بألف ليرة ذهباً.

لم يشهدهم وقد جاؤوا إلى هذا الغني، وقالوا له إنا أنفقنا العشر ورقاتٍ وأملاكنا التي بعناك إياها أو استدنا عليها، تساوي ألفين أو ثلاثة آلاف ذهب؛ فيناولهم (ولكن بعد أن يرهقهم) عشراً أخرى.

لم يشهدهم يجيئون على هذه الحال خمسة، ثم أربعة، ثم ثلاثة، ثم اثنين، ثم واحداً، ثم صفراً، وهكذا يتناولهم الموت واحداً فواحداً فيندثرون وهم لم يقبضوا من أصل الدين سوى خمسين أو مئة على الأكثر

وهكذا قُلْ عن المشترين الذين هم من طرز هذا الدائن.

إن قرى عن بكرة أبيها، اشتراها إما قوي تلك القرية، وإما بعض أغنياء بيروت الذين زادت ثروتهم خلال الحرب. إن قرى بأسرها اشتراها هولاء بكمية من الحنطة، أو بمبلغ تافهٍ من الورق. في حين أن ثمنها ألوف من الذهبات، وألوف من ليالي المتاعب والمخاطرة، وألوف من أمواج البحر المخيفة يركبها اللبنانيون إلى أقصى المعمور في تحصيل هذه الثروة الضعيفة.

فبماذا تريد يا سيدي الزميل أن ننعت هؤلاء الأغنياء؟

– لا أظنك تنعتهم بالكرام الأفاضل.

على أننا نستغرب، وقد خصصنا أسافل الدائنين (وهم من عرفهم القارئ)، نستغرب من صاحب «الأحوال» رغبته بتعميم تلك النعوت على الدائنين أجمع؛ ونحن، وتشهد هذه الأسطر العريضة، ويشهد فهم القارئ، أننا لم نقصد إلا الدائنين الذين استحقوا أن ينعتوا بالخساسة لأنهم ترقبوا ضائقة الحرب الهائلة ليسلبوا الضعفاء ما جمعوه بتعب السنين.

البرق، ٧ شباط ١٩٢١، عدد: ١١٨٦، ص: ١

****

بنات لبنان في الولايات المتحدة

«عقدت «جمعية بنات لبنان» جلسة قانونية مساء أمس قررت فيها إرسال مقادير من المال إلى الأيتام في لبنان وفي هذا النهار ترسلها إلى راهبات الراعي في حمانا[1] وإلى المطران أنطوان عريضة[2] في طرابلس وإلى الخوري منصور عواد في بحر صاف[3].

جمعية بنات لبنان هي فرع من النهضة اللبنانية وكل ما نقوله فيها أنها خدمت وما زالت تخدم بكل ما تجد إليه سبيلا».

– عن جريدة الهدى[4] –

نحني الهام احتراماً أمام (بنات لبنان).

ونحيي فيهن المثال الأعلى للواجب الذي عجز عنه رجالنا، فنهضن له.

ثم نلتفت إلى رجالنا ونحن نغض الطرف خجلاً.

بورك الدرس الذي أملته فتياتنا على رجالنا.

في سبيل الواجب وفي سبيل العاطفة الشريفة تلك الدرس.

وأي واجب أحب إلى الإنسانية من العطف على اليتيم؟

بل أي واجب أحب إلى الوطنية من رعاية هؤلاء الوطنيين الصغار المهمَلين؟

إن أعظم ما في الإنسانية من المروءات هي دمعة تسقط من جفن مقتدر على وجنة ضعيف بائس، وأعظم من هذا هو سقوط تلك الدمعة على وجنة اليتيم الصغير.

إن تلك الدمعة هي حارة وقادرة بهذا المقدار، حتى إنها لتقوم مقام الطعام واللباس؛ بل مقام كل ما يحتاجه الجسم الصغير الجائع العاري من الحرارة.

إن تلك الدمعة هي العاطفة نفسها، العاطفة التي لولاها، لكان الإنسان أدنى ما في العالم. إن جميع ما تراه من جمال الكون، وجميع ما تراه من عظمته، وآياته المعجزات، إن جميع ذلك هو ابن الشعور وحده. وإنسان لا شعور له لا يمكنه أن يشعر بلذة العطف.

إن اللذات كثير عديدها: لذة الربح، ولذة الشهرة، ولذة البنين، ولكن هنالك لذة فوق الجميع هي لذة الإحسان، بل هي لذة العطف على الضعيف

وليس عجيباً أن يكون في الناس من لا يعترف بهذه اللذة، لأنها لازمة النفس المتناهية في الشرف، المتناهية في اللطف، المقتبسة جذوةً كبيرة من النور الأعظم الذي هو الله.

أجل إن المُحسن لليتيم الذي لا ناصر له، يجب أن يسمى بحقٍّ: ظل الله، ويمينه، بل يجب أن يكون قطعةً من روح الله الذي هو كفيل الخلق أجمع.

إن المال الذي أرسلته «بنات لبنان» إلى الأيتام، إنما أرسلته إلى لبنان كله؛ وعلى كل لبناني من أكبر رجل فيه إلى أصغر رجل، أن يبارك أيادي «سيدات لبنان» لأن السيادة هي للمحسن، وللمحسن من نسيج يمينه.

نحن نجهل المبلغ الذي قدمته جمعية «بنات لبنان»، ونجهل عدد السيدات اللواتي تتألف منهن الجمعية، ولكننا إذا افترضنا أنهن عشرون سيدة، وأن المبلغ الذي أرسلته: عشرة آلاف فرنك.

ثم إذا افترضنا أن في لبنان ألف رجلٍ – ولا ننسى أغنياء الإكليروس – يستطيع كل ثلاثةٍ منهم أن يقدم كل سنة ما قدمته امرأة واحدة، لكان لأيتام لبنان متكأ ناعم، ولنشأ هؤلاء يعترفون بفضل الأمة التي عطفت عليهم صغاراً، ولاستفادت هذه الأمة من أعمال أيديهم وثمرات أفكارهم.

ما أشقى أيتام لبنان برجال لبنان!

فريق يرعى المواشي بين الشام وحوران.

وفريق في المآوي يتغذى بفضلات الأمم الغريبة.

إن للأخوين(٥) عذرهما إذا هما عقَّا الأمة التي لم يعرفا طعم لبنها، وإنهما ليعقَّانها إذا لم يقم في لبنان رجال يعملون (كبنات لبنان).

البرق، ٢١ شباط ١٩٢١. عدد: ١١٩٥، ص:١

****

عززوا مدارس الصنائع والفنون
شبعنا أطباء ومحامين وشعراء

حاجتنا القصوى إلى صناع وزراع

يطالع القارئ في غير مكان من هذا العدد، إعلاناً للحكومة اللبنانية في ما يعني مدرسة الصنائع والفنون.

ولا أعرف لبنانياً يجهل فقر هذه البلاد إلى مثل هذه المدرسة، في حين أنها غنية بالمدارس الأخرى. وأريد أن أطلق عليها اسم (المدارس الكمالية) أو إذا شئت سمِّها (المدارس العليا) أو (المدارس الخيالية).

أجل، إن مدارس العلوم اللسانية والفنية، إذا قُوبلت بالمدارس الصناعية، كانت بمنزلة (الفاكهة) من الغذاء، أو بمنزلة الطربوش من الحذاء وأيُّ رجل يبدأ بالفاكهة ثم ينتهي بالطعام؟ بل أي رجل يهتم بتزيين رأسه وهو حافي القدمين؟ أي رجل يفعل ذلك ولا نعده ضعيف العقل قصير النظر عقيماً؟

عندنا – والحمد لله – الأطباء والمحامون والمصورون والشعراء . هؤلاء هم الذين تنتجهم مدارسنا. ولا أرى واحداً من هؤلاء إلا أكل من مال الأمة غير مخلِّفٍ عليها شيئا – كلا، بل هم يأكلون منها ثم يبعثون ببعض ما يأكلون إلى الخارج ثمن أدواتٍ ومعداتٍ، إلى غير ذلك.

فالطبيب – ولا يُعالج غير الوطني – فيأخذ منه ثمن الدواء وثمن العلم، وكلاهما من الخارج.

وأما المحامون فيأخذون ولا يعطون،. وأما المصورون والشعراء فلا يأخذون ولا يعطون، إلا إذا كان للخيالات ثمن، وإلا إذا كانت تصلح أن تكون دعامةً لبنيان أمةٍ في هذا العالم الذي لا يعترف بغير المادة.

هذه هي مدارسنا وهذه هي بضائعها وهي على شديد تخمتنا منها لا تزال تكثر وتنمو، حتى لنخشى أن يجيء يوم يصبح فيه لكل بيت طبيبه، ولكل بيت محاميه، ولكل بيت صحافيُّه أو شاعره أو خطيبه.

وبعد كل ذلك، إذا احتجنا إلى خيطٍ نرتق به ثوبا شريناه من الخارج؛ أو إلى مسمارٍ نغرسه في نعل، شريناه من الخارج؛ ولكان يهون ذلك لو لم نكن بدأنا بمشترى خبزنا من الخارج. ونحن في بلادٍ كانت إلى عهد قريب، تصدر من حاصلاتها الشيء الكثير.

أفلست ترى أننا، بفضل هذه المدارس الكبرى، المدارس العليا، كجسمٍ أصيبت يداه ورجلاه بالشلل، ولم يسلم منه سوى رأسه ومعدته؟

أما الرأس ففيه اللسان الذي نطالب به بالاستقلال، وأي استقلالٍ يكون لمُقعدٍ ومشلول؟

وأما المعدة فلاستهلاك ما تقوم به الحياة، وهو ليس عندنا؛ فنضطر إلى استعطائه، والمستعطي دائما في قبضة المعطي وإرادته.

إن الأمة أشبه بالأفراد؛ وإن الاستقلال معناه الاستغناء. فهل عرفت شخصاً بلا يدين ولا رجلين مهما كان عقله رجيحا ولسانه فصيحا؟ أو، هل عرفت رجلا كهذا يستطيع أن يستقل، أي أن يستغني عن رجلٍ له جسمه القوي... وعقله النابغ؟

لقد جرى حديث مع إفرنسي يريد الخير لهذه البلاد، فقال لي: إذا لم تستبدلوا معظم مدارسكم الحاضرة بمدارس عملية، فإن نداءكم بالاستقلال يذهب عبثاً. وأنتم لا تستغنون عن أوروبا في توافه الأمور، فكيف بكبارها؟

عندكم من يعرف أن يقود السيارة، ولكن إذا انكسر (برغي) فيها فليس عندكم من يعمله ولا من يصلحه.

عندكم الدّباغات، وعندكم معامل الأجراس وعندكم الحدادون، والنحاسون، الى آخر هذه المعامل الصغيرة التي لا تزال على عهدها منذ بدء الخليقة

ولكن عمالكم لا يُغيرون في أعمالهم حرفاً مما ورثوه ولذلك فهم لا يستطيعون مزاحمة ما يرد من الخارج، لا في الإتقان ولا في الثمن فمن أجل ذلك لا أرى لكم غنى عن مدارس صناعات تُعلِّم صُناعكم أصول الفن الحديث، وتريهم ما أدخل عليه من المحسِّنات

أجل إننا بحاجة إلى مثل هذه المدارس التي نهضت الحكومة لسد ثُلمتها بافتتاح «دار الصنائع والفنون». فنحن أمة إذا لم نتدارك أنفسنا، بما نحفظ معه أيدينا وأموالنا في بلادنا، إذا لم نعمل جهدنا للاستغناء في معاشنا ولباسنا عن أوروبا، فعبثاً ننشد استقلالا إلا إذا كان من نوع الاستقلال الذي نتغنى به اليوم.

البرق، ٦ كانون الثاني ١٩٢٣، عدد ١٧٣٠، ص ١

****

ذكرى الفصح

منذ عشرين عاما

إيه أيام الحداثة يوم كان يَبسم الفصح عن مثل زهر الياسيمن نقاوة وجمالا!

وحبَّذا ذلك الطفل يتشوَّق إلى ذلك اليوم، فيَعدُّ له الأيام بالساعات والثواني!

بل حبَّذا هو خارجاً من الكنيسة في أول أيام الصوم، مباهياً بما هو مرسوم على جبينه من رماد[1]، متعلما للمرة الأولى ما قاله له الكاهن: إنك من التراب وإليه تعود.

وحنيناً إليه في عصاري ذلك اليوم، وقد خرج في سربٍ من أترابه ضاحكين تارة لاعبين أخرى.

وحبذا هو وهم يسيرون إلى نهر بيروت، لملاقاة الراهب؛ بل حبَّذا هو وهم، عائدين في حواشي ذلك الحشد وصارخين «جبنا الراهب وجينا».

ويوم كان يترقب الشمس، حتى إذا جاء نورها على الظل الممتد أمام باب المدرسة، تطلع ورفقاؤه إلى المعلم يستشفعونه بوجوههم وعيونهم، أن يدقَّ الجرس ليتسارعوا إلى الطعام بعد الصوم، وَإلى اللعب بعد التقيُّد، وإلى الضحك بعد عبوسة الكتاب وقطوب المعلم.

ويوم كان يزور الكنائس في الغسل، فيفاضل بين زينة هذه وزينة تلك، فيعود عند المغرب في صف من الصغار بعد جولة في جميع شوارع المدينة وقد امتلأ رأسه الصغير بما رأى، وضاقت مخيلته النقية بما ازدحم فيها من رسوم وشموع وأزهار.

ويوم كان يتوجع قلبه الصغير - يتوجع لا يتواجع - أمام مراحل درب الصليب، ويوم كان يتأكَّل تحمساً لما نزل بالمسيح من الإهانة والضرب واللكم.

ويوم كان يرى من خلال هذه المشاهد (البيضة الحمراء) التي كان يُعنى بها بعد رجوعه من المدرسة للمفاقصة[٢] ، مع لداته وأترابه؛ فطوراً يختلفون فيتصاخبون، وآونة يتفقون فيتراضون، وحيناً يتضاربون فيبكون، وبعد هنيهة يتصالحون فيتضاحكون وينسون حتى أشد الألم، بل ينسون حتى أبلغ الخسارة - وهي خسارة «البيضة الماكنة»[٣] يا لك أحلاما مستطابة، في أثوابك البيض، وأفعالك البيض! بل في ابتساماتك ودموعك، وكلاهما عذب شهي! ويا لك صوماً طاهراً وفصحاً ضاحكاً، وإيمانا نقياً، وعملا مُرضيا!

أيها النعيم المفقود إلى الأبد، ما أعذب ذكراك ولا سيما إذا قيست بالجحيم الذي نحن فيه، جحيم الحرب التي لا تنتهي، وجحيم الواجب الذي لا يطاق، وجحيم الكساد في الأخذ والعطاء.

أيها الفصح الضاحك منذ عشرين عاما، كفكف بيدك الجميلة دمع هذا الفصح!

بشارة عبدالله الخوري

البرق ، ١نيسان ١٩٢٢، عدد ١٧٩٩، ص ١

****

كل عام وأنتم بخير

في القرية

استيقظ الصغار مبكرين ذلك اليوم؛ إنه مطلع العام الجديد؛ وقد تعودوا في مثله أن يتمتعوا بأرغفة من القمح، وبأكلة من اللحم، وبقطعات صغيرة من الحلوى، وبثوب جديد من أقمشة سوق سرسق[1]، الرخيصة.

كان ذلك كل ما يحلمونه في صباح أول كانون الثاني في سنة ١٩٢٥ لأنهم تعودوه في مطلع كل عام جديد.

هذا - على حقارته - كان جُلُّ ما تحلم به تلك الرؤوس الصغيرة. ولقد بدأ حلمهم هذا منذ أول كانون الأول.. فهم منذ ذلك اليوم يتشوقون إلى هذا اليوم.

فرك الكبير عينيه أولاً، ونظر إلى والديه وقال: أين حذائي الجديد؟

- لا حذاء جديد ولا عتيق يا بني!

واستيقظ الأوسط على بكاء شقيقه، فجلس في فراشه وصاح:

أين الثوب الجديد يا والدي؟

- لقد غسلنا لك ثوبك القديم فأصبح جديدا.

وذعر الصغير لعويل أخويه، فقام باكياً، وبكلمات تُفَتِّتُ القلوب سأل عن مزموره.

- فكان جوابه تلك المدامع التي اغرورقت بها عيون الأبوين.

غير أن الرجل لم يقو على لجم زفرة انطلقت من صدره وانطلقت معها هذه المرارات: ضرائب - أعشار - مَحْل - غلاء - مهاجرة - ثم ارتمى ورأسه بين يديه وقلبه ينبض على شفتيه.

في بيروت

باعة الجرائد تنادي: رفع المجلس التمثيلي راتبه إلى ١٥٠ ليرة.

قرر المجلس التمثيلي تقديم سيارة على نفقة الأمة - وهؤلاء[٢] الأشقياء منها - لرئيس المجلس. يفكر المجلس التمثيلي بتسمية المديرين وزراء مع زيادة رواتبهم.

وكل عام وأنتم بخير

بشارة عبدالله الخوري

البرق، ١٩٢٥، عدد ٢٢٥٢، ص: ١

****

داء السياسة لا يشفيه إلا العمل

فإذا شاءت الحكومة أن تشفي الشعب اللبناني فلتُوجد له أعمالاً، ولا توجد هذه الأعمال بغير المال.

لو ملكت الأمر في هذا البلد لما عصاني شفاؤه، على شرط أن أمتلكه امتلاك مقتدر حكيم عادل.

أما امتلاك مقتدر، فحتى لا أخاف أن يقوم من يُقلقل كُرسيِّي إذا أنا قلقلتُ كرسيَّه فأُضطر إلى المحاباة.

وأما امتلاك حكيم، فحتى أضع الشيء في محله، وأنزع الشيء من حيث لا حاجة إليه، وبالجملة حتى أُصَرِّف الأمور على ما تقتضيه مصلحة العموم، ويضمن حياة العموم.

وأما امتلاك عادل، فحتى لا آخذ من هذا لأعطي هذا، وحتى لا أسير مع هوى النفس وما أكثر أهواءها.

فإذا أنا امتلكت الأمر على ما ذكرت فماذا كنت أفعل؟

إني كفيل هذه البلاد. وإذا لم أكن كفيل إسعادها، فكفيل إبقائها على قيد الحياة على الأقل. فمن أين أبدأ؟

لا جدال في أن المال كالماء أصل الحياة، بل سر الحياة. فمن أين أجد هذا المال؟

لم أجد لإيجاده بعد التأمل، سوى ثلاثة مصادر: الأول - وهو الأسهل - الاستقراض، ولكن أمثال البلاد تقول: مَنْ تزوج بالدين باع أبناءه بالفائدة. إذن فلا يجب أن نستدين. ثم مَنْ هذا الذي يقرض مَنْ ليس عنده شيء؟

والثاني الاقتصاد بالنفقات، وهذا لا يتم إلا باثنتين الأولى بالاستغناء عن الأشخاص والدوائر - والثانية. بالسهر على النفقات ليُرى إذا كانت حقيقةً تُصرف بجملتها، وإذا كانت تُصرف حيث يجب أن تُصرف

أما الاستغناء عن الأشخاص والدوائر فيرجع به إلى السؤال الآتي وهو كيف كانت ولاية بيروت وهي أكبر من حكومة لبنان الكبير، قائمةً بغير هذه الدوائر الفخمة، وهذا الجيش من الموظفين؟ كيف كانت قائمة بغير نظارة صحة، وبغير نظارة نافعة[1] وبغير نظارة زراعة، وبغير مجلس شورى وبغير برلمان؟ ومع ذلك فقد كان كل ما يجري في ذلك الوقت خيرا مما يجري الآن، وكانت مصالح الناس أقرب متناولاً مما هي اليوم، اللهم إلا الحالة السياسية.

لا؟ لا يجب أن نعود إلى حقارة الماضي. فنحن دولة ويجب أن يكون لنا ولو شبه وزارة وشبه مجلس؛ إذن فلتكن لنا ثلاث نظاراتٍ لا أكثر - وليكن لنا مجلس يراقب الحكومة لأن المجلس عنوان سيادة الأمة.

فماذا نقتصد من ذلك؟

نقتصد أجور هذه البنايات المنبثَّة هنا وهناك للنظارات وغيرها

ونقتصد جميع موظفي النظارات الملغاة ما خلا كاتباً أو اثنين منها.

ونقتصد تلك الدفاتر والأوراق والمخصصات.

وإذا أضفنا إلى هذا الاقتصاد، الاقتصاد الذي يحصل من التقسيم في الملحقات، وإلغاء إحدى مراتب الإدارة، استطعنا توفير تلك الأرقام، ثُلْثَ أرقام الميزانية على الأقل. أجل ثُلْثَ أرقام الميزانية.

وأما مراقبة النفقات فهو أمر جوهريٌّ. وأكثر ما يُشكى من هذا الأمر، هو في أعمال النافعة بسبب بعض ملتزميها، للتلاعب الذي يحدث بإصلاح الطرق، ولغير ذلك مما سنفرز له فصلاً خاصاً.

إذن فالعبرة ليست في إرصاد الاعتماد، ولا في خروج الاعتماد من الخزينة؛ بل في ملاحقة هذا الاعتماد لنرى كيف يُصرف؟

قلنا إن هناك ثلاثة مصادر لإيجاد المال؛ فذكرنا منها القرض والاقتصاد، وبقي الأمر الثالث وهو: الاستثمار فإذا ما اقتصدت الحكومة بثلاثة أرباع المليون ليرة في العام ولا ينبغي أن يقل الاقتصاد عن هذا المبلغ، لَزِمها - وهي المسؤولة عن الذين ستستغني عنهم - أن توجد لبعضهم ما يعملون به وما تستفيد هي منه. وهي إنشاء المشاريع على نفقتها ولمصلحتها وأول ما يجب أن تهتم له هو مشروع نهر إبراهيم(٢).

إن لاستثمار الأموال طرقاً، يعرفها الاقتصاديون؛ فنحن نكتفي بإيجاد الأموال ونترك لهم أمر استثمارها بطريقة يمكن معها شبّاننا أن يعملوا فيها ويستفيدوا منها.

هذا ما كنت أفعله لو ملكت أمر هذا البلد. وكم من الألسنة تقول لا أذن الله!

أبو عبدالله

البرق، ١٩٢٥، عدد: ٢٢٩١، ص: ١

****

حاربوا الفقر بالاقتصاد

درس جليل يُلقيه الأتراك علينا فهل نقتصُ أثره؟؟!

الفقر أبو الرذيلة وللرذيلة أسماء كثيرة النفاق منها، والذل منها، والخيانة منها، والعبودية منها، ولا تحضرني أسماء البواقي أو ليست هي مطلبي

فالفقير قد ينافق - (وقد) هنا للتكثير - والفقير قد يذل. والفقير قد يخون. والفقير قد يُستَعبد ولماذا؟

لأنه يريد أن يعيش. ولهذه البضائع أسواقها الرائجة في كل حيِّن؛ ولا أقول إن هذه العيوب لازمة الفقر - معاذ الله - بل الفقر يحمل عليها ويُمهد سبيلها ويُهون مكارهها

يقولون إن في الأغنياء نفوساً صغاراً لا تأنف الخيانة والذل والاستعباد؛ ونعرف منهم كثيراً - صدقتم أنتم وصدقت أنا هؤلاء أيضا فقراء.

إن فقر الروح أشد وطأة على صاحبه من فقر الجسد - وكم من بشريّ له نفس كلب

سر في طريقك خالي الجيب! فأية قصبة ضعيفة أنت؟ بل أيُّ صوتٍ خافت، بل أيُّ قلب خائف خافق؟

وسر في يومك الثاني وقد مُلئ جيبُك، وحدثني عنك أيها الماشي على الأرض مرحا، الضاحك المتشامخ، القويُّ قلباً ولساناً!

فإذا ما جربت حالتيك هاتين فحدثني بعد عن الفقر والغنى، وقل لي: في أيِّ يوميك كنت قادراً أن تستقل عن مساعدة السِّوى، وتخاطب متى خاطبت، بارز الجبين؟

الغنى إذن - ولا أريد الإثراء - الغنى إذن أساس ما يناقض النفاق في الفقير وهو الصدق. وما يناقض الذل وهو الإباء. وما يناقض الخيانة وهي الأمانة. وما يناقض الاستعباد وهو التحرر.

فأين نحن من الغنى، وهذا بذخُنا مدهَشة الفرنجة الهابطين علينا؟

لا يُميزون العامل الصغير من المثري الكبير في أثاثه وكسوته ونفقته وبهورته[1]

هوة كبيرة أعمق من البحر وأوسع من الأفق، نصب فيها أموالنا ونستمر، إلى أن يعضنا الفقر بأنيابه، العضة القاضية فننافق فوق نفاقنا، ونذلُّ فوق ذلنا، ونخون فوق خياننا، ونُستعبَد فوق استعبادنا نحن قوم لا يفعل الوعظ فينا نحن مريض لا يشرب الدواء إلا مكرها. نحن شرقيون لا نستقيم إلا بمستبد عادل[2].

نحن كالأتراك حذْوك النعل بالنعل فمن أراد أن ينهض بنا فليحذُ حذوهم وليأخذ عنهم.

إنهم رافقوا الشرق منذ وجدوا، ورافقونا منذ وجدنا. إنهم أخبر بطرق العلاج.

وإنهم يعلمون أن الإصلاح في الشرق يأتي من فوق لا من تحت، من الرؤساء لا من المرؤوسين، من الحكام لا من المحكومين.

رأى الأتراك أن الإسراف مجلبة الفقر، وأن الفقر مجلبة العبودية، ورأوا أن الشعب لا يرجع عن غيِّه ما لم يكن له زاجر من السلطان؛ فقالوا أمس، لماذا هذا الإسراف في الأعراس؟ ووضعوا قانوناً يحظرون فيه النفقات الفارغة.

فإذا كنت في شك فاقرأ ما جاء في صحف الآستانة.

«سنَّ المجلس العام في ولاية الآستانة قانونا منع به الإسراف والتبذير في الأفراح، ووافق في جلسة ٩ ك ٢ الجاري على المواد الخمس الأولى منه، وهذه ترجمتها:

المادة الأولى : إن الحفلات والمراسم الآتي بيانها تعتبر من الأمور الممنوعة:

أ - الاحتفال بنقل جهاز العروس إلى منزل زوجها، والمجيء بالجهاز علناً.

ب - أن يكون عدد العربات أو السيارات التي تنقل أقارب العروس زائداً على خمس عربات أو سيارات للمدعوين، وأن تُعلق عليها مظاهر الزينة.

جـ - إقامة الزينات في غرفة العروس وعرض الجهاز في منزل العرس.

د - الاحتفال بالخطبة. وأن يعطي الزوج شيئا زائدا على المهرين المعجل والمؤجل، أو أن يُقدم ملابس أكثر من بدلتين. وكذلك كل أنواع الهدايا من الزوج أو من المدعوين.

المادة الثانية: ممنوع أن يزيد الاحتفال بالعرس على يوم واحد، أو أن تقام حفلة غناء في غير اليوم الأول، أو أن تقام ألعاب أخرى، ولا أن يُحتفل بهذه المناسبة في الأماكن العامة بإقامة مراقص أو مآدب شاي.

المادة الثالثة: تنحصر مأدبة العرس بالأقارب والمدعوين ويكون ذلك في يوم واحد

المادة الرابعة لا يقدم طعام في حفلات النكاح لغير المدعوين من الأقارب، ولا يجوز إقامة مآدب للنفساء[٣] ولا تقديم الهدايا.

المادة الخامسة ممنوع إقامة حفلات الختان أو تقديم الهدايا فيه. ويقتصر الأمر على السرور العائلي بصورة خاصة».

وبعد أن تكون قرأت هذا القانون تلتفت إليّ وتقول: أفليس في هذا ما ينافي حرية الأشخاص؟

– نعم إن فيه ما ينافي حرية الأشخاص؛ ولكن هؤلاء الأشخاص الذين يتألّف منهم ما يسمونه «الشعب» قاصرون، وللقاصر وصيُّه إلى أن يبلغ الرشد.

وقد تتأفف الطبقة الجاهلة من الشعب التركي، وقد تشكو، ولكن الطبقة الراقية تُدرك مقدار هذه الخدمة التي نفح بها مجلس الآستانة شعب الآستانة.

ونحن أشد جنوناً من الأتراك في البذخ، ولا سيما أهل هذا البلد؛ ولا أستثني واحداً منه – حتى غدونا مضرب المثل في إسرافنا ليس في الأعراس فحسب بل في الأمور التوافه.

أفترى، يقوم في مجالسنا مجلس يخدم البلاد بإرغامها على الاقتصاد؟

أو ترى تفهم حكومتنا أن الإصلاح لا يأتينا إلا منها، وإلا بقوانين تمضي بها عزمة من فولاذ؟

يا ليتها تفهم!

البرق ، ٢٩ كانون الثاني ١٩٢٦، عدد: ٢٥٢٠، ص:١

****

إلى بعض الأغنياء

ليرقدوا ملء عيونهم، ولا بأس إذا كانت رقدة الأبد، هذه التي يرقدون!

ليغطوا في نومهم فالوقت ليل، والطريق وعر، والزمن زمنُ عمل.

ليَتَلَهَّ هؤلاء الأغنياء بتزيين قاعاتهم بالتماثيل! ليتلهُّوا بعدِّ الذهب المكدَّس في الصناديق إرثاً لأبنائهم! ليتلهوا بإقامة الليالي الراقصات، وبإحياء مجالس الأنس! ليتلهّوا لأن اليوم يوم العمل في سبيل الوطن وليس هذا يومهم. لأن اليوم يوم بذل راحة النفس، وسهر الجفن والمفاداة في مصلحة الأمة، وليس اليوم يومهم. لأن اليوم يوم الوطني المجاهد في سبيل وطنه، المدافع عن حوزته، الباذل ما ملكت يداه في سبيل أمانيه، وليس اليوم يومهم.

اليوم يوم الفقير يطعم بنيه اللقمة مغموسة بالدمع والدم. اليوم يوم الكاتب يعمل على إنعاش بلاده وإعمارها. اليوم يوم الشاعر، يستحث الهمم ويذكِّر بأمجاد الماضي، يستصرخ القوم إلى مآثر الشعوب لتكون نعم القدوة. اليوم يوم الصحافي يجمع بين هؤلاء، ويحمل مشعل الوطنية على رأسه ولو لذعته نيرانه. ليغط الغني في نومه لأنَّ الوقت ليلٌ، والطريق وعر والزمن زمن عملٍ فليس اليوم يومه. ها قد انتهت العاصفة وآن زمن الراحة وأُعِدَّت كراسي الحكم وولائم الأفراح – كراسي مجلس الشيوخ مثلا.

ليفتح الأغنياء عيونهم، ولينهضوا من مرابضهم، وليهجروا أحضان الحليلات والخليلات. نحن الفرس الذي طحن وهم الذين يخبزون. نحن الحطب الذي طبخ وهم الذين يأكلون. نحن البنّاء الذي أقام تلك البناية وحُرِّم عليه إليها الدخول. نحن الذين أثخن بعضنا بعضاً جراحاً في سبيل الفكرة الوطنية، وهم الذين يستفيدون من هذه الجراح. غداً تتطلب الكراسي في الحكومة جُلاَّساً فمن ينالها سواهم؟

وفي هؤلاء – لو نعلم – قتلة الشعب وجلادو الأحرار؛ ولكن الذاكرة ضعيفة، والذهب غرّار.

استيقظوا الآن فقد انحلت المسألة الوطنية!

مُروا الجرائد أن تشيد بذكركم. مُروها أن تكذب على الله والناس، فتقول عنكم: إنكم جذوة الوطنية التي لا تخبو. والله إننا لنخجل عنكم وإنْ نَطَح رأسكم السماء.

إن الغنى لا يُكسب الرجل شرفا بل هنالك أعماله. فأين هي أعمالكم؟ مرت بنا الزوابع الوطنية؛ فمن وقف منكم في طريق الزوبعة؟ لقد كنتم يومئذٍ تتفرجون علينا ونحن نغامر الهول. لئن فزنا نازعتموننا ثمرة الفوز؛ ولئن فشلنا قلتم فينا كل كلمة سيئة.

أيَّ غرش[1] بذلتم؟ أيَّ جمعية أنشأتم؟ أيَّ صحيفة ساعدتم؟ أيَّ برقية طيَّرتم؟ ناموا وغُطوا غطيطاً في نومكم، ولا بأس إذا كانت نومة الأبد. يميناً، لا تتركون فراغاً مِنْ بعدكم.

البرق، ١٩٢٦، عدد ٢٥٥٦، ص ١

****

لبنان بين مخالب الرزايا

نكبة «الفنارات» بعد نكبة الديون - فهل تتبعها نكبة الريجي؟

جناية قانون التقاعد على البلاد

لم نعرف ما هو أشد انطباقاً على حالة لبنان اليوم من قول اسماعيل باشا صبري[1] في مخاطبة الموت:

بيني وبينك خطوة
إن تخطها فرّجت عني

ولا نقول إن بين لبنان والموت خطوة لأنه يلذنا أن نقوله، ولا لأننا نجهل ما ينطوي تحت هذا اليأس من سحق القوى المعنوية في صدور المقيمين والمهاجرين من اللبنانيين، لا نقوله إلا بعد أن ادلهمّ الخطب وشعرنا حقا بدبيب المنية في أوصال هذا البلد البائس، ورأينا «أطباءه» - لسوء الحظ - هم الذين يشدون على خناقه، ويغرزون المباضع في شرايينه استنزافا لما فيها من بقية الدم الماصل.

وما كنا لنلبس الشكوى ثوبها الأسود ونبرزها مقرحة الجفون، لو أن أولي الأمر يعيرونها اهتماما إذا هي جاءتهم في ثوبها الساذج، فلقد طالما شكونا العلة إثر العلة، ودللنا على الخطر بعد الخطر، فكنا كمن يشكو إلى غير سميع. وعذر أولي الأمر أنهم لا يقوون عل صد هجوم خصومهم في المجلس فتزل بهم الكراسي، والتفرغ إلى معالجة ما تشكوه الصحف وقد يكون هو نفسه سلاحهم إلى تمكينها.

لقد جرى الحكام الفرنساويون ولا سيما الحاكم كايلا[2] على عادة كان لها أثرها في إنقاذ البلاد من مساوئ جمة، هي أنه كان يجتمع إلى الصحافيين مرة في كل أسبوع فيبسط لهم ما لدى الحكومة من المشاريع وما تنوي عليه من الأعمال فيدور البحث حول ذلك فلا ينفرط عقدهم إلا وقد أقنع أحد الفريقين الآخر، أو يدخل بعض التعديل على المشروع فيمر - إذا مر - خفيفة وطأته، مأمونه مضرته

نقول ذلك لنقنع أولي الأمر بأن ليس لنا من وراء هذه الشكاوى التي نعلنها سوى دفع الرزايا التي تجرها على البلاد، وهي كما يعلم أولو الأمر أنفسهم في حالة من الإرهاق ليس دونها حالة، وما هذه المظاهر القليلة من مظاهر الترف بين بيروت وعاليه سوى نزف الخزينة اللبنانية يخالها الناظر ورد العافية على وجه لبنان وهي في واقع الأمر دم المهج صبغت بها تلك الخدود

وما كان ضر أولي الأمر لو أشركونا معاشر الصحافيين في مسألة الفنارات وما سامونا فيها من خسف، كأنما هم لم يكفهم ما استنزفونا في قضية الديون حتى حاولوا أن ينكبوا الأمة نكبة ثانية سنعرض لها غداً فيرى القراء كيف تمثل رواية الذئب والحمل على المرسح اللبناني المهدم.

ولقد أنكرنا ما تسرب إلى بعض الرصيفات من أن الحكومة وافقت مبدئيا على احتكار التبغ، ولا احتكار بلا قيود، فهي إذن قيود جديدة تحدد اليوم لتغلَّ بها زراعة التبغ وصناعته وتجارته، وهي إذن حكم بمحق هذه البيوت اللبنانية التي تتغذى من ورق التبغ، حتى إذا نفذ السهم شيعت لبنان بقلب باك إلى حيث لا تفرّط الحكومات بحق شعوبها، ولا تضع خنجر المستثمر الدخيل في نحره وقلبه

أجل لقد أنكرنا أن تقدم وزارة كالوزارة الحالية وكل رجل منها غني بماله وأدبه عن الكرسي الوزاري الذي مهما طال مكثه عليه فلن يتجاوز بضعة شهور، ولذلك فنحن ما برحنا نرتاب في صحة الرواية أو قل في صحة الجناية

وإذا كنا نعجب لأمر، بل إذا كنا نأسف لأمر، فهو لقانون التقاعد الذي لا يحتمل أن يرضى عنه من له أقل مسكة من ضمير، وما قولك في قانون يمكننا أن نقول لك - بل سوف نقول لك قريبا - عن كل مادة من مواده لأي شخص وضعت، وأي منفعة ضمنت، فهو قد جعل الخزينة نهبا مقسما بين إخوان الصفاء من الذين تظللهم سماء السراي الصغير مما لو حدث بعضه في غير هذه الأمة لما صفت السماء واطمأنت الغبراء

بل ما قولك برجال لا تزال لهم فتوتهم، ولهم ماضيهم، يحالون إلى التقاعد فيتناولون في كل شهر من الخزينة نفس المرتب الذي كانوا يتناولونه وهم يعملون في وظائفهم، حتى إذا عينوا غداً أبدالاً منهم أدوا لهم مثل معاشهم فتضطر الخزينة أن تدفع معاشين كبيرين في وقت واحد، ولو اقتصر الأمر على بضعة أشخاص لهان ولكنه خطب عميم.

وإذا شئنا أن نعدد أمثال هذه البلايا لما انتهينا، وكله كما ترى لا يدفع، والحكومة كما قلنا مؤلفة من خيرة الناس لا يعوزهم سوى قليل من الجرأة ينتصرون بها على أنفسهم أولا وعلى(....)[٣] ثانيا، مع زهد في هذه الكراسي التي لا تشرف حقيرا ولا تعظم صغيرا، وبدون ذلك فإن لبنان سائر إلى الفناء حقا وسائر إليه بخطى سريعة...

بشارة الخوري

البرق، ٢٦ تموز ١٩٢٩، عدد: ٣٢٤٨، ص:١

****

١٩٣٠ - بين الأمس واليوم والغد

لقد هرم الدهر، أو أن هذا البلد قد هرم: فهو لا يرى حتى في أعياده زهرة تتفتح في بستانه أو نجمةً تلمع في أفقه، حاشا نفراً قليلا جداً هو من أهل هذا البلد كالثبج[١] من البحر يطفو على وجهه قليلاً ثم لا يلبث أن يضمحل.

ونحن اليوم، في مواسم طلعت علينا من قبل بَواسم تحت وارفٍ من رغد الحياة، يخرج معها صغارنا نشاوى بملابس العيد، يهزجون على أصوات المزامير مستمدين تلك النشوة من صدور الوالدين ووجوههم، وهي طفحى[٢] بالوداعة الهانئة والكفاف السعيد.

وإذا اليوم وقد هرم الدهر بل هرم أهل هذا البلد، فنثرت العواصف أوراقهم صفراء يابسة، يطفو بعضها على وجه الماء، ويتهرأ بعضها في زوايا الأكواخ، ويسحق الباقي تحت الدواليب ولكن هناك بقية من ذلك «الثبج» الطافي على وجه البحر، هم هؤلاء الذين رفعهم جنونه إلى سطحه فأطلع منهم هذه الابتسامات الحانقة، بعدما دفعها من أسفل أعماقه ليهزأ بها من الحكمة البريئة والإنسانية الضعيفة، والوطنية المهشمة

ولكن هنالك ثبجاً يطفو ضاحكا فوق ذلك البحر من الدموع، هم هؤلاء القبضة[٣] من الناس الذين استباحوا مال الأمة وما زالوا، ورقصوا على قبرها وما برحوا، وراحوا يمثلون باسمها وعلى نفقتها روايةً كشكشيةً[٤]، لو ضحكت الدهر وبكيت الدهر، لما وفيتها بعض ما تستحقه من الضحك والبكاء.

لقد هرم الدهر بل هرم هذ البلد فليس أول هذا العام سوى نهاية ملايين من الأعوام. فهو إذن غير مُنبت زهرة ندية ولا منضج ثمرة شهية. ولسوف يمشي بنا

القهقرى، ما دامت الهمم رماداً لا يفيد فيها النفخ، بل ما دامت الرجال تماثيل لا تحس بالألم، بل ما دامت هذه الرواية الكشكشية تمثل ونحن نشهد فصولها كما نشهد الحقائق، ونخاطب خيالاتها كما نخاطب الرجال.

إن سنة ١٩٣٠ لن تكون أسعد حالاً من سنة ١٩٢٩، كما أن سنة ١٩٣١ لن تكون أسعد حالاً من سنة ١٩٣٠.

إن السعادة كامنة في أنفسنا . فإذا نحن لم نتطلبها بالعزم يفل الحديد، وبالصدق يعيد هذه الخيالات حقائق، فقد هرم حقاً هذا البلد؛ فهو أولى بالعزاء على فقد شبابه وطيبات أحلامه.

بشارة عبدالله الخوري

البرق، ١٩٣٠، عدد ٣٣١٥، ص ١

****

يا موت خذ ما أبقت الأيام مني

الغلال مطروحة على البيادر بدون دراسة لأن ثمنها لا يساوي نفقاتها - نكبة الفلاح الكبرى.. واجب البلاد المشمولة بالانتداب في هذه الأزمة الساحقة - البلاد على شفير الهاوية.

لم تكن حفلة فقيد سوريا المرحوم فوزي بك الغَزّي[1] مظهراً من مظاهر الأسى على الشهيد الكبير، ولا مقياساً لمكانته في البلاد التي فُجعت به وهي في أمسِّ الحاجة إليه؛ لا لم تكن كذلك فحَسْبُ، بل كانت مع هذا مَصهراً للأهواء التي تضاربت حيناً فوق هذه البقعة الصغيرة من الأرض، فإذا هي تذوبُ اليوم بناره في بوتقة التجارب التي كشفت عن العيون عماها، بل في بوتقة المصائب التي أنارت العقول ووحدت القلوب في سبيل إنقاذ هذه الشعوب أو الدويلات الجديدة القائمة في الشرق العربي، على أسس المصالح الأجنبية، والتي انهارت تحت عاصفٍ من الاكتساح الاقتصادي، انهياراً قد لا تقوم بَعدَهُ إذا لم يتَّحد لإنهاضها أهلُ الشرق العربي من مكاسر الأمواج إلى مذاري الرمال.

وحسبك أن تقع عيناك على هذه الأكداس من الحنطة والحبوب تغزوها العصافير آمنةً؛ فهي راقدة على تلك السهول لا يقدم أحد على دراستها لأن ثمنها المتدني لا يفي بنفقات الدراسة وغيرها؛ حتى أصبح الفلاّح في حالةٍ من الضنك تُفتت أصلب القلوب. فهو لا يملك ثمن حذاءٍ ولا ثمن غطاء؛ ولولا ما يملأ به بطنه من «الفريك» لَما كان له أن يذوق طعاما.

ولقد كان على الحكومة أن تقتدي، في حال من الأحوال أو في ساعة من الساعات، بحكومات الأمم الأخرى؛ فتعمد الى شراء هذه المواسم بأسعار مناسبة، كما

تفعل الحكومة المصرية بالقطن، فتحمل الفلاح بهذه المساعدة على زرع أراضيه في العام القابل، وإلا فماذا تراه يغريه بالزرع وهو لا طاقة له على تكديس الموسم على الموسم، على ما يحذره من دبيب السوس والعفونة إليه؟

وإذا كانت الحكومات الوطنية لا تستطيع أن تحمي زراعة البلاد بواسطة الرسوم الجمركية لأنها في يد المسيطرين علينا، فلا نرى هؤلاء المسيطرين يمنعونها من اتخاذ التدابير في داخل البلاد كمشترى المواسم، وإعفاء الفلاح من الضرائب، إلى غير ذلك مما لا يمس المال الذي حبسه المنتدبون لأنفسهم بحق الفتح.

على أنه إذا لم تنهض الحكومات المحلية إلى معالجة الأمور، فليس بوسع لبنان منفرداً ولا بوسع سوريا، وجبل الدروز، واللاذقية، منفردين أن يأتوا بأي عمل يحفظون به كيانهم، فيضطرون والحالة هذه، إلى توحيد صفوفهم والقيام بعمل مشترك يُنقذون به بلادهم من الفناء المحتوم ما دامت الأرض لا تُزرع - وسوف لا تُزرع - وما دامت الأسواق لا تبيع - وسوف لا تبيع - وهل في سوريا ولبنان سوى هذه المحصولات الصغيرة من الحنطة والحبوب والفاكهة؟ فإذا هي بارت لعدم وجود المقطوعية، فمِن أين تتحرك الأسواق وتؤتى الخزينة بالمال؟ وهل يلامون بعد هذا إذا صرحوا في باريس وجنيف، أنهم عامدون إلى تصغير حجم الحكومة في لبنان، وهو المطلب الذي أجمعت عليه البلاد باستثناء الذين يعيشون على حساب الأمة؟

ولا نبالغ إذا قلنا إن القوم في لبنان لم يعودوا يبالون بتلك الخِدع التي جازت عليهم من قبل، فمزقت البلاد شر ممزق ووضعت زمامها في أيدٍ لا يهمها أعَمَاراً غادرتها، أم خراباً. وإلا فأين هي النهضة المتحمسة في درء المخاطر عنها، وهي بين أنياب الإفلاس في زراعتها وتجارتها؛ قد لا يطلع عليها فجر عام آخر إلا وقد عجزت عن الدفع ليس للدائنين وللخزينة فحسب، بل للحّام والفران والعطار وهلم جرا.

أجل، لم ينفرد لبنان دون سوريا بهذه الأزمة الساحقة. ولذلك فقد لمسنا ونحن في دمشق مثل الشعور الذي نُحسه في لبنان فلم نر لمعالجتها إلا توحيد الصفوف في مؤتمر عام يَنفذ منه إلى مطالب سياسية واقتصادية لا حياة للبلاد بدونها وإلا فمن الأفضل أن تُسلم مفاتيح المغالق وسكك الحراثة، إلى أولي الشأن يفعلون بها ما يبدو لهم.

نقول هذا ونحن لا نُضمر لأولي الشأن غِلاً، ولكنه التأثير الذي تركته في نفسنا مناظر الحقول الراقدة، والمواسم الكاسدة، والفقر الذي يعض على أعناق الفلاحين هو الذي أملى علينا. بينما نرى أولي الأمر ناعمين هانئين، غير حاسبين أن للفقر ثورته، وللصبر مُدته.

بشارة الخوري

البرق، ٢١ تموز ١٩٣٠، عدد ٣٢٦٩، ص. ١

****

في الحياة الاجتماعية

الما بين في لبنان

إلى أين المصير والقوم سكارى بخمرة المنافع، وخمرة الوجوه، وخمرة الكروم؟ إذا بقيت الحال على هذا المنوال فالمصير إلى الانحلال

لا نعرف شعباً كالشعب اللبناني لا هدف له في هذه الحياة. فهو قانع بأن يكون في حالته المنحطة، لا تنفتح له عين على ما يجري حوله في العالم، ولا ينبض له عرق في سبيل إثبات وجوده، ولا ينطلق له لسان للتدليل على كرامته؛ بل بالعكس. فهو آخذ في الانحلال تدريجيا تحت تأثير المخدرات من النكبات المحلية في المدائن والقرى، والتكالب على المصالح والمناصب في مجلسه وسائر دوائره، إلى ما هنالك من الشهوات تراق حيث يطيب لها، حتى تحت الراية الخافقة فوق ساعة السراي، وحتى تحت قبة البرلمان وهم مع ذلك يوجبون على الصحف أن تحترم من لا يحترم نفسه كأنهم نسوا قول الشاعر العربي الكبير من لا يكرِّم نفسه لا يُكرَّم(١).

وبعد، فإننا لنتساءل والخوف يملك علينا المشاعر: إلى أين تصير بنا هذه الحال وأولو الأمر عندنا فريقان: الروحاني الغارق في شهواته ولذاته يسخر لها نفوذه، والماديُّ الغارق في منافعه يسخر لها الهوى حيناً والدهاء حيناً آخر؟ كذلك كان «الما بين» قبل انهياره تسود فيه «الوجوه» وتتحكم فيه الدسائس، لا يفرق عنه إلا أن هناك كان للخصيان فيه السيادة، أما هنا فالسيادة للفحول كل الفحول.

وإذا شئت أن تكون المهذب القلم واللسان، بل إذا شئت أن تكون الوطني الذي حرق عمره على هيكل الأوطان، بل إذا شئت أن تكون العبقري الذي كسا بأدبه الفريد هام لبنان، إذا شئت أو بالأحرى إذا قدرت أن تكون جميع هؤلاء، فليس لك، عند أولي الأمر من الإكرام، قدر قلامةٍ، ولا أنت يُردُّ عليك السلام إلا انزعاجا، ولا أنت تصل إلى مطلبك لديهم ولو لفَّه الحق بجناحيه، وطبعه العدل على شفتيه.

لكنك تهتز لك القلوب قبل الأجسام، ويراق على قدميك الابتسام والإكرام، وتخضع لك المطالب ولو كانت حراماً، وتطوف بك الأماني مُداماً، وإن شئت فندامى؛ أجل إنك لتظفر بجميع ذلك إذا كنت وقح اليراع، لا يبالي بنشر الفضائح والمصائب - والأثيم جبان - فقُل لي، رعاك الله، إلى أين المصير مع هذه الحال؟ وقل لي كيف لا يملك الخوف علينا المشاعر من سوء هذا المصير؟

هذه الزراعة فاضت روحها بين الصخور والأشواك إذ ليس لها أثمان تفي ببعض أكلافها، وأجهزت عليها الرسوم الجمركية التي ضربتها عليها البلاد الأجنبية. ومع هذا فأين هو أثر نواب البلاد والحكام في رد هذه الفاجعة التي قامت لها المآتم في القرى والمزارع؟

وهذه الصناعة تعضُّ عليها جماركنا - نعم جماركنا - بالنواجذ قتلاً لها وإحياءً لغيرها. نضرب لك مثلاً صناعة الجلود، وما يكابد أصحاب المدابغ فيها من الضنك والقهر جيئةً وذهابا، والتماسا واسترحاما، وهم إلى هذه الساعة ينظرون إلى البرلمان (نعم هكذا سمَّوه) دون أن يسمعوا تحت قبته صوتاً نصيرا أو يلمحوا في «سمائه» أملا منيرا.

أما التجارة فالعياذ بالله منها؛ فهي كالمنشار تعمل فينا صعوداً ونزولاً. إذ ندفع ثمن ما نحتاجه منها مرتين: مرة في يد الجمرك، ومرة في يد التاجر. وتالله لو مثل الصبر نفسه لما استطاع على هذا الضيم صبرا. ومع ذلك فنحن دولة عندنا برلمان، وعندنا حرس جمهوري، وعندنا، وعندنا، وعندنا.. «وظُنَّ شراً ولا تسأل عن الخبر»[٢].

ويقولون لك مع هذا، إننا نعيش؛ ويدلّونك على ما يشاهدونه من البذخ الظاهر في مسارح البلد وملاعبها. وهم لو فَطنوا لأدركوا أن الذي يضحك لا يُبالي أن يضحك أمام الناس، أما الذي يبكي فيلجأ إلى غرفته وإلى الليل ليبكي.

فكم هو عدد الذين يضحكون في هذه البلاد ما عدا رجال السراي وفتيانها؟ والله - حلفة صادقٍ - لَنَعرفُ قوماً من كبار البيوت اللبنانية، بل هم في الذُّؤابة العليا من الوجاهة والفضل، بل هم من الذين عرفتهم مناصب الحكومة كابراً عن كابرٍ، وكان

اسمهم قريناً باسم لبنان قبل أن يخلقوا للبنان أسماء جددا، والله – حلفة صادق – لنعرف عدداً من هؤلاء: يشكون إلينا عجزهم حتى عن تأدية بدل الجريدة، ويلتمسون بانكسار أنهم في حاجة الى الستائر يُرخونها على بؤسهم حجباً له عن العيون! ووالله إن جميع ما في لبنان من الضحك لَيَغرق في دمعة واحدةٍ من هذه الدموع التي ظهَّرها الألم والخشوع!

نقول دون خشية: إن لبنان سائر في الطريق المُعَجِّل إلى فقدان مزاياه، وإغراق جنسيته في جنسيات الأمم الغريبة التي أدخلوها عليه. ونقول دون خشية: إنه إذا لم يتكاتف جميع أبناء البلاد من مسلمين ونصارى، على إقالتها من عثرتها، فهي صائرة إلى حتفها القريب؛ وسيكون أغنياؤها المستكلبون على حطام الدنيا عبيداً مرتين – مرة لأموالهم – ومرة لأسيادهم الجدد، وسوف يرون.

بشارة عبدالله الخوري

البرق، ١٩٣١، عدد ٣٣٩١، ص ١

****

الهجرة اللبنانية

ماذا يُعوِزُ العيد
أين المهاجـــرون؟

غداً[1] يُعلِنُ الجنرال غورو باسم فرنسا، تأليف «لبنان الكبير» وعاصمته بيروت: يعلن لبنان الكبير على ما شاءه اللبنانيون: وطناً حُرّاً مستقلاً، متكئاً على ساعد الأمة الفرنساوية الكريمة

إن فرنسا التي وعدت بتكبير لبنان، وأنجزت، وعدت أيضاً بلبنان المستقل بحكومته النيابية، وعلى رأسها إما أمير وإما رئيس، وستُنجز. إن فرنسا تعودت أن تقول وتفعل، أو أن تفعل دون أن تقول.

ولكن لفرنسا أن تسأل عن الذين طلبوا لبنان كبيراً مستقلا، لتضع هذا الوطن في عهدتهم، كما ستضعه في عهدة من انضم إليهم من أبناء البلدان الأخرى فماذا نُجيبها؟؟؟

لا خلاف في أن الذين أوجدوا فكرة «لبنان الكبير» هم أبناء «لبنان الصغير» وفي طليعتهم المهاجرون منهم – لقد طلبوا إلى فرنسا لبنان كبيراً، فاشترته لهم بالدم والمال، فأين هم هؤلاء الطالبون ليستلموا الوديعة؟

إن اللبنانيين المتخلفين – أي أبناء «لبنان الصغير» – ليسوا بالأكفاء لهذه المهمة كما يقول بعض الصحافيين المهاجرين

أجل، إن المتخلفين لَيَعجزون عن القيام بهذا العبء دون المهاجرين؛ إذ ليس في الجبل اليوم من أبنائه سوى الفقير العاجز، أو الغني الغبيّ، أو الرئيس الكسول هذا عدا عن القلة القليلة الراقية التي تضيع بين هذه الجذوع العتيقة، وكلنا نعلم أن المهاجرين هم أكثر نشاطا، وأكثر اندفاعا، وأكثر وسائل لجعل لبنان على ما حلمنا ولا نزال نحلم به: مملكةً صغيرة مسالمة لها من شرف فرنسا وعطفها أكثر ضامن في هذا الوسط المضطرب بأمواج التعصب الطائفي، وهو سُمُّ الوطنية القتَّال.

قلنا إن أصحاب فكرة «لبنان الكبير» هم أبناء لبنان الصغير، وهم الذين طلبوا ضم بيروت وصيدا وحاصبيا وراشيا وبعلبك وطرابلس إليهم. ولا نكران أن المتخلفين منهم هم حفنة صغيرة في هذا المجموع الساحلي الكبير. فإذا تقاعس المهاجرون، وجُلُّهم من الجبليين، عن الرجوع إلى الوطن، فتكون النتيجة من تكبير لبنان، هي إذابة البقية الباقية من أبناء الجبل في بوتقة كبيرة، لا تلبث أن تغيب فيها - وعندئذٍ تكون النتيجة أن لبنان انضم إلى غيره لا أن غيره انضم إليه.

إن كلمتنا هذه هي صدىً لكلامٍ فاه به أحد المجاذيب من متوجهي بيروت في زحلة، إذ زعم أنه ورفاقه، سيسيطرون على لبنان (هذا إذا انضم لبنان إلينا)، (والضمير راجع للذات[٢] المومى إليه) إلى آخر ما زعمه مما يريد أن يظهر به في مظهر الآمر الناهي في المسائل العمومية التي منها ضمُّ لبنان إلى بيروت.

إن أمثال هؤلاء الذين نفّروا إخواننا المسلمين عن السياسة الفرنساوية في أول الانقلاب، قد يُنفرون إخواننا الجبليين (أبناء لبنان الصغير) ولا نقول عن فرنسا، لأنهم أصل في حبها، بل قد ينفرونهم عن إدارة الحكومة إذا كان لهم إصبع غليظ فيها.

أما وقد علم إخواننا المهاجرون ما علموا، فلا نظنهم يتأخرون، إذا هم شاءوا أن يحفظوا عزة هذا الجبل، عن أن يرجعوا إليه، وهناك في بيروت «عدا وجيهنا وأضرابه» وفي جبل عامل وحاصبيا وراشيا وبعلبك وطرابلس، هناك في هذه الأماكن المحبوبة من لبنان، إخوان كرام وأحباب كرام يرون في إخوانهم الجبليين الوفاء المُجسَّم، والحبُّ الأكيد، والمصلحة المتبادلة.

إن عيدنا غداً مهما سيكون عليه من عظيم الأُبهة، ومهما سيُقام فيه من معالم الزِّيَن، ومهما ستتم فيه من الأماني، إن عيدنا هذا سيُعوزه شيء هو أغلى وأحب وأفيد من كل ذلك، سيُعوزه أبناؤه المهاجرون.

البرق، ٣١ آب ١٩٢٠، عدد: ١٠٧٦، ص:١

****

دمعة على الطلل البالي

ماذا يفيد جمال القفص إذا لم يصدح طائر فيه

بالأنين يُعرف ألم الجرح فإذا أنت سمعتنا نئنُّ، فقُل إن هنالك جُرحاً بليغا. وأي جرحٍ أذهب بالحياة من جرحنا، وإن شئت فقل: من جراحنا لأنها - ويا للأسف - كثيرة خطيرة؟

ما الناس على سطح هذه البقعة اللبنانية سوى دمائها. هم الذين يبعثون الحياة فيها بما يغرسون، وبما يشيدون، بل بما يتبادلون من المصالح وبما يُنفقون. سُنَّة الله في العمران: ما قام قائمه إلا على أسس هذه الزراعة والصناعة والتجارة ولا قائمة لهذه، إلا بالبشر يُشمِّرون لها السواعد، ويرصدون لها الأوابد والشوارد؛ ثم بالإثراء مما ينتجه الكدُّ، ويحفظه الاقتصاد فيتسع بذلك نطاقهم، ثم يستمطرون سحب الغير بما يُصدرون من فضلائهم. فإذا ما اختل ذلك في بلد - وهو مختل عندنا - فقل على ذلك البلد السلام.

هذه صخورنا شواهد عدلٍ على نشاط اللبناني. فلقد مهدها ترابا أنبته إثراءً ذلك يوم كان يقنع بالعباءة والعمة البيضاء

أما وقد دخل التفرنج أو الترفُّه إلينا، فاستنزف كل دمنا ولم نستنزف قطرة من دمه، فلم يعد ذلك النشاط مفيداً لا يثمر بعض حاجة اليوم، وما أدراك بحاجة اليوم.

فكيف بنا وهذه قيود الديون العمومية تُثقل أعناقنا؟ فقد ملكت علينا البحر وأعوزتنا حتى إلى الملح، ثم أعملت فأسها بكرمتنا، فلم تُبق عليها ولم تذر، واسترقّت تجارة الكحول فينا في عهدٍ لا ظِلَّ للرقيق فيه إلا على هذا الشاطئ التاريخي.

وماذا نقول عن الريجي[1]، وقد قتلت التبغ؟ بل ماذا نقول عن الامتيازات الأجنبية وهي ذلك الصليب الأسود القائم على قبر هذه الأمة؟.

ليس العجيب أننا لا نسير إلى الحياة، بل العجيب أن يبقى فينا بقية حياة!

ومع ذلك قالوا لنا: لا تيأسوا ! فلا بُدَّ ليوم الخلاص أن يأتي، وكلُّ آتٍ قريب؟

ولكن البواخر في كل أسبوع، تنقل المئات من هذه الكُروات الحمراء من السواعد المفتولة العاملين في الأرض وفي المخازن، المنتقلين بنشاط بين المدن والدساكر[٢]، زُرَّاعا وتُجَّارا وصُنَّاعا.

أو ما قرأت – في ما تقرأ – من الأخبار، أن الباخرة هذه سافرت تُقلُّ مئتين، وتلك ثلاث مئةٍ ضاق بهم الرزق – وكيف يتسع – فتركوا الدار تنعى القائمين فيها، وهاجروا تاركين فراغاً لا يُملأ بالسنين الطوال؟ بل إن ذلك الفراغ يتسع يوماً فيوماً باللأحقيهم من أبناء البلاد – الدافعي الضرائب – القائمة على أكتافهم دوائر الحكومة وملايين غروشها.

إنه لهول جسيم أن لا نُبالي بهذه الكوارث، وهي الموت يفغر فمه إذا لم نعاجله بالضربة القاضية، كان كالبحر ينشق للصخرة الهاوية، ثم يبتلعها. وكالرجم يشق جوف الليل ثم يكتنفه.

وهب نهضت الحكومة بهذا الشعب يوماً، بأن فككت عنه قيوده فألغت الامتيازات الأجنبية، وأبطلت الديون العمومية، وأنشأت شكل إدارة تقتصد به نصف نفقاتها من معاشات ولوازم، هب أنها شادت القصور تُناطح السحاب، ونفخت في الحقول روح الشباب، هب أنها فعلت ذلك ولم يكن في الديار ديار!!!

فماذا يُفيد جمال القفص إذا لم يصدح طائر فيه؟؟

بشارة عبدالله الخوري

البرق، ١٩٢٢، عدد: ١٦٩١، ص: ١

****

المهاجرة في البيان الوزاري

وما صبابة مشتاق على أمل
من اللقاء كمشتاق بلا أمل

مغالطات الحكومة - هجرة الأمس واليوم

وخاض بعض الجرائد في موضوع المهاجرين الذين يبحرون أفواجا من السواحل اللبنانية إلى البلدان الأخرى طلبا للقوت الذي لا يجدونه في وطنهم ثم ذهبت إلى أن السبب في هجرتهم هو ثقل الضرائب. فأقول

لا يخفى على أحد أن عبء الضرائب في لبنان القديم كان خفيفا جدا فبأي تفسير يفسرون هجرة ٢٠٠ ألف لبناني في خلال ٣٠ سنة قبل الحرب العالمية مع وجود نظام للضرائب خفيف الظل؟ لا شك ولا ريب في أن سبب تلك الهجرة لم يكن شدة العسف والجور من حكومة الجبل، فإذا لم يكن السبب وقتئذٍ عبء الضرائب أو عسف الحكومة فما هو السبب يا تُرى؟

إن الذين يهجرون الوطن في هذه الأيام لا يقدمون على ذلك بسبب الشقاء والبؤس بل لرغبتهم في اجتناب العمل في الحقول وفي احتراف حرفة تكون أقل تعبا وأكثر ربحا من ذلك العمل.

- من البيان الوزاري -

سنتناول البيان الوزاري نقطة نقطة من سطره الأول إلى سطره الأخير ولكننا رأينا أن نخترق السطور الأولى إلى البحث في المهاجرة بسبب البيان الذي نشرناه أمس للوزير الأول[1] وقد جاء فيه أن عدد المهاجرين الذين تركوا لبنان من أول كانون الثاني ١٩٢٦ إلى ٢٢ تشرين أول من السنة نفسها بلغ عشرة آلاف، مع أن المستفاد

من المعلومات الرسمية أن مجموع عدد الجوازات التي أعطيت للبنانيين في المدة المشار إليها بلغ ٩٨٥٠، فيكون الفرق بين الحكومة والصحف ١٥٠ فقط، هذا إذا لم يكن هناك من سافر بدون جواز، وعلى كل فقد كان الأجمل بالحكومة أن تتغاضى عن هذا التصحيح إذ ليس هناك كبير فرق في الرواية.

هذا ما حدانا إلى اقتحام البحث في المهاجرة ومناقشة الحكومة في ما حسبته مبزرا .... راكبة إليه متن المغالطة.

إن مهاجرة اليوم يا حضرة الوزير الأول ليست على شيء من مهاجرة الأمس لا في روحها ولا في مغازيها، فلقد كانت مهاجرة الأمس على نية رجوع المهاجر بالثروة إلى لبنان وإلا فمن أين للبنان هذه البنايات المسقوفة بالآجر وهذا الرخاء الذي كان له يوم كانت أموال المهاجرين، والمهاجرون أنفسهم، ينصبون في ميناء بيروت حاملين الحياة والرخاء للجماد والأحياء، بل أين كانت هذه الطرق المعبدة التي امتاز بها لبنان دون سائر بلاد العالم؟ أفهو فقره؟ أم هو سفر اللبناني على نية أن لا يرجع؟

هو كما تقول يا حضرة الوزير الأول «إن عبء الضرائب كان خفيفا في لبنان القديم ومع ذلك فقد كان تيار المهاجرة جارفا».

لقد جئت بالحجة على نفسك من حيث أردتها حجة لك. فإذا كان اللبناني يهاجر يوم كانت الضرائب خفيفة، نقوم فنرهقه اليوم بضرائب أشد وابهظ لنزيد في تنفيره؟؟ ولو أن الحكومة عملت شيئا في سبيل إنماء الثروة المحلية لكان لها عذرها في زيادة الضرائب، أما وهي لم تعمل شيئا فكأنها ساعدت المهاجرة على الاستفحال، ومع ذلك فهي تعنف الصحف إذا هي تخوفت هذه المغبة.

أجل «لقد كان عدد الأهلين آخذاً في الازدياد بحيث ضاق لبنان عنهم وهو مؤلف من صخور صماء وقمم جرداء» ولكن ذلك يا حضرة الوزير الأول كان قبل الحرب العالمية وأنتم لا تجهلون عدد الذين افنتهم الحرب ولا تنسون المئتي ألف الذين سلبتهم المهاجرة، فهل يجوز أن يقال اليوم إن ازدياد عدد السكان هو سبب هذه الهجرة وليس

في لبنان سوى قبضات صغيرة آخذة بالتفلت حتى ليخشى إذا استمرت الحكومة تنخدع بنظرياتها هذه أن لا تثبت هذه البقايا في بلادها.

ومن المدهش زعم البيان الوزاري أن سبب الهجرة ليس هو الشقاء والبؤس، فكأن ما أنزلته الثورة بإخواننا في الجنوب والشمال ليس شقاء وبؤسا، وكأن الأزمة الاقتصادية التي لم تمد الحكومة يداً لتفريجها [ليست] شقاء وبؤسا، وكأن استنزاف دم اللبنانيين بالضرائب لترفيه الموظفين ليس شقاء وبؤسا؟ فإذا لم يكن كل هذا شقاء وبؤسا فبالله دلونا على الشقاء والبؤس لنتعزى قليلا عن الحالة التي نحن فيها.

يقول البيان الوزاري «إن الناس في الشرق تعودوا أن يحسبوا الحكومة مصدر كل خير وكل رخاء والحقيقة هي غير ما يظنون» ولو فكّر واضعو البيان الوزاري قليلا لرأوا ان من حق الشرقيين أن يحسبوا الحكومة لا مصدر الخير وحده بل مصدر الضير أيضا، ذلك أن الشرق تعود السيادة المطلقة فهي وحدها دون الشعب كانت تصرف مقدراته على ما يرتئيه السيد المطلق، فلا لوم إذاً على الشعب في اعتقاده وهو لم يخلع ثوبه القديم بعد، أما إذا كانت الحكومة تريد أن تقف موقف الحكومات الدستورية التي لها شعورها المشترك مع طبقات الشعب، فلماذا لا تحذو حذوها في مساعدة شعبها؟ وأقرب مثال على ذلك موقف حكومة أميركا تجاه الأزمة القطنية وإمدادها المزارعين بالمال ليقووا على الاحتفاظ بأقطانهم فلا تباع رخيصة وما يقال عن أميركا يقال عن مصر أيضا؛ فهل برهنت الحكومة يوما على مثل هذا الشعور؟.

وهناك ما هو من الغرابة بمكان بعيد ألا وهو زعم البيان الوزاري أن عدد المهاجرين اليوم إذا قيس بعددهم قبل الحرب تراه بالنسبة أقل منه، فهل رأيت أغرب من هذا القول؟ فإذا افترضنا أن عدد اللبنانيين كان منذ ثلاثين سنة ٥٠٠ ألف نفس سافر منهم خلالها نحو ٢٠٠ ألف نفس، فماذا تكون النتيجة إذا كان الباقي في جبل لبنان ٢٥٠ ألفا وكان يهاجر منهم ٥ آلاف كل سنة؟

ثم أفلا يرى أصحاب البيان الوزاري أن ضياع الواحد من خمسة أوقع في النفس وأدعى إلى اليأس من ضياع عشرة من مئة؟.

وإذا أضفنا إلى ذلك أن مهاجري اللبنانيين قبل الحرب كانوا ينتظرون يوم الخلاص من الحكم التركي ليعودوا بثرواتهم إلى لبنان حتى إذا جاء يوم الخلاص الموهوم زاد نفورهم وزادت هجرتهم.

هذا بعض ما حضرنا من تفنيد ما جاء في البيان الوزاري في موضوع المهاجرة وحسبك به الآن.

بشارة الخوري

البرق، ٣١ تشرين الأول ١٩٢٦، عدد: ٢٦٦٥، ص ١

****

الجنسية الضائعة

قانون الحكومة لا يتقي نكبة لوزان

عندما تقرأ ما نحن ناقلوه عن الرصيفة الكبرى «الهدى» حول تعطيل «البرق» وزميلاتها، وعندما تلمس تلك العاطفة الكبيرة الصادرة عن ذلك الزميل الكبير[١]، وعندما ترى تلك النجدة القوية التي حملتها صحافة الإخوان المهاجرين، عندما ترى كل ذلك يبدو لك بعض السبب في اندفاعنا لمحاربة تلك المعاهدة التي تبتر منا تلك القوة، حتى إذا نزلت بنا نكبة وارتفع لها صوت أولئك الإخوان قالوا لهم: رويدكم فما أنتم من لبنان ولا للبنان كما قضت به معاهدة لوزان[٢].

ولقد كنا نرجو أن تنهض الحكومة اللبنانية ومن ورائها البرلمان فيتبرأوا من تلك المعاهدة، إذ أي شأن لسادة «لوزان» معنا حتى يتحكموا بما هو من حقنا كأنما الجنسية اللبنانية صباغ في يدهم لتلويننا بما يرتأون.

ولقد كان لنا بعض تعزية أو لمسنا في صدر الحكومة اللبنانية شبه عاطفة، أو سمعنا لها شبه غضبة أو أثبتنا لها شبه مأثرة، فإذا هي تعللنا بمشروع قانون وجوده وعدمه سيان، ولم يدهشنا كالأستاذ إدة حين شكر للحكومة مشروعها هذا كأنه رأى فيه شفاء الغليل ،وما هو إلا تعلة بتعليل، اللهم إلا إذا رأى الأستاذ فيه ما لم نره حتى أدى للحكومة تلك الشهادة التي توكأت عليها في بيانها وكانت تغريرا.

لقد طالع القارئ كلمتنا أمس وطالع كذلك القانون الذي وضعته الحكومة زاعمة أنها ضربت به معاهدة لوزان على رأسها، وخلاصته هي «إن كل لبناني مهاجر يعود إلى لبنان وتتوفر فيه بعض الشروط يستطيع استرجاع الجنسية اللبنانية».

ومعنى ذلك أن كل لبناني قبل سنة ١٩١٤ لا يعود إلى لبنان ولم يتقدم إلى القنصليات الفرنساوية قبل ٣١ آب من عام ١٩٢٦ تسقط عنه الجنسية اللبنانية.

فالأستاذ المكرزل مثلا ذاك الصحافي الذي أدى لبلاده ما أدى من الخدمات الجليلة إذا هو لم يتقدم إلى القنصلية وإذا لم يعد إلى لبنان تسقط عنه الجنسية اللبنانية وهكذا قل عن كل لبناني مهما كانت مكانته، وسمت مروءته، واتقدت وطنيته.

أفإذا كان هذا ما يستفاد من قانون الحكومة وهو - كما ترى - لم يفد شيئا، أفإذا كان هذا هو قانون الحكومة الجديدة فأية ميزة له عن قرار رقم ١٥ الذي وضعته حكومة المسيو كايلا[٣]، وقد منحت المادة الثالثة كل أجنبي حق التجنس بالجنسية اللبنانية بأخف من الشروط التي أودعتها الحكومة في قانونها.

نحن لا نقول إنه لا ينبغي للبنانيين المهاجرين أن يتقدموا من القنصليات لتثبيت جنسيتهم فإن ذلك أول الواجبات عليهم، ولكننا نعلم أن هناك كثيرا من الموانع التي تحول دونهم ودون هذه الرغبة وأهمها تغلغل معظم اللبنانيين والسوريين في أقاصي البلاد وتأثير الدعايات على البعض الآخر، وقد كان للثورة مهمازها الشديد في هذه الدعاية فلا يجوز والحالة هذه أن نقفل الباب ونحكم إقفاله.

ولم نكن لنعير هذا الأمر كبير أهمية لو كنا أي بلد آخر من الذين يشملهم حكم معاهدة لوزان، لو كنا الأتراك أو المصريين أو العراقيين لأن ليس لهؤلاء ما لنا من المهاجرين. أما والهجرة اللبنانية السورية قد طغى طوفانها، أما وقد أصبح اللبنانيون خارج لبنان أكثر من اللبنانيين في لبنان، وأغزر ثروة وأعز مكانا، فمن الحيف بل من الغباوة التي لا غباوة بعدها أن نسكت عن هذه الجناية التي يريدون أن يجنوها علينا بحكم مستبد قاهر.

فنحن والحالة هذه نعتبر أن القانون الذي وضعته الحكومة إنْ هو إلا ذر الرماد في العيون، كأن هذه العيون لا يكفيها ما فيها من رماد.

بشارة الخوري

البرق، ٧ تشرين الثاني ١٩٢٦، عدد: ٢٦٦٩، ص: ١

****

من لهذه الراية

البرق يستقبل جديده

أيْ رايةَ الوطنِ، أين أنتِ؟

للهِ أنتِ طريحةً كالحسام المحطَّم في ساحة الوغى!

معفَّرة بالدم والدمع!

مُلقاةً كورقة الريف[1] المهترئة عند الجذع النَّخر!

عاريةً حتى من عواطف المُشفقين.

حتى من دمعة الأفق التي على النبتة الحقيرة

لله أنت من راية!

أيْ راية الوطن أين أنتِ!

لا أبالي اللون الذي تلبَسينَ.

ولا الخيط الذي منه تنسجين.

ولا المكان الذي عليه تُرفعين.

على أن لا يكون كنيساً ولا كنيسة.

على أن لا يكون مسجداً ولا مُقاما.

على أن لا تكوني إلا لنا ومنّا وفينا.

على أن لا تكوني إلا لنا مجتمعين متحدين متضامنين.

ولكن لله أنتِ! أين أنت؟

لِمَنْ هذه الرايات الخوافق.

يتلاعب بها الهواء؟

تَتَبَسم بها الألوان؟

تسيل عليها النفوسُ؟

تتهدَّجُ تحتها الأصوات؟

للمسيحيين راية.

للأرثوذكس راية

للدروز راية.

للكاثوليك راية.

للموارنة راية.

لله أبينا، لقد أزرينا على المعرض بما عرضناه. لقد حقَّت علينا الغرامة وحق علينا الاحتجاج!...

وأخيرا اهتديت إليها، اهتديت إلى الراية الوطنية.

يا لها من قصبة ضعيفة، عليها خرقة بالية، مُتكئة على القصبة اتكاء اليتيم على صدر العجوز اليابس.

عزلوها كأنها الأجرب.

تربَّبوها[٢] كأنها الليل .

أنكروها كأنها العار.

إن للطوائف راياتٍ لها جنودُها

وإن للوطن رايةً.

فمَنْ لهذه الراية...؟

الأخطل الصغير

البرق، ١٩٢١، عدد ١٢٦٧، ص ١

****

لو ملكت الأمر يوما وليلة

لقــد كنتُ قــبلَ اليــوم أنكِرُ صــاحــبي
إذا لــم يــكــنْ ديــنــي إلــى ديــنــه دانــي
وقــد صــار قلبي قــابـلاً كلَّ صــورةٍ
فــمَــرعىً لغِــزلانٍ ودَيْرُ لِرُهبــانِ
وبـيتٌ لأوثـانٍ وكَــعْــبَــةُ طائـفٍ
وألـواحُ توراةٍ ومُــصــحَفُ قــرآنِ
أَدينُ بـديـن الحُـبِّ أنَّـى تـوَجَّــهتْ
ركــائبُــه فــالحُبُّ ديني وإيماني[1]

ابن العربي

لو ملكتُ الأمر في هذا البلد يوماً وليلة؛ لو ملكتُ أمر القدير المستبدِّ، لأحدثتُ في الناس أمراً يبقى مضرب المثل إلى يوم القيامة.

وبدأتُ بالمدارس، فأمرتُ ذويها بأن يجعلوا أبيات ابن العربي هذه، صلاة الطَّلبة صغاراً وكباراً.

وأمرت بأن تُشرح بحيث تُصبح مع شرحها، الكتاب المقدَّس لهذا الوطن، لا يحفظون غيره ولا يدينون إلا به.

ولأمرت المجلس البلدي بأن يقتطع أجمل وأشرف بقعة من الأرض فيقيم لهذا النبيِّ الجديد تمثالاً من أجمل التماثيل.

ولأمرت الحفَّار بأن يجعل يُمنى التمثال ممدودةً، يُعلِّقُ فيها لوحاً هو أشبه بلوح الوصايا العشر، مكتوبة فيه هذه الآيات تُقرأ نهاراً، وتقرأ ليلاً بواسطة الكهرباء.

ولأمرت الناس - أبناء هذا الوطن - أن يزوروه كلَّ عام وأن يضع كلُّ زائرٍ منهم ما يستطيعه من المال: من الطفل الرضيع إلى الشيخ الهاوي.

ولأمرت بأن ينشأ من هذه الأموال رسالة للتبشير تكون لها المدارس والمياتم والملاجئ

ويكون لها يد فعالة في كل صناعة، وفي كل قوة.

ويكون لها صحافة.

ثم إذا انتشر «نور الله هذا» على هذه البلاد فعمَّ الشعب بجملته، أنشأنا حكومة.

ومتى كان لنا حكومة قلبها دير رهبان، وبيتُ أوثان، وألواح توراة، ومُصحف قرآن، متى كان لنا مثل هذه الحكومة على مثل هذا الشعب، كان لنا من كل دولة عاطفة وفي كل أمة ضلع، وكان لنا إصبع في كل دين على السواء.

ولأمرت بتشييد هيكل لا أسمح بأن يعلو أو يكبر عليه هيكل: خالٍ إلا من الجلال. واخترت أبرع الرسامين، وأمرته بوضع صورةٍ تُمثلُ موسى والمسيح وأحمد، متفاهمين، متصافين، متلازمين وفي زاوية من هذا الرسم صورة هارون وبطرس وعلي[٢] وفي يد كل منهم إما كتابٌ، وإما ورقة يتباحثون في ما كتبوا ويتناقلون ويتوحدون.

ومتى تم بناء هذا الهيكل أطلقت عليه اسم هيكل «ابن العربي» إقرارا بفضله.

ثم أمرت الناس فدخلوا إليه أفواجاً أفواجا؛ فما هم إن رأوا ما رأوا حتى سجدوا خاشعين، وحتى تنقَّت ضمائرهم، فأصبحت كثلج صنين، وحتى قالوا. رب كيف ضللنا طوال السنين، فما كان لنا من هادٍ؟ لماذا لم نعرف قبل اليوم أن رُسُلك على وفاق؟ إننا اختلفنا حاسبين أننا نُرضيهم، فكنا من الخاسرين.

وكان صباح وكان مساء فإذا بيومَي سيادتي انتهيا، ولكن بعد أن جعلتُ من هذا الوطن البالي وطناً فتياً في بُنيته، كبيراً في فكرته

والحمدُ لله من قبل ومن بعد.

البرق ، ٢١ تموز ١٩٢٣، عدد ١٨٨٠، ص ١

****

إلى أخي في عيده
عاطفة تتجدد

من أديب مسيحي

إلى أديب مسلم

يا له من موقف...!

العيدُ غداً عيد أخي. فماذا أعددت للعيد؟!

أيّة زهرةٍ جميلة!

أيّة نغمةٍ طيبة!

أيّةَ عاطفةٍ رقيقة!

لقد ظمئت هذه النفوس إلى الحب.

ظمئت إلى مجالس اللهو والأُنس.

ظمئت إلى الكأس الصافية والنفس النقية.

الهواء والماء لي وله

الشقاء والهناء لي وله

والتراب الذي نستحيل إليه غداً، ستضربه العاصفة فيمتزج فيكون منه بَنونا.

ماذا أعددت للعيد؟

العاطفة الكريمة في الصدر الكريم، تستطيع أن تُحولّ الشِّقاق وئاماً، والخصام سلاماً، والبكاء ابتساماً.

ليت لي أن أصوغ الأزهار ثُغورا!

وأعكس عليها الكواكب نورا!

وأرسم العواطف في القلوب سطورا!

وقليلُ عليَّ ذلك في عيده.

في عيد أخي.

أخشع للجامع من أجله.

لأنني رأيته خاشعاً فيه

وأحب كل «أحمد» من أجله، لأن أحمد اسمه.

والبيت الذي أحبُّه.

والصحن الذي أشبعَه.

والكأس الذي أنعشَه.

أحبُّ كل ذلك من أجله.

من أجل أخي.

كانت لنا وقفة على الرمل منذ أيام.

قال لي والدمعة تجول في عينيه:

هذه هي الحفرة التي تضم إخواننا ممن قتل (جمال).

أزل هذا التراب عنهم، وانظر إلى امتزاج هذه العظام البوالي!

وميز – إذا استطعت أن تميز – «أحمد» من «سعيد»!

ويحنا، كيف وحدتنا المصائب ومزجتنا المنايا؟

فعلام تُفرقنا الحياة على قصرها وغرورها؟

وجاءني يوماً بجريدة مصرية قال لي اقرأ

– قلت ماذا؟.

– المسلمون والقبط يتعانقون. وكانت الدمعة تجول في عينيه، ولكنها دمعة السرور كانت.

أصبح الجامع كنيسةً والكنيسة جامعا.

تبادلت القسسُ[1] والأئمة، المنابر.

ثم قال: ومن هم أساتذة مصر الحديثة سوى الهابطين إليهم منّا[2]؟.

أنحمل النور إلى العالم، ولا نترك قبسةً منه لنا؟

أيُّ كُرمٍ كان بين المسلمين والقبط؟

لله مصر وكرام بنيها!

ليت لنا بعض تلك المحافل!

وجاءني يوماً آخر، وفي يده بعض الجرائد وكان وجهه متجهِّما، وجبينه قاطباً، وعلى شفتيه صُفرة الموت.

وطرح الجرائد أمامي مغضباً.

قلتُ: ما بالك وما هذه؟

قال هذه جرائدكم فبئست من جرائد.

قلت: لماذا؟

قال: زعمتم أنكم نور الأمة فكنتم ظلامها؛ وهُداها، فكنتم ضلالها؛ وهناؤها فكنتم شقاءها.

قلت: ولكنها السياسة، ولكنها اختلاف الأفكار.

قال: إنكم تفعلون غير ما تقولون.

رأيتم موضع الضعف في الأمة، فضربتم عليه.

أثرتم العاطفة القتالة بما أوقدتم تحتها.

كلكم يدعي الحق، وكلكم مخطئ.

لو حسنت نياتكم لحسنت أعمالكم.

النجاح لا يكون بدون تضحية. فمن هو الذين ضحّى بأنانيته منكم؟

تعلمون أن الشعب عبْد عاطفته، فمن هو الذي راعى تلك العاطفة؟

لو احترم كل منكم عاطفة أخيه، لما كنتم حيث أنتم

لا تكونوا حطبا للموقد إن كنتم تعقلون!

وكان شعاع الحكمة يلمع في عينيه الجميلتين، وكنت لا أزال كأني منطلق في عالم روحي.

لا تزال ذكرى ذلك الأخ مالئةً نفسي

لقد مضى على اجتماعنا الأخير عشرة أيام حسبتُها عشرين عاما.

وذكرتُ (الأضحى) غداً، فقلت أنظم هذه العاطفة إكراماً واحتراماً، وأنثر حكمته على الناس إقراراً وعرفاناً، وأدعو إلى نُصحه الإخوان لعلهم يرشدون.

العيد غداً عيد أخي، فماذا أعددت للعيد؟

أية زهرة جميلة!

أية نغمة طيبة!

أية عاطفة رقيقة!

الهواء والماء لي وله.

والهناء والشقاء لي وله.

والتراب الذي نستحيل إليه غداً، سيضربه الريح فيمتزج، فيكون منه بنونا.

أيلول ١٩١٩

بشارة الخوري

البرق، ٢٢ تموز ١٩٢٣، عدد: ١٨٨١، ص١.

****

بناياتنا الوطنية
لا تقوم على المجاملة الدينية

لم تصدر «البرق» ولا غيرها من الجرائد المسيحية مجاملة للإخوان المسلمين في عيدهم.

أن نتبادل الشعور بين أبناء الوطن جميل. فهو طريق إلى بناية الوطنية، ولكنه لا يصح أن يكون أساسا لتلك البناية.

ولقد كان هذا التبادل بالشعور، وهذه المجاملة بين أبناء الوطن، أكثر فائدة وأطول حياةً، لو هي جاءت على غير ما تجيء به اليوم: تآخي الأديان، كأن الأديان هي الألف والياء من حياتنا، كل حياتنا..

إننا بمعالجتنا انقساماتنا الدينية، بالمجاملات الدينية، نكون قد (داوينا الداء بالتي كانت هي الداء) وما أبو نواسٍ[1] بابن سينا[2]، لنتَّبع تعليمه.

كلنا نشكو من أن سبب خمولنا وضعفنا، هو هذه الخلافات الدينية وحملها من المساجد الى الساحات العمومية، والنوادي السياسية. أفلا ترى أننا، بإقامتنا مبدأ التفاهم والاتحاد في ما بيننا، على الأساس الذي شكوناه، يُعدُّ ضربا من الحُمق، ولا يتفق في شيء مع النهضة العصرية والوطنية الحديثة التي لا تعرف غير المصلحة المجموعة والشرف العام؟

إذن، فمعانقة الصليب للهلال، وقُبلة الكاهن للشيخ، وزيارة المسلمين للكنائس، والنصارى للجوامع، ليست سوى كثبانٍ من الرمل، إذا ضربتها الزعزع، نسفتها نسفا.

وإذا تنكر الكاهن للشيخ، أو الشيخ للكاهن؛ أو إذا قامت دولة للصليب على دولة للهلال، أفما ينبغي - وقد بنينا وطنيتنا على هذين - أن يغضب صليبيونا للصليب وهلاليونا للهلال، المتنازعين في وطن غير وطننا وفي قوم غير قومنا؟

وما هي إلا رفَّةُ جفن حتى ينهدم ما بنيناه من بنايات الوئام وصروح الوطنية - هذا إذا كان أساسه المجاملة الدينية كما هو شأننا

بل لماذا تتحارب ملوك الإسلام ولم يجفّ تراب الرسول بعد؟ ثم لماذا تتحارب الدول المسيحية ولكلها راية للصليب رسم عليها؟؟؟

إنهم جعلوا سلامة الوطن فوق الأديان، وإنهم عزلوا الأديان جانباً عن كل ما يتناول المصلحة الوطنية.

بهذا اتحدوا وبهذا تعلّوا وبهذا استقلوا، وما أبعدنا نحن عن كل هذا؟

إن الدين عاطفة، والعاطفة مصدرها القلب، والقلب سريع التقلب أو قُل سريع التأثر.

فلا يجب أن نُعلق حياة وطن بأسره على عاطفة تتخذ لكل حدث لونه

وسيذكر الذاكرون أننا سنبقى على حالنا من الانحطاط، ما زالت هذه حالنا وأنه لن يبدل ما علينا حتى نُبدل ما في أنفسنا[٣].

فإذا كان أبناء هذا الوطن يريدون حقيقةً أن يُغيِّروا ما في أنفسهم، فعليهم أن يتجردوا من كل عاطفة دينية في المسائل الوطنية، وإذا أرادوا أن تكون بنايتهم هذه طويلة العمر، متينة الأساس، فليبنوها على غير معانقة الهلال للصليب، ولا مبادلة التزاور بين الكنائس والجوامع.

إن للوطنية هيكلاً أسمى وأعظم من كل هيكل إن للوطنية هيكلاً لا يعرف ديناً إلا إذا اعتُبرت المصلحة الوطنية والشرف القومي، ديناً يضمّان تحت جناحهما كل دينٍ.

فنحن نُهنئ إخواننا المسلمين بعيدهم الأسنى، على رجاء أن يحتفل جميعُ الوطنيين بعيدٍ واحد، هو عيد الوطن الجديد، الوطن الناهض، وعلى رجاء أن تضمحل المجاملات الدينية وأدواتها في أتُّون المصلحة القومية والناموس الوطني.

البرق، ٢٥ تموز ١٩٢٣، عدد ١٨٨٢، ص ١

*****

في سبيل الوئام
من أنتم ومن نحن

من قال إن بيروت جامعة الأدب، وهو داعية الوئام تصبح جامعة للتنافر وهو داعية الانقصام[1]. من قال إن بيروت الوردة الذكية العرف ترسل اليوم إلى هنا وهناك رائحة لا تستطاب. من قال إن بيروت المثال الأعلى في النبل والمصافاة تصبح المثال الأدنى في الحب والخصام.

أي خطب جلل أصاب بيروت وأي أبناء بيروت ينجو من عار بيروت.

إذا كانت الطائفية سبباً لما نحن فيه فلا كانت هذه الطائفية.

وإذا كانت المصالح فلا كانت هذه المصالح.

إن الفقر والإلحاد مع الإخاء والمودة أشرف لنا من الغنى والتقوى مع الشتات والموجدة إن الجحيم مع التضامن والمصافاة أبرد على قلوبنا من النعيم مع التنافر والشحناء.

أين دعاة الأخوة من أبناء بيروت؟

أين المخزومي القديم والقباني القديم وكرم القديم في (البلاغ)[2]. و «اللسان»[3] بل أين القوم[4] القديم.

أي هؤلاء لم يكن شفيقاً على أخيه حبيباً... أي هؤلاء بل أي أديب في بيروت لم يكن إلى الولاء سميعاً مجيباً... لقد كانوا - والأتراك يقسمون - متحدين، فما بالهم - والفرنساويون يوحدون - منقسمين.

إذا كان يسرنا احترام شعائر الدين فقد كان الجامع لممثلي فرنسا كالكنيسة والأعياد شهود.

وإذا كان يسرنا المصلحة فقد مشوا إليها وإن يكن مشيهم بطيئا.

وكيف يسرعون ولا يعثرون بحواجزنا الطائفية وحواجزنا السياسية وحواجزنا القومية وحواجزنا الشخصية.

أفهذه براهيننا ندلي بها شهوداً للاستقلال، بل للحكم الذاتي؟؟؟

واخجلتاه من هذه الشهود؟

هب أن هنالك إجحافاً في الوظائف وهب أن الموظفين غير أكفاء، وهب أن أمرهم في يد المنتقد الكريم فماذا كان يفعل؟

أنا سائل سيدي الباشا - وهو عليم - عما إذا لم تكن الوظائف مفتوحة لأكفائهم على مصراعيها وقد رفضوها، ذلك قبل أن تأكدوا أن فرنسا لا يمكن أن تكون لفريق دون الآخر، كما تثبتوه أخيرا.

والآن - وقد امتلأت تلك المراكز بأربابها، فماذا يرى؟

أي سادتي المنتقدين وما فيكم إلا الذاكر ما عليه للوطن من الواجبات، إذا اعتقدتم أن حقوقكم هذه مجحف بها فأين هو فضل التضحية؟

ونحن كذلك أين هي تضحيتنا إذا لم نقابل العتاب بقلب نقي وطرف حيي.

إذا طلبتم أن تكون الوظائف للكفاءة فاسألوا الحكومة أن تؤلف لجنة فاحصة يختارها فضلاء الوطنيين بمشارفة الحكومة وننزل عند حكمها

وإذا طلبتم أن تكون طائفية - ولا نخالكم - فما هي إلا الأشهر القليلة ويأخذ ذو الحق حقه.

لا! ولا كانت الطائفية التي آلت بنا إلى هذا المصير المعيب.

نحن نعلم أن الوظيفة مصلحة شخصية لا تتجاوز جيب صاحبها ولا بيته، أما ونحن نعلم ذلك، أفيجوز أن نعمل منها معولاً لهدم بنائنا الوطني، وهدم ألفتنا الجميلة.

فمن أنتم ومن نحن؟.

سلوا الفرنساويين عنا يجيبوا أننا وطنيون، وسلوا الأجانب عنا يجيبوا أننا لبنانيون أو سوريون، فلماذا إذا سألنا أنفسنا عن أنفسنا تكاثرت علينا الأسماء والنعوت.

من السبّاق إلى راية الوئام يحملها لنكون له جنودا

من الفاتح صدره وبيته ليجمع هؤلاء المتنافرين على عرض زائل.

من الماحي هذه الوصمة عن جبين بيروت.

أين هذا الرسول الكريم!

البرق، ٩ تموز ١٩٢١، عدد ١٣٠٧، ص ١

****

مولد الرسول العربي الكريم
رحمة للعرب وللإنسانية

واجبات العربي وكل إنسان

أجل، يُعذر النصارى والمسلمون الذين وجدوا في ما يُسمونه الأعصر المظلمة، الأعصر التي غذَّتهم بكُره كلِّ دين إلا دينهم، إذا هم نشأوا متباغضين متنافرين، ينظر أحدهم إلى الآخر نظر العدوِّ الألدِّ إلى العدوِّ الألد.

ولم يكن هذا التعصب القتَّال مستأثراً به الشرقُ وحده، أو مُسلمو الشرق ونصاراه وحدهم، بل هو قد جرَّ ذيله على الغرب حقبةً طويلة. فكان له بين الكاثوليك والبروتستانت، وهم أبناء دينٍ واحد، مجازر دونها أفظع المجازر.

ولم يكن هؤلاء المسلمون والنصارى في الشرق، والكاثوليك والبروتستانت في الغرب، بتباغضهم ومجازرهم، إلا كافرين بالدين الذين يحسبون مساوئهم هذه جهاداً من أجله. كيف لا وفي تعاليم كل دينٍ ما يَحُثُّ على الإخاء ويأمر بحب الناس جميعهم على السواء. أفما قال المسيحُ: أحبُّوا أعداءكم وباركوا لاعنِيكم؟ أوَ ما قال محمد: الخلق كلهم عيال الله، وأحب الخلق إليه أنفعهم لعياله؟ وكذلك، أما جاء في الكتاب الكريم: ﴿ولتجدنَّ أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى﴾.(١)

فإذا كانت المسيحية هي السَّير بموجب تعاليم المسيح، وكان الإسلام هو السير بموجب تعاليم الرسول، أفلا ينبغي أن نَعُدَّ كلَّ مخالفٍ لأحد هذه التعاليم، كافراً بدينه، مارقاً عن مسيحه ورسوله؟

أفما ينبغي أن تقوم فينا كتلة مستنيرة متشبعة بفضائل الديانتين، عارفةً بمزايا الرجلين الكبيرين، فتُدْخِلَ إلى قلوب النشء روحاً جديداً وفكراً جديداً؟..

فأيُّ ناشئ مسلم يَعلم أن المسيح ظهر في عالم أثقلته قيود المظالم وسادته الرذائل، وتآكلته الوثنية والأنانية، ثار عليها حتى زلزل أركانها ودكَّ كيانها، وختم حياته بأن قدَّم نفسه قُرباناً في سبيل دعوته؛ فكان الشهيد الأول.

وأيُّ ناشئ مسيحي يتمثل أمامه العرب في جاهليتهم، وهم أمة عدد الرمال عكفت على عبادة الأوثان ونشبت فيهم العداوات، فكان الرجل لا يأمن على عرضه أن يسيء.[٢] وكان وأد البنات (أي قتلهن بيد آبائهن) عادةً شائعةً بينهم، ناهيك عن القمار والسكر. فقام محمد يثور على تلك النقائص، ويدعو القوم إلى عبادة الله ويجمع من تلك القبائل قبيلةً واحدة أصبحت من بعد ذلك، أمة حملت إلى العالم مشاعل المدنية حقبة طويلة من الدهر.

أي ناشئ من أبناء هذه الأمة، إذا عرف كلا الرجلين وما عملاه لأجل خير العالم، أي ناشئ إذا سمع برجل كهذين أو دون هذين، إذا سمع برجلٍ كهذين، كان له في التاريخ بعض ما لهما من المآثر الغُرِّ، أيُّ ناشئ سمع بذلك، ولم تتملكه سَوْرة الإعجاب والحب والاحترام؟

نقول – ولا نخجل – إن الكثيرين من جهلة المسلمين ينظرون إلى المسيح مثلما ينظر الكثيرون من جهلة النصارى إلى محمد. كلا الفريقين يتمثل الرجلين بأبشع الصور، يتمثلهما كعدوين أزرقين لو تقابلا يوماً لتطاعنا بالرماح.

يا ويل من لوّن هذه الصور بأقبح الألوان! يا ويله، إنه شوّه الحقائق وجرَّ البلاء إلى الأوطان

لقد احتفلت الأمم على اختلاف أديانها بمرور مئة عام على مولد العلامة باستور[٣] مكتشف الجراثيم، ولا ننكر هذا الاحتفال على القائمين به. فهو دون ما يجب لباستور؛ ولكن لا يختلف اثنان أن الجراثيم الأدبية التي قتلها الرسول العربي الكريم تستحق إكراما أعظم واحتفالاً أكبر.

ليس الدين وحده ولا الإنسانية وحدها، اللذان يوجبان علينا إكرام الزعيمين الأكبرين المسيح ومحمد، بل هنالك مصالحنا الدنيا، لا تحيا، بل لا تقوم لها قائمة إذا

لم تتوحد عواطفنا توحداً مكينا؛ وإذا لم يعرف كل منا ويعترف بالمزايا الغُرّ والأعمال الخالدة والتعاليم السامية التي جاءا بها رحمةً للعالمين

إن غداً تذكار مولد الرسول،

غداً ترتجف أصنام الكعبة، فتهوي متحطِّمة على الحضيض،

غداً ترتفع ملايين العيون إلى السماء،

غداً تطمئنُّ البناتُ في حضون الأمهات، مسبِّحات للرسول شاكرات.

غداً لا أزلام ولا مدام ولا قمار ولا خمار(٤)

وهل كالقمار والخمار مَهْلكةٌ للبيوت ومَتْلفة لفضيلة العائلة؟

غداً تذكار نهضة العرب كأمة، ونهضتها كدولة، ونهضتها كمِشعلٍ للحضارة.

غداً تذكار مولد الرجل الذي يَدين له ثلاثمائة مليون، ويحترمه العالم بأسره.

«أبو عبدالله»

بشارة عبدالله الخوري

البرق، ١٩٢٣، عدد ١٩٤٣، ص١٠

****

المولد السعيد[1]

﴿فأما اليتيم فلا تقهر﴾

- قرآن كريم -

يضحك ثغر غدٍ عن تذكار مولد الرسول العربي الكريم؛ وسيكون للعيد بهجته، وسيكون له جماله ورونقه.

إن للرسول - وهو في عنفوان الرسالة - من المعجزات ما يقف دونه الفكر صاغراً، ولكن له في حداثته ما تصغر عنده عظمة العظيم، ويبطل عنده سحر الساحر.

إنه وقد أخرج أمة بأسرها من ظلمات الجاهلية إلى أضواء المدنية،

إنه وقد أبدل معائب الجاهلية بمحاسن الإسلام،

إنه وقد أبطل وأد البنات وحرم الزنا ونقَّى القلوب من العداوات،

إنه وقد أذل لسيفه كل سيف ولعرشه كل عرش،

إنه - وهو كذلك - ليس بأعظم في عيني منه، وهو الأمين الناشئ فقيراً، الدارج يتيما، الحامل السعد في وجهه، والطهر في قلبه، والأمل في عينيه، والحكمة في شفتيه

إنه وهو حاكم قريش يوم الفتح، ليس بأعظم منه وهو حَكَمها يوم (الرداء والحجر)[2].

المُخرج الجاهلية من الوثنية إلى عبادة الله، المخرجها من المحارم إلى المحلَّلات، المخرجها من خشونة الجهل إلى نعومة العلم،

هو ذاك الذي سيُحتفل بتذكار مولده غداً.

✡✡✡✡

إن للوطنية علينا واجباً مقدساً، هو أن نتحد. وأن للاتحاد سبباً هو أن نتحابّ؛ ولا نتحاب إلا إذا امتزجت عواطفنا امتزاج الماء بالراح.

سيحتفل إخواننا غداً بمولد نبيهم العظيم. فأية عاطفةٍ بل أية زهرة نُقدم في العيد؟

لقد نثرت الحرب ألوف الأيتام صغاراً أنقى من الفجر وأطيب من الزهر، نثرتهم كما ينثر الخريف الورق؛ فتساقطوا أذلاء جياعاً متوسلين.

ملايين لا والدين لهم، مجردون إلا من الأطمار، عاطلون إلا من الدموع، عارون إلا من الفضيلة.

إن باقة دموعهم زهرها، وأنفاسهم عطرها. إن باقة صَلاتهم بخورها، وعيونهم نورها، هي دون الوصية التي أوصى بها الرسول لملايين المسلمين حيث قال[٣] ﴿فأما اليتيم فلا تقهر . وأما السائل فلا تنهر﴾. وهي دون ذلك الغدير الصافي الذي منه يرشفون والحصن الذي به يعتصمون.

إن الغدير ليجف، والحصن لينذك. ولكن وصية الرسول للمسلمين لا ينضب معينها ولا تهدم حصونها.

إن باقة الزهر هذه لمكافأة فانية إزاء الآية الرحيمة الخالدة!

عن البرق في ٢٤ ت٢ سنة ١٩٢٠

الأخطل الصغير

اعاد نشرها في البرق، ١٩٢٣، عدد: ١٩٤٣، ص: ١

****

لماذا تكتمون
العلة إذا أردتم الشفاء

لا تشفى صدور الأمة من أدغالها بغير البَضْع

لا يشفي الأمة غير شبانها فهل ينهض الشبان إلى العمل ومتى؟

ولقد كنا نود لو أن الوفد - وهو ممثل لجميع الطوائف المسيحية قد ضم بين أفراده شخصا من المسلمين، إذاً لكانت هذه الطائفة التائقة إلى السلام والاتفاق عملت مع العاملين على فض المشكل الواقع ولكان أحس المسلمون وهم عدد كبير في البلاد أن لهم من الحقوق في هذه البلاد ما لغيرهم وعليهم من الواجبات ما على سواهم.

وليس في ذلك دعوة للطائفية فنحن أبعد الناس عنها، ولكن ما دامت الفكرة قد قامت على هذا الأساس فلم يكن ثم مانع من أن يشترك المسلمون في هذا العمل حتى لا يعتقد هؤلاء أن إخوانهم لا يقيمون لهم وزناً إلا أن يكونوا في حاجة إليهم في الأمور الانتخابية وما شاكلها.

العهد الجديد[1]

هو داؤنا المستحكم تلمسه رصيفتنا «العهد الجديد» وتلمسه في هيئة راقية تألفت وفدا يحمل السلام إلى بلد مسيحي كان على وشك أن يصطدم بالقوة فتراق الدماء.

ونحن نؤكد أنه لم يخطر على بال الوفد ونؤكد انه لم يكن ليخطر على بالنا لو كنا في عداد الوفد أن ندعو إليه مسلما للاشتراك فيه، كما أننا نؤكد من الجهة الأخرى أنه لو حصل مثل هذا الأمر مع المسلمين أنفسهم لما كانوا فعلوا غير ذلك.

وإذا قام من يدعي عكس هذا فهو مراء ولا ريب.

إن أشد ما أضرٌ بنا هو إصرارنا على كتمان الداء، داء التعصب والتحاسد الذي يأكل أكبادنا جميعا، نعم جميعا. وما دعاوى التساهل والتضامن سوى دعاوى كاذبة لأنها قائمة على أسس من المآرب المكتومة، فكيف اتجهت تلك المآرب أو كيف تحورت تتجه تلك الدعاوى وتتحور وبين ليلة وضحاها، أستغفر الله! بل بين غمضة جفن وانفتاحه يصبح التساهل ضعفاً والتضامن تسليماً.

وكيف يدعو النصارى المسلمين للاشتراك معهم في دفع جائحة عن بلدة مسيحية وفي أقصى نفوسهم أن هؤلاء لا يبالون - إذا لم نقل غير ذلك - بنكبة هذه البلدة، وإذا عكست الأمر فلا يكون عكسك مغلوطا.

لا يجب أن يؤخذ علينا عدم استثنائنا أفرادا في جميع الطوائف لأننا لا نتكلم عن الأشخاص بل نتكلم عن نفسية الأمة والأمة بمجموعها لا بأفرادها.

إن أفظع الجرائم في نظرنا هي إخفاء دائنا هذا وما هو بالعار أن نعلنه، فلقد أصيبت به أعلى الأمم كعباً في المدنية اليوم، ولكنها شفيت منه لأنها اعترفت به فنزلت عند حكم الطبيب.

ومع ذلك فنحن نريد الوحدة ونريد الاستقلال وكيف تتم الوحدة إذا كانت كل طائفة منا وطنا قائما في ذاته يطالب بنفسه لنفسه ويكيد للآخرين؟

وكيف يتم الاستقلال ونحن فضلا عن هذا التمزيق بعواطفنا ومصالحنا لا نريد أن نسلك سبيله فنحاول على الأقل توحيد العاطفة في السراء والضراء ونبذر في هذه التربة نواة نحصد منها في المستقبل القريب وطنا موحدا محترما

هذه حقائق جارحة هي أشبه بمبضع الطبيب كتبناها إلى الجماعة المخلصة المسؤولة، لا إلى العامة التي تصفق حيث يدعو المقام إلى لطم الخدود وتضحك حيث يدعو المقام إلى ذرف الدموع.

إن بين الطوائف حُفرا وأخاديد ظهرت بأقبح صورها في الأيام الأخيرة، فإذا لم ينهض الإخوان المخلصون لطمرها فلا تستطيع الأمة أن تجتازها إلى ساحة الوطن الكبرى للعمل في سبيل الغاية الكبرى

وهذا لا يستطيعه إلا الشبان المتعلمون الراقون إذا هم انضموا جمعية واحدة تدين بدين الحق فوق كل شيء، وبدين الوطن قبل كل شيء

افتتاحية

البرق، ١٩٢٥ عدد. ٢٣٤٨، ص١٠

****

الفصل بين الحكومة والمعبد

هذا موضوع يخلق بنا تحليله. ولقد شكرنا لحضرة الصديق الفاضل الخوري أنطون عقل[1] صراحته وتساهله، ورغبته مثلنا في معالجة هذه البثور الظاهرة في جسم هذا الوطن، حتى يكون لنا منه وطن سليم نستطيع أن نسير به مرحلةً في طريق السلامة؛ وطريقها هو توحيد عواطف الأمة وغاياتها وقوانينها.

وإنما كان لنا هذا الرأي في الفصل بين الحكومة والمعبد، لاعتقادنا أن السبب الأول في شقاقنا وشقائنا، هو هذا التصادم الطائفي في مصالح الحكومة. وآخر أدلته: الموقف الأخير الذي احتكت فيه الحزازات احتكاكا أبعد ما بين القلوب مسافاتٍ سحيقة، وحفر ما بين الإخوان خنادق عميقة.

فقلنا: إذا كان الماضي أملى علينا عبره، وإذا كان الحاضر حفر في الصدور أثره، فما أحرانا بأن نتعظ وبأن نعتبر وبأن نزدجر! فقد حان لنا أن نقتنع بإخفاق السياسة الماضية، لا سيما بعد أن دفعنا ثمنها انحطاطنا هذا الانحطاط، وضعفنا هذا الضعف، وفقرنا هذا الفقر، وتشتتنا هذا التشتت.

أجل لقد بدا كل ذلك أمام عيوننا؛ فلم نجد له سبباً إلا مَزْجنا الدين بالدنيا وإدخالنا الطائفية في الوطنية. فلم نر والحالة هذه، إلا أن نقول بمبدأ الفصل، وإلا بقينا إلى أبد الأبيد عبيداً، وبقينا إلى أبد الأبيد كالذئاب؛ إذا لم يكن للأجنبي هيبته عندنا وحكمه فينا، فعلنا فعلها بأنفسنا.

هذا ما نُمهد به للراي الذي قدمنا وهو رأي مفكري اللبنانيين كافة.

بقي أن نجول مع حضرة الأب الصديق في رسالته وهي تنحصر في النقاط الآتية:

الأولى – أن للطوائف ورؤسائها، حقوقاً منحتها إياها فرمانات[٢] السلاطين التي اعتبرتهم ممثلين رسميين لطوائفهم.

الثانية – أن الحكومة الإفرنسية حلت محل الحكومة التركية فاحتفظت بقوانينها.

الثالثة – أن واجب الحكومة احترام جميع الأديان ورؤساء الأديان.

الرابعة – أن تحافظ الحكومة على هذه التقاليد، إلى أن تقوم قوانين أخرى وممثلون آخرون رسميون شرعيون، تجد الأمة فيهم مدافعين عن حقوقها.

الخامسة – ما ذكره حضرته عن المحاكم الشرعية والبلاد السورية.

هذا مجمل رأي الأب عقل أوجزناه هنا للقارئ، ومن بعد يقرأ ما نحن قائلون فيه.

لا يجد القارئ المتمعن أن بيننا وبين حضرة الأب عقل خلافاً، حتى ولا خلافاً صغيرا يستدعي عتابا، حتى ولا عتابا صغيراً. فهو ونحن نعترف بوجود فرمانات السلاطين، والحقوق التي منحتها رؤساء الطوائف. ولو لم نعترف بوجودها لما طلبنا إبطالها. وهو ونحن نقول إن هذه التقاليد يجب أن تُبَدَّل بقوانين أخرى يضعها ممثلو البلاد الحقيقيون.

ويسرنا جداً أن يظهر حضرة الأب عقل بمظهر التساهل هذا. وليس هو وحده من أنصار هذا المبدأ، بل هناك طائفة كبيرة من الإكليروس الراقي تقول به ولكنها تمشي إليه بالتؤدة.

وما كان حضرة الأب عقل وسائر طبقته ليرضوا عن إبطال هذه التقاليد وإبدالها بقوانين شاملة عادلة، لولا أن لهم نفس اعتقادنا بضررها كل الضرر بالوحدة الوطنية.

ثم كيف نرضى ويرضون بهذه الفرمانات، وهي إنما كانت منحة السيد للمسود؟ ونحن ندَّعي اليوم أننا نمشي في طريق السيادة، ونحاول أن لا نخضع إلا لما نسنُّه نحن من الشرائع التي يتساوى أمامها جميع الوطنيين وتسقط عندها جميع الميزات.

أفلا يرى حضرة الأب عقل أن هذه الفرمانات – وهي رمز عبودية الماضي – أصبحت غير لائقة بشرف الآمال التي نحلم بها، والاستقلال الذي ننشده؟

غير أن حضرة الأب لم يفهم جيدا ما قصدناه من قولنا بقطع الحكومة لكل علاقة «رسمية» بالمعابد فأخذ علينا أننا ندعو إلى عدم احترام الأديان. ولو علم حضرة الأب أننا من دعاة الحرية الشخصية، وأن الحرية الشخصية تُوجب احترام حرية المعتقد، لأحسن فهمنا، فضلاً عن أننا استدركنا ذلك في مقالنا بقولنا «علاقة رسمية» لنُخرج الأمر عن «العلاقة الشخصية». فلقد يكون الحاكم متديناً فيحضر إلى المعبد الذي يشاء، ويصلي فيه كيف شاء، بصفته فلاناً ابن فلانٍ، لا حاكم دولة لبنان.

وإذا كنا نقيم لحرية الأفراد هذا الوزن، فقد تحتم أن نقيم لحرية الجماعات وزنا أوفر. إذن فلا مجال للريب في أننا ندعو إلى احترام كلِّ أحدٍ، رئيسا كان أو مرؤوسا مازال يحترم القانون.

بقي ما أشار إليه من جهة المحاكم الشرعية ودار الفتوى. فهذه أيضا ستشملها القوانين التي يضعها ممثلو الأمة الحقيقيون، بما يقضي به حق الشعب على الحكومة

أما رغبة حضرة الأب إلينا بأن نطلب فصل الحكومة عن المعبد للبلاد السورية، فلقد كنا نجيبه فيه إلى رغبته – وليس مثلنا من يرُدُّ مثله

افتتاحية

البرق، ١٩٢٥، عدد ٢٣٥٤ ، ص ١

****

صِلْ. أحسن. قل الحقَّ

«صِلْ مَنْ قَطعك، وأحْسنْ إلى من أساء إليك، وقُلِ الحقَّ ولو على نفسك».[1]

«محمد»

إذا شئنا أن نكون أمة – بل إذا شئنا أن نحقق ذلك الحلم العظيم الذي يجول في رؤوس كبرائنا – وأريد بهم كبراء الأحلام منا – إذا شئنا، وأريد بالمشيئة هنا المشيئة المزوجة بعصير الإرادة والشوق – إذا شئنا أن ننزع أسمالنا البالية ونخلق منا عالماً جديدا، عالماً لا يعرف إلا الإنسانية طائفةً وإلا الوطنية ديناً، وإلا العمل مبدأً، إذا شئنا أن نكون – ولا نطلب المعجزات – بشراً كسائر مَنْ نُشاهد من الأمم المستقلة، لنا رأينا في نفسنا وحُرِّيتُنا في أرضنا – إذا شئنا ذلك، فليس علينا أن نشرب ماء البحر، ولا أن نُتقن السِّحر، ولا أن نقتني الأساطيل، ولا أن نُوجد المستحيل، بل علينا أن نحفظ الوصيَّة التي قرأت ونعمل بها:

«صل مَن قطعك، وأحسن إلى من أساء إليك، وقل الحق ولو على نفسك».

وهَبْ أنك لأمرٍ جفوتني، فتنكرتَ لي، فأنكرتَ عليَّ حقي، فآذيتني.

هَب أنك فعلتَ ذلك كله. أفما ذاكر أنت الوصية، فتقول الحق ولو على نفسك؟ ومتى اعترفت به، عُدت عن الإساءَة إليَّ. ومتى عدت عنها وصلتني، وعندما تصلني نتَّحد، وعندما نتحد نقوى، وعندما نقوى نعزُّ.

وأي شيءٍ حط بنا من حالقٍ سوى التقاطع؟ أفالمسلمون والنصارى غير متقاطعين؟. أفالمسلمون في ما بينهم والنصارى في ما بينهم، غير متقاطعين؟. أفأبناء العشيرة الواحدة والمهنة الواحدة، غير متقاطعين؟

وأي هؤلاء لا يعمل على الإساءة إلى غيره، والإساءة أنواع؟ بل أي هؤلاء إذا وضح له الحق أذعن له غير مُكابر؟

رأيت أننا لا نُكلفك أمـراً عظيمـا، لا نكلفك أن تسـتـهبط الوحـي، ولا أن تسـتنزل القمر. رأيت أننا لا نكلفك شيئاً من ذلك، لنرفع بك إلى أعلى علِّيِّين هذا العالم؛ لا نكلفك سوى حفظ كلمة واحدة والعمل بها.

إن في اللبنانيين والسـوريين، إن في نفوس هؤلاء، لؤلؤةً ولكنها غير مصـقولة؛ هـي لؤلؤة مكارم الأخـلاق. أمـا التـراب بل الأقـذار التي شـوَّهت تلك اللؤلؤة، فـهي أقـذار التعصب وعفونته. ثم تحجُّر هذه العفونة بتكدس الأجيال عليها، حتى ضاعت اللؤلؤة وأصبح لا يرى الناظر ولا سيما الغريب المراقب سوى ذلك التعفن الكريه الظاهر.

أجل، إنه لداء ينخر في عظامنا فيوهيها. وإنه لَقُبح يشمئز منه الناظر إلينا ولا شفاء لذلك الداء، ولا مزيل لذلك القُبح، سوى العمل بموجب الحديث الشريف – صل من قطعك، وأحسن إلى من أساء إليك، وقل الحق ولو على نفسك.

البرق، ٢٨ آذار ١٩٢٦، عدد ٢٥٦١، ص ١

****

بماذا يبرر الطائفيون موقفهم

إن الطائفية كناية عن ربط البلاد بقيود تمنعها من النهوض

آلينا أن نسير في محاربة الطائفية حتى النهاية؛ فإما أن ينتصر دُعاتها علينا، وإما أن نُزحزحهم عنها.

وإنما نتهالك على تقليص شبح الطائفية اليوم، لاعتقادنا أنها الفرصة السانحة، الفرصة التي ستعض البلاد يدها ندماً إذا هي لم تغتنمها لِمَحو هذه الوصمة القبيحة عن جبينها، وتُقَوِّم هذا الجدار المُعوجّ من بنيانها.

نكتفي اليوم بوضع الدعائم التي أقام «الطائفيون» عليها مذهبهم، معلقين عليها بكلمة موجزة.

قالت لجنة الدستور:

«قد أجمع المستشارون على شجب الطائفية، وتمنى أكثرهم زوال الأسباب التي تدعو الى التمسك بها؛ وأعلنوا خجلهم من القول بوجوب اعتمادها، على أن ١٢١ منهم اختاروها أساساً للتمثيل البرلماني».

نقول: إن شجب هؤلاء للطائفية وخجلهم منها، اعتراف صريح بأنها عار. ولا نظن وظيفة أو وظيفتين أو عشراً أو عشرين، تُضحي بها الطوائف اللبنانية، توازي هذا العار الذي ستزداد وصمته توسعاً وقبحاً، عندما نُنزل الطائفية بمُطلق إرادتنا في صُلب دستورنا.

أما «الأسباب التي تدعو إلى التمسك بالطائفية» فإنها قائمة في نفوسهم. أجل إنها قائمة في نفوس القائلين بها. فما عليهم بعد أن شجبوها وخجلوا منها، إلا أن يقتلعوها

من نفوسهم؛ ونحن نكفل أنهم لا يشعرون بأقل ألمٍ لأنها ليست قطعةً من هذه الأنفس بل هي طفيلية لا يؤذي اقتلاعها ولا يضيم

ويقول أنصار الطائفية:

«إن البلاد تتألف من طوائف مختلفة العقيدة والتقاليد والعادات والآراء. فعدم اعتماد الطائفية في التمثيل يزيل التوازن فترجح طائفة على أخرى وينتج التحاسد والتباغض وبالنتيجة الفتن التي تأتي بأسوأ النتائج».

فنقول: إذا صح أن هذه الاختلافات تكون أسباباً للطائفية، فسموا لنا بلاداً مؤلفة من طائفة واحدة. أما التقاليد والعادات، فمن الضلال أن يقال إنها مختلفة وإذا صح أن تكون الآراء السياسية سبباً للطائفية، فقد لزم أن تكون جميع بلاد العالم طائفية

أما أن التحاسد والتباغض والفتن تنبعث عن عدم التمثيل الطائفي فهو تمويه ظاهر أجل، قد يُحدث دفن الطائفية شيئا من حرب الكلام، ولكن هذا لا يجب أن يثبط من عزم واضعي الدستور وحاملي تبعته، لا سيما وهم يعلمون أنهم إذا دفنوا الطائفية اليوم فقد دفنوها إلى الأبد

ويقولون إن التمثيل النيابي هو عبارة عن صورة مصغرة للبلاد، وبما أن البلاد مُقسمة إلى طوائف، فقد وجب أن يكون لهذه الطوائف ممثلون، وإلا جاء التمثيل غير صحيح

فنقول: لقد تقدم لنا الرد على هذا الادعاء، ونزيد: أننا نريد أن نجعل أهل البلاد لبنانيين متضامنين متآلفين. وهم يريدون أن يجعلوهم طوائف لا تضامن بينها ولا تآلف!

ويقولون: لم تزل البلاد قائمة على أساس الطائفية، وهي غير مستعدة الآن لتضحية هذه التقاليد، وليس من الهيِّن أن تنقض في يوم واحد نظاماً تمشَّت عليه عمراً طويلا.

فنقول: إذا كان ليس من الهين أن تنقض البلاد في يوم واحد النظام الطائفي وقد تمشت عليه عمراً طويلا، فكيف يكون من الهين نقضه غداً، وقد أضفنا إلى هذا العمر الطويل عمراً آخر؟

إن الشعب بأسره لا يبالي بهذه التضحية، بل هو لا يعرف شيئا عنها فالذي يبالي بها إذن، والذي هو غير مستعد لها، هم أفراد يطمعون بالوظائف ويخشون أن لا ينالوها عن غير الطريق الطائفي

ويقولون:« إن التمثيل الطائفي يحفظ للأقليات حقوقها، فيقطع المجال على الشكوى والتذمر».

فنقول: إننا نرمي، بقتل الحزبية الطائفية، إلى إحياء الحزبية السياسية، ومتى حييت الحزبية السياسية فقد حييت معها الكفاءات

وليكونن غداً أقربَ إلى قلب المسلم، المسيحيُّ الذي يجمعه وإياه هوى واحد وهدف واحد ومصلحة واحدة. وهكذا قُل عن سائر أبناء الطوائف!

عندما رأى المسيو كايلا جعل قانون الانتخابات لا طائفياً، قام المرشحون في كل بقعة من الأراضي اللبنانية إلى وضع اللوائح الانتخابية. فما اخطأت لائحة واحدة عدم مراعاة عدد الطوائف. حتى لو جرى الانتخاب على المبدأ اللاطائفي، لجاء النواب كما هم اليوم تماما. يدلك ذلك على أن الروية والإنصاف مستقران في النفوس، أضف إلى ذلك أن مصلحة المرشحين أنفسهم تقضي عليهم بإدخال جميع العناصر فيها تكثيراً لأنصارهم.

فإذا سير على هذا المبدأ، فلا تلبث الروح الطائفية أن تتلاشى مع الأيام، وهذا هو الدعامة الأولى لتوحيد كلمة البلاد.

أما قولهم إن الشعب لم يتربَّ بعد على اعتبار الجامعة الوطنية فوق الجامعة الطائفية، فعلى افتراض أن فيه شيئاً قليلاً من الصحة، أفيجوز أن نبقى سائرين في تربيته على الطراز القديم؟ وإذا نحن سرنا أفلا نزيده توغلاً في هذه التربية؟ وهل من مصلحة البلاد أن نزيده؟.

وآخر ما قالوه: إن الطوائف في لبنان حلَّت محل الأحزاب السياسية.

فنقول: إنها لكلمة كبيرة، نتيجتها الإجهاز على استقلال البلاد، وجعلها إلى الأبد ترسف في قيود الرجعي، تكابد مرارات الانشقاق، وتؤدي ثمنه من دمها ومالها وشرفها.

ولماذا تكون الطائفية أحزاباً سياسية، وهل هذا القول صحيح؟

أفالموارنة يتفقون في ما بينهم على ترشيح رجلٍ منهم، وكذلك هل يتفق المسلمون؟ أو الأرثوذكس؟

إن الأحزاب السياسية وحدها هي التي يخضع أعضاؤها لمقرراتها. فأي طائفة من الطوائف اللبنانية تجسر أن تدعي ذلك؟

والأعجب من كل هذا أن في الذين يقولون بالطائفية، مَنْ يشكو من نفوذ بعض المراجع الدينية، جاهلين أن في الطائفية ما يُقوي من نلك النفوذ.

هذا ما نقوله الآن على أن نواصل غدا.

البرق، ٣٠ آذار ١٩٢٦، عدد ٢٥٦٢، ص١

****

فـي سبيل الوفـاق

لنعمل على طمر الخنادق لنستطيع المرور إلى ما تريدون

«دعا الزميل الكريم أبوعبدالله، صاحب «البرق» الأغر في مقال لماع، إلى ضرورة تكاتف الشبيبة الإسلامية والمسيحية، على إيجاد حلٍّ لهذا النزاع الطائفي أو السياسي القائم بين الأمتين، وطلب أن يُشكل حزب سياسي يقوم على عقيدة يشترك في وضعها الشبان على اختلاف الديانات، عقيدة سياسية تكون الهدف الأسمى للشبيبة السورية اللبنانية.

لا يعلم إلا الله كم استحسنا هذه الفكرة الطيبة التي ابتدعتها مخيلة بشارة الوقادة. وإنما بقيت بعض النقاط الأساسية في اقتراح الزميل مبهمةً؛ وقد اجتهدنا أن نتفهمها من خلال الكلمات المكشوفة التي كانت توحي إلينا بفكرة بشارة بكل صراحة، فلم نستطع إلى ذلك سبيلا.

فالنقاط التي نريد أن نفهمها هي:

١ - إن الشبيبة الإسلامية مستعدة للدخول في الحزب الذي يقترح تشكيلة بشارة أفندي، ولكن إذا دخله فريق من الشبان المسيحيين، وكانوا بعقليةٍ غير عقلية الأولين، فهل مَن يضمن لنا بقاء هذا الحزب أكثر من ثلاثة أرباع الساعة؟

٢ - إذا سلمنا جدلاً بان عقد الحزب لم ينفرط، وبقي كل فريق متمسكاً بعقيدته، فكيف يمكن ضمانة العمل والحصول على نتيجة؟

٣ - وهل في مثل هذه الحال، يتنازل إخوان العزيز بشارة عن تصلبهم في رأيهم، والجري مع إخوانهم في سبيل وطنٍ قويٍّ موحَّد وموطَّد الاركان؟

هذه هي النقاط التي أردنا أن نفهمها من الزميل صاحب «البرق» الأغر. فعساه لا يَضنُّ علينا بالجواب، حتى نواصل معالجة هذاالموضوع واستثماره بالخير إن شاء الله».

- الراي العام -(١)

الله يعلم مبلغ الأثر الذي تركه صديقنا طه أفندي في نفسنا بالعاطفة النبيلة التي أرسلها نقية كشمائله – إنه أثر شكر بليغ!

إن الذي أوحى إلينا الدعوة إلى لمِّ شمل الإخوان تحت سماء بيروت الحبيبة، تذكارات ماضية لم نملك النفس أن تسيل لها حناناً وألما؛ تلك التذكارات العذبة الطاهرة.

يوم كانت القلوب جميعها تخفق للهناء الواحد والشقاء الواحد، يوم كانت العيون – العيون جميعها – تنظر إلى الأفق الواحد، وقد كانت مثله صافية نقية. يوم كانت دموعنا تسيل على خد واحد، وأرواحنا تسيل على حبل واحد(٢).

إن من الآلام ما هو أعذب وأهنأ من جميع الملذات. أفلم تكن آلامنا الماضية ألذ وأهنأ من كل ما نتصوره؟ إنه هناء وإنه لذة، ذلك لأن قوةً هي فوق كل قوة كانت تحول مراراتنا إلى حلاوة شهية. وتلك القوة هي الحب الذي كان يشد قلوبنا ويشد خيالاتنا، ويشد ماضينا بحاضرنا، بمستقبلنا.

لقد تهدمت تلك البناية الجميلة المحبوبة، بعاصفة من عواصف الحرب الكبرى؛ فنثرت أعضاء العائلة في كل مكان؛ حتى إذا التقت بعد ركودها، كان قد دب إليها شيء من السلوان، وبدا على الوجوه بعض الألوان، وفعلت السياسة فعلتها؛ فكان الذي هو كائن، وما شاء الله كان.

ذلك هو الباعث على دعوتنا إلى لم الشمل بعد تفرقةٍ، غير جاهلين أن هناك مصاعب كبيرة. ولكن هل يجوز أن نترك الشمل يزداد تبدداً، والمصاعب تزداد تعقداً، ونحن الذين نحمل من تذكارات الماضي وآمال المستقبل ما نحسبه العون الأكبر على تذليل كل صعب؟

إن أول ما يجب أن نبدأ به، هو أن نعيد الطمأنينة إلى النفوس النافرة، ونزرع فيها بذور الألفة، ونعيد إليها سابق الحب. حتى إذا تمَّ لنا ذلك عمدنا إلى نقاط الخلاف فعالجناها على أساس متين من حُسن النية.

إن البناية التي نريد تشييدها، لا تقوم إلا على سواعد الجميع، ولا تتكاتف هذه السواعد إلا إذا تآلفت. وكيف تتآلف إذا هي لم تجتمع؟

يقول الصديق طه: إن هناك فريقين يتصلب كلٌّ بمطالبه، وهو لأجل هذا يُحتِّم بفشل المهمة التي ندعو إليها. فنقول إنه لو لم يكن خلاف لما كان من لزوم لهذه الدعوة.

لقد قلنا مرارا إننا لسنا من خصوم الوحدة السورية، ولا نقول ذلك وحدنا؛ بل هناك كثيرون يقولونه منا. ونحسب أن في هذا القول ما يصلح أن يكون أساسا للتفاهم.

وإذا قلنا ذلك، فلا ننكر أن هناك قوات كثيرة لا تقول بقولنا. ولا ننكر أن هناك قلوباً مسمَّمة من فريقينا. فنحن نريد أن نشفي هذه القلوب. حتى إذا شفيت اطمأنت إلينا، ثمَّ اطمأنت إلى بعضها، فهانت مهمتنا.

نحن نعتقد أن هذا لا يتم سريعاً، ولكن إذا هو لم يتم سريعا، أفيجوز أن نهمله بتاتاً؟ أفليس من واجبنا أن نسعى إلى توقيف الداء إذا لم نستطع استئصاله؟.

وبعد، فماذا يُجدي التقاطع غير إبقاء القلوب حيث هي، والمصالح حيث هي؟ أفيمنع هذا التقاطع أن يمضي الدستور في طريقه، وأن يظل الحال على هذا المنوال؟

نحن نعتقد أن في مقدور فريق من الشبان المعتدلين أن يفعلوا شيئاً، وأن يمهدوا لهذا الشيء، إذا هم اجتمعوا على الأسس الآتية:

١ - الإنقاذ قبل كل شيء. ٢ - عدم تشبث أحد الفريقين بمبدئه.٣ - الإخلاص المتبادل. ٤ - الرغبة الأكيدة بالوصول إلى حلٍ مستطاع.

أي إخواننا! إن أمامنا الآن شعباً مريضاً نريد نحن أن نكون طبيبه. فتعالوا نحذُ حذو الطبيب في معالجته، حتى إذا شفي، سرتم به في الطريق الذي تشاؤون.

البرق، ٣١ آذار ١٩٢٦، عدد : ٢٥٦٣، ص١٠

****

الطائفية واللاطائفية

«الرأي العام» يدعم النفوذ الاكليركي من حيث يزعم هدمه

«ومن هنا تتضح غاية الإخوان[1] في مناشدتهم اللاطائفية. نعم إنهم يناشدونها حتى تذوب الكتلة الإسلامية الكبرى ضمن هذا الترياق الجميل اللون والمر المذاق.

وإذ كانت لا تخفى علينا هذه الحقيقة، فصار من البديهي أن يعارض المسلمون في اللاطائفية خشيةً من الوقوع في أحبولة سياسية تقضي على موجوديتهم السياسية أبدياً، لا سيما وأن لدى طلاب «لبنان الكبير» والمؤيدين له، وسائط عظيمة باعتبار أن الحكومة بيدهم، لأجل إضعاف الكتلة الإسلامية الكبرى بهذا المحيط.

فتسليمنا باللاطائفية إذن هو تسليم بالرضوخ إلى السيطرة المارونية، والتنازل عن التفوق المحسوس الذي تملكه بالنفوس والنفوذ والثروة.

بعد اتضاح هذه الحقائق، يحق لنا أن نُعجب كثيراً لمحاولة بعض الرصيفات ترويج السياسة اللاطائفية التي ينطوي تحتها، كما علمنا آنفا، غايات هي بعيدة في الحقيقة كل البعد عن المبدأ اللاطائفي (الذي نحبه، عندما يكون مبدأً لا غايةً، كل الحب)».

- الرأي العام -

نكاد لا نصدق أن زميلنا الأديب طه أفندي المدور يقف في طليعة أنصار الطائفية، ونكاد لا نصدق أنه يتهمنا في الموقف اللاطائفي الذي نقفه مستهدَفين فيه لسهام الإكليركية تترامى علينا من كل جانب. ونكاد لا نصدق أنه يكتب مقتنعاً، لا سيما بعد مطالعته مقالنا الذي عنوانه: «ماذا يخشون من الطائفية».

إننا لا نطلب من الزميل كبير أمرٍ. بل جُلُّ ما نطلبه أن ينشر ذاك على صحيفته ويفند بنوده بنداً بنداً، حتى إذا فعل نزل كلانا عند حكم المفكرين من قراء جريدته. فلعلهم يُنصفوننا أكثر مما أنصفنا الزميل. ولعلهم على الأقل لا يتهموننا في إخلاصنا لقضية القومية.

على أن الأمر الذي لم نهتدِ إلى حله، هو أنه كيف نكون نخدم العنصرية المارونية بمناداتنا باللاطائفية، واللاطائفية معناها تذويب العناصر الدينية في بوتقة القومية الكبرى؟.

وكيف نكون نخدم العنصرية المارونية أو المسيحية، وموقفنا مناقض كل المناقضة لموقف الإكليروس الماروني، بل الإكليروس المسيحي الذي أجمعت أجوبته إلى لجنة الدستور، على تأييد الطائفية، وعلى أنه لا يرضى عنها بديلاً؟ أفنكون إذن من مؤيدي النفوذ الماروني أو النفوذ المسيحي، وقد وقفنا في وجه زعمائهما ننقض ما بنوه وننفي ما أثبتوه؟

إن الزميل صاحب «الرأي العام» بموقفه الطائفي هذا، ليؤدي أجل خدمةٍ للعناصر الإكليركية المسيحية، بل للقضية اللبنانية، خدمةً سينقشونها له بمداد الحمد.

أليس غريبا أن يقف الزميل طه أفندي في وسط القلانس والبرانس السوداء، فيرمي معهم عن سهم واحد، إلى هدف واحد، ثم يقول إنه يريد أن يقلص من نفوذهم ويُخفض من شأنهم؟

لا يأذن الله أن نتهم الزميل طه أفندي، ولكننا لا نتردد في أن نقول له إنه يطعن القضية التي يزعم أنه يخدمها، طعنةً نجلاء، ويجعل من يراعه دعامةً للنفوذ الإكليركي من حيث لا يدري.

سترى أيها الزميل إذا - لا أذن الله، وجُعلت الطائفية أساساً للوظائف - سترى بعينك سراي الحكومة أشبه بكرسيٍّ بطريركي - لكثرة من يتردد عليها من الإكليركيين وقد جاءوا يطالبون بحقوق «أبنائهم» في الوظائف التي قررها لهم الدستور وساعدت أنت على تقريرها.

ستسمع أيها الزميل غداً عصا الأسقف يقرع بلاط السراي، طالباً ما خص الدستور به طائفته من الوظائف، وكثير منها في يد أبناء طائفتك

وعلى الجملة فسترى أيها الزميل أننا أخلصنا وأسأت، وأننا أصبنا وأخطأت. وليكن شهودنا على المستقبل، ما كتبنا وكتبت. والله خير الشاهدين.

البرق، ٧ نيسان ١٩٢٦، عدد. ٢٥٦٧، ص ١

****

هوامش الباب الثالث

مقـــالات اجتماعيـــة

الفقـر والغنـى على باب الشتاء ٣١٧

١ - مكاتب: مراسل جريدة المقطم في بيروت، و«المقطم» واحدة من كبريات الجرائد المصرية، انشاها يعقوب صروف. في شباط ١٨٨٩ وقد تحولت فيما بعد إلى مجلة شهرية ظلت تصدر حتى تاريخ متاخر.

خطرات أفكار بين القصور والأكواخ ٣١٩

١ - عاصمة جمهورية بولندا.

٢ - الشيوعيون الروس.

٣ - لعلها كييف عاصمة جمهورية أوكرانيا.

٤ - (الضهارة) ربما قصد بها الظِّهارة، وهي ان تجعل للثوب ظهراً أي ان الشخص المعني ثيابه مرقعة لشدة فقره.

٥ - السينماتوغراف: آلة معدة لعرض الصور المشبحة على الشاشة البيضاء، دار تعرض فيها مشاهد سينمائية (المنجد، مصدر سابق، ص ٣٦٩).

ليس الدائنوان كلهم بل الأسافل كلهم ٣٢١

١- الأحوال، جريدة يومية بيروتية، انشاها خليل البدوي، في أول آذار من عام ١٨٩١ وكان لهذه الجريدة حظ وافر من النجاح لدرجة انها كانت تصدر مرتين في اليوم صباحا ومساء لعدة اعوام. (انظر تاريخ الصحافة العربية لـ الفيكونت فيليب دي طرازي جـ ٢/ص٦ و ٧ مع الحواشي).

٢ - ترددت في هذا المقال وفي مقالات اخرى عبارة «الورق التركي» او «العملة الورقية»، وهي عملة انزلها الاتراك إلى الأسواق لأول مرة في تاريخ البلاد اثناء الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٦، وكانت قيمتها متدنية جداً، واستغلها المرابون وتجار الحروب لإقراض المحتاجين المضطرين، على ان يستردوا بدلاً منها عملة ذهبية، واستولوا من خلالها على اراضٍ وعقارات كثيرة.

بنات لبنان في الولايات المتحدة ٣٢٣

١ - حمّانا، احد مصايف لبنان الجميلة، في قضاء المتن من محافظة جبل لبنان.

٢ - المطران انطوان عريضة (١٨٦٣ - ١٩٥٥) ولد في بشري، بطريرك الموارنة عام ١٩٣٢ .

٣ - بحر صاف، احد مصايف المتن الشمالي، بمحافظة جبل لبنان.

٤ - جريدة الهدى، اسسها نعوم مكرزل في مدينة نيويورك شباط ١٨٩٨، كانت شهرية في البداية، ثم تحولت إلى نصف اسبوعية، فإلى جريدة يومية. وكانت في نظر الكثيرين، عروس الجرائد العربية بلا منازع. (تاريخ الصحافة العربية جـ ٢/٤٠٨).

٥ - قصد بالأخوين، فريقَيْ اليتامى المشار إليهما في السطرين السابقين.

ذكرى الفصح ٣٢٨

١ - في صبيحة أيام الصوم ويكون يوم إثنين، يبكر المسيحيون إلى الكنائس، فيرسم الكاهن على جباههم صليباً، من رماد مصلّى عليه تذكيراً لهم بانهم من التراب هم، وإليه ينتهون.

٢ - المفاقصة والمفاقسة (بالصاد والسين) قيام اثنين بكسر البيض المسلوق بينهما. وذاك من طقوس أيام الفصح لدى المسيحيين، في لبنان، ويرمز البيض هنا إلى ولادة الحياة، عبر خروج الفرخ من البيضة.

٣ - البيضة الماكنة، اي القوية التي لا تنكسر اثناء مفاقسات البيض!

كل عام وأنتم بخير ٣٣٠

١ - سوق سرسق، سوق تجاري كبير، يقع بمحاذاة ساحة البرج - او الشهداء سابقا . تباع فيه معظم انواع الملبوسات ولا سيما لذوي الدخل المحدود، ويُشبه أسواق الحميدية في دمشق، والموسكي في القاهرة، وقد دمرته الحرب الأخيرة في لبنان. ولم يَعُد له اثر.

٢ - قصد بهؤلاء، اسرة العيد التي اصبحت في رأس السنة على حزن واكتئاب!!

داء السياسة لا يشفيه إلا العمل ٣٣٢

١ - قصد بها معظم الاعمال التي ترتبط بالاشغال ومصلحة شؤون السيارات ولا يزال المصطلح مستعملاً لهذا الغرض، حتى اليوم.

٢ - نهر إبراهيم نهر لبناني ينبع من مغارة افقا، إلى الشرق الاقصى من قضاء كسروان، بمحافظة جبل لبنان، ويصب في ساحل البحر المتوسط في منتصف المسافة بين جبيل وجونية.

حاربوا الفقر بالاقتصاد ٣٣٥

١ - البهورة، لفظة تستخدمها العامة للتدليل على مظهر كاذب في الثروة والقوة والمكانة، واصلها من البهر: الإدهاش وما يشبهه، وقريب منه: البهرج...

٢ - تكرار يومي إلى مقولة جمال الدين الافغاني.

٣ - علها المراجع إلى (النساء)، ولكنها في الأصل (للنفساء) ويرجحها ما ورد بعدها في المادة الخامسة من منع إقامة حفلات الختان.

إلى بعض الأغنياء ٣٣٨

١ - لغة في قرش، وهو جزء من مئة من الدينار او الجنيه او الليرة.

لبنان بين مخالب الرزايا ٣٤٠

١ - اسماعيل باشا صبري (١٨٥٤ - ١٩٢٣) من شعراء الطبقة الأولى في عصره. وهو من شيوخ الإدارة والقضاء في مصر. ولد بالقاهرة وتوفي فيها. له ديوان مطبوع.

٢ - هو ليون كايلا حاكم دولة لبنان الكبير من ١٩٢٥ - ١٩٢٦ وهو آخر أربعة حكام تعاقبوا على الحكم بموجب النظام المؤقت ويتم تعيينهم من قبل المفوض السامي لسوريا ولبنان آنذاك.

٣ - كلمة غير واضحة في الأصل، ولعلها الحكم أو النهم أو شيء من هذا القبيل.

١٩٣٠ - بين الأمس واليوم والغد ٣٤٣

١ - الثَّبج: علوُّ وسط البحر إذا تلاقت أمواجه، والثَّبج أيضاً: كل ما هو وسط في الرمل والظهر والصدر، والليل. والراجح انه قصد به ههنا، الظهور السّريع والارتفاع الآني، سرعان ما يزول ويختفي.

٢ - طفحى (فَعلى) مؤنث طفحان، اي ممتلئ حتى الإفاضة..

٣ - المألوف، ان يقال: «حفنة، تاكيداً لصغر الشان وهزال التاثير. والحفنة والقبضة، في معنى واحد هو ما تملأ به كفك او راحتيك.

٤ - نسبة إلى شخصية كشكش بيه التي ابتدعها نجيب الريحاني، وعرضت في الكثير من مسرحياته. وتمثل شخصية عمدة إحدى القرى.

يا موت خذ ما أبقت الأيام مني ٣٤٥

١ - فوزي اسماعيل الغزي - احد رجالات سورية الميامين في النضال والترقي العلمي انتُخب رئيسا ثانيا للجمعية التاسيسية سنة ١٩٢٨ توفي في دمشق سنة ١٩٢٩.

في الحياة الاجتماعية

المابين في لبنان ٣٥١

١ - القول لزهير بن أبي سلمى، من ميميّته، التي مطلعها: «أمِنْ أمِّ اوفى دمنةٌ لم تُكلّم..» وتمام البيت:

ومَنْ يغترب يحسبْ عدوّاً صديقَهُ
ومن لا يُكرِّم نفسَهُ لا يكرَّمِ

(ديوان زهير، صنعة ثعلب، مصورة عن طبعة دار الكتب بالقاهرة، ١٩٤٤، ص٤ و٣٢).

(٢) هذا القول، عجزُ بيت شعري قاله ابو حامد الغزالي المتوفى سنة ٥٠٥ هـ/١١١١م، وهو خارج من خلوة روحية دامت شهرين، مجيباً عن سؤالٍ عمّا تحصل له من خلوته، قائلاً:

فكان ما كان مما لست انكُرهُ
فظُنَّ خيراً ولا تسأل عن الخبر

وقد عدّل فيه الاخطل، ساخراً، مستخدماً (الشرّ) مكان (الخير)..

الهجرة اللبنانية

ماذا يعُوز العيد أين المهاجرون؟ ٣٥٧

١ - المقصود بـ «غداً» هو اول ايلول ١٩٢٠، الذي اعلن فيه لبنان الكبير.

٢ - الذات المقصودة، هي الوجيه البيروتي، صاحب الزعم المشار إليه.

دمعة على الطلل البالي ٣٥٩

١ - الريجي: دائرة حكومية تعنى بشؤون التبغ والتنباك. وهي لا تزال تعمل حتى اليوم.

٢ - الدسكرة: القرية العظيمة، جمعها دساكر. (المعجم الوسيط، ج١، ص٢٨٣، مصدر سابق).

المهاجرة في البيان الوزاري ٣٦١

(١) يعني بالوزير الأول رئيس مجلس الوزراء، ولا يزال هذا المصطلح معمولاً به في دول عربية كالمغرب وتونس.

الجنسية الضائعة ٣٦٥

١ - هو نعوم مكرزل، سبقت ترجمته.

٢ - هي معاهدة الصلح المعقودة بين تركيا والحلفاء عام ١٩٢٣ سميت باسم مدينة لوزان السويسرية التي عقدت فيها.

٣ - سبقت الإشارة إليه.

من لهذه الراية ٣٦٧

١ - هكذا في الأصل ولعلها كورقة (الخريف)؟.

٢ - تريّب: ارتاب..

لو ملكت الأمر يوما وليلة ٣٧٠

١ - هذه الأبيات لشيخ مشايخ الطرق الصوفية وإمام الطرائق الإسلامية: محيي الدين بن العربي. الأندلسي، الحاتمي، الطائي، المولود في مرسية بالأندلس ٥٦٠ هـ/١١٦٤م والمتوفى في الشام ٦٣٨ هـ/١٢٤٠م والأبيات من قصيدة بعنوان «تناوحت الأرواح»، قوامها ستة عشر بيتاً، لم يُذكر بينها البيت الأول من الأبيات الأربعة التي استهلّ بها الأخطل الصغير، مقالته. (انظر: «ترجمان الأشواق» لابن العربي، دار صادر - بيروت ١٩٦٦، ص٤٠-٤٤).

٢ - أسماء رمز بها للديانات الثلاث: اليهودية والمسيحية والإسلامية.

إلى أخي في عيده عاطفة تتجدد ٣٧٢

١- جَمعٌ غير موجود في العربية. فالقسُّ (وهو الراهب - الكاهن) يُجمع على قساوسة وقِسِّيسين، وقساقسة، على غير قياس، وقُسُوس.

٢ - إشارة إلى المهاجرين اللبنانيين في مصر ومنهم رواد في الصحافة والأدب والفكر.

بناياتنا الوطنية لا تقوم على المجاملة الدينية ٣٧٦

١ - إشارة إلى مطلع قصيدة لأبي نواس:

دع عنك لومي فإن اللوم إغراء
وداوني بالتي كانت هي الداء

(ديوان أبي نواس، شرح د. عمر فاروق الطباع، دار الأرقم، بيروت، ١٩٩٨، ص ٢٧)

٢ - ابن سينا: (٩٨٠ - ١٠٣٧م) عرف بالشيخ الرئيس. فيلسوف وطبيب وعالم. من مؤلفاته «القانون» في الطب و «النجاة» و «الإشارات والتنبيهات» و «الحدود» في الفلسفة والمنطق. وله قصيدة مشهورة في النفس. وكان ذا ميول صوفية عميقة.

٣ - كثيراً ما يقتبس الكاتب أجزاء من آيات قرآنية كريمة أو يشير إليها، وهنا يشير إلى قوله تعالى: ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾. جزء من الآية (١١) سورة الرعد.

في سبيل الوئام من أنتم ومن نحن ٣٧٨

١ - هكذا وردت في الأصل ولعلها مصحفة وربما تكون (الانقسام) أو (الانفصام)

٢ - البلاغ، جريدة أنشأها محمد الباقر عام ١٩١١ في بيروت.

٣ - اللسان، لعلها لسان الحال، أنشأها خليل سركيس عام ١٨٧٧ في بيروت. وبالبحث في المنجد، وجدت مجلتان تحملان اسم «لسان العرب» أنشأ الأولى نجيب وأمين الحداد عام ١٨٩٤ في الاسكندرية والأخرى أنشأها عبدالغني العريسي، وفؤاد حنتش في بيروت عام ١٩١٢ .

٤ - لعلها «القرم» وصحفت ، يشير الكاتب إلى أسماء صحفيين وصحف لبنانية. أما إن كانت «القوم» فلعله يعني بها جماعة الرجال، فكلمة القوم تعني الرجال دون النساء عند العرب. قال تعالى: ﴿ياأيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن﴾ سورة الحجرات، الآية (١١).

وقال زهير بن أبي سلمى:

وما أدري وسوف إخال أدري
أقوم آل حصن أم نساء

مولد الرسول العربي الكريم ٣٨١

١ - سورة المائدة، جزء من الآية ٨٢.

١ - ربما تكون يسوء أو يُساء، وحدث خطأ مطبعي.

٣ - لويس باستور (١٨٢٢ - ١٨٩٥) عالم فرنسي اشتهر بدراساته عن الجراثيم واكتشافه لقاحاً ضد الكلب.

٤ - أيضاً هنا ينظر الكاتب إلى قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون﴾ ، سورة المائدة، الآية (٩٠) .

المولد السعيد ٣٨٤

١ - كانت هذه المقالة موضع إشادة من الأوساط الإسلامية ، انظر نص رسالة عبدالباسط فتح الله وصورتها إلى الكاتب في كتاب «رسائل إلى الأخطل الصغير»، مرجع سابق، ص (٢٤٥ - ٢٤٨).

٢ - يوم الرداء والحجر إشارة من الكاتب إلى ما حكم به الرسول صلى الله عليه وسلم قبل بعثته وكان عمره (٣٥) سنة، بين قبائل قريش التي جمعت الحجارة لإعادة بناء الكعبة المشرفة، وعندما بلغ البنيان موضع الركن اختصموا فيه، كل قبيلة تريد أن ترفعه دون الأخرى، حتى بلغ الأمر بينهم الاستعداد للقتال. فاحتكموا إلى أول داخل من باب المسجد ليقضي بينهم فكان أول داخل هو الرسول الكريم، فأخبروه الخبر، فقال. هلّم إليّ ثوباً، فأخذ الركن فوضعه فيه بيده ثم قال: لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ثم ارفعوه جميعاً ففعلوا، حتى إذا بلغوا به موضعه وضعه هو بيده ثم بنى عليه، وكان حكمه موضع اتفاق الجميع.

(انظر: السيرة النبوية لابن هشام، دار مكتبة الهلال، المجلد الأول، ص: ١٥٨ وما بعدها).

٣ - إنها ليست وصية للرسول بل هو قرآن كريم، الآيتان ٩و١٠ من سورة الضحى. وقال هنا تعود إلى الله عز وجل وربما أراد الكاتب. قول الله عز وجل على لسان الرسول ﷺ.

لماذا تكتمون العلة إذا أردتم الشفاء ٣٨٦

١ - مجلة أنشاها خير الدين الأحدب في بيروت عام ١٩٢٥.

الفصل بين الحكومة والمعبد ٣٨٩

١ - كتب الخوري انطون عقل مقالاً نشره «البرق» بتاريخ ٢٨ أيار ١٩٢٥، وجهه إلى الأخطل الصغير معاتباً إياه لقيام هذا الأخير بكتابة مقال، نشره في عدد سابق، من البرق، دعا فيه إلى الفصل بين الحكومة والمعابد ورجال الدين. فرد عليه الأخطل بالمقال الموسوم أعلاه.

٢ - مفردها فَرَمان: عهد السلطان للولاة «فارسية» المنجد، ص. ٥٨٠

صِلْ. أحسن. قل الحقَّ ٣٩٢

١ - ليست هذه الأقوال حديثاً واحداً، بل هي أحاديث ثلاثة ، وردت في مواضع مختلفة على شيء من الاختلاف في الصياغة والتركيب.

في سبيل الوفاق ٣٩٨

١ - الرأي العام، جريدة لبنانية بيروتية، أنشأها طه المدوَّر، في ٣٠ آذار ١٩١٠.

٢ - أراد حبال المشانق التي نصبت لأحرار لبنان والبلاد السورية في ساحة الشهداء في بيروت وغيرها .

الطائفية واللاطائفية ٤٠١

١ - أي الأخطل الصغير وأبناء طائفته. وقد شرح الأخطل مناسبة مقالة صاحب جريدة الرأي العام، في سياق ردِّه الملحق.

****

الباب الرابع

مقالات أدبية

علــى الملعــب

الجبـار[1] الذي كـان يُعبد في تركيـا، زلّ به العرش إلى مـرسحٍ في بيـروت. والظل الذي كان يخيم الرعب فيه على الرؤوس، محقته شمس القوة.

عُدْ دقيقةً إلى ما قبل الدستور، وضع أذنك على قلوب القوم، تسمع نبضاتها. ويكفي لأن تَفُوه باسم عبدالحميد ليُزج بك في الهاوية.

قل: وليُّ النعم بلا امتنان، ومالك رقاب العباد، وإلا فأنت هالك.

أحرقْ البخور مع الملايين على قدمي سلطانك، وإلا فأنت زنديق. وإذا لم تعمل من نفسك عبداً يُقبّل رِجْل الظالم، ويُعفِّر جبينه في التراب الذي تدوسه قدماه، فأنت رجل مارق على هدم العرش وخراب الأمة.

ويلٌ لك إذا كنت لا تنتظم في هذا السلك الفريد! أمامك البحر، وأمامك السجن، وأمامك النار. فاختر لنفسك واحداً من ثلاثة، إذا أقمت في بلادٍ عبدالحميد سلطانها.

وكما يتلاشى الدخان المتصاعد في الفضاء، تلاشت تلك القوة. وبأسرع من رفّة الجفن استحال الجبل الوعر إلى سهل خصيب. وكما يمحو الولد الكتابة عن اللوح محت إسفنجة الأيام كلٌّ ما كان من أمر عبدالحميد بالأمس.

وهوى العرش بالسلطان إلى أسفل، وزُحزحت رجلاه عن رأس الأمة وصدرها، فتنفَّس الصعداء كل ذي حياةٍ في المملكة العثمانية.

ولكن أصوات المدافع بالأمس تركت في الآذان دويا ملازماً. والسَّوْرة التي ولدتها خمرة الفوز، لا تزال تلعب برؤوس العدد الأوفر. فإذا نحن لم نتفاهم فلِمَ دويُّ المدافع، وإذا نحن سقطنا مراتٍ على الطريق، فلأننا لم نعتد خمرة الفوز من قبل.

وعاد الهدوء إلى جسم المملكة. والغراب الذي وكره في «الاتيني»[2] اليوم يقف في

مرسح «زهرة سوريا» أمام المئات ليقول كلمات وضعها في فمه أمين الريحاني.

ورُفع الستار ثاني مرة، فضج القوم: عبدالحميد! لم يكن بين صاحب الاسم ورجل المرسح من فرق. ومتى علمت أن الممثل كان عزيز عيد[٣] صغرت المبالغة عندك.

وكان في لهجة الشبح وحركاته جمال تولد عند ملامسة الجودة في التمثيل. فإن ليلة الأمس كانت شريفة في غايتها، جميلة بمن حضرها مفيدة بمغزاها.

الرواية فصل واحد قال فيها صاحبها، إنها وقفة على باب هذا الفن.

إن الروايات التي تُمثِّل أخلاقنا وعاداتنا، فترينا موضع الضعف فينا فنتجنبه، لهي التي يجب أن تحتفل بها المراسح.

لا يهمنا أن نرى ملك فرنسا على مرسحنا، ولكن يهمنا أن نرى سلطانا خلعته الأمة كعبد الحميد، يعترف بجرائمه أمام الشعب الذي كان يقدسه، فيزول اعتقاد الشعب بالألوهية، بألوهية سلطانه.

يهمنا أن يرى الشعب أن اليد التي كانت تقبلها الملايين من البشر كانت تغمس بيد[٤] إخوانه. يهمنا أن يعلم أن السلطان المخلوع كان صورة غضب الله على الأمة ونذير بلائها. فيهون عنده بعد ذلك خلعُ رجلٍ كان يعتقد أنه تحت الإله وفوق الإنسان.

أنكر المجرمون في سجنهم هذه المعاملة اللينة، وساءهم أن يكون المجرم الكبير يتنعم بين الجواري والخدم، ويتقلب على الحرير والأطلس، وهم هم المجرمون الصغار، يعاملون بتلك القسوة، ويزج بهم إلى قعر مهواة من البؤس مظلم.

أنكروا ذلك وقالوا أنْ ليس للسلطان معدتان، ولا العدل له ميزانان. وقبحوا وجه الأمة مدانة[٥] الحكومة، وطلبوا أن يلتوهم بسلطانهم لأنه مجرم، وهم مجرمون، سفاح وهم سفاحون.

ورأى الحضور طلب السجناء عدلاً، فصفقوا له، وامتزجت روح المؤلف[٦] بروح القسم الراقي منهم، ورأى الآخر بعين الحس ما لم يكن ليصل إليه عن غير طريق المرسح، فرضخ لبراهين السجناء في السلطان، وهان عليه أن يراه سجينا بعد أن كان يرفض أن

يراه حتى على المرسح عزيزا

واعترف عبدالحميد بما اقترفه من الذنوب وأصلته الأشباح حرباً عواناً، ليلةً بتمامها. فكان تارةً يُحس بالموج يلطم خده، وطورا يشير إلى الأشباح التي أكسبتها تموجات الكهرباء جمالا.

«أسرير في القصر أم قارب في البحر».

قال ذلك، وقد ألقى بيديه المرتجفتين الناحلتين على سريره، يحسبه قارباً وتمنى عبدالحميد الموت، وما كان الموت ليدنو من سلطانه، فبقي رهين العذاب كثير المخاوف

تلك هي الرواية من حيث موضوعها. إنها إحدى ليالي عبدالحميد في منفاه فهي إذن «ليلة الاتيني» ولا بأس أن يكون ذلك اسما لرواية الريحاني.

وحبذا لو أضاف المؤلف إليها فصلاً آخر، يكون كالخاتمة لها، بحيث يضيف إلى عداد الممثلين بطلاً أو بطلين من أبطال عبدالحميد في يلدز[٧] فيعمل من هذا الفصل رواية تكون ذات شأن في عالم المراسح.

إن إقبال الناس على ما يقوله الريحاني كفيل بنجاح رواياته، ومن العار أن تكون مراسحنا خالية من المراسح الوطنية.

فعلى أدبائنا أن يضحوا وأن تكون التضحية عزيزة. والذي لا ينال اليوم ينال غداً، ومن رام أن يجني العسل لا ينجو من إبر النحل.

بشارة عبدالله الخوري

البرق، ١٩٠٩، عدد. ٥٧، ص:١

****

الصحافة والحياكة

لا أنصف إذا دعوتها رأس قلم، فهي أشبه برأس الحربة منها رأس القلم

أريد بذلك كلمة الصفاء[1] بعنوان «الحياكة والصحافة». وأظن الكاتب غبن الحائك فيها، لأنه حتى في ذلك الزمن كان يفرق بين (المكوك) والقلم، أما بعض حملة الأقلام اليوم، فلا أبالغ إذا قلت إن معظمهم ربما كتب بالأول وحاك في الثاني.

وإليك كلمات من تلك الكلمة:

انقضى الزمن الذي كانت الحياكة فيه خير حرفةٍ للمتعطل – ولكن الزمن حال[2] – فأصبح الذي لا يستطيع أن يتقلد عملاً أو يتعاطى تجارةً أو صناعة، يعمد إلى أنبوبة من القصب فيبريها قلماً، أو يجعل نفسه صحفياً. وهكذا قامت الصحافة مقام الحياكة وناب القلم عن الوشيْ (المكوك) والصحيفة عن لوح المنوال[3]، وسبحان مُغيِّر الأحوال...

ونظرنا فإذا الجرائد في عدد الجراد، وإذا رجال الصحافة جيش عرمرم اختلط فيه الحابل بالنابل، وزاحمت ساقته المقدمة. وإذا في سورية ولبنان من الجرائد ما لا تجده في أوروبة وأميركة ومصر...

يتوهم بعض الناس أن كل من عرف كيف يبري القلم، أو يُعرب الجملة، أهل لأن ينشئ جريدةً أو مجلة، ويحشر نفسه في زمرة أرباب الصحافة. فهذا التوهم بعيد عن الصواب بعد القطب عن القطب، لأن الصحافة – مثل كل مهنة – لا يتقنها إلا من خُلق وفيه لها استعداد فطري، وله من سلامة الذوق وجودة الملكة، وحُسن الاختيار، ومتانة الأخلاق، وشرف الخلال، ما يجعله باحترافها، خليقاً. وهل يستطيع كل انسانٍ أن

يكون شاعراً أو مصوراً أو موسيقياً أو مخترعاً، فيستطيع كل من عرف كيف يبري قلماً فيخط به سطرا أن يكون صحافيا؟؟

وأية غضاضةٍ لحقت العربية، مثل أن تقرأ المقال الضافي في بعض الجرائد، فلا تأتي عليه حتى تكاد عيناك تبتدران أسىً على لغة البيان التي أنزل بها القرآن؟ حيث تجد الفاعل مفعولاً والمفعول فاعلاً: والمجرور مرفوعاً والمنصوب مجروراً؛ وما حقه التقديم، مؤخراً، وما حقه التأخير، مقدماً. إلى غير ذلك من الخليط والخبط اللذين تتصونُ عنهما الصحافة الراقية فلئن يكن بعض أصحاب الجرائد والمجلات قد عزز اللغة ورفع لها شأناً فقد هبط بها البعض الآخر من قبس عزها وسبب لها امتهانا

أما إذا لم يكن في الإمكان تدارك الأمر، ولم يكن بدٌّ من إقامة الصحافة، في هذا الزمن، مقام الحياكة للذين يترددون بلا عمل، فالأخلق ببلغاء المنشئين والأكفاء من رجال الصحافة أن يكسروا أقلامهم ويُمزقوا صحائفهم، ويعقدوا حفلةً يؤبنون بها هذه اللغة المزدراة قبل أن تدرج في رمسها و﴿لكل أجل كتاب﴾[٤]

البرق، ٤ نيسان ١٩٢٣، عدد ١٨٠٠، ص ١

****

السياسة في الشعر

لنقل ما لنا «وما علينا»

لا هَـمَّ لـلـقـــــوم إلاّ أنْ تـكـونَ لَـهُـمْ
يا شــرْقُ عَــبْـداً مــتى يا شــرقُ تَتَّــحــدُ
لَكَمْ أنكروا الـيـوم مــا بالأمس قــد منحــوا
وحــقّـقـوا الـيـومَ مـا بالأمس قـد جـحَـدوا
كامل شعيب

كـــانَّا وإياهـم عـــبـــيـــدٌ وســـادة
كـــانَّا شـــيـــاهٌ والمُســـوَّد ذيبُ
وقـــالـوا لـنـا انـتـم مِـــراضٌ وكلُّـنـا
لامـــراضـكُم لـو تـعلمـــون طبـــيـبُ
فقلنا صححنا . . . .
. . . .

نجيب خلف[1]

نحن لسنا من عشاق السياسة في الشعر لا سيما الذي هو من هذا الطراز. فإذا كان الشعر ابن الخيال، كما يقولون، وكانت النقائص التي نحاربها حقائق، كنا كمن يحارب الحقيقة بالخيال وما أفلح هؤلاء.

قد تثير إحدى حوادث السياسة أو إحدى مفاجآتها الكوامن في نفس الشاعر الفحل، فينظمها شعراً فحلاً تتغلغل دقاته في النفوس، فتفعل بها فعل الكهرباء. وكثيرا ما غيّرت قصيدة وجه بلدٍ وغيرت وجهة ذويها. وهذا لا يزيد عن أن يكون بيضة الديك أو فلتة الدهر.

أما أن نردد ما رثّ حبله أو كاد، ثم لا نَمَلُّ هذا الترداد، فقد بطل أن يكون ذلك شعراً، أي إحساساً دقيقاً؛ لأن الشعر أشبه بالسلك غير المنظور، يحمل من النفس إلى

النفس حباً أو بغضاً، ضحكاً أم بكاءً، عقلاً أم جنوناً، إلى آخر ما تريده نفس الشاعر من نفس القارئ.

وليس هذا في شيء مما قرأناه للسيدين شعيب وخلف. بل هما طرقا موضوعاً يحتمل الأخذ والرد، لأنهما رشقا فيه عن قوسٍ واحدة لا فرق بينهما إلا أن الأول عمم، والثاني خصص، وكلاهما قصد كراهية الأجنبي وتبيين معايبه، مرسلين الحجاب على مصائب الأمة التي هم منها على جهلها وخمولها، على تقسيمها وتباغضها، وهما لو أنصفا لعمدا أولاً إلى شفاء الأمة من أمراضها، حتى إذا نقهت انفض من حولها الأطباء راضين أو مكرهين.

فتح الأستاذ شعيب عينه الواحدة على الغرب فرأى أنه يستعبد الشرق، وأنه يستعيد ما منح، وينكثُ بما وعد، وهو لو فتح عينه الأخرى لرأى هذا الغرب يُنشئ المدارس في الشرق ليعلم أبناءه. وهل كان العلم طريقا إلى الاستعباد؟

ولرآه يُحدث الإنشاءات فيُقرِّب المواصلات ويُسهِّل نقل المنتوجات إنماءً؛ وهل كان العمران سبيلاً إلى الاستعباد؟

ولرآه ينشئ المياتم والملاجئ لا يسأل عن الإحسان ثناءً، فهل يجوز أن يُتهم المحسن.

ولرآه يقاسم الشرق ميراثه من علم واختراع سعياً وراء المغانم العامة والخاصة ويدعوه إلى مشاركته في الغنيمة بحيث ينال كلٌّ على قدر ما قدَّم؛ فأين منْ هذا الأثرة والنكران؟

ولو هو نظر أيضا، بهذه العين وقارن بين البلدان التي تماشت بالتمدن الغربي، وغيرها، لظهر له فضل هذا التمدن مما يتبينه من البوْن العظيم بين البلدان المتماسة به وغيرها من البلدان المعتزلة عنه.

ولو هو دقق في أمراض الشرق الكثيرة، وأفتكها داء التعصب الطائفي واضمحلال الجامعة الوطنية، لرأى أننا لا نستغني عن الغرب لنقتبس عنه درساً عالياً في إحياء الجامعة الوطنية والقضاء على التقسمات الطائفية.

نحن لا نقول للأستاذ أن ينظر بهذه العين وحدها، بل أن ينظر بعينيه الاثنتين فيعمد إلى الحسنات والسيئات فينا وفي غيرنا، حتى لا نُتهم بأننا أمة معتزلة لا ترى في الغريب حسناً ولا حسنى، وهو شر معايب البشرية في هذا العصر.

وبهذا أو بشبهه نخاطب الأستاذ خلف صاحب القصائد الرنانة في القضاء[٢] الوطني. وكم كان يُحسنُ الأستاذ إلى موضوعه وإلى قرائه لو عالج موضوعه بالكلام المنثور، لأنه أوقع وأوسع ولأن القراء كثيرا ما تتوارى أفكار الأستاذ عنهم خلال بعض القوافي وهن غير سوافر.

ثم أفلم يكن يجدر بالأستاذ، وهو ينعى القضاء الوطني أن يوجه ولو بعتاب خفيف إلى القضاة الوطنيين – الذين لم يستطيعوا أن يطهروا قضاءهم من أدرانه، والذين كانوا أسبق الناس إلى الاعتراف بمشروع الاندغام القضائي وهو اعتراف ضمني بالقصور.

فهو لو فعل لقلنا إنه منصف بقوله ما له وما عليه. أما وهو لم يفعل فقد نظر كزميله بالعين الواحدة إلى الجهة الواحدة.

إننا إذا شئنا أن تكون كلمتنا محترمةً، فعلينا أولا أن نقولها بإنصاف، وأن نقولها ولو علينا، وأن نقولها ونفعل بها. يجب أن نفعل ذلك ليحترم الخصم كلامنا، إلا إذا كنا منصفين.

إن الغرب والشرق أخوان ولكليهما حسناته وسيئاته والحكيم من أحسن الاختيار.

أبو عبدالله

البرق، ١٩٢٤، عدد: ٢٢١٤، ص:١

****

الأدب بعد الحرب

إلى الصديق الزهاوي

للأستاذ الزهاوي - فيلسوف العراق وشاعره - يدٌ على إنعاش الأدب بعد أن جف روضه أو كاد، بما انصرف له الناس من شأنهم الخاص، في زمن أصبح العيش فيه جهادا، فهجر الشعرَ أصحابُه والبيانَ أنصارُه، إلا نفراً دون القليل يتنفس به من حين إلى حين

ولم يحتكر هذا الجفاف الأدبي لبنان وسوريا، بل تناول مصر والعراق ولا غرو فإن نتائج الحرب شملت العالم بأسره وجعلت للوقت ثمناً على قدر غلاء المعيشة ولمّا لم يكن لبضاعة الأدب من ثمن، وكان لا بد للأديب أن يعيش، ولما كان لا يكفيه اليوم ما كان يكفيه قبل الحرب، فقد صرف ما كان يهدره على الأدب من وقته في سبيلٍ أضمن لسد حاجاته.

ويظهر أنه كان للحرب ضغطها على القوى النفسية أيضا؛ فأسرعت بالقرائح في طريق الهرم، وهو ما يفسر انحطاط ما نقرأه لكبار الشعراء اليوم عما كنا نقرأ لهم قبل الحرب. فأين كل منظوم شوقي[1] بعد الحرب، من «أندلسه الجديدة»؟ بل أين كل منظوم خليل[2] من «فتاة الجبل الأسود»؟ وهل يوازي كلُّ ما قرأناه جديداً لحافظ[3] شطراً من «بنات الشعر بالنفحات جودي»؟.

ولا أحسب الملأط[4] يجرؤ على الدعوى، بأنه يستطيع اليوم أن يخلق «بين العرس والرمس»؛ ولا الياس فياض[5] يستطيع أن ينفحنا «بنسيمه العاشق»، وطانيوس عبده[6] يعجز اليوم عن «بنته ودواته». أما أمين تقي الدين[7] فقد صرفته هذه الجبال عن «تلك الجبال»، وجرجي سعد[8] هجرته «هاجر»

والرصـــافي على تطلعـــه إلى ســجن بغـداد بعـيـد عن «السـجن في بغـداد» ، واستحالت على الشبيبي[٩] «قبلات الحذر».

أما الزهاوي فإن علمت أنه تجاوز عمر الشعر بمرحلة طويلة، وأنه لا يزال يهزه إلى الطرب القديم بقية في الراوية - وإذا علمت أنه ينظم في كل يوم وكل ساعة - إذا علمت ذلك، فلا تستطيع بعد هذا أن تطلب إليه أن يسمعك دائما مثل «أبنيها وتنهدم»[١٠].

ولا نظن واحدا من الذين سميناهم - ولم نسمِّ جميع المجدين من شعرائنا - ينكر علينا ما نزعم من انحطاط القوى الأدبية عن مستواها قبل الحرب حتى في نفس الرجل الواحد.

فإذا كان الأدب ريحانة النفوس وكان الشعر عنوان الأدب، ثم إذا كان هذا الأدب ذابلاً روضه، ناضباً معينه، فإنه مدين بانتعاش روضه، وفيضان معينه للأستاذ الزهاوي ضيفنا الكريم.

يرجح أن تكون لبشارة الخوري لأنها افتتاحية

البرق، ١٩٢٤، عدد ٢٠٨٠ ص: ١

****

حفلة المطـــران[1]

كلمة في غير محلها

وإنما دعوتها هكذا لأن خليل مطران – كبير شعراء العرب – بيت القصيد فيها، ولأن القوم هنا يريدون أن يسمعوه وأن يعرفوه.

المكان «وست هول» في الجامعة الأميركانية.

الزمان الساعة ٨ من مساء السبت الواقع في ١٧ الجاري.

وكان الحضور عدداً قلَّ أن ظفرت حفلة بمثله.

كان الأستاذ ضومط[2] عريف هذه الحفلة. فهزل وجدَّ؛ فكان تارةً مقبولا وتاراتٍ ملولاً. ولو حكَّمني في نفسه تلك الليلة لكان في الحضّار لا في السمَّار.

✡✡✡✡

أنا أجهل كيف كان يخطب العرب أيام الجاهلية وفي صدر الإسلام فإذا لم تكن لهجة الأستاذ النشاشيبي[3] لهجة عصرية متنوعة فهي إذن لهجة جاهلية.

وكان أجمل ما في خطب الجاهليين الإيجاز، أو قل (أنجى) لتلك الخطب. ولماذا؟ لأن كلاً من الأذن والعقل والقلب يطلب التنوع، ولم تكن الخطب الجاهلية القديمة تعرف ذلك، فكان إيجازها يُنقذها من السأم، فضلاً عن أن في الإيجاز كلَّ البلاغة.

لقد اجتمعت بالأستاذ النشاشيبي قبل خطبته فحدثني عن موضوعه؛ قلبٌ عربيٌ في عقلٍ أوروبي. ويريد بذلك أن نقرن أخلاق العرب بعلوم الإفرنج؛ فأرواني حديثه، ثم سمعته خطيباً يقرأ ما كتب ويتوغل في ما نقل، فكان الأول أحسَّ أثريه في نفسي.

✡✡✡✡

وكنت أظن الحرب الكبرى أثرت على روح الريحاني، فحملته على تبديل نظريته، تلك النظرية التي وضعها في «مدينته العظمى» من جعل الناس أشباه ملائكة يعيشون متسالمين متآخين، شعراء وأنبياء . فإذا هو لا يزال يريد أن يصنع من «الروحية الشرقية والعقلية المادية العربية[٤] تكوينا جديدا خاضعا لنظام الحب وقائما على وحي الشعر والنبوءة».

والذي نراه أن الضرر الذي ما بعده ضرر، هو استسلام شبيبتنا إلى مثل نظرية الأستاذ، بينما نحن نرى العقلية الأوروبية منصرفةً إلى تعزيز المادة، دائبةً مجدَّةً حتى إذا بلغ كلا الفريقين شوطه كانوا أصحاب الحقيقة وكنا أصحاب الخيال، وليس يعادل خيال الدنيا مقدار ذَرَّةٍ مما تزنه الحقيقة.

كيف يرجو الريحاني أن ينضج الشعر والنبوءة عند الغربيين، ليكونوا الصلة الحقيقية بينهم وبين شعر ونبوءة الشرقيين. كيف يرجو الريحاني ذلك بعد كبير تمرسه بشؤون العالم وكثير تنقله بين حواضر التمدن الغربي - التمدن المبني على المادة - ومهابط الوحي الشرقي - الوحي المبني على الجمود - ثم تعرفه بما بين الفريقين من اختلاف في تفهم الحياة؟ أفليس هما على طريقين متناقضين لن يلتقيا في نقطة معينة؟

وعلى الجملة فخطبة الريحاني قطعة من الشعر (بكل المعنى) وأجمل ما فيها ختامها.

☼☼☼☼

يقولون إن خليل مطران مثال الإنصاف، فهل كان في تلك الليلة كما هو؟.

لقد حامت عليه القلوب واشرأبت إليه الأعناق، وأرسلت إليه القُبل والبسمات. وهذا قليلُ في جنب ما يستحقه الخليل، ولكنه أنصف اللغة العربية وظلمنا، بل أنصف الشعر العربي بأن سدَّ فيه ثلمةً أعجز فحول الشعر سدُّها، هو أنه نظم حكاية نيرون من نحو أربعمائة بيت على رويّ واحد[٥]. إنها معجزة! لا سيما إذا أطلقت عليها أشعة

التفسير حتى تتفهم ما غمض من ألفاظها – وقصيدة تتألف من ٤٠٠ بيت شعر وأربعمائة قافية لا تنجو من الغريب.

غير أن الذين شكوا حظهم من خليل تلك الليلة ذكروا أنه عائد بعد خمسة وعشرين عاما وأنه أعد قصيدته لتلقى في معهد علمي فلم يكن أليق من قصيدة الأمس بذلك المعهد.

إن الرسم والموسيقى والشعر، لتعجز بالحقيقة عن أمثالها في قصيدة الخليل فهو أحذق من رسم وأطرب من غنى وأبرع من نظم.

فإذا كان قد أنصف اللغة العربية في الأمس ليظلمنا، فلماذا لا نطلبه لليلة ينصف فيها اللغة ويُنصفنا؟

«أبو عبدالله»

بشارة عبدالله الخوري

البرق،١٩٢٤ ، عدد .٢٠٩٥ ، ص: ١

****

الأدبان الأبيض والأحمر[1]

يريدون أن نكتب لهم شيئاً في الأدب، وهم يعنون بعض المقاطع في الغزل والوصف؛ وهو ضرب من الغزل الأبيض ينبت في تربة السلم والرخاء، وينمو في ظل الحرية والإخاء؛ فلا نكاد نحاوله حتى نصطدم بقصائد حافلة من الأدب الأحمر ينظمها غاندي وأتباعه في الهند، والنحاس وإخوانه في مصر[2] كما نظمها الفرنسيون في ثورتهم يوم علقوا قصيدة حمراء في كل شارع، وعلى كل جدار وفي رأس كل حربة. وكما نظمها العراقيون عام ١٩٢٠، وكما نظمها السوريون عام ١٩٢٥[3] وكما ينظمها كل شعب «شاعر» يستمد دمه حبراً لكتابة القصائد الخالدة، قصائد النخوة والإخاء والحرية.

فما هي قيمة الأدب الأبيض إذن، ذلك الأدب الساكن، الهانئ يرسله العُشاق أنّاتٍ متقطعة إثر حبيبٍ هاجر، وغزالٍ نافرٍ، إذا قيس بالأدب الأحمر يُطلقه الثائرون للعدل والحرية من صدورهم شرراً تبري المناصل وتكتسحُ المعاقل؟

ما هي قيمة هذه النغمات توقَّع على الأوتار بين الكأس والزهر، إذا قيست بضربات المطارق تحطم القيود عن الأعناق، وهتاف الجماهير يدكُّ حصون الظلم والاستعباد؟

لقد اكتسح الأدب الأحمر الأدب الأبيض اكتساح الحزن للفرح؛ وهو في البلاد المستعبدة أقوى جماحاً، وأبعد طماحاً، لا سيما في هذا العصر وقد نهضت الشعوب المستعبدة لتحطيم أغلالها، واسترجاع استقلالها، لا تبالي بدمها ومالها أن يُراقا على ساحة الشرف الوحيدة، الساحة التي تتهالك فيها الشعوب للشعوب نفسها، لا تلك التي تتهالك فيها الجنود لمطامع المُتمولين.

إن أجمل قصيد في الأدب الأحمر، هي التي نظمها المسيح على صليبه فتغلغلت في العصور تعصف في العروش فتنهار، وبالمطامع فتستحيل إلى غبار.

وإن أجمل قصائد الأدب الأبيض هي هذه التي فاضت بها أرواح الملائكة، ملائكة الرحمة في شعراء الخلود.

ولا نَـــزلَـــتْ عـــلـــيَّ ولا بـــأرضـــي
ســـحـــائبُ ليس تَنتظم البـــلادا[٤]

إن كلاً من الأدب الأبيض والأحمر متلازمان لا ينجو ذاك إذا لم يُمهد له هذا، وإن الشعوب التي لا تُعنى بقصائدها الحُمر لا تستحق قصائدها البيض

بشارة الخوري

البرق، ٣٠ تموز ١٩٣٠، عدد: ٣٣٧٠، ص ١

****

شاعر بائس

يستجدون له أكفَّ المحسنين

صدر نداء وقعه أعاظم رجال الأدب والفن والسياسة في انكلترة، لمساعدة الشاعر الانكليزي السر وليم وَطْسن الذي هو الآن مريض، وفي حاجة إلى المساعدة. ويُثني النداء على مزاياه الأدبية العظيمة، ويقول إنه ظلَّ مخلصاً للمقاصد العظمى التي وضعها نُصبَ عينيه. ولكنَّ العالم كثيرُ النسيان والإهمال لعظمائه إلى أن يضمَّهمُ القبرُ.

والآمال معقودة على أن يلقى هذا النداء صدىً عظيماً في بريطانيا والممتلكات المستقلة، وأميركا. وتُرسلُ الإعانات إلى بنك مولند. أما السر وطسن فإنه مصاب بالتهاب الغدد يقضي معظم وقته في الفراش. «روتر»[1].

وهذا شاعر انكليزي يستمطرون الأكف إنقاذا له من بؤسه، ولقد كنا حتى هذه الساعة نغبطُ أي أديب غير عربيٍّ حُسبان أنه يختال في بُرودٍ من العز، ويتقلب على الوثير من النعم، وتضحك له المنى عن ثغرها المعسول. فكيف به إذا كان ينظم في لغة تدور على ألسنة الملايين من الناس بين مشرق الأرض ومغربها؟

ونحن الآن بين أن نرثي لهذا القلب المنسحق في بلاد الانكليز، نعم المنسحق تحت مطرقة البؤس القاسية، وبين مخالب الاستجداء المُمِضِّ. نحن الآن بين أن نرثي لذلك القلب الحسَّاس، أو أن نتعزَّى قليلاً عن الضَّنك الذي يحيق بشعراء العرب وأدبائهم، على تفتت قواهم وانهيار عروشهم وطغيان الأمم الغربية عليهم، واستثمارها خيراتهم واستعبادها رجالهم. وانه لَخَطبٌ لو نزل بأية لغة من لغات العالم، لدرس معالمها وعفَّى آثارها. ولكن ربك لطف بلغته، فحفظها في كتابه الأمين الذي لولاه لما نعم أديب عربي بما ينعم به من لذة النفس وسعة الجاه، على قدر ما تتسع له البلاد العربية في يومها الحاضر.

وإذا كان حفظ القرآن والعناية به واجباً دينياً على المسلمين العرب، فهو واجب أدبي بل واجبٌ سياسي على العرب غير المسلمين - لأنه جامع ألسنتهم، وأساس قوميتهم، وقبلة نهضتهم، وحافظة آثارهم ومآثرهم.

فإذا عرفنا ذلك وإذا أردنا أن يعزَّ الأدب العربي في قومه، لزمنا أن نعمل على تعميم اللغة وتفهيمها، وهي لا تعمُّ ولا تُفهم إلا إذا كان هناك سلطة عربية وازعةٌ، يلجأ إليها الناس في مصالحهم، إلى ما هنالك من معامل ومصانع ومتاجر تخضع للسلطان العربي ولغته وهذا لا يتم إلا إذا اتحدت عناصر البلاد العربية على تعزيز هذه الفكرة؛ وإلا انتحرت انتحارا زريًا.

وبعدُ، فإننا عائدون إلى هذا الزميل البائس في بلاد الانكليز، وإلى هذا النداء الذي استجدوا له به أكفَّ المحسنين؛ الأمر الذي لم نعتده عندنا، بل الأمر الذي لم نُجزه حتى عن طريق المفاوضة العلنية، مبالغةً في الحياء الشرقي. مع أن الأمر أقل خطورة مما تتقيد به تقاليدنا. أفليس الشاعر من أعظم المحسنين إلى الإنسانية، يسكب دموعه الطاهرة على جراحها، ويُدخل نور الله الى قلوبها، ويسكب نغمات الملائكة في آذانها؟

وإذا كان الروضُ على ما فيه من الجَداول وما فيه من الأزاهر، لا معنى له ولا حياة فيه إذا لم تُغرد الطيور على أنغامه، وتنفض ريشها على ضِفافه، فما بالك بالإنسانية على عُبوس وجهها، وانسحاق قلبها، إذا هي لم تستشفَّ هذه الدروقَ المنسكبةَ من فم شعرائها، وهذه الأرواحَ العطرة تنتشرُ على هياكلها القدسية؟

ثم، فهل تكون البقاع من سهلٍ وجبل، أكثر شعوراً نحو (شعرائها) فتقدم لها الثمر والماء لغذائها، وتغمرها بالأزهار اعترافاً لها بالجميل، وتجعل لها من الأغصان أسرَّةً ومنابر، ونحن ، نحن الذين نزعم أننا فوق الجميع، عزَّ بالشاعر؛ بهذا الطائر الوديع المغرد يُرسل ألحانه أناتٍ ودموعه جمراتٍ، حتى إذا ضرَب منقاره على أكفهم، فكأنما يضربها على جذع جفت عروقه ونتنت ريحُه.

وبعد، فلا تعجب أن يُنبت هذا العالم العربي شاعراً على جفاف تربته، وكثرة صخوره! أما رأيت في الجبال الناتئة أزهارا على غاية من الجمال، تتمنى أجمل متاحف الزهر لو حوتها آنيتُها؟ هكذا ينبت الشاعرُ العربي عندما ينعم الدهر على العرب بشاعر.

بشارة عبدالله الخوري

البرق، ١٩٣٠، عدد: ٣٣٨٢، ص ١

****

الأدب العبد

استغلال المادة للأدب، جناية السياسة عليه
الأدب في الحكومات المطلقة والنيابية

إذا كانت المادة أو إذا كان الذهب المسيطر الأول على الإنسان، وهو المسيطرُ على الأرض بما فيها من حيوان وجماد، كان الذهبُ سيد الكون بلا منازع

ولا نحسب الناس بتنازعهم البقاء في جميع مذاهب الحياة، من زراعة وتجارة وصناعة وسياسة، بأمر هذا «السلطان الأعظم» يسجد له الملكُ في عرشه، والفقيرُ في نعشه، كان ذلك منذ أن عرف الذهب وسيبقى إلى أن تسود المساواة المطلقة بين الناس.

أفبعد هذا ترى أن يكون للأدب، وهو روح، كل حظه أنه ينعش النفس ويصقل الحس، أفبعد هذا ترى للأدب أن يزاحم المادة أو أن يكون له حظ معها، وهي قد ضربت بكل ما هو روحي حتى بالأديان نفسها إلى الحضيض، لا ينفعها عندها أنها كانت أساس هذا النظام الفريد، وأنها كانت الوازع الوحيد بين الناس قبل أن يأخذوا قسطهم من العلم وقبل أن تسودهم القواعد الأدبية المعروفة.

وقد كان للأدب عهد ازدهر فيه، ذلك يوم استعملته المادة لخدمتها، تجعل منه آناً ريحانة تستطيب شمها، وآونةً بوقاً يملأ بالصلاة والسلام عليها، وأحياناً تزجُ به في المعارك تثير به العصبية وتحمس به الجند، إذن فلم يكن الأدب يوماً حراً ولا سيداً حتى يكونها اليوم وهو في أَضْنَك أيامه أو آخر أيامه.

وإن الأديب نفسه في سالف الزمن وحاضره، كان يوقن أن الأدب وسيلة للحصول على الذهب؛ فهو إن أنشأ كتاباً أو نظم قصيدة، تطلع قبل كل شيء إلى ما سوف يدره عليه كتابه أو قصيدته ولا يلام في ذلك إذا كان لابد من العيش في تنفسٍ ولو قليلاً.

وبعـد، فـلا تدهش إذا رأيت الأدب في الحكومـات المطلقـة، منذ بدء التـاريخ إلى اليـوم مـزدهراً لأن الأديب لـم يكن يطمح إلى مـا وراء أدبه من مناصب ومـراتب، وهي كانت قسمة فئةٍ من الناس ليس الأدباء منها، بعكس الأمر في الحكومات النيابية التي أصبـح كل منْ جَـرَّ القلم على الورق، يطمح إلى أعلـى مراكـز الدولة، فـتضـعف غـريزة الأدب فيه تحت تأثير السياسة وطموحها.

وإذا كانت الحكومات النيابية قد وسعت الأقلام السياسية، بأن جعلتهم يطمحون إلى المناصب والرواتب، كما هو مشاهد الآن، فهي قد ضيقت على أصحاب الأقلام الأدبية لعدم حاجة السياسة إليهم، حتى ليكاد الأديب الناضج أن يصبح غريباً في بلده بين شعبه وحكومته، في حين ترى الكاتب السياسي على قلة بضاعته وضعف براعته، يشار إليه بالبنان ويخطب ودَّه كلُّ متربع في دَسْتٍ أو كل طامحٍ إلى دست[1]

ولكن هل من الحكمة أن يُقضى على الأدب، وهل من مصلحة السياسة نفسها أن تقتل غريزة الأدب [في][2] الناشئة ليغامروا في السياسة وهي العراك المستديم بين فريقين أو أكثر من أبناء البلاد لاستثمار أبناء البلاد، فإذا كان ليس من الحكمة قتل الأدب أو تحويل الأدباء الى سياسيين، فلماذا لا تأخذ الحكومات والحكومة اللبنانيةُ خاصةً بيد الصحف الأدبية، إذا لم يكن لإنعاش الأدب نفسه، فعلى الأقل لتحويل هذا الطوفان من النشء الجديد على[3] الاشتغال بالسياسة وهي ليست بلاء الأدب وحده بل بلاء البلاد أجمع.

بشارة الخوري

البرق، ٤ آب ١٩٣١، عدد ٣٤٠٥، ص ١

****

الأدب بين عهدين
بين الحكم المطلق والحكم الوطني

قلنا لك في الأمس إن الأدب لا يفلح في الحكومات النيابية، ولا ينبه له ذكر مع السياسة، ولا يرتفع صوته مع الصخب الحزبي، ورجعنا بك إلى صدر التاريخ نقلب ما شئت من صفحاته، فترى أن الأدب لم يزدهر في الشرق والغرب إلا تحت رعاية مسيطر عظيم جعل من الأدب حليةً لملكه وفاكهةً لمائدته، وأنغاماً لمجالس أنسه، على عكس الحكومات التي تسيطر عليها الأمة بواسطة مجالسها المنتخبة، فإنها تنتزع من حقول الأدب أنضر أغراسه لتجعلها وقوداً للسياسة. ولا نبعد بك إلى عهد الملوك العظام في الغرب والشرق، وما نبغ في عهدهم، وتحت رعايتهم من كبار أهل الأدب، بل نقف وقفة قصيرة عند مصر، وسوريا قبل الحرب الكبرى وبعدها

أفليس أن النهضة الأدبية في مصر بلغت أوجها في عهد الخديوي عباس حلمي[1] حتى كان لها في كل شهر على التقريب، موسم أدبي نستمع فيه لعشرات الشعراء والكتاب أروع ما فاضت به القرائح، فيتصل صدى ذلك بلبنان وسوريا، وهي تحت الحكم المطلق؟ ثم تتكون مثل تلك النهضة في بيروت والشام فيترجع صداها في سائر الشرق العربي؟

ثم أليس بوسعك أن تسمي الأدباء الذين استلبتهم السياسة من الأدب، إنْ في مصر أو في لبنان وسوريا؟ وحسبك بما آمن إليه العقاد[2] والمازني[3] وهما من أشهر أدباء مصر ثم أليس بوسعك أن تدل على أضرابهما في لبنان خاصة، فترى أن السياسة شغلت نمور والخازن والتويني ودموس وفياض[4] وغيرهم من جماعة الموظفين، عن الأدب كما شغلت معظم أصحاب الصحف عنه وقد خلقوا له وعرفوا به.

وهل كان يطمع هؤلاء في الحكومة المطلقة، إلى مثل المناصب التي يشغلونها؟ وهل هذا الانقلاب سوى ضرب من الأحلام الأدبية لم يجن على المنتوجات [الأدبية][5]

فحسب، بل جنى على المنتوجات الاقتصادية بدليل أن كل من انفرجت عنه أمه ينظر إلى ركوب رئاسة الجمهورية مثلاً كما ينظر الطفل إلى ركوب أحد الأحصنة الخشبية الصغيرة.

وعلى ظهر هذا الطموح إلى المناصب الحكومية، من جهة وإلى استنزاف الأموال السياسية من جهة ثانية، بارت حقول الاقتصاد والأدب معاً. وكانت هناك جناية أكبر هي التباغض بين إخوان الأدب لسبب التزاحم على المنصب الواحد، أو الانتماء إلى حزبين سياسيين يتقاتلان على استثمار الخزينة وإرهاق المكلَّف بما ينفقون عن إسراف.

فأنت ترى أننا نتفاءل بفوز الأدب على السياسة؛ فهو نظيرُ فوز الروح على المادة ولم يخلق الإنسان لكل هذا.

البرق. ١٢ آب ١٩٣١، عدد. ٣٤٠٦ ، ص: ١

****

تولستـــوي[1]

١٨٢٨ - ١٩١٠

جلالٌ، وشعره الأبيض يوحيه، وذكاء وطرفةُ المتوقد يذكيه، هو الفيلسوف تجثو له خاشعاً في لحده وتبارك يمين المبدع فيه

ودولة لها في كل دولة عرش، مستوية عليه الحكمة، يتوجها الإلهام، ويعصمها الوحي، فهي دولة الفلسفة ذات العلم الرفيع، ينضوي إليه قادة الرأي ودعاة الإنسانية يضربون في لبسه الديجور، بحسامٍ من نور حتى ينفلق فجر الهدى للعالمين.

ثم ما لهذا العَلَم المرتفع في الأمس، ملتوية عنقه، وعلام يرف على هذا الرمس، رطيباً ترابه، كالطائر رماه الصائد فشوى جناحيه، فمسكه غصن عن أن يقع، فتدلى ورأسه إلى الأرض كأن له فيها جوهراً ثميناً، أو حبيباً دفيناً. وحسب العلم شرف الانخفاض على ضريح الحكمة، وحسب الضريح شرف الارتفاع برب الحكمة، إن في القبر لتولستوي!

تلك نبأة أنَّت لها سلوك البرق، واضطربت لها محافل العلم. فما الرأسُ المتوج بالذهب «إذا حمل في نعشه» بأفعل في النفس من الرأس المتوج بالأدب «إذا هوى من عرشه»، وقد لا يوجع سقوط الأول سوى فريقٍ هو الدولة التي هو رأسها، بعكس الثاني إذا سقط فإنه ينقف على كل وتر في كل قلب ٍفي كل دولة. تشهد لك أقوال الصحف في هذه الفاجعة على اختلافها، لغة وجنساً ومذهباً وسياسة. وهو دليل يؤيد قول القائل: إن العلم وطنه العالم، وحبذا عرش له في كل مملكة جندٌ، عرش كان صولجانه حتى الأمس في قبضة الفيلسوف الراقد!

وخليق بنا، ونحن إلى المجلة أقرب من الجريدة الإخبارية، أن نلم بشيء من ترجمة تولستوي، نشفعها بكلمة عن فلسفته، فكلمة ثانية عن أطواره، ثم ننتخب شيئاً من مأثوره على الترتيب الآتي:

ترجمته

في «بازانيا بوليانا» من ولاية «طولا» في الروسية انفتح للنور عينان جميلتان هما عينا الكونت لاون[٢] نيكولافيتش تولستوي، والعام يومئذٍ ١٨٢٨.

وفي «استابوفو» إحدى مدن الروسية، انطفأ ذلك النور في عيني الفيلسوف والعام ١٩١٠.

وكانت نفس الطفل في قفصها الصغير تشعر بضغط المادة، فكنتَ تراه كمن يحاول الانفلات من قيودٍ كبَّله بها الوهم. وكانت مُربيتُه إذا ركضت على صراخه، تراه كمن يعمل على فك يديه ولا رباط بهما.

وماتت والدة تولستوي وهو في الثانية من سنيِّه، ومات أبوه وهو في العاشرة منها. ثم أخذ يدرس اللغة الفرنسية على أحد أبنائها، إلى أن بلغ الخامسة عشرة من عمره. ومذ ذاك راح يطالع كبار الأدمغة من مفكري الفرنسيس كفلتر[٣] وروسو[٤]. ثم وقد بلغ التاسعة عشرة، بدأ يجتهد في المسائل الدينية بحُرِّية تحامتها علماء الروس من قبل.

ورجع تولستوي إلى مسقط رأسه، وكان قد فارقه ليُنهي دروسه في جامعة قازان ومكتب حقوق بترسبرج؛ فظهر منه عهدئذٍ ميلٌ إلى المعيشة الساذجة الطبيعية، ولكنه لم يثبت عليه

وقد سافر إلى بلاد القوقاز سنة ١٨٥١ وساح في سويسرا وفرنسا وألمانيا سنة ١٨٥٨ وتزوج سنة ١٨٦٣ وكان أفضل تآليفه ما كتبه في أوائل زواجه.

ولمع نجم تولستوي في عالم الأدب؛ وكان من أقطاب الفلسفة الاجتماعية لهذا العصر. وقد وضع كثيرا من الكتب أشهرها «حنه كريتين»[٥] و «الاعتراف» و «البعث» و «ما هو الدين».

فلسفته

تولستوي هو أول من فكَّ القيود التي تربط الدين بالسياسة في روسيا. وأول من عمل على تفهيم الدين كما أريد به في الأصل. وأول من فسّر معاني الإنجيل بحريةٍ جلبت عليه حُرم الكنيسة الأرثوذكسية

وهو يعتقد بسمو الروح وتأثير الذكاء، ويفضّل عيشة القرى على عيشة المدن، لِما أنَّ المدنية الحديثة تَحُول بين المرء والسعادة، ولِما أنَّ الإنسان لا يشعر بالسعادة إلاَّ متى تمكَّن من مناجاة الطبيعة، وهو ما لا يتأتى له ضمن أسوار المدينة.

وفي مذهب تولستوي أن الحياة والوجود كناية عن «العشق»، ويريد به القوة التي تدير هذا الكون، وتُحسن نظامه، وتبلغ به من الكمال غايته القصوى

وعنده أنَّ هذه القوة هي منبع العواطف الإنسانية فهو يقول إن الذي يمزج أجزاء العناصر ويُوحدها هو الرابطة والعلاقة. إذاً، فناموس الجاذبية الذي يَهَبُ الكائنات هذه الحركة المنتظمة، هو أثرٌ عن تلك العلاقة. كما أنَّ العشق هو الذي يربط أبناء البشر ببعضهم[٦]، ويغسل قلوبهم من البغض، ويوحي إليهم أنهم نشأة من نبتة واحدة وأصل واحد.

ورأى تولستوي في الهيئة الاجتماعية الحاضرة أنها فاسدة؛ يبني ذلك على انحصار همِّ الأغنياء وأصحاب النفوذ بملاذِّهم من غير ما نظر إلى سواها . وهو يعتقد في أن الغنى لا يُنال بالجد والعناء، بل بالغشِّ والخديعة.

وله رأي متوغل في الاشتراكية وهو أنَّ الأرض لا ينبغي أن يملكها أحدٌ لأنها لله. وأن على أصحاب الأملاك أن يتركوها مطلقة سائبةً، أو أن يُوزعوها على ذوي الحاجة يستغلونها.

وهو غير راضٍ عن المحاكم القضائية لِما أنَّها تُعاقب بالسجن، وهو عنده بؤرة الفساد ومستقرُّ الشر. وكان يريد أن يقابل المجرمون بالعفو رجوعاً الى مذهبه في عدم مقاومة الشر بالشر.

وقد يَغترُّ من يطالع لأوَّل وهلة كتب تولستوي بمسيحيته، لكثرة ما يستشهده من آيات الإنجيل. وهو في الحقيقة لا يعتقد بأُلوهية المسيح، بل ينظر إليه كإنسان له مذهبٌ هو خير المذاهب لخير الجنس البشري، بل هو يعتبر تعليمه كوحيٍ منزل واجب العمل به.

وعنده، وهو في ما يتعلق بآرائه السياسية، أنَّ أفضل الثورات هي التي يتفق فيها الأهلون على رفض الانتظام في السلك العسكري، وعلى عدم دفع الضرائب للإنفاق على الجيش، وهو كفيل بتقويض دعائم الحكومة على شكلها الحاضر.

وكان تولستوي يعمل جهده على تطبيق أعماله على أقواله، ففرق قسماً من أمواله على خَدَمته، عملاً بالقاعدة التي سنَّها، من وجوب توزيع أملاك الأغنياء على ذوي الحاجة؛ وخصَّص القسم الباقي لزوجته وأولاده، خشيةً من نشوب الشِّقاق في بيته، أو بالأحرى مراعاةً لهما، كما أشار إليه في أحد أقواله وهذا شيء منه:

«قالوا لي إنك واعظ الناس بما لا تفعل وقد أصابوا. وكان عليَّ أن أعظ بما أنا عامل لا بما أنا قائل».

«ويحاً لي، فإني مخطئ وإني أهلٌ لأن ألام ولأن أُحقَّر. فإذا أنا كشفت عن الحقيقة فليس لكي أبرِّئ نفسي. ولكن لو قابلتُم بين يومي وأمسي، لما رأيتموني جامداً في الطريق الذي خطَّطت. وإن كنتُ لم أُتمم جزءاً من ثمانين ألف جزءٍ مما فُرض عليَّ إتمامه».

«إذا لُمتم فلوموني دون آرائي، لأني إذا كنت أعرف طريق بيتي وأسير فيه ثَمِلاً مترنحاً، فلا يكون هذا دليلاً على أن الطريق لا يُوصل إلى البيت أو اني لا أعرفه. وإذا كان هذا ليس بطريق بيتي، فتعالوا ساعدوني لكي لا أضلَّ. ولا تعملوا على أن تزيدوا ضلالي بندائكم وتلويمكم».

أطواره

كان تولستوي يفتخر بتعداد هفواته في شبابه، فلم يكن ينسى واحدة منها.

وكان يميل إلى الموسيقى حتى إنّ بعض التواقيع اضطرّته مرة لترك غرفته والوقوف أمام الغرفة التي يصدر عنها الصوت.

وكان ذا ولع خاص بالأشغال اليدوية، حتى إنه كان يفلح الأرض ويحصد الغلال ويربي الماشية ويصنع الأحذية ويُعلِّم الأولاد.

مأثوراته

ومن مأثوراته القاعدة التي تتمشى عليها فلسفته وهي «لا تقابل الشر بالشر» وها نحن نذكر بعض كلماته، وهي مما عثرنا عليه في مطالعاتنا عنه؛ يقول:

أعتقدُ بالله اعتقاداً أعمى.(٧) الله جمالٌ وحقٌّ ومحبة وخير. الزواج غير قابل الانفكاك. أحتملُ الحدة من أينما جاءت. حب الطبيعة والرياضة الجسدية.

الحياة الدنيا هجعة والموت هو اليقظة(٨) . غير أن زمن الهجعة متفاوت بتفاوت البشر. فمن الناس من يقضي ليل الحياة هاجعاً ومنهم من يوقظ قسرا بنازلة تنتابه. ومنهم من هو حساس لا تُمكنه دقة شعوره من قضاء ليل الحياة على فراش الونية فتطير نفسه إلى عالم اليقظة لا تلوي على شيء.

البرق، ٣ كانون الأول ١٩١٠، عدد: ١١٦، ص: ١٠١ – ١٠٢

****

إلى اللواء الإيتالي (الإيطالي)

ما أنت – لواء روما – باللواء طُرِّزَتْ
بالشرف حواشيه، وكُتبت للمعالي آيةٌ فيه
حَيفٌ على تاجك يَضلُّ سبيلَ السؤدد، لا!
إنه لم يَرَ له في تاريخه أثراً يقتفيه،
أن تَخفُقَ فما خفَقَت على غير الجثث بريئة،
هذه شظايا تُطيِّرُها القنابلُ نَذراً بمبلغ المدنية
التي تدعي.
ويحَ العذارى، وقد دمدمتِ المدافعُ،
ما انفتحت عيونُهنَّ لمغازلة الفجر، بل لغزل
المدامع يتناثَرْن لؤلؤا على النحور،
ويحَ الأطفال، وقد انفجرت القنابل،
يَفزعَن إلى صدور الأمهات، فيستندن من الدماء
على مِثلْ الشقَّيق[1]،
أطفال ما سمعت سوى صوت القبل في
الثغور، وما نظرت سوى الابتسامات تلمع في
الشفاه، تَسمع، ولكنْ دويَّ المدافع، وترى، ولكنْ
أشلاء الرجال على أكفِّ الرجال،
ويحَ الإنسانية منك – لواء عمانوئيل![2]
الخرقة البالية تضمد الجروح، لأَشْرف من
النسيج الملوَّن يَخفقُ على رؤوس فاتحيها.

الخرقة البالية تلتقط الدموعَ، لأَطْهَرُ من
النسيج الملون يعلو رؤوسَ سافحيها،
كأنك في وسط السارية – وقد أحاط بك الدخانُ
الأسود المنبعثُ من فوهة المدخنة – لسانُ أُفعوان
تخَضَّبَ بالدم ونفثَ سمومه على البشرية،
ويح البشرية منك – لواء عمانوئيل!...
غُبْنٌ على لواء فرنسا العظيمة أن تكون له شبيهاً
ذاكَ لواءٌ زُرقَتُه السماء.
ذاك لواءٌ بياضُه الفجر..
ذاك لواء حمرته الشَّفَقُ..
سُمُوُّ السماء، وطهارة الفجر، وجمال الشفق
هي راية الجمهورية،
ماذا فيك – لواء عمانوئيل – من السُّموِّ،
وقد روَّعت مدينةً آمنة؟[٣]
ماذا فيك من الطهارة، وقد سفكتَ دماءً بريئة؟
ماذا فيك من الجمال وقد شوَّهتَ بالفظائع محاسنَ
السماء والأرض وما بينهما؟
إذا حَجَبت غيمةٌ وجه الهلال ضربَتها زعزعٌ
من الريح فمزَّقتها
إذا غضبت الطبيعة الجامدة للإنسانية، فكيف
بالأمم ذات الشعور؟...

البرق، ٢٤ شباط ١٩١٢، مج ٤، عدد: ١٧٤، ص: ١٧١

****

كيبلنج[1] يحيي بوانكاره[2]

يـوم زار لنـدن عام ١٩١٣

فرنسا

أنتِ التي عرفت كلَّ شقاء معروف فذلَّلتِه.

لأنك كنتِ تُحمِّلين البشر درعَ الغولو[3] الأبدي.

لا تمسكين عن البَهرجة ولا تَضعفين في الرَّوع.[4]

أنت هائلة بقوةٍ تستخرجينها من أرضك التي لا تنفد.

أنت الحكم الصارم على نفس قوتك أيتها الأمة الحنون على الفكر البشري.

أنت أولُ مَنْ اتبع الحقيقة الجديدة وآخر مَن ترك الحقائق الهرمة.

يا فرنسا الحبيبة إلى كل نفس حساسة بالإخاء الإنساني.

مِنْ قبل أن نولد - لو تذكرين - كنا نتدافع جنباً إلى جنب.

نتدافع معاً في أحشاء رومة تحفُّزا إلى معركة نصطليها.

كان الناس لا يفرقون بعد بين لغاتنا. ومع ذلك فإنَّ مستقبلنا كان قد كُتب.

كلٌّ من الشعبين وهو يَشيد مُستقبله كان يُمهِّد مستقبل الشعب الآخر.

لذلك نحن الاثنين، اقتحمنا البشرية حتى صارت كلُّ الأرض مِلْكنا.

كم حرَّكَ غضبُنا من الممالك وأسس من العروش!

عروشٍ لم تُوجد إلا لتكون سدّاً في طريق أحدنا إلى الآخر.

تلك شعوبٌ جعلنا طلائعنا منها، ومنها جعلنا جنود غضبنا.

لقد ملأنا البحرَ عواصفَ، واجتزنا ظافرين، أبواب عوالم جديدةٍ دون أن نعرف مَنْ من الاثنين كان السّابق؟

هل تذكرين – ويدُنا على قبضة حسامنا نهمٌّ بالضرب، ونحن على ثقة أنّه كيف التقينا انتهينا في القتال؟

نتحفز ونقف معاً عند كل خطوة تدفع كلاً منا قوةُ الآخر

لقد قطعنا مجاري الأعمار وعُروض البحار.

أين تقهقرتُمْ أمامنا؟ أين تقهقرنا أمامكم؟

هاتوا موجةً لم تعرف حرباً بيننا.

شغلتنا بعض الشعوب حيناً فلم نُبال.

تركناهم ليهجم أحدنا على خصمه.

لأننا كنا نشعر بلذة حرب الكفوْ للكفوْ.

كلُّ واحدٍ منا كان للآخر سرّاً وهَوْلاً لا هوىً وحبّاً.

كنا نَخفُّ الواحد إلى الآخر، مدجَّجين بالسلاح

أيّة حرب أتاحت لنا شرفاً أكبر وخصماً أشد.

كان أحدُنا يَنزع من حلق الآخر صوت إعجاب يبدُر بين الضربة واتِّقائها: تلك كانت منه جائزة الشجاعة السامية.

كلنا صَبَّ في كأس الآخر دمعةً ودمَةً.

والقوى الهمجية والآمال اللامتناهيةُ والقصص التي لا تطاق.

وكلُّ ما دنّس الحياة، وكلُّ ما رفعها منذ أُلوف السنين.

والمحن التي لا تُحتمل، والحروب التي شهدناها تحت كل سماء

يا فرنسا الصديقة إنَّ ذلك كان منذ القدم نصيبنا المجيد.

كلانا، وقد أثقلنا نير التذكار والتبكيت، نتوق إلى الراحة.

إننا ونحن نضحك من الخِدعات القديمة التي هي أشبه بالمزاحات، نتسامح ذنوبنا الماضية، حاشا واحداً لا يستطيع الغفرانُ مَحْوَه.

تلك هي الغلطة الحية أبدا التي أخذ كلانا قسطه منها في ساحة روان[٥].

نحن الآن ننظر إلى السنين الجديدة الطالعة فنتساءل - إذا كانت حبلى بأشدَّ من تلك العواصف التي كنا نقتحمها من قبل.

نحن الآن نسمع أصواتاً جديدة تتعالى وتتساءل، ونفخر ونصرخ.

كذلك كنا نصرخ حنقاً - لو تذكرين - يوم كانت شعوبنا تحتدم بالغضب.

نحن اليوم نُعد الأساطيل الجديدة على الماء، ونُهَيِّئ الجنود تحت السلاح.

كذلك كانت جنودنا من قبل محشودة للقتال لو تذكرين!!!

في سبيل حب الحياة لزم كلانا أن يتفحَّص حسام الآخر.

أيُّ دم وأي حديدٍ يقدر أن يأتي بأكثر مما أتاه دمنا وحديدنا؟

صارمة كانت المدرسة التي تعلمنا أن نتعارف فيها.

أيُّ دم وأي حديد! استطاع أن يفصل ما جمعناه؟

نحَن الأُلى غزا كلٌّ منا شواطئ جاره ووضع موطنه بين السيف والنار.

ذلك منذ رنَّ سيفُ بريدوس ساقطاً في ميزان رومة.

ولأن نحن نأخذ بأجسام بعضنا ولكن... للعناق.

ها إنَّ عداوتنا المنهوكة، تتساعد من الآن على وضع السلام في الأرض.

أنتِ التي عرفت كلَّ شقاء معروف فذلَّلْتِهِ

لأنك كنت تُحملين البشر درع الغولو الأبدي.

لا تمسكين عن البهرجة ولا تضعفين في الروع.

أنت هائلة بقوة تستخرجينها من أرضك التي لا تنفد.

أنت الحكم الصارم على نفس قوتك أيتها الأمة الحنون على الفكر البشري.

أنت أول من اتبع الحقيقة الجديدة وآخر من ترك الحقائق الهرمة

يا فرنسا الحبيبة إلى كل نفس حساسة بالإخاء الإنساني.

بشارة الخوري

البرق، ١٢ تموز ١٩١٣، مج ٥، عدد ٢٣٤، ص ٣٣٢

****

الرذيلة المعبودة

أُسكبي لنا الخمر من ثغرك اللذيذ.
بلِ اسكبيها من عينك الساحرة.
واجعلي نُقلنا مما أنبت الحُسْنُ في الوجنتين.
إذا سَكرتُ، فمَنْ ذا الذي لم يَسكَر وأنتِ خَمْرتُه؟
وإذا طربتُ، فمن ذا الذي لم يَطْرب ومنكِ نَشوتُه؟
هذه نفسي ساجدة في هيكلك.
وهذه شفتي تتلو لكِ التسابيح.
منذ مطلع كل شمس حتى مغيبها.
ومنذ مغيب كل شمس حتى مطلعها.

لا يَقوى الليلُ ولا سلطانُه، ولا الكرى ولا سلطانه، أن يُزيل خيالَك من النفس، ولا أثرك من الذاكرة. وما الأحلامُ – ورديةً كانت أو ذهبيةً – إلاّ منك، ولك، وفيك أيتها الرذيلة المعبودة!!

لستُ بالوحيد الذي يُؤمن بكِ، وينضوي تحت لوائك؛ ولا بالوحيد الذي يكرز[1] بإنجيلك ويُعد من أبنائك، ولكني الوحيد الذي يُجاهر بلا حياء أنه من أتباعك.

لقد عبدك الناس ضِعْفَيْ عبادتي إياك، وجاهدوا ضِعْفَيْ جهادي في هواك؛ ولقد تصرفوا بك تصرُّفَ المصوِّر بالرسم الذي في يديه.

لقد نزعوا عنكِ اسمَك وسمُّوك بالاسم الذي يُلائم مصلحتهم. فلك في كل

يوم اسم جديد.

إذا سَمَّوْكِ «تدينا» فقد أضمروا «التعصُّب».

وإذا سَمَّوْكِ «اقتصادا» فقد أضمروا «البُخْل».

وإذا سَمَّوْكِ «مُلاطفةً» فقد أضمروا «التمليق».

وإذا سَمَّوْكِ «شجاعة» فقد أضمروا «الشرّاسة».

وإذا سَمَّوْكِ «ثباتا» فقد أضمروا «الذلّ».

وإذا سَمَّوْكِ «سياسةً» فقد أضمروا «الخِداع».

وإذا سَمَّوْكِ «وداعة» فقد أضمروا «الرِّياء».

لقد طرحوا ثوب الفضيلة عليكِ، كما تُطرح الشبكةُ للأسماك، واغتصبوا لك اسمَها اغتصاباً. فللّه أنت ما أكثر أسماءك وأكثر أشياعك[٢]

لك في كل عصر أنصار وأعوان.

ولك في كل مكان عباد وكُهَّان.

منذ عهد المرأة الأولى، حتى عهد المرأة الأخيرة.

وأنتِ أنتِ لا تزالين مَلاك النفوس ودَفَّة سفينةِ الأهواء.

أنَّى لك السِّحر أيتها الرذيلة؟ وكيف لك تلك المقدرة على حفظ أبنائك، فهم أبدا يَسحبون ذَيلَ العلاء.

في الأمس قتلوا الناس احتكاراً في بيروت، ولثموا جزمةَ جمال[٣] في الشام، وساعدوا على طعن أبناء الوطن بالحراب مسمومة مسنونة.

واليومَ، يأتون على الرمق الأخير من هذه الأمة البائسة، ليقرعوا الكؤوس حول جثمانها الهامد غداً.

لك في كل يوم ثوبٌ قشيب.

لقد ابدع عشاقك في تصويرك.

سكبوا السِّحر في عينك.

والخَمْرَ في مبسمك.

صنعوا من جَسدك الشهي تمثالا للجمال.

هم يعبدونك تحت كل اسم.

وينشدونكِ تحت كل كوكب؛ ولكنهم يَخجلون جُبْنا وكَذِباً أن يصرحوا بأنك أنت الضميرُ الذي يُضمرون والإله الذي يعبدون.

لقد نزعوا عن الفضائل أسماءها وسمُّوا بها الرذائل.

هكذا تتغلغل الأفاعي تحت الورد والياسمين.

بشارة الخوري

البرق، ٢٣ تشرين الثاني ١٩١٨، عدد: ١٩ - ٤١٢ ، ص:١

****

هوامش الباب الرابع

مقـــالات أدبيـــة

علـى الملعـب ٤١٣

١ - يعني السلطان عبدالحميد الثاني.

٢ - منفى السلطان عبدالحميد بعد خلعه، سبقت الإشارة إليه.

٣ - عزيز عيد (١٨٨٣-١٩٤٢) ولد في لبنان وهاجر إلى مصر ، تعرف إلى نجيب الريحاني في القاهرة فعمل في التمثيل وانضم إلى فرقة اسكندر فرح، ثم أسس وتنقل بين عدة فرق مسرحية وكان علامة بارزة في تاريخ المسرح المصري.

٤ - هكذا في الأصل، ويبدو انها خطأ طباعي، والقول إنها: كانت تغمس (بدم) إخوانه، بدلاً من (بيد) هي الأقرب للسياق الصحيح.

٥ - هكذا في الأصل الذي بين ايدينا ولعلها مداهنة الحكومة.

٦ - امين الريحاني.

٧ - قصر يلدز هو قصر الحكم في الآستانة الذي كان يقيم فيه السلطان عبدالحميد الثاني.

الصحافة والحياكة ٤١٦

١ - لعلها جريدة «الصفا» التي اسسها الأمير علي آل ناصر الدين في بيروت عام ١٨٨٦

٢ - اي تحوّل وتغيّر..

٣ - المنوال: نَول الحياكة.

٤ - كثيراً ما ياتي ضمن مقالات الكاتب عبارات مثل هذه، وهي جزء من الآية ٣٨ من سورة الرعد، وتتمة الآية ﴿ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك وجعلنا لهم أزواجاً وذرية وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله ، لكل أجل كتاب﴾.

السياسة في الشعر ٤١٨

١ - نجيب خلف من ابناء لبنان ولغوييه وحقوقييه. ولد في بسكنتا - مسقط راس ميخائيل نعيمة، في قضاء المتن الاعلى، ١٨٨٢، عمل في الصحافة والمحاماة وله عدد من الآثار اللغوية، توفي ١٩٤٤.

١ - إشارة إلى نظم نجيب خلف شعراً في القضاء مثل ارجوزته في «قانون الجزاء» وغيرها.

الأدب بعد الحرب ٤٢١

١ و٢ و٣ : قصد بالشعراء الثلاثة كلاً من احمد شوقي وخليل مطران وحافظ ابراهيم وهم اعلام الشعر في عصرنا الحديث. واما «اندلسه الجديدة» فعنى بها الأخطل قصيدة شوقي الميمية ذات المائة والخمسة ابيات نظمها في سقوط مدينة ادرنة التركية امام جيش البلغار ١٩١٢. وأما «فتاة الجبل الأسود» فهي قصيدة مطران خليل مطران التي وصف فيها امراة بزي مقاتل ضد الجيش التركي وأما قصيدة حافظ ابراهيم «بنات الشعر بالنفحات جودي» فهي التي نظمها في مقدم السير غورست عميداً لانكلترا في مصر سنة ١٩٠٧.

٤، ٥، ٦، ٧ - سبق التعريف بهم.

٨ - جرجي سعد كاتب وأديب لبناني من أصدقاء الأخطل الصغير.

٩ - محمد رضا الشبيبي. ولد في النجف ١٨٨٩ وتوفي ببغداد ١٩٦٥، وقد شغل مناصب حكومية عالية وشغل رئاسة المجمع العلمي العراقي منذ ١٩٥٨ حتى وفاته.

١٠ - «ابنيها وتنهدم» قصيدة الزهاوي التي أرسلها للكاتب هدية لنشرها في البرق، انظر صورة رسالته ونصها في كتاب «رسائل إلى الأخطل الصغير» مرجع سباق، ص (٢٨١، ٢٨٢).

١ - مطران خليل مطران . (١٨٧١-١٩٤٩) شاعر وأديب لبناني ولد في بعلبك وهاجر إلى مصر، لقب بشاعر القطرين، له ديوان الخليل ، من أشهر قصائد «النيرونية» و«الأسد الباكي» و«آثار بعلبك» انظر رسالته إلى الأخطل الصغير ، في هذا الكتاب في مقالة (كيف عرفت طانيوس عبده).

٢ - جبر ضومط (١٨٥٩ - ١٩٣٠) استاذ الأدب العربي بالجامعة الامريكية وصاحب الآثار اللغوية المتنوعة، (انظر تفصيلاً لسيرته الحياتية والعلمية. مصادر الدراسة الأدبية، ليوسف اسعد داغر: الراحلون، الجزء الثاني، ص٥٥٣ - ٥٥٥).

٣ - هو محمد إسعاف النشاشيبي، اديب وباحث فلسطيني، عضو المجمع العلمي العربي بدمشق، ولد وعاش في القدس، تميز بأسلوبه البياني الرفيع. ترك عدداً لا باس به من الآثار الأدبية والتراثية، توفي في القاهرة، وعاش ما بين ١٨٨٥ و ١٩٤٨ (الأعلام للزركلي، جـ ٦/٣٠ - ٣١).

٤ - لعلها مصحفة، فالعقلية المادية (الغربية) انسب للسياق.

٥ - عنى بذلك، مطولته التي نظمها خصيصاً للقاء تكريمي اقامته له جمعية تنشيط اللغة العربية بالجامعة الاميركية صيف ١٩٢٤. وقد اختار الشاعر هذه القصيدة لتكون اكبر اثر شعري يُكتب في الشرق العربي: من موضوع واحد ورويّ واحد. ومطلع القصيدة:

ذلك الشـــــعبُ الـذي آتـاهُ نـصـــــراً
هـو بـالسُّــــبَّـــة من «نَيـــــرونَ» احـــــرى

(ديوان الخليل جـ ٣ / ٥٠ - ٧٣). وللتوضيح فإن هناك مطولات شعرية تفوق بتعدادها، مطولة خليل مطران، منها همزية البوصيري ٤٥٧ بيتاً، وتائية ابن الفارض الكبرى (٧٦١ بيتاً) وغيرها الكثير من المطولات التي نظمت في موضوع وعلى وزن شعري واحد وروي واحد.

١ - قصد بالأدب الأحمر او القصائد الحمراء، تلك الثورات التحريرية الكبرى التي تكون دماء الأحرار لها مداداً وحروفاً، أما الأدب الأبيض فهو ادب السلم والرومانسية وما شابه ذلك.

٢ - مصطفى النحاس باشا زعيم حزب الوفد المصري ورئيس وزراء مصر لعدة مرات (١٨٧٦ - ١٩٦٥).

٣ - يقصد ثورة العراقيين ضد الاحتلال البريطاني لبلادهم وثورة السوريين في دمشق وجبل الدروز وغيرها من مناطق سوريا ضد الفرنسيين.

٤ - البيت لأبي العلاء المعري. من ديوانه: «سقط الزند» شرح احمد شمس الدين، دار الكتب العلمية - بيروت ١٩٩٠ وهو من قصيدة مطلعها:

ارى العنقاء تكبر أنْ تُصادا
فعاندْ مَن تُطيق له عِنادا

شاعر بائس ٤٢٨

١ - روتر يعني بها وكالة الانباء الشهيرة (رويتر) والتي عدل مسماها حاليا إلى (رويترز)، اسسها جول رويتر (١٨١٦-١٨٩٩) صحافي إنجليزي الماني الاصل.

الأدب العبد ٤٣١

١ - الدست: صدر المجلس، والمنصب. المعجم الوسيط مصدر سابق، ص: ٢٨٢.

٢ - اضفناها ليستقيم المعنى.

٣ - الأصوب (عن) ولعلها مصحفة.

الأدب بين عهدين - بين الحكم المطلق والحكم الوطني ٤٣٣

١ - الخديوي عباس حلمي الثاني (١٨٧٤-١٩٤٤) خديوي مصر (١٨٩٢-١٩١٤) ابن إسماعيل، دشن سد أسوان، ردّ السودان لمصر، عزله الإنجليز وتوفي في جنيف ، خلفه السلطان حسين كامل.

٢ - عباس محمود العقاد (١٨٨٩ - ١٩٦٤)، اديب وشاعر مصري ولد في اسوان وتعلم في مدرستها الابتدائية وشغف بالمطالعة عمل موظفاً ثم معلماً في بعض المدارس الأهلية وانقطع للكتابة والتاليف في كل انواع الأدب الرفيع ظل اسمه لامعاً مدة نصف قرن الف خلالها ٨٣ كتاباً، كان من اعضاء المجامع العربية الثلاثة في دمشق والقاهرة وبغداد.

٣ - ابراهيم المازني (١٨٨٩ - ١٩٤٩)، اديب مصري مجدد ولد في القاهرة وامتاز باسلوب حلو الديباجة تخرج بمدرسة المعلمين وعمل بالتدريس ثم الصحافة وكان بارعاً في الترجمة ونظم الشعر اصدر مجلة «الأسبوع» مدة قصيرة، من اعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق ومجمع اللغة العربية بالقاهرة، له ديوان شعر وقصص وكتب في النقد.

٤ - الإعلام المذكورون هم على التوالي: فيليب قعدان الخازن (١٨٦٥ - ١٩١٦) من عرمون بكسروان، صحافيٌ، وكاتب اعدم شنقاً في بيروت. وجبران اندراوس التويني (١٨٩٠ - ١٩٤٧) كاتب وصحافي، ولد في بيروت وشغل عدة مناصب رسمية وانشا جريدة «النهار».. وحليم دمُّوس المولود في زحلة ١٨٨٨، كاتب ناظم، اشتغل بالصحافة وترك اثاراً شعرية ونثرية شتى وتوفي مريضاً في الجامعة الأميركية ١٩٥٧. واما فياض، فهو الياس فياض المعرّف به في حاشية سابقة.

٥ - اضفناها لاستقامة المعنى.

تولستـــوي ٤٣٥

١ - ليـون تولستـوي: ١٨٢٨ - ١٩١٠، اديب وفيلسـوف روسي بارز. اشـهر رواياته «الحـرب والسلم» و «آنه كـارنينا» حاول إصلاح المجتمع عن طريق العدل والمحبة.

٢ - هكذا في الأصل.

٣ - فرانسوا فولتير (١٦٩٤- ١٧٧٨) ولد في باريس، مؤلف فرنسي من نوابغ زمانه، تزعم حركة الفلسفة المادية وقاوم رجال السلطة الدينية والمدنية ، اشهر مؤلفاته «كنديد» و«زئير» و«محمد» و«شارل الثاني عشر».

٤ - جان جاك روسو (١٧١٢-١٧٧٨) كاتب فرنسي وفيلسوف اجتماعي ولد في جنيف، نادى بالعودة إلى الطبيعة، من اشهر مؤلفاته «العقد الاجتماعي» و«إميل» و «اعترافات»، تاثرت بمبادئه الثورة الفرنسية والأدب الرومنطيقي..

٥ - صدرت مترجمة إلى العربية باسم «أنا كارينين» ترجمة صيّاح الجهيم - وزارة الثقافة - دمشق ١٩٨٤

٦ - العرب تقول: (ببعضهم البعض) ونادراً ما تقيّد الأخطل باصالة هذا الاستعمال ويقولون أيضاً (ببعضهم بعضاً).

٧ - يمكن قراءة هذه الجمل، بصيغة الأمر على انها وصايا..

٨ - هناك قول عربي مـأثور يرجّحُ أن يكون صاحبه الإمام عليّ بن طالب، يكاد يكون هو نفسه قول تولستوي، وهو «الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا».

إلى اللواء الإيتالي (الإيطالي) ٤٤٠

١ - الشقيق، ورد مخففاً. ولا ندري ما إذا عنى به الأخطل، الزهر البري المعروف بشقائق النعمان النُّور الأحمر، ام الشقيق، الأخ.. ونميل إلى المعنى الأول..

٢ - لواء عمانوئيل، لواء في الجيش الإيطالي، سمي باسم فكتور عمانوئيل الثالث (١٨٦٩- ١٩٤٧)، ملك إيطاليا عام ١٩٠٠، وامبراطور الحبشة عام ١٩٣٦، تنازل عن العرش ١٩٤٦، وتوفي بمصر .

٣ - يشير الكاتب إلى قيام إحدى البوارج الحربية الإيطالية بقصف مدينة بيروت ومينائها حيث اوقعت اضراراً في بناء المصرف العثماني. انظر كتاب «بيروت ولبنان في عهد آل عثمان» يوسف الحكيم ، دار النهار للنشر، بيروت، الطبعة الثانية ١٩٨٠، ص ٣٩، وانظرا ايضاً: مقالة الأخطل الصغير «كيف عرفت الشيخ اسكندر العازار» في الفصل الأول من هذا الكتاب. كما يتزامن هذا مع الحرب التركية الإيطالية في ليبيا والتنكيل بشعبها ومدنها وقراها.

كيبلنج يحيي بوانكاره يـوم زار لنـدن عام ١٩١٣ .... ٤٤٢

١ - روديارد كبلنج - Rudyard Kipling ، كاتب إنكليزي وشاعر، ترك عدداً من الآثار الشعرية والروائية وحاز على جائزة نوبل للآداب سنة ١٩٠٧ عاش ما بين ١٨٦٥ و ١٩٣٦.

٢ - ريموند بوانكاره - Poincare - من كبار محامي فرنسا ورجالاتها السياسيين. شغل مناصب حكومية عالية، كوزير للخارجية ورئيس جمهورية ما بين ١٩١٣ و ١٩٢٠، وانتخب عضواً في الأكاديمية الفرنسية وعاش ما بين ١٨٦٠ و ١٩٣٤.

٣ - ربما يكون اسم الدرع مستنبطاً من بلاد (الغال) وهو الاسم التاريخي القديم لفرنسا.

٤ - الرَّوع (بالفتح) الحرب، والرُّوع (بالضم) القلب والنفس والعقل.

٥ - ساحة روان حيث أُعدمت جان دارك، البطلة الفرنسية الشابة التي أضحت فيما بعد اسطورة البطولة الفرنسية (١٤١٢ - ١٤٣١) ومدينة روان عاصمة مقاطعة النورماندي، تبعد مسافة ١٢٣ كلم إلى الشمال الغربي من باريس.

الرذيلة المعبودة ٤٤٦

١ - يكرز: يعظ وينادي ببشارة الإنجيل (سريانية) (المنجد ص٦٨٠).

٢ - الاشياع، الانصار والاتباع. مفردها شيعة، وتجمع أيضاً على شِيَع..

٣ - إشارة إلى جمال باشا السفاح قائد الجيش العثماني الرابع في سوريا.

****

البـــاب الخامس

إخوانيات ومناسبات

مدخل...

جمع الأخطل الصغير النثر إلى جانب الشعر، وذلك من خلال عمله كصحفي وتأسيسه «البرق» الذي بقي وامضاً منذ ١٩٠٨ وحتى عام ١٩٣٢ باستثناء فترة توقف خلال الحرب العالمية الأولى فكانت افتتاحياته في «البرق» أشبه ما تكون بالشعر المنثور، عالج فيها شؤون وطنه الصغير لبنان، ووطنه العربي الكبير وقضايا أمته. ولما كان الشعر في حياة الأخطل الصغير هو الأساس برغم أنه صنو لعمله الصحفي، فإنك ترى الشعر والنثر مقترنين بشكل يكاد يكون دائماً في مقالاته.

وهذا الفصل مستل من مجموعة أشعاره التي جمعتها الدكتورة سهام أبوجودة لتكون ملحقة برسالتها الجامعية عن الأخطل الصغير، ومادته عبارة عن شعر ونثر في الإخوانيات والمناسبات كالتهاني والمراثي وما شابه ذلك، رأينا أن تكون ملحقة بأعماله النثرية حتى يخلص ديوانه الشعري من المقدمات النثرية الشارحة، سواء أكانت تلك المقدمات قبل الشعر أم بعده، أم كان الشعر في بدايتها أو وسطها أو نهايتها، فهي تبقى على أية حال شعراً ونثراً متداخلين ومتلازمين.

****

سركيس والنحلة

قالها في مدح سليم سركيس[1]

الجناحـــان عندمـــا حـــمـــلاها

حـــمـــلاها ومـــبـــسم الفـــجـــر يلمعْ

نحلة قلت إن تأملت فـــيـــهـــا

جلّ من صـــوّر الجـــمـــال فـــأبدع

ذات جـــدّ والمال بالجـــدّ فـــانظر

ثوبهـــا كـــيف بالنضـــار ترصّع

بكرت مـــســـتـــخـــفـــة بالكسالى

تقـــصـــد الروض وابن آدم يهـــجـع

دخلتـــه تقـــول قـــد آذن الفـــجـ

ـر فـــهـــبّت أزهاره تتطلع

ثم أصـــغت يشـــوقـــهـــا هزج النحـ

ـلة لا ينتـــهـــي ولا يتـــقـطـع

واشـــتـــهـى ثغـــرهن لو تطبع النحـ

ـلة فـيـــه مـــا الثـغـــر في الثغـــر يطبع

فكان الذي اشـــتـــهين اشـــتـــهـتـــه

ولهـــا غـــيـــر مطمع الزهر مطمع

---

١ - سليم سركيس (١٨٦٧ - ١٩٢٦) صحفي وشاعر اصدر مجلة «سركيس» في مصر كما انشا في مصر صحيفة «المشير» ومجلة «مراة الحسناء» واصدر في امريكا «البستان» ثم «الراوي». انظر صورة رسالته إلى الشاعر ونصها في كتاب «رسائل إلى الأخطل الصغير» ، مرجع سابق، ص (٢٥٧، ٢٥٨).

حـــــومت فـــــوقــــــهنّ ثـم أســـــفَتْ

تـرشـف الـزهـر - هـكـذا الـطـفـل يـرضـع

فـــــهْي إمـــــا ارتوت تـعـــــد لخـــــلايا

شـيَّــدتهــا من قـــبل للشـــهــد مــصنع

فــــإذا الـصـــيف جـــاء جـــاءت بشــــهــد

ذاقـــــه فـــــاســــتلذه الـناس أجـــــمع

✡✡✡✡

هـكذا أنـت يـا بـن ســــركـــــيس لا يسـ

ـطـع فـــجــــر إلا وفـــجــــرك أسطع

تـبْـكـر الـروض يـنـبـت الأدب الـغـــــضْـ

ـضِ فـتــجني مــثل الرحــيق المشــعـشـع

وعلـى جــــانبـــيك كـــيف تـوجـــــهـ

ـت طنين يـغـــشـى الأصمّ فـــيـــســــمع

أنـت إمـــــــا ارتـويـت تـرجـع إلـى المصـ

ـنـع تمـلــي عـلـــى الـطـروس وتــطـــبـع

فــــــإذا مــــــوعـبــــــد المجلـة وافـى

أتحـــفــتْنا بـالشـــهـــد أشـــهى وأنفع

✡✡✡✡

هــكــذا أنـت يــا سـلـيـم ولا فـــــــــــــــ

ـق نشــــيط تجني وغـــيـــرك يشـــبـع

قـــد تـهـــزّ الـغني حـــيناً فـــيـــعطي

وتـهـــزّ الأديـب حـــيناً فـــيـــســـجع

شـــــــعـــــــراء الـزمـــــــان زهـر إذا لـم

يتـــحـــرك فـــقلُمـــا يتـــضـــوع

✡✡✡✡

لا تعـــجل.. نســـيت شـــيـــئـــاً ســـواءً

أنت فـــيـــه ونحلة الروض - فـــاســـمع

فـــهي إن يعـــتـــدِ الغـــبيُّ عليـــهـــا

لـذعـــــتـــــه - كـــــذا يَراعُك يلـذع

****

- البرق، ٢٩ تشرين الثاني ١٩٠٩، مج: ٦ ، عدد: ٢٥٣، ص: ٤٨٥ .

في بئر حسن

أقيمت حفلة على شرف حاكم جبل لبنان أوهانس قيومجيان باشا في منزل أحد الوجوه بمنطقة بئر حسن وفي ختامها لم ير صاحب البرق جميلا أن لا يقول شيئًا من الشعر فقال:

هذه الجنة التي وعد الله
قديماً معاشر الأصفياء
مسرح للجمال حيناً وحيناً
مسرح للفخار والعلياء
نفحتها روح السليم فجاءت
آية من آياته الغراء
مشهد للبهاء صوّره الله
مثالاً لحسنه الوضاء
هكذا في الجمال لبنان لكن
شوهت حسنه يد الجهلاء
عصبة من رجال يوسف[1] أغرار
تداعى بهم رفيع البناء
فتداركته لنا بحبيب[2]
رجل الشعب حجة الفضلاء

☼☼☼☼

أملٌ للبلاد فيك إذا ما
نولته كانت من السعداء

****

---

١ - هو يوسف فرنكو باشا متصرف جبل لبنان (الحاكم) من (١٩٠٧ - ١٩١٢) .

٢ - السياق يشير إلى انه يقصد حبيب باشا السعد، رئيس مجلس الإدارة بين عامي ١٩١٣ و١٩٢٠، كما ان تاريخ القصيدة يصادف بدايات تولي اوهانس باشا المتصرفية، حيث كلف السعد بتولي رئاسة مجلس الإدارة.

- البرق، ١ شباط ١٩١٣، مج: ٥ ، عدد: ٢١١، ص: ١٥٠ .

مفكرات شاعر

شوارد

كتب الشاعر هذه الأبيات على طاولة وهو في انتظار بعض أصدقائه فنقلها الشيخ شاهين الخازن:



النفوس يرهقها
في نهارها الملل

والقلوب وهي لظى
في الظلام تشتعل

كلما انتهى شغل
جدُّ عندنا شغل

والخطوب أيسرها
أننا لها أكل

ضاقت الصدور بها
حين ضاقت الحِيَل

علة ندافعها
لو تدافع العلل

كلنا القتيل بها
ذاك حادث جلل

****

- البرق، ١٤ أيلول ١٩١٢، مج: ٥ ، عدد: ١٩٣ ، ص: ١٣ .

مفكرات شاعر
أيــن الكــرام

وكتب هذه القصيدة في ١٤ كانون الثاني وأرسلها إلى صديقه الشيخ اسكندر العازار وقد أثر عليه جمود بعض الأغنياء لدى مشاهد البؤس الأليمة في ذلك الشقاء[١] الهائل.

أيـن الكـرام الأُلى كــــانوا إذا سُـــــئلـوا
تـهللـوا ثـم أعطوا فـــوق مــــا سُــــئلـوا
ومـن إذا أُنشِـدوا شــعــراً حــســبــتــهـمُ
وقــــــد تـرنـحـت الأعـطـاف قـــــد ثـمـلـوا
فــــخـــرًا بمـا خلّد الشــعـــر البـلـيغ لـهمْ
مـن المـروءات والفـــــضـل الـذي فــــعـلـوا
مـــاتـوا وعـــاشـــوا لئـــام الـنـاس بعـــدهـمُ
مـن كـل مـن مـــــات بـاســـــاً غـــــره الأمـل
إنْ أُنشِـدوا الشـعـر قـالوا مـا يقـول لنا
وإنْ تمـلّـص فـلـس مـنـــهـمُ شـكـلـوا
هـمْ أغـنـيــــاء بـلادهـم لا حــيـــاة لـهـــا
إلا إذا انقـــرضـــوا منهـــا أو ارتحـلوا

١٤ كانون الثاني ١٩١٨

****

١ – هكذا وردت في الأصل، والأقرب للسياق انها «الشتاء» حيث إن تاريخ الرسالة يصادف كانون الثاني (يناير).
– البرق، ١٩١٨، عدد: ٤ – ٣٩٨، ص: ٣ .

مفكرات شاعر

لهف نفسي

عرف الشاعر رجلا لبنانيا أصيب ببنيه الخمسة في خلال شهر واحد.

كان يرى الجوع يفتك بهم ولا قبل له بصده عنهم ويراهم تتراوح بهم أرجلهم الهازلة تحمل وجوههم الشاحبة يخرجون نهارا في التماس كسرة الخبز ويرجعون مساء والسعيد منهم الذي يحمل ما بين يديه شيئا من ورق الفجل وقشر الليمون فبكاهم بقوله.

لهف نفسي عليهم كيف يقوو
ن على الغمض والبطون خوالِ

ينقضي اليوم والسعيد الذي فا
زَ بقرشٍ من بعد ألف سؤال

وهب القرش كان عشرين قرشاً
لا «ريالاً» قد مرّ عهد الريال

أتسد العشرون زاوية في
بطن طفل من أنحف الأطفال

ويح رب العيال كيف يراهم
يتفانون - ويح رب العيال

من يراهم يرى المنايا بشكل
تطبع الهول في قلوب الرجال

مـــــا رأينـا أبـاً كــــمـــــثـل أبيـــــهـم

كــــل يــــوم لــــديــــه يـــوم نـــوال

يــطـعــم المــوت كـل يـوم ولــيــــــــدأ

فــــيـــــغـــــذي الآجـــال بـالآجــــال

كانون الثاني ١٩١٨

****

- البرق، ١٩١٨، عدد: ٥ - ٣٩٩، ص: ١٨ .

مفكرات شاعر

أتسألوني شعراً

اقترح خلال الحرب بعض أصدقاء «الأخطل الصغير» عليه نظم قصيدة تتلى في إحدى الحفلات الأدبية فرد طلبهم بالأبيات التالية:

أتســـألونيَ شـــعـــراً بـعـــدمـــا ذبلتْ

صـــبـــابـتي وتـلاشت غـــرّ أمـــالي

وبـعـــدمـــا جفّ عـــودي والـتـــوى زمني

وبدّل الدهر أســـحـــاري بآصـــالي

وبـعـــدمـــا مـــال نجم المال عن فلكي

وكـــان قـــســـمـــة اخـــواني وســـوّالي

وبـعـــدمـــا انكسـرت كـأسي على شـفـتي

لـهـــجـــرها - ويـحـــهـــا لِمَ أمـــلأتهـــا لي

أنـعلْتـــهـــا كـــبـــدي يوم النوى فـــأنا

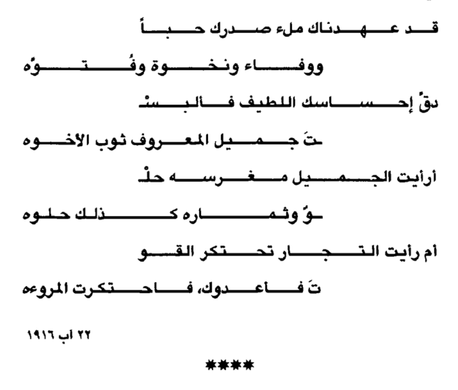
أخـــشى على رجلهـــا من نعلهـــا البـــالي

****

- البرق، ايلول ١٩٢٠، عدد: ١٠٨٨، ص ٢ .

فاحتكرت المروءة

قال الشاعر: كان فقيد الأدب والشباب طانيوس عبود[1] من أكمل الناس مروءة وأصدقهم وكان لي صديقًا وفيا حميما، حتى إذا اشتعلت الحرب واضطررت إلى الانزواء كان يتولى أكثر شؤوني بعطف دونه عطف الأخ الصدوق. فكتبت إليه يومذاك بالأبيات الآتية:



قد عهدناك ملء صدرك حبـاً

ووفاء ونخوة وفُتوّه

دقّ إحساسك اللطيف فألبسْ

تَ جميل المعروف ثوب الأخوه

أرأيت الجميل مغرسه حلْ

وٌ وثماره كذلك حلوه

أم رأيت التجار تحتكر القو

تَ فاعدوك، فاحتكرت المروءه

٢٢ اب ١٩١٦

****

١ - هكذا في الأصل، ولعله طانيوس عبده، الوارد ذكره في الفصل الأول من هذا الكتاب.

- البرق، كانون الثاني ١٩٢٦، عدد: ٢٦٧٣، ص: ١ .

فوزي بريدي

أقسمت بالليل إذ قبّلت غرّته
وإذ ضفرت على رأسي ذؤابته
أقسمت بالليل والوادي يفيض هوىً
ويسكب النهر في أذني شكايته
أن الفؤاد الذي قد مات أكثره
ما زال يروي الوفا عنه روايته

☼☼☼☼

أقسمت لو أن لي قلباً يثور به
دم الشباب ويسقيه بشاشته
لرحت ألهب فيه كل جارحة
وأستردّ من الماضي غوايته
وهشّ لي الشعر لما أن هششت له
وراح يطرح في حضني ربابته

☼☼☼☼

يا شعر هذا فتى الوادي فغنٍّ به
ما شئتَ ترجع إلى الوادي نضارته
وغنٍّ بالأدب العالي فإن عجزتْ
يراعتي فاستعِرْ منه يراعته
وقل له، قل لفوزي إذ تعانقه
أنا الرسول الذي أدى رسالته

تموز ١٩٤٦

****

- من أوراق الشاعر .

يداك أم يدا ملك

يداك أم يدا ملكْ
حيّرتَ من تاملكْ
يا مخرج الروح من
الروح ولولاك هلك
كأنما الله إلى الناس
مسيحاً ارسلك
يا عجباً من ساحر
فجّر نوراً من حَلَك
أناملي العشر وإن
قلُت تفدّي أنملك
يا واحد التوليد ما
خاب جنين أمّلك
إن نقتسمه بيننا
فالجسم لي والروح لك

****

- نظمها للدكتور يوسف الفغالي شاكراً له عنايته بتوليد احد ابناء الشاعر سنة ١٩٣٥ .
- من اوراق الشاعر.

الأخطل الصغير والأستاذ عبدالوهاب

بلبلان غريدان وأميران ساحران، ذلك في دولة الشعر والعاطفة وهذا في دولة الموسيقى والفن، سُحر الأول بصوت الثاني، فثار الشعر في نفسه، توحيه نغمات عبدالوهاب الجارحة، وعذوبة صوته الرخيم، ومعان عميقة القرار تجول في عينين غمرهما السحر الحلال ، فأرسل الأخطل الصغير الأنة البليغة التي يتردد صداها في هذه الأبيات:

أيهــــا المرسل الأغــــاريد في الليـ
ـلِ رويدًا أطلـت ســـــهــــــد الدراري
وتركت النهـــار كـــالعـــاشق المفـ
ـتـــون يصـــغي إليك خلف ســـتـــار
أو كـــعـــذراء بُشـــرت بـعـــريس
عـــبـــقـــري الشـــبـــاب جم النضـــار
نقـــبـت دونه الســـجـــوف والقت
فـــوقـــه أعـــيـــنـاً من الأنوار
رحـــم اللـــه ذلك الــوتـــر المســـ
ـكين هونتـــه على السُـــمُـــار
يرتمي تحت ريشـــة من ذنابى الطْـ
ـطَيـــر في كف أطرب الأطيـــار
قـــد سلبت الرياض سلســالهـــا العـذ
ب وريًا نســـيـــمـــهـــا المعطار
فـــارحم الطيـــر يا «مــحــمـــد» واترك
بـعـض هـذا الحـنـين لـلأوكـــــار

****

- البرق، اب ١٩٣٠، عدد : ٣٣٧١، ص: ١ .
- الحديث، ١٩٣٠، مج:٤، عدد: ٩، ص: ٤ .

المهاجرون يكرمون الأمير خالد شهاب

أما محيّوك محفوظ وإخوتهم
بنو فطيط فقل في الروض والسحرِ
النور والعطر رقراقان في أفق
من المباسم أو أفق من الحور
تجاذباك هوى بوركت من فلك
مقسم الوجه بين الشمس والقمر
أهدوا إليك شعاعاً من محبتهم
كالخمر للروح أو كالنور للنظر
تحية من وراء البحر عاطرة
لآل محفوظ فيها أطيب الأثر
ما صوّروك لتخليد ولا زعموا
وأنت كالدهر ملء السمع والبصر
لكنْ قلوبٌ ومآقٍ ملهّفةٌ
إلى محياك نالت غاية الوطر
تناقلت ألسن الأيام ما نفحت
بك المنابر من زهر ومن ثمر
وكم نثرتَ بها دمعًا على وطن
معلّق الجفن بين الهم والسهر

– ألقى الشاعر هذه القصيدة في قصر الأمراء الشهابيين، وذلك في ١٧ تموز ١٩٣٢ .

أصــــابـه يـومـــه الماضي بـعـــزتـه

فـــبـــات من يـومـــه الآتـي عـلى حـــذر

✡✡✡✡

فـــتى النيــابة قل للمــســتــمــيت بـهـــا

هـات الـدلـيل عـلـى دعــــواك أو فَـــــذَر

إن الـدســـاتـيـــر لا تـعطي أعـنَّتَـــهـــا

إلا الأعـــاصـــيـــر من جنٍّ ومن بشـــر (*)

من هـابط كـــقـــضـــاء الـلـه مكـتـــسح

أو صـــاعـــد كـفم الـبـــركـــان منـفـجـــر (*)

تبـــغي الســـيـــادة لـم تـبـــذل لـهـــا ثمنـاً

إلا الـتـــمـــسك بـالـبـــالي من الـهـــذر

تبـــغي الســـيـــادة لـم تـبـــذل لـهـــا ثمنـاً

إلا الـتـــمـــسح بـالـصلـبـــان والـسُّـــوَر

إذا تـلمَّـــسْـتَـــهـــا من كف مـــقـــتـــدر

أبشـــر فـــقـــد نلت منه هزء مـــحـــتـــقـــر

دع الـدســــاتـيـــر لا يـعلق هـواك بـهـــا

وسلِّم الأمـــر لـلـنـســـيـــان والـقـــدر

حـمَّلت نفـسك عـبـئـاً كـاد يقـتلهـا

هـلا اســتـــرحت رعـــاك الله من حـــجـــر

✡✡✡✡

عـــفـــواً فـــمـــا هي إلا فكرة سنحت

وأهنا الـنـاس من يـحـــيـــا بـلا فكر

أدر كـــؤوسك ، أدركـني بـواحـــدة

تـخـــتـــال في الأبـيض الـزاهـي من الأزر

(*) شعر الأخطل الصغير، «الدستور» ٢٢، ص: ٢١١

من كـرم مـرْج عـيـونٍ أو شـقـيـقـتـهـا[1]

وهـل يطيب بـكـأس غــيــرهـا سَكَري

فــدى الـتـي عــصــرتهــا كل عــاصــرة

حــاشــا الأعــاريب من بدو ومن حــضــر

تـســقــيك سكراً وزجــرًا من لـواحظهــا

سكر الجــمــال وزجــر الطاهر الخــفــر

كــأنما حــاصــبــيــا من جــآذرها

بيت من الشــعــر في قــيــثــارة الـنـهــر

سل الكنائس فــجــر الـعــيــد هل طلعت

إلا عـلـى صُــورَ صلَّين لـلـصــور

أم القــشــاعم للأفــلاك مــا نسلت

مـن كل مـن طـار مكســابـاً ولـم تَـطِر

كــأنهم وعــيــون الـدهـر تشــزرهم

إغــفــاءة عــذبة في مــقـلة الخطر

في كل طـارئـة مـنـهـم وجــالـيــة

بـيت مـن المجــد في أفـق من الـظـفــر

رأوا الأمــيــر ربـيــعــاً في مناقــبــه

حــالي الأصــائل والأســحــار والبُكُر

فـاسـتـمـتـعـوا فـيـه تـغـريداً ورفـرفـة

أمــا رأيت ولوع الطيــر بالشــجــر

****

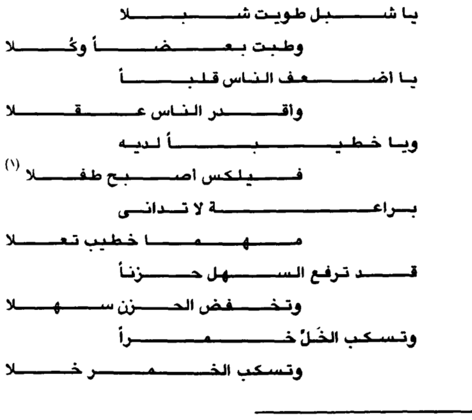
١ - حاصبيًا.

- البرق، تموز ١٩٣٢، عدد: ٣٤٣٩، ص: ١

الدكتور ربيز
الدستور بين
الأخطل الصغير ودموس

ألمَّ داء بالشاعر بشارة الخوري فدخل مستشفى الدكتور نقولا ربيز.

فنام في السرير نفسه الذي لازمه الأستاذ النائب دموس منذ عامين، فجال الشعر في خاطره ونظم هذه القصيدة معاتبًا بها الأستاذ دموس ويذكره شؤوناً كثيرة وشجونًا أكثر.



يا شبل طويت شبلا
وطبت بعضاً وكُلا
يا اضعف الناس قلباً
واقدر الناس عقلا
ويا خطيباً لديه
فيلكس اصبح طفلا (١)
براعة لا تداني
مهما خطيب تعلا
قد ترفع السهل حزناً
وتخفض الحزن سهلا
وتسكب الخَلّ خمراً
وتسكب الخمر خلا

---

(١) فليكس فارس.

وأنت أكبر من أن
ينال خصم وأعلى

✡✡✡✡

يا شبل أين وفاء
عهدته فيك قبلا
أَيَفْتِك الداء فينا
ولا نرى لك ظلا
وكنت لا تتوانى
وكنت لا تتخلى
غامت علينا السويداء
فصُبَّ الهم وبلا
فنحن لا نتهنا
ونحن لا نتسلّى
وكيف يسلو سليب
أو كيف ينقع غلا
إن لم يكن عنك يُروى الـ
ـحديث أو منك يُتلى
نوادر مثل نسج الـ
ـرِياض زهرًا وطلا
ومحكمات قوافٍ
كالحبل حبكاً وجدلا
ومدهشات نكات
شبل بهن استقلا
أخاك يا شبل فانظر
إليه بين لا علا

مــعــذب لـيـس يـسـلـو
لـكـنـه سـوف يـسـلـى
عـنـد «الحـكـيـم» الـذي لـم
نـر لـه قـط مـثـلا
ذاك الـذي قـلـت فـيـه
وكـان قـولـك فـصـلا
إن الـطـبـيـب نـقـولا
قـد صـيَّـر الـصـعـب سـهـلا
بـل أرجـع المـيـت حـيـاً
من بـعـد مـا كـاد يـبـلـى
لـلـه يـومـك مـنـه
هـلا تـذكـرت هـلا
غـداة سلَّ الحـصـى مـن
كـلاك صـغـرى وجُلّـى
فَـكَـلٌ عـزريـل لـكـن
جـرّاحـنـا لـم يـكِـلا
يـا بـالـع الـصـخـرا هـلا
فـكـرت في الـهـضـم قـبـلا
قـد يُـشـرب المـوت شـربـاً
ويـؤكـل المـوت أكـلا
☆☆☆☆
لـلـه درّ نـقـولا
نـصـلاً تـقـلـد نَـصْـلا
يـديـره بـيـديـه
في الجـسـم فـصـلاً ووصـلا

كان في الرأس منه

عيناً أبت أن تضلا

يكمن للداء حتى

تفنى بقاياه قتلا

كأنما الداء خصم

له فبادرك تبلا[1]

رأيت كل رشيق

لدى نقولا اشلا

فَهْو المرجَى إذا استن

صَرَ الحديد وصلا

✡✡✡✡

يا شبل بالله حدّث

عمّا بنا قد حلا

ستورنا هل تراه

يموت في المهد طفلا

وشعبنا هل تراه

يطيق هذا الحملا

قد باع فوقاً وتحتاً

وذاق يتماً وثُكلا

وودع البيت والأهـ

ـل والهوى والحقلا

إلى أمِركا مجداً

به البواخر تُمْلا

---

(١) الثار.

(٢) من العليل .

إذا الـــدعـــــــــــــائـــم ولـــت

يـــا شـــــــــبـــل فـــــــــالملـــك ولـّـى

✡✡✡✡

الـــلـــه ! رفـــــــــقـــــــــأ بـــشـــــــعـــب

مـــــصـنـــــوه حـــــتـــى اضــــمـــــحــــــلا

فـــــــــــصــــــــــار يـــركـــب «أوتـــو»

مـــن كــــــــــان يـــركـــب نـــعــــــــــــلا

وصــــــــــار فـــــــــيـــنـــا عـــــــــزيـــزاً

مـــن كــــــــان يـــعـــــــــصــــــــر ذلا

وصـــــــــار فـــــيـــنـــا رئـــيـــــــــســـــــــأ

مـــن كـــــــــان يـــعـــــــدم شــــــغــــــــلا

وصــــــــــــــــــار لـــبـــنـــان أنـــثـــى

مـــن بـــعـــــد مـــــــا كـــــــان فـــحـــــــلا

أوطـانـكـم!! فـــــاســـــتـــــفـــــيـــــقـــــوا

إن الـــلـــيـــــــــــالـــيَ حـــــــــــبـــلـــى

✱✱✱✱

- المعرض، ١٩٢٦، عدد: ٥١٥، ص: ٣ .

- البرق، أيلول ١٩٢٦، عدد: ٢٦٣٥، ص: ١ .

«البرق» والريحاني[1]

كاللؤلؤة في النحر، والابتسامة في الثغر، كانت ليلتنا في الأمس ونعم الليلة.

فما خطر على قلب بشر هذا الإقبال الذي صادفنا، ولا وقع بصر على مثل النخبة الراقية من كرام وكرائم في حفلة أدبية كالتي أقمناها.

قلب بيروت، دم مهجتها، هيكل مستقبلها، هم كل الذين كانوا مساء الخميس في «زهرة سورية» لتنشيط أول جريدة أقدمت على تكريم الأدب في صورة الريحاني.

تلك الليلة ما بعدها دليل على حقيقة حب الإخوان لجريدتهم، وما بعدها دليل على سمو الشعور في هذا البلد العزيز فما هي سوى تاريخ لأجمل فوز جنينا لذته ورشفنا صهباءه.

كانت الساعة قبل التاسعة «الأمد المضروب» فدخلنا وإذا بالمسرح لا ترى فيه مكانا فارغا.

سيدات وسادة جاؤوا ليسمعوا خطبا لا يقاطعها نغمة وتر ولا مشهد سينما غراف، ولا فصل هزلي، فقل ما شئت في أدبهم المحض وعقلهم الراجح.

وهنا وقف صاحب البرق فافتتح الحفلة بالكلمة التالية:

بالذي في البدور من لمعانِ
والذي في الغصون من ميلانِ
بالطيور التي على قبعات الـ
ـغيد تشدو لكن بغير لسان

١ - امين الريحاني، سبقت ترجمته.

بالعيون التي يذوب بها السحـ

ـرُ بما في القلوب من خفقان

بليالي الشعور تشرق فيها

كل شمس من مطلع العرفان

بالنسيم الذي إذا عطف الغصـ

ـنُ أصاب الأوراق بالرجفان

بالأديبات بل بكل أديب

طيّب النفس صادق الوجدان

ما ظفرنا بمثل ليلتنا الفـ

ـضل فيها والحسن معتنقان

كل فرد منكم خطيب بليغ

قام منه في وجهه شاهدان

وكلام العيون أفعل في النفـ

ـس من اللفظ ليس فيه معاني

✡✡✡✡

هذه الليلة التي جمعتنا

زهرة علّقت بصدر الزمان

فَلَكٌ أنتم كواكبه الزهـ

ـرُ وأنتم فيه شعاع البيان

يستمد العازار منكم وحيا

عنده ضاع وحي بنت الحان

ذلك الوحي سوف ينثر منه

زهرة فوق مفرق الريحاني

****

يا سادة،

هذه الليلة أنتم أقمارها، وهذه الروضة أنتم أزهارها، فيا أقمار الفضل ويا أزهار الأدب سلام ومرحبا

إما بعامل الحب وإما بعامل الفائدة أنتم هنا يا سادة ومن أجل تلك الرغبة أنتم تشكرون.

يقولون إن ميل الناس إلى تلك الحفلة يكاد لا يوجد. ويقولون إن الآداب غير رائجة السوق في سوريا، ويقولون إن الأديب لا يكافأ في الشرق. أجيلوا نظركم في هذا المحضر الكريم تروهم لا يصدقون.

أعطونا أديباً ناضجًا وخذوا حفلة ناضجة. الذي ينقل آداب الشرق للغرب والذي يعرف الانكليز بأبي العلاء وصاحب كتاب «خالد» ورواية الإمام علي بن أبي طالب لا تكبر عليه هذه الحفلة.

أنتم تحبون الريحاني، تحبون روحه. تحبون أدبه ، تحبون أن تسمعوا منه آخر خطاب يقوله قبل سفره، ومن أولى من جريدة «البرق» التي جعلها ميدانا لقلمه ومستودعا لبذوره بتحقيق هذه الأمنية.

تكريم الأدباء يا سادتي أكبر منشط لهم، كافئوا أديبا على كتاب ألفه اليوم يؤلف أفضل منه غدًا. وفي كتب الأدباء أفضل غذاء للعقول ونور للأفكار . في كتب الأدباء أساس الرقي وعنوان التقدم فعززوا الكتب تعززوا الأدباء وإذا شئتم تعزيز أمة فعززوا أدباءها.

باسم هذا المبدأ أحيت جريدة «البرق» هذه الليلة وباسم جريدة «البرق» أرحب بكم وأشكر الغيرة التي أظهرتم تاركا لكبير الأدباء شيخنا العازار أن ينثر الزهرة التي أعدها لصديقه وليس بين نبرات العازار ونغمات القيثار من فرق لذوي الأبصار.

****

- البرق،أيار ١٩١٠، مج: ٢، عدد: ٨٨، ص:٢٨٨.

صلح وبستاني[1]

مبعوثان

١٣٢٦

كـــتب الحق لنا النصـــر المبـــينا
فـــرجـــعنا بالأمــــاني ظافـــرينا
ظفـــر العلم وكــــانت نـهــضـــة
ركنهـــا خـــيـــر الرجـــال المسلمـــينا
هدّمـــوا بالســـمـــر من اقـــلامـــهم
مـــعـــقل الجـــهل وقـــد كـــان حـــصـــينا
ارؤسٌ تحــــــوي علوم الغـــــابرينا
ونـفـــــوس للعلى تبـــــدي الحنينا
وقـــلـــوب مـــلـــؤهـــا الحـــب الـــذي
يقـــتـــفي فـــيـــه البنون الوالدينا
همم تحكي شـــبـــا الـهندي إذ
اطلعت من دجن الشك اليـــقـــينا
فـــهـــو كـــالراية يمشي تحـــتـــهـــا
كل يتـــخـــذ التـــاليف دينا

إلى مدينة بيروت الى مدينة العلم ولؤلؤة التاج مالت أبصار الأمة بأسرها وعلى هذه المدينة كانت تحوم الآمال ومنها كان يُرجى تحقيقها. في بيروت خمسة وثلاثون صوتا والبستاني الذي رشحته الطبقة المتنورة من الشعب لم يكن له سوى خمسة أصوات فإذا هو لم يتفرد بأصوات المدينة كان الفشل محتوما.

---

١ - رضا صلح وسليمان البستاني انتخبا ليمثلا ولاية بيروت في مجلس «المبعوثان» العثماني بالأستانة.

هنا اقتتلت العواطف. هنا ضحيت المصالح.. هنا برهنت بيروت على علم صحيح وفضل راجح. هنا انتصر الحق على الباطل وكان للسادة المسلمين في ذلك يد لا تكفر. فسلام على النفوس الكبيرة الكامنة في صدورهم، سلام على الشرف الجاري مع الدم في عروقهم، بل سلام على بيروت التي أرتنا في هذه الحرب الأدبية رجالا يتفانون في سبيل الوطن ولا يبخلون عليه بالنفائس.

كان البستاني يقرأ مكنونات الصدور. كان يقف على دقائق الأمور. كان يرى القلوب الكبيرة تلجم مطامعها الكبيرة تضحية لمنفعة النفس وإيثاراً لمصلحة العموم على مصلحة الفرد.

المدينة بأسرها على اختلاف أديانها وطبقاتها على اختلاف نياتها ومآربها جعلته موضع ثقتها وسلمت إليه زمامها وفوضت إليه شؤونها فهل يكون عند ثقة الأمة به ويملأ الكرسي المعد له في المجلس الكبير؟؟

إن البستاني الرجل النابغة يناجي بلا ريب ضميره في هذه الساعة، إنه ينظر بعينه النافذة الى أحشاء المستقبل ويرى ما أعده له الغد من المصاعب التي سوف تجشمه السهر الطويل والمتاعب الجلى.

إن البستاني «مندوب مدينة بيروت» رأى في بداية الانتخاب تأثير الجهل على القسم الأكبر من الشعب وهل يحارب الجهل بسوى التعليم الإلزامي في مدارس وطنية تؤلف بين قلوب أبناء الأمة العثمانية؟

إن العلم كالروح ينتعش به قلب الأمة ولكنه متى أصبح لزاما تنتعش به أطرافها وهي القوى العاملة فيها بل هي كناية عن الطبقة الجاهلة التي لو صرفت قواها الى عمل مفيد لعاد على الوطن منه نفع شامل وخير عميم.

غير أن هذا ليس بالمسألة الوحيدة التي يجب أن تشغل رأس المبعوث بل هنالك مسائل كثيرة لا تفوت مبعوثينا، هناك تأليف اللجان الوطنية والشركات الوطنية التي تشتغل في الوطن وللوطن. هنالك استثمار الأراضي الغنية بتربتها ومعادنها، هناك كف غيث الرتب والأوسمة عن أن ينهمر على قوم لا يعرفون للفضل مصدرا ولا للعلم مقاما. هنالك ضرب المكوس الباهظة على واردات البلاد الأجنبية إذا كان لدينا منها ترويج لما هو عندنا بل هنالك محاسبة البلديات والحتم عليها بنشر أعمالها وميزانيتها في كل سنة الى آخر ما لا يطوله علمنا القاصر مما لا يفوت مندوبينا الكريمين.

فإلى الصلح والبستاني نوجه هذه الجملة وعلى عاتقهما نلقي تبعة ما انتدبا اليه فإن لنا من علمهما كفيلا بتحقيق الأمل ومن خلالهما دليلا على خلوص النية.

فنحن نرفع لهما تهنئة الأمة عاطرة ونسأل الله أن ينفعنا بهما فهو على كل شيء قدير

****

- البرق، تشرين الثاني ١٩٠٨، مج: ١، عدد: ١١، ص: ١ .

بنديكتس الحادي عشر

إلى بعض الاكليروس

قــرأت من بنـدكــتس الحــادي عــشــرْ
نـادرة كــالعــقــد في جـيِّــد الســيــرْ
وهــا أنــا لـقـــــارئـي أرويـهـــــــا
ولـي - ولا أنكر - مـــغــزى فـــيــهـــا
وكنت قـــبـــــلاً أكـــره المغــــازي
لما بـهـــــــا مـن بـارد الألـغـــــــازِ
لكنمـــا والحــر يشــوي شــيْــا
يســتــمـلـح البـــارد لكن شــيـــا

☼☼☼☼

كــــان بـنـديـكـتـس من أنجـــــالِ
فــــتـى مــــــزارع قـلـيـل المـالِ
فــصــعــدت أخـــلاقـــه بـه إلى
أعـــلـى نرى إلـــى أعـــلـــى الـــعــلــى
وفـــتـــحـت لـربـهــــا الأبـوابـا
قـــداســــة النفس تســـيـم بـابـا
وشــــاع فـي رومـــــة أن أمــــه
عـــازمـــة فـي الـغـــد أن تـؤمـــه

- بنديكتس الحادي عشر هو بابا روما بين عامي (١٣٠٣- ١٣٠٤م).

فـــزينـوا والســـهـم إثر الســـهـمِ

لـيكرمـــوا الابـن بشـــخـص الأمِ

وخـــرج الـبـــابـا مـع الأقـــوامِ

يـســـتـــقـــبـل الـزائـر بـالإكـــرامِ

لـكـنـه لمـا رآهـا أجـــفـــلا

وأنـكـرت عـــيـنـاه تـلـك الحـلـلا

فـــقـــال لا أعـــرف ذي الأمـــيـــره

لأن أمـي امـــرأة فـــقـــيـــره

فـــشـــد مـــا مـن قـــولـه تـأثـرتْ

ونـثـــرت مـن دمـــعـــهـــا مـــا نـثـــرتْ

وانـصـــرفـت[1] ولـبـــثـت فـي خـلـوه

ولـبـــسـت عـــتـــيـق تـلـك الـكـســـوه

ورجـــعـت إلـيـــه فـــارتمـى عـلـى

عـنـقـــهـــا وضـــمـــهـــا وقـــبُّـــلا

وقـــال والـعـين مـــســـرورة تـهـــمـي

عـــرفـــتـك الآن فـــأنـت أمـي

✡✡✡✡

عـــد بـي إلـى الشـــرق ولا تـبـــتـــئـس

وانـظـر إلـى أقـــارب الاكـلـيـــروس

تـراهـم مـن بـعـــد ذاك الـفـــقـــر

أمـــســـوا وهـم دون الـورى يُـســـر

وبـعـــد لـبـس «الجـــبـــة» المرقـــوعـــه

أمـــســـوا ذوي الـكـلـمـــة المـســـمـــوعـــه

---

١ - في الأصل الذي لدينا (انحرفت).

وبعـــــد أن كـــــانوا نَنَبـــا في الـنـاسِ

تحــولوا فـــأصـــبـــحـــوا بالراسِ

كــــــأنمـا الـوقف عـليـــــهـم وقفْ

ومـــــا يـدب فــــيــــــه أو يـرفْ

ومـن غــــدا نســـيـــبـــه مـطرانـا

فــقــد سـمـــا حـــتى عـــلا كـيـــوانا

يـرفـل فـي الـدمـــــقس والحـــريـر

وربمــا كــــــــان مـــن الـــنـذور

ويـنـثـــــر المال بـلا حـــســـــاب

على الغــــواني[2] وعـلى الشـــراب

يـهـنـا وتـشـــــقى دونـه الرعـــيـــه

وهـي بما يـنـفــــقـــه الحـــريه

أليـــســت الأوقـــاف من آبـائهـــا

إلى بـنيـــهـــا وبـني أبـنائهـــا

كـــانت لصنع الخـــيــر بين الـنـاس

من غـــيــر تميــيــز ولا قـــيـــاس

هـذا ولا أعــــــمِـم الـكـلامـــا

لأن في ســـاداتـنـا كـــرامـــا

قــــد عـلمــــوا بـواجـب الآبـاء

فـــعــــاملـوا الأبـنـاء بـالســـواء

وعــــززوا وشـــيـــدوا الأوقـــافـا

وأرشــــدوا ودبـروا الخـــرافـــا

٢ - في الأصل المتوافر لدينا (الغوافي).

وإن في ذويهم شبانا

بزوا بأفعالهم الأقرانا

وقد ركبوا الجد إلى نيل العلى

ونال كل منهم ما أملا

لكنما الواحد في المليون

يكاد لا يظهر للعيون

فشكت الناس وشكت فيهم

وفي ذويهم وذوي ذويهم

وبات كل منهم يقول

وقلبه من الأسى متبول

لو اشبهت (أباؤنا) بنديكتسا

لعبدت أبناؤنا الاكليروسا

الأخطل الصغير

****

- البرق، تموز ١٩٢٥، عدد: ٢٣٨٥، ص: ١.

قال في بطرس أفندي داغر:

كنت كــــــــالوردة فـي الكُمّ فــــــلا
حـــسنهـــا يبـــدو ولا نشــــر يفــــوح
عـــــجب الحـــــاســــد لما جـــــرحت
كـــيف فـــاح العطر من تلك الجـــروح

****

- قال هذين البيتين في صديقه بطرس داغر يوم اتهموه بمخالفة الأوامر التركية.
- البرق، ١١ حزيران ١٩١٠، مج: ٢، عدد: ٩٢، ص: ٣٢١.

عــن المدارس

إنّ المــدارس كـــــــــالـريــاض
تــنـوعـت فــــيــــهـــا الأزاهـر
هـــــــذا يـــــــروق وذاك لا
والـفـــرق مـــثـل الـصـــبـح ظاهـر
(بشارة)

****

- البرق، اب ١٩١٠، مج: ٢، عدد: ١٠٠، ص: ٣٩٣.

بطـــروا للغنـــى

- من أوراق الحرب -

قـــد نـكبنا فـــمـــا لنا أصـــحـــابُ

سنّة الدهر ليس فـــيـــهـــا عـــتـــابُ

صـــــادقـــــونـا فكان ذلك ذنـبـــــا

مـــا علـيـــهـم إذا هـم الـيـــوم تـابوا

بطروا لـلـغـنـى كـــأنا جـــهـلـناه

ولـــكـــن ضـــنـــت بـــنـــا الآداب

أمس كنـا ومـــا عليـــهم حـــجـــاب

وهـم الـيـــوم دونـهـم حـــجـــاب

الأخطل الصغير

****

- البرق، ١٩٢٨، عدد: ٣٠١٢، ص: ١.

في الحمى سنة ١٩٠٥

أرسلها لصديقه عادل أرسلان

هو الغزال الذي تعني وذاك هو الرْ
رامي الذي لم تطش قطعاً مراميه
رمى فؤادي فأصماه وخلّفني
كما تراني كسير القلب داميه
فرحت أقصد بيتي لا أفيق ولا
أعي ولا أرعوي عن عظم حُبّيه
حتى إذا ما دخلت البيت صحت بهم
إليّ - ما بك - دور ذا نلافيه
واقبلت عجلاً أمي «تدسدسني»
فقلت يا أم قلبي لا (تدسيه)
وبت أصرخ من تحت اللحاف من الـ
ـجمر الذي هو في الأحشاء صاليه
حتى تحيَّرَ في دائي الطبيب ولا
بدْعَ ودونك ما قد قاله فيه

✿✿✿✿

لداء هذا الفتى داء يعزّ على
من كان مثلي شفاه وهو خافيه

وإن يكن من دواء فليصف له

نقيع زهرٍ نما في خد مضنيه

وليُسقَ منه متى هاج الدوار به

بكأس وجنته (جرعه) فتشفيه

***

- البرق، كانون الثاني ١٩٠٩، مج: ١، عدد: ٢٠، ص: ١٥٧-١٥٨

الرثـــــاء

رثاء الأمير محمد أرسلان

عـــــربيٌ هـذا الشـــــهــــيـــــد عَلَتْ
نفـــــســـــه صـــــهـــــوة الـعـلـى فكَبَتْ
وعلـى صـــــدره شـــــهــــادته
بـرؤوس الحـــــراب قـــــد كـــــتـــــبت

على باب مجلس الأمة سقط الأمير محمد أرسلان شهيد الواجب . وبسيف الجهل قُطع غصن حياته اليانع وبينما هو يستقبل فجر الأماني حجبته ظلمة الأبدية. كان يحمل في صدره آمالاً أكبر من صدره ويمزق بعين الفكر الحجاب الذي يفصل مستقبل الدولة عن حاضرها وما هي إلا ثورة ليلة حتى رأيت صدر نائب اللاذقية ممزّقا وآماله الجميلة متناثرة كالهباء

كان الأمير محمد أرسلان في طليعة نواب العرب جرأة واقتدارا. وقد طالما رددت جدران مجلس الأمة صدى صوته، وما صوته غير صدى الوطنية المتأججة في صدره، ذاك الصدر الذي مزقته رؤوس الحراب ورصاص البنادق. سقط الأمير صريعاً على باب مجلس الأمة التي انتدبته لخدمتها، وها هو الآن بين يديها مطعون بخناجر الأثمة، سقط كما يسقط المجاهد في حومة الجهاد، سقط وهو يردد هذه الأبيات.
للأمة وللوطن

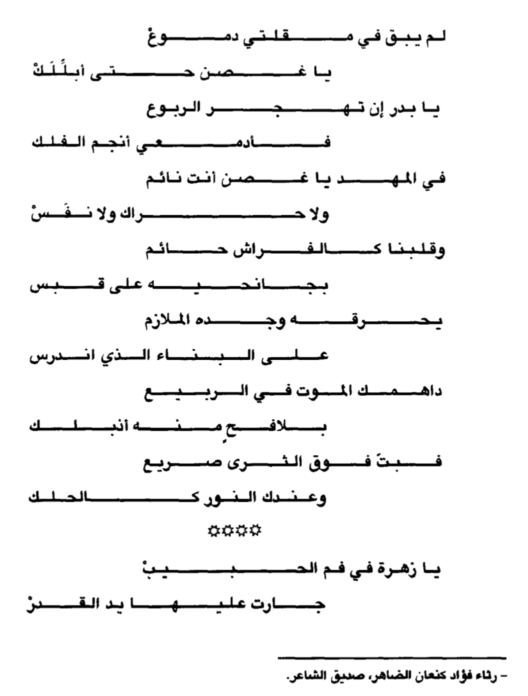
فالأمة والوطن أيها الراحل الكريم سيحفظان لك ذكرًا خالدًا تردده الأجيال الآتية وسيكون استشهادك درسًا يعلم الناس حقيقة الوطنية.

فارقد في ضريحك هادئًا فإن العصافير المغردة بين أوراق السرو التي تظللك، ستحمل إليك في كل صباح تحية الأمة التي مت في سبيلها

****

- البرق، ٢٧ نيسان ١٩٠٩، مج: ١، عدد: ٣٤، ص: ٢٦٨

وردة على غصن


لم يبق في مقلتي دموعْ
يا غصن حتى أبلَّلَكْ
يا بدر إن تهجر الربوع
فأدمعي أنجم الفلك
في المهد يا غصن أنت نائم
ولا حراك ولا نفَسْ
وقلبنا كالفراش حائم
بجانحيه على قبس
يحرقه وجده الملازم
على البناء الذي اندرس
داهمك الموت في الربيع
بلافحٍ منه أنبلك
فبتَّ فوق الثرى صريع
وعندك النور كالحلك

✡✡✡✡

يا زهرة في فم الحبيبْ
جارت عليها يد القدرْ

- رثاء فؤاد كنعان الضاهر، صديق الشاعر.

فـــفـــارقت غـــصنهـــا الرطيب
يلعب مع نـســمـــة الســحـــر
كـــلاكـــمـــا ســـاكت مـــريب
يســـتـــوكف الدمع كـــالمطر
فـــانت كـــالطفلة الرضــــيع
وانـت فـي المـهـــد كـــالمَلَك
يـا زهـرتـي روضـــة البـــديع
وزهــرتـي روضـــــــة الـفـلـك
✡✡✡✡
يـا مـــوحـــشـــأ هذه المعـــاهد
ومـــؤنســـأ ظلمـــة الضـــريحْ
كم من حـــبـــيب وكم مـــعـــاهد
يـبكي بـجـــفن لـه قـــريـح
املَـت الـنـفـس مـــا تـكـابـد
فـــرحت لـلقـــبـــر تسـتـــريح
وكـــان مـــشـــواك في الضلوع
وكـــان عـــرش الجـــمـــال لك
فـــؤاد! لـو أن لـي شـــفـــيع
إلـى الـردى كـــان أمـــهـلك
✡✡✡✡
هـنـاك حـــيث السكون شـــاملْ
فـي لـيـلـة بـدرهـا اكـــتـــملْ
وقـــفـت والأدمع الســـوائل
تجـــري ولـكـن عـلـى مـــهـل
والبـــدر في ســـيـــره يُســـائل
عن كـــوكـب فـي الـثـــرى أفـل

فقلت ما أنت تستطيع
يا بدر إرجاع من هلك
فالنجم في مشيه الظليع
من قبل أن غاب علّلك

✡✡✡✡

ورفرف القلب وهو دام
على ضريح به فؤادْ
يودع في ذمّة الظلام
ما فيه من صادق الوداد
وقبِّل القبر باحترام
كأنه معبد مشاد
وقُلْ للقبر في خشوع
فؤاد يا قبر جمّلك
من أجله جادت الدموع
ثراك والزهر كلّلك

بشارة

****

- البرق: كانون الثاني، ١٩١٠، مج: ٢، عدد: ٦٨و ٦٩، ص: ١٤٤.

رثاء نجيب حبيقة

بعــــد طول الغـــيـــاب جــئت أنادي
صــاحــبــاً مـــا ســـمـــعت منه جـــوابا
غـــيـــر أن الروح التي تحـــرس القـــبـــر
أجـــــابت صـــــار النجـــــيب ترابا

يا تراباً كان حياة ويا حياة كانت رجلاً، ويا رجلاً كان صديقاً وأخاً، سلام مني عليك.

حفنة التراب التي في زاوية القبر والعظمات النخرة المتبعثرة في أرضه هي كل الرجل الذي أحببناه. وما تلك الحركة الدائمة، ما ذاك الأدب المحض، ما نجيب حبيقة إلا ما ترون يا إخواني.

يا تراب نجيب

ماذا يسرك تذكري وماذا يسيئك سلْوي – سواء عندك أين وجدت. في القبر أو في القصر أو على السابلة أو بين الزهر أو تحت الشوك، تراب أنت وإلى التراب تعود

يا تراب نجيب

نحن إخوانك أبناء التراب ذكرناك فزرناك وإلى مدفنك الجديد حملناك فارقد هنا مستريحا. نحن نحفظ عهودك ونحترم همودك ونبارك روحك الساهرة على قبرك، إنها كانت روحًا شريفة طيبة

وأنت يا روحه التي أحببتها دعيني أخاطب طير السروة الذي تساجلين وأخاطبه باللغة التي تعشقين فتسمعين ما لا تجهلين

ويـا أيـهـــا الطيـــر المغـــرّد في الضـــحـــى
علــى غــــصـنٍ لـدنِ القـــــوام رطيـبِ

أتندب إلفاً فرّق الدهر بينه
وبينك أمْ تبكي لفقد نسيب
تفتش عنه في الرياض وتنثني
بلوعة ملذوع الفؤاد كئيب
فلا أنت تلقاه فتنقع غلّة
ولا وهو إن ناديته بمجيب
فتمسي غريباً في الفلاة مشرّداً
ونار الأسى في القلب ذات لهيب
تحاول أن تلقى مبيتاً بذا الحمى
وقد آذنت شمس الضحى بمغيب
فإن لم تجد وكراً يقيك من الأذى
فقلبيَ مفتوح لكل غريب
وإن كنت لا تبغي السلوَّ ولا ترى
لقلبك بدأ من جوىً ووجيب
فَسِرْ بي بسربي لوعة ونحيب
إلى جدث فيه يقيم حبيبي

✡✡✡✡

وقفت لدى مثوى النجيب وللدجى
جلالة ملْكٍ في الأنام مهيب
وقد خيّم الصمت الرهيب بساحة
يحوم عليها اليوم كلّ أديب
وميّل معتل النسيم بكفه الـ
ـلطيفة عنق الزهر عند هبوب
سكون ظلام لا يقطّعه سوى
حفيف نفوس او حنين قلوب
وما هي إلا وقفة ثم ضرجت
ثيابي بدمع بالدماء خضيب

وقـد هلـع العـصـفـور من هـول مـا رأى

فـقـال بصـوت خـافت ومـريب

عـلام أرى هذي النفـوس حـزينة

وأسـمع في ذا القـفـر صـوت نحـيب

فـقـلت وقـلبـي واجـف ونـواظـري

تشـيـر إلى مـثـوى إليَّ قـريب

✡✡✡✡

هنا أيهـا العـصـفـور مـضطجع الوفـا

هنا أيهـا العـصـفـور قـبـر نجـيب

بشارة

****

- البرق، ايار ١٩١٠، مج: ٢، عدد: ٨٩، ص: ٣٠٥-٣٠٦.

الخطب جلل! مات بطرس داغر

مـــات فـــالقـــصـــر مظلم وطيـــور الـ
ـقـــصـــر خـــرْسٌ ووجنة الفـــضل تلطمْ
عـــصـــفـــة للخطوب كـــانت وبنيـــا
ن المعـــالي من أسِّـــه قـــد تهـــدَّم
فـــمـن القـــصـــر وهو أرحب من يمْ
م إلى القـــبـــر وهْو أضـــيق من سَم
ولســـان بالأمس كـــان فـــصـــيـــحـــاً
فـــإذا اليـــوم واللســـان تلعـــثم
وجنان مـــا نام يومـــهـــا عن الفـــضـ
ـل فنادت به المنيـــــــة نم! نم!

☆☆☆☆

أيهـــا القـــبـــر ضم قلبك شـــخـــصـــاً
كل قلب في صـــدر كل فـــتـــى ضم
فـــإذا مـــرَّ فـــيك صـــاحب قلب
طـــاطـــا الـــرأس ثـــم صـــلَّـــى وسـلَّـم

بشارة

****

- البرق، تشرين الثاني، ١٩١٠، مج: ٣، عدد: ١١٥، ص: ٩٦.

الخطب الأليم

فتحي وصادق طياران عثمانيان استشهدا وهما يؤديان واجبهما الوطني، فرثتهما بيروت ودمشق، نشرت البرق ثلاث قصائد. الأولى للياس فياض، والثانية لشبلي ملاط، والثالثة لبشارة عبدالله الخوري، وهذه قصيدته:

خانت الأرض (بطيريها) السماءُ
يا سماء عفواً فما هذا وفاءُ
هما ضيفاك فماذا لاقيا
بعض ما قد لاقيا منك الفناء
قرنا الشوق بمنطادهما
فالجناحان هواه والهواء
يتعلى بهما ذا عزة
وعليه للتباهي خيلاء
طائر يخفق قلبان به
مثلما يخفق في البئر الرشاء
ودّعانا فاتحي سبل العلى
ثم ما قالا لنا أين اللقاء
أجزاء الحب ما نالهما
إن ما نالهما ليس الجزاء
هبك أنّ الأرض هذي رسلها
وهي تبغي الفتح فالرسل براء
لا! فإنّا أمة من دينها
أن يموت الشرّ أو يحيا الإخاء

يا سـمـا نحن حليـفـا مـبـدأ

أفـمـا كـان «الـهـلالـين» الـلـواء؟

✡✡✡✡

إن لـلـعـلـم رجـالاً بـعض مـا

بذلوا في سـبـل العلم الدمـاء

تـنـفـح الأيام ابـنـاهـا بـهـم

نفـحـة المقـتـر يشـجـيـه العطاء

زيـنـوا الأرض بـآثـارهـم

هكذا تـزدان بالزهـر السـمـاء

ركـبـوا الموت لكي نـحـيـا بهم

فـأرونا كـيف يقـضي الشـهـداء

نـحـن لـولاهـم لـكـنـا أمـة

ترتديه ثم يرتديهـا الشـقـاء

نـحـن لـولاهـم لـكـنـا أمـة

لا تريـهـا المعـجـزات الكهـرباء

نـحـن لـولاهـم لـكـنـا أمـة

يتـمـشى فـاتكا فـيـهـا الوباء

✡✡✡✡

من تراه الكوكب الهـادي وقـد

قلق النسـر وقـد ريع الحـداء

وأصـاب الطيـر منه نكبـة

فلهـا في جـانب المثـوى رثاء

عـجـبتْ كـيف هوى جـبـارها

عـجـبت كـيف به ذلّ الفـضـاء

جــــــــزعـت نـفـس ذكـــــــاء أن تــرى
ذلـك الـهــــــول فـلـم تـطـلـع ذكـــــــاء
وهـــــلال الأفـــــق ممـــــا نـــــابـــــه
بـأخـيـــــه اصـــفـــرُ في فـــيـــه الـسـنـاء
حـــــادث فـي عـــــالـم الـطـيـــــر لـه
عـــــالـم الإنـســــان لـو شـــــاء فـــداء
✡✡✡✡
أي صـــــلاح الـديـن ضـــيـــفـــاك وقـــد
يـحـــتـــفي بـالـبـــســـلاء الـبـــســـلاء
زورة لـو كـنـت حـــــيـــــاً عـنـدهـا
لـتـــــولـى كـــــرم الـنـاس الـحـــيـــــاء
هـمـــــا ركـنـا أمـــــة غـــــادرتـهـــــا
ولـديـهـــــــــا أمـم الأرض إمـــــــــاء
عـــــرشـــهـــــا الـســـؤدد والـحـلـم لـهـــــا
صـــولجـــان والـبـــســـاط الـكـبـــريـاء
فـــامـــتـطـاهـا الـجـــهـل حـــتى مـــضـنــهـــا
فـــانـجـلـى عـن ذلك الـوجـــه الـضـــيـــاء
أهـمـلـت حـــــــيـنـاً ولـكـن لـم يـطـل
أن تـصـــبّـــاهـا الـبـنـون الـنـجـــبـــاء
ذاك فـــــتـــــحي وأخـــــوه صـــــادق
فـــهـــمـــا - حـــيّـــاهـمـــا الله - رجـــاء
نـهـضـــةُ عـــثـــمـــان إن يـشـــعـــر بـهـــا
وهـو في الـقـــبـــر يـخـــامـــرْه انـتـشـــاء

أي صـــــــلاح الـديـن ذا يـوم الـقــــرى
جـــاء ضـــيــفـــاك فـــأكـــرم مـــا تشـــاء

✡✡✡✡

لـهـف بـيـــروت وقـــدمــــاً ضـــحـكـت
لـحـــبـــيـــبـــيـــهـــا فـــهل حـــان البكاء
ذويـا كــــالـزهـر في أكـــمـــامـــه
إن عـــمـــر الزهر صـــبـحٌ ومــــســـاء
غـــرســا فــيـــهــا الـهـــوى مــذ أقـــبـلا
فـــإذا مــــاتـا فـــمـــا مـــات الـنـمــاء

****

- البرق، ٧ اذار ١٩١٤، مج: ٦، عدد: ٢٦٦ ، ص:٦٩٥ و٥٩٧.

العذارى الثلاث

وقفن حيال القبر من بعد ما انثنى
عن القبر أحباب الذي سكن القبرا
ثلاث عذارى كلّ عذراء شمعة
على عنقها الذاوي لمدمعها مجرى
يَسِلْنَ كما سال «الدفين» تهالكا
على العلم لا شكراً أراد ولا أجرا
ويهمسن فوق القبر ما همس الندى
بمسمع زهر الروض لما همى فجرا
فقرّبت خطوي لا يحسُّ بيَ الثرى
كطيف إلى غاياته ركب الفكرا
وإذ صرت خلف الباكيات خشيت أن
ينبّه منها الحسَّ زفراتي الحرّى
فألقيت صدري في يديَّ لعلني
أعالجه بالصبر - لو أحمد الصبرا

✡✡✡✡

وما هي إلا وقفة كنت عندها
كأني إلى الدنيا بعثت من الأخرى
فما راعني في موقفي غير زفرة
على ذلك المثوى بها باحت الكبرى

- قيلت في رثاء محيي الدين الخياط

فقالت لأختيها فقدت به فتى
سموت به نثراً وفقت به شعرا
فجعت به كالزهر يفجع بالندى
فإن أنا أذوي فالندى فارق الزهرا
فقالت لها الوسطى صدقت وقد رنت
بلحظٍ يتيمٍ يصدع الرجل الصخرا
إذا فقدت أختي من التاج درة
فإنيَ من روحي فقدت به شطرا
فقد كان مني موضع الحس في الفتى
وكان اسمي المحبوب في وجهه يُقرا
فقالت لها الصغرى صدقت وأجهشت
فقلت لنفسي آه من لوعة الصغرى
فما ملكتْ من نفسها فضل قوة
لترثي بلى كانت مدامعها حمرا
وألقت على ذاك الضريح بنفسها
فألقت عليها نفسها أختها الكبرى

✡✡✡✡

هنا انسحقت نفسي فلملمت قوتي
وهرولت أمشي مشية المنتشي سكرا
وكنت قرأت اسم العذارى مسطراً
على مبسمٍ.. سبحان من صور الفجرا
فما كانت الكبرى سوى اللغة التي
بها نزل الفرقان للناس بالذكرى

وقـــد كـــانت الـوسطى المروءة والـتي

رمت نفسها، وهـي الوداعة ، فالصغرى

لئن تبكه هذي الفـضـائل فـالسـمـا

بكت منه روحاً مـثل نجمتها الزهرا

✡✡✡✡

الا أيهـا الثـاوي المكفن بالوفـا

محبوك جاءوا.. أين طلعتك الغرا؟

واين النثير الجزل يعبث بالنهى

وأين النظيم العذب نحسبه سحرا

اتيناك نستسقي البيان وعهدنا

قريب بذاك الوجه منطلقاً بشرا

✡✡✡✡

لـه الله مـا روى الغليل بلفظة

فدى لك محيي الدين أكبادنا الحرّى

وداعاً فإنّا بعد حين سنلتقي

تفرقنا الدنيا وتجمعنا الأخرى

****

- البرق، ايار ١٩١٤، مج: ٦، عدد: ٢٧٣، ص: ٦٥٣.

رثاء يوسف سرسق

أيهـــا النســـر يا عظيم الجناحـــيـ

ـن ويا مـــالئ الفـضـــاء الرحـــيـــبـــا

لست مــهــمـــا ارتفــعت أعلى من الشــمـ

ـس وإن كنت لــلقلوب قـــــريـبـــــا

إن تغب مــــرة لتــــســـعين عـــامـــا

إن للشـــمس كل يوم مـــغـــيـــبـــا

كـنت أعـلـى مـن أن تـرى الـشـكـر يـاتـيـ

ـك ابتـــســـامـــا مما وهبت لعـــوبا

بل رفـــــعت البنـاء ضم المصـــابيـ

ـن فـــلاقـــوا به الدوا الطبـــيـــبـــا

فـــــأتاك الشكران تسكبـــــه النفـ

ـس رطيـــبـــا من العـــيـــون وطيـــبـــا

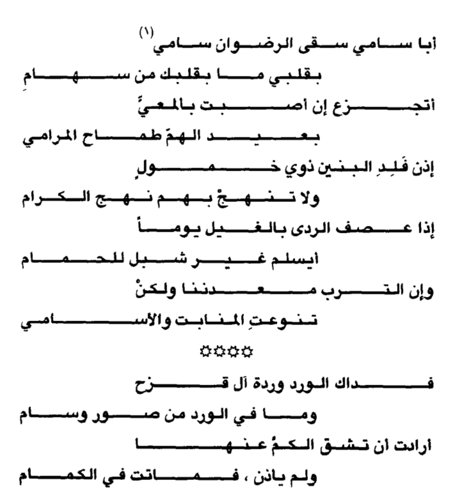
نم عـلـى راحـــــــة الملائكـة واخلـد

كـــيـف تفنى وقـــد ولدت نجـــيـــبـــا

****

- البرق، شباط ١٩٢٣، عدد: ١٧٥٠، ص: ١

فداك الورد



أبا سامي سقى الرضوان سامي[1]
بقلبي ما بقلبك من سهامِ
أتجزع إن أصبت بالمعيٍّ
بعيد الهمّ طماح المرامي
إذن فَلِدِ البنين ذوي خمولٍ
ولا تنهجْ بهم نهج الكرام
إذا عصف الردى بالغيل يوماً
أيسلم غير شبل للحمام
وإن الترب معدننا ولكنْ
تنوعتِ المنابت والأسامي

✡✡✡✡

فداك الورد وردة آل قزح
وما في الورد من صور وسام
أرادت أن تشق الكمُّ عنها
ولم يأذن ، فماتت في الكمام

****

١ - رثاء سامي، نجل كمال بك قزح.
- البرق، أيار ١٩٣٢، عدد: ٣٤٣٢، ص: ٥.

الأسد الصريع

مات نعوم مكرزل «صاحب الهدى»

هوى النسر بعد أن نفذ فيه سهم القدر.

وأبيح الفيل بعد أن رقد الأسد رقدة الأبد.

وأظلم الأفق بعد أن محا الموت بدره الأسنى عن لوحته.

لقد تعطلت لغة الكلام، ووهت عزائم الأقلام عندما قالوا مات المكرزل نعوم.

لقد كان صاحب الهدى أمة بنفسه، وجيشاً بيراعه وطرسه، بل كان عنوان لبنان المهاجر وآمال لبنان المقيم، لا يعرف في حبهما هوادة، ولا يقعده سقام، فهو أبداً فارس الحلبة لا يأتلي جهاداً وجلاداً، ولا ينثني إلا وعليه حلة من الأرجوان والعنفوان.

لقد كان يسمى بحق الصحافي الجبار..

إنه أول من حمل اللغة العربية إلى وراء البحار.

وأول من رفع لواء الصحافة حراً جريئاً.

وأول طلائع الغوث لبلاده في جميع نكباته.

وأول من رفض أن يحمل من الأوسمة إلا جراح المعارك القلمية التي خاضها في سبيلها. لقد كان بيت «الهدى» بيت لبنان في غربته، وملجأ اللبناني في محنته ونجمة القطب في الليالي المدلهمة.

لقد مات صاحب «الهدى» وهو يناضل في سبيل عقيدة وطنية حمل نفسه إليها من باريس. مات تحت مبضع الجراح، كما يموت الأسد، لا على فراش الخمول بل في

ساحة[1] الجهاد، وكانت نبأة دوت لها البلاد من أقصاها إلى أقصاها ، إذ تصدعت معاقل آمالها ، وتلاشت غر أحلامها، ألا وهي ربط لبنان بأبنائه وراء البحار ربطاً وثيقاً بعواطفه ومصالحه وأهدافه.

وقد كانت ترى في صاحب «الهدى» الساعد الأقوى لتحقيق هذه الأماني

والآن وقد وقعت الكارثة وأصبح نعوم مكرزل خيالاً تطالعه العيون من خلل دموعها والآمال من خلل آلامها

والآن وقد سكت صوت نعوم إلى الأبد. وهدأت ثورة «الهدى» خمرة النفوس المتمردة، وحبيبة العقول المفكرة، وصناجة الوطنية الصاخبة.

والآن وقد لفظ الجهاد الوطني آخر انفاسه واضطجع «النمر» عند باب العرين، يحف به وقار الشيب وجلال السنين.

الآن تنحني الرؤوس إجلالا لمن لم يحنِ في حياته رأساً ولمن كان في حياته ومماته، قدوة للمجاهدين ودرساً.

أما أنا، أيها الفضاء اللامتناهي من الحب والمروءة ، بل أيها الينبوع المتدفق عذوبة لقارئيك ولمحبيك، أما أنا فهذا جفني الباكي وقلبي الحزين يخشعان عند جثمانك الطيب ويناجيان روحك الكريم.

****

١ - كانت في الأصل (ساعة) الجهاد.

- البرق، نيسان ١٩٣٢، عدد: ٣٤٣٠، ص: ١.

إلى بطل لبنان يوسف بك كرم[1]

رجعت كالليث إلى عرينه
في الذروة الشماء من عرنينه
تزار من دون الحمى ودونه
مسلّماً بحقه ودينه
وربّ وثاب على حصونه
كفّنته بدمه وهونه
وضحك الثلج على صنينه
من صلف الباغي ومن جنونه
يا من رأى سيفك في متينه
يجوّد الخطبة في تابينه
فما صلاح الدين في حطينه
يقذف بالعادي إلى سفينه
انفذ من ظنك في يقينه
يا رافع الأرز على يمينه
وخالع المجد على غصونه
لأنت نور الله في جبينه

****

١ - ألقيت بمناسبة الاحتفال بإزاحة الستار عن تمثال يوسف بك كرم في إهدن في ١١ أيلول ١٩٣٢، انظر مقال: بطل لبنان يعود إلى عرينه، ص : ٢٤٦.
- البرق، أيلول ١٩٣٢، عدد: ٣٤٤٦، ص:١

لبنان يشيع والدة الرئيس
«بشارة خليل الخوري»

أعطيتِ لبنان ما لم يعطه أحد
هذا اللواء المفدى رأس لبنانا
لولاه ما اتحدت شتى طوائفه
ولا غدا لكتاب المجد عنوانا
لئن بكاكِ بعينيه ومهجته
فقد جزاك على الإحسان عرفانا

الأخطل الصغير

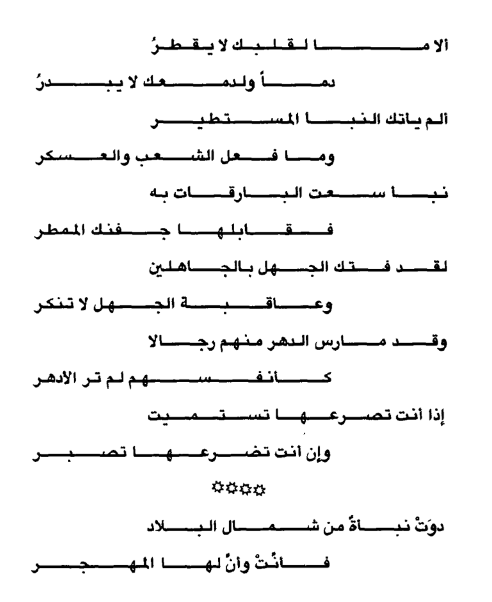
١٩٥١

****

- الصياد، ١٩٥١، عدد: ٣٤٩، ص: ١٠.

في سبيل الوظائف

معركة دموية في قضاء الكورة[1]



ألا ما لقلبك لا يقطرُ
دماً ولدمعك لا يبدرُ
ألم ياتك النبا المستطير
وما فعل الشعب والعسكر
نبا سمعت البارقات به
فقابلها جفنك الممطر
لقد فتك الجهل بالجاهلين
وعاقبة الجهل لا تنكر
وقد مارس الدهر منهم رجالا
كأنفسهم لم تر الأدهر
إذا أنت تصرعها تستميت
وإن أنت تضرعها تصبر

✡✡✡✡

دوَتْ نباةٌ من شمال البلاد
فأنَتْ وأنَّ لها المهجر

١ - وقعت هذه المعركة بين الشعب والعسكر اثناء الانتخابات النيابية لمجلس الامة اللبنانية في «اميون» ايام المتصرف اوهانس قيومجيان باشا وقد أسفرت عن عدد من القتلى والجرحى.

وطاشت لديهــــا حلوم الرجـــــال

فكل فـــــتى طرفـــــه أصـــــور

مـــصـــاب به أرهقت خـــمـــســـة

وقــــد جــــرح العــــدد الأكــــثــــر

وقـــــد صــــبغ الثلج لون الدمـــــاء

وفي كل ناحـــــيـــــة مـــجـــزر

✿✿✿✿

لقـــد أســفــر العــيـــد عن مـــشــهـــد

قلوب العـــــــذارى له تذعـــــــر

فـــقـــد نشـــرت شـــعـــرها الأمـــهـــات

وقـــــد لطمت خـــــدها المعـــــصـــــر

وســـالت عـــيـــون الصـــغـــار دمـــاً

فـــــإن أنت لم تبك لا تعــــــذر

لـه الـلـه مـن فـــــــاجع عنده

أشـــد الفــــواجع تســــتـــصـــغـــر

✿✿✿✿

ألبنانُ دعني أذيب الجــــفــــــون

وأنثـــــر منهنّ مـــــا أنثـــــر

فـــاين هو الليث حـــول الحـــمى

وأين نرى يســـــرح الجــــؤذر

لقـــد كنت عـــالي الجـــدار منيـــعـــاً

وكـــانت تدين لك الأعـــــصـــــر

وكـــــانـت اذا خـطـرت نــســـــمـــــة

عـلـيك بـســـــمــــر الـقـنـا تـعــــثـــــر

زمــــــان مــــــضـى وأتـى غـــــيـــــره

فـــــــذلـك يـجـنـي وذا يـثـــــــأر

وربـك بـيـنـهـــــمـــــا آمــــــر

ومـــن ذا يـــرد لمـــا يـــأمــــــــــــــر

ألـــبـنـــانُ إن دمـــــــــــاء بـنـــيـك

يـحـلـلـهـــــا «الحـــاكـم الأكـــــبـــــر»

فـــمـن كــــان مـن قـــبـل مـــثـل الـبـــغــــاث

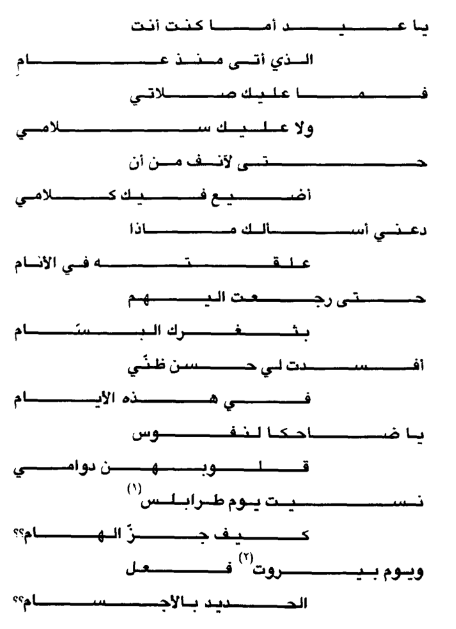
فـــــلا بِـدْعَ إن هـو يـســـــتـنـســــر

****

- البرق، كانون الثاني، ١٩٠٩، مج: ١، عدد: ٢٠، ص: ١٥٣-١٥٤.

تاريخ عام

١٩١٢-١٩١٣



يا عيد أما كنت أنت
الذي أتى منذ عامِ
فما عليك صلاتي
ولا عليك سلامي
حتى لأنف من أن
أضيع فيك كلامي
دعني أسألك ماذا
علقته في الأنام
حتى رجعت اليهم
بثغرك البسّام
أفسدت لي حسن ظنّي
في هذه الأيام
يا ضاحكا لنفوس
قلوبهن دوامي
نسيت يوم طرابلس[١]
كيف جزّ الهام؟؟
ويوم بيروت[٢] فعل
الحديد بالأجسام؟؟

١، ٢ - يشير إلى غزو إيطاليا لليبيا في ما عرف بالحرب التركية الإيطالية عام ١٩١١ وتنكيل جيش الغزو الإيطالي بالشعب الليبي وقصف البوارج الإيطالية لبيروت.



غداة تهمي عليها
من «غابلدي»[3] هوامي
قوانف بالشظايا
نواسف للعظام
مجرّحات قلوبا
لصبيةٍ أيتام
أبصارها شاخصات
الى وراء الغمام
كأنها سائلات
عن الرجال الكرام
فلم تكن لمعة البر
قِ في حنايا الظلام
أمضى لها من (علي)[4]
ربّ الفعال العظام
نادى بمصر فلبى
الأمير كلّ همام
وليس في الأمر بدع
فمصر اخت الشام

✡✡✡✡

ما انسى لو كنت انسى
يوماً شديد القتام
يوما به دول البلـ
ـقان[5] انتضت للحسام

---

٣ – غريبالدي (١٨٠٧ – ١٨٨٢) مقاتل إيطالي حارب في سبيل الوحدة الإيطالية، ولعل نكره هنا إشارة إلى بارجة إيطالية ربما تحمل اسمه قصفت ميناء بيروت عام ١٩١٢.

٤ – محمد علي باشا ، شقيق الخديوي، الذي تراس الحفلة التي اقيمت في مصر لمساعدة منكوبي بيروت.

٥ – يشير إلى الحروب التي خاضتها دول البلقان للتحرر من السيطرة العثمانية.



فلاح في ثغر روما
إذ ذاك برق ابتسام
وصحّ للمتنبي
قول من الإلهام

✡✡✡✡

(مصائب لأنام فوائد لأنام)

✡✡✡✡

كذا بسطنا يميناً
لها على ارغام
فيها طرابلس بل فيـ
ـها خادع الأحلام
نقول والعين قرحى
لها اذهبي بسلام
ولا تكوني علينا
في جملة اللوام
بل فانكري عهد قوم
لهم حقوق الذمام

✡✡✡✡

يهنيك يا عيد أن لا
تحسّ بالآلام
ماذا بقرق كليسه
من الخطوب الجسام
بكت هناك المعالي
تفوّق[6] الإسلام

٦ - هكذا في الأصل ولعلها (تفرق) فهي الأقرب للسياق.

وزاغ لـــلـــجـــــــــــيـــش ذاك

المجــــد الـقــــديم الســــامـي

وروّعــت بـــعــــــــــزيــز

كـــــــرامـــــــة الأهـــرام

✿✿✿✿

هـلال عـــــثـــــمـــــان مـــــهـــــلاً

يـا ســـــيـــــد الأعــــــلام

لأنــت رغــم الــعــــــــوادي

فـي المـعـــــتـلـى المتـــســـامـي

مـــــجــــد الـسـنين الخـــوالي

لا يـســـــتـــــبـــاح بـعـــام

مـــن ذا تـــعــــــــاتــب أو مــــن

تـــريـــشـــــــــه بمــلام

جـنـوا عـلـى الجـــيـش في مـــــــا

غـــــــــــذوه مــــن أوهـــام

فـــــــراح كـلّ فــــــــريـق

يمـشـي بـغـــــيـــــر لجـــام

عـــافـــوا الظُّبى واســـتـــعـــاضـــوا

عـــنـــهـــنّ بـــالأقـــــــــلام

إن الســــيــــاســـة ســـيـف

الأديـــب لا المـــقـــــــــدام

يــــا أكـــلـــةً أكـــلـــوهـــا

والمــوت بــعـض الـطـعـــــام

✿✿✿✿

اربـط عـلـى الـقـلـب بـالـكـ
ـف فـالـخـطـوب طـوامـي

سـور مـن الـنـاس يـهـوي
لـمـوطـئ الأقـدام

وأنـفـس غـالـيـات
تـسـاق كـالأنـعـام

لا تـسـمـع الأذن إلاّ
مـزمـجـرات الحِـمـام

ولا تـرى الـعـيـن إلاّ
الـنـيـران ذات الـضـرام

ركـبـت يـا يـوم بـرغـاس
اقـبـح الآثـام

فـراع هـولـك حـتـى
الأطـفـال فـي الأرحـام

ورحـت تـنـسـج لـلـعـصـر
مـئـزرا مـن ظـلام

يـهـيـم اهـلـك بـالـفـضـ
ـل ايَّ ايَّ هـيـام

بـل بـالـهـدى بـل بـحـب
الإخـاء بـل بـالـنـظـام

فـضـائـل بـاهـرات
لـكـنـهـنّ اسـامـي

✿✿✿✿

ويـح الـمـطـامـع كـم ذا
تـجـنـي عـلـى الأحـلام

✿✿✿✿

غـــــــــــدأ بمـؤتمـر الـصـلـــ
ــح عـــــــــــادل الأحـكـام
غـــــــــدأ يـقـــــــولـون هـذا
بـيـت الـهـــــدى والـســـــلام
هـنـا يـعـــــــــــرّف حـــ
ـق الـضـــعـــيـف للمـتـــعـــامي
إلام هـــــــذي الـــــــرزايـــــا
خـــفـــاقـــة الأعـــــلام
فـــــحـــسب ســـيـف المـنـايـا
حـــصـنـد الـشـــبـــاب الـنـامـي
✡✡✡✡
مـــزخـــرفـــات مـــعـــان
فـــي قـــــــــالـــب نمّـام
✡✡✡✡
لـلـيــــاقـظـين ببـــيـــروت
بـعـــــــد طـول المـنـام
تحـــــــيــــــة مـن أديـب
كـــــالـزهـر فـي الأكـــمـــام
لـــكـــن لـــه فـــي ذوي الـــ
ـراي جُـــمـلـة اسـتـــفـــهـــام
قـــــد لا تـصـــيـب المرامي
وقــــد تـصـــيـب المرامي
مـن مـنـكـم الـراس حـــــتى
يـقــــودنـا بـزمـــــام
مـن مــنـكـم الـكـفء لـلحـكـ
ـم يـا ذوي الأفـــهـــام

أو مــن لــه فـــــــــــيــــــه شـــيء
نـــــــزر مـــــــن الإلمــــــــام
والــكـفـء وهـــو مـــــــحــــال
ســــــهـل أمــــــــام الــوئــام

☆☆☆☆

فـــــــدى لـلـبـنـان نـفــــــسي
وصــــــبـــــوتي وغـــــرامـي(*)
لمنبـت الشـــــيـح فـــــيــــه
ومـــــــســــــرح الآرام(*)
لـلـهـــــــادلات عـلـى الـغـــــصـ
ـن مـن بـنـات الحـــــــمـــــام
لـلـبــــاســـــمــــات عن الـزهـ
ـر فـي ربـى الأكـــــــــــام
لمـا كـــــســــــا واديـــــه
مـن نـابـتـــــات الخـــــزام
هـنـاك ســــيـنـا الـتــــجـلـي
ومـــــهـــــبط الإلـهـــــام(*)

☆☆☆☆

يـا ســــــائـلـي عـن بـنـيـــــه
ســــــالـت نـفـس حـــــذام(*)
لـكـن إذا رشـت ســـــهــــمـي
فـــجـــارحـــاتي ســـهـــامي(*)
خــــيـــر الشـــوافي عـــلاج
شـــــــفـى بـلا إيـــلام(*)

نادوا (المطالب) لكن
ماذا جنوا في الختام
أتت نواقص والحسـ
ـن كلّه في التمام(*)
متى أراكم تكرّو
نَ كرّةً للأمام(*)
وتلبسون إلى الحقّ
خوذة الإقدام(*)
وتدرسون على المجـ
ـد كره الاسترحام(*)
عيش الكرام من النا
س غير عيش اللئام(*)
إني أخاف عليكم
ملامة اللوّام(*)

☼☼☼☼

يا عام أهلا وسهلا
نزلت عند كرام
هم من خيار البرايا
فكن لهم خير عام

(بشارة)

****

- البرق، ١ كانون الثاني، ١٩١٣، مج: ٥، عدد: ٢٠٧، ص: ١٢٤.

* - الهوى والشباب، «فدى لبنان نفسي» ص: ٥٣-٥٤.


تحايا وتهاني

تحية المهاجرين

بقـــيـــة من مـــهـــجـــتي باقـــيـــه
عـــصـــرتـهـــا - الليلة - في كـــاســـيَـــه
ودمـــــعـــــة جـــــارت على مـــقلـتي
فـــاصـــبـــحـت - لا أصـــبـــحـت - جـــاريه
ومـــــقـلـة نمّامـــــة بالـهـــــوى
كـــــانـهـــــا الراية في الرابـيـــــه
وأضلع كـــــالقـــــوس مـــــحنيـــــة
مطوية على حـــــشى بالـيـــــه
كـــــأنما في جـــــوفـــــهـــــا هيكل
نفـــسي على مـــعـــبـــده جـــاثيـــه
وكـــبـــدي «مـــحـــفظة» للهـــوى
كـــــانـهـــــا الصندوق في الزاويه
صـــدري كـــتـــاب فـــافـــتـــحـــوه تروا
فـــيـــه تقـــارير الهـــوى الصـــافـــيـــه
كـــتـــبـــهـــا قـــيس ومن بعـــده
كم لزهيـــر تحـــتـــهـــا حـــاشـــيـــه
حـــبي لكم حـــاولت كـــتـــمـــانه
فـــحـــاول الكتـــمـــان كـــتـــمـــانيـــه
ونـار قـلبي كـــــيـف لا تـنطـفي
ومـــاء عـــيني فـــوقـــهـــا ســـاقـــيـــه؟؟

****

- البرق، تشرين الثاني، ١٩١٠، مج: ٣، عدد: ١١٢، ص: ٧٣.

هدية شاعر

قرأت جملة من الشعر أحببت أن أقدمها هدية إلى فلاحينا في لبنان وكل سوريا، هؤلاء الفلاحون الذين نسيهم كتابنا أو تناسوهم ولو أنصفوا لباركوهم في كل مرة تمد أيديهم إلى الزاد الذي يشبعون به بطونهم، إنه مما زرع لهم الفلاح وجنى.

حسن:

انظر إلى الفـــــلاح يا مـــــحـــــمـــــد
عليـــه ثوبه القـــصـــيـــر الأســـود
قـــدمـــه حـــافـــيـــة وصـــدره
عـــريان حـــتى بان منه شـــعـــره

محمد:

هذا الذي تضـــحـــك منه يا حـــســن
من يده تخـــرج خـــيـــرات الوطن
وقـــيـــمـــة الرجـــال بالأعـــمـــال
لا بـثـــيـــابـهـم ولا بـالمـال

نعم يا سادتي. يا أولياء الأمر ويا كبار هذا الجبل، إن قيمة الرجال بالأعمال .. لا بالثياب والمال... أخاف والله أن نزنكم فلا يشيل بكم ميزان.

****

- البرق، تشرين اول ١٩١٢، مج: ٥، عدد: ١٩٧، ص: ٤٤.

وقد تنفع الذكرى

نحن شئنا والبطْرَيَرْكُ بحمد الله
قد شاء مثلما الله شاءَ
فاصطفيناك دون كل حبيب
وانتدبناك مفعمين رجاء
واعتقدنا فيك الكفاء فحقَّقْ
ما اعتقدناه أن فيك الكفاء
وعقدنا عليك آمال قوم
نتمنى أن لا تصير هباء
مركز انت فيه كالراكب البحـ
ـر وقد عارك السفين الماء
بين قوم غنيهم صاحب القو
لِ وإن كان ليس يدري الهجاء
والاديب الذي إذا قال قولاً
عاهد النفس لا يقول رياء
جفلته عواطف الحقد كيدًا
وتناسى ذكر الحمى فتناءى
انت في ملّة يعز على النا
شئ فيها أن لا ترى زهراء

- نظمت لسيادة المطران شبلي يوم سيم أسقفاً على بيروت.

ملّة مـــــثلمـــــا ترى ملل الشــــر
قِ وحـــال تُبكي العـــيـــون دمـــاء
ملة مـــسـهـــا الجــمـــود إلى أن
بات داء الجـــمـــود داءً عـــيـــاء
مـــرض ســـفَـــه الأســـاة قـــديم
وخـــمـــول قـــد حـــيّـــر العـــقـــلاء
فـــإذا تمت الأمـــاني فـــحـــمـــدًا
وإذا لـــم تـــتـــم؟ كـــنـــت بـــراء..!

☼☼☼☼

أيهـــا الســـيـــد الموفق رفـــقـــاً
بالذي فـــيك خـــالف الشـــعـــراء
نظمـــوا الشـــعـــر يؤثرون الثناء
ونظمت الحـــقـــيـــقـــة الغـــراء
زمن عـــاشت المداجـــاة فـــيـــه
كـــان - لا كـــان - نقطة ســـوداء
اي عـــصـــر راجت به سلع المد
حِ ومـــا كـــان أهله جـــهـــلاء
اي حـــرّ وانت اعلم يـرضى
أن يكون ابتـــســـامك اســـتـــهـــزاء
فـــمن الضـــحك مـــا يكون عـــقـــاباً
ومن الضـــحك مـــا يكون جـــزاء

☼☼☼☼

خلف الدبس وهو ربّ المعـــالي
وهو من قـــد بنى فـــاعلى البناء

سـر بنا للعلى فـانفـسنا ظمـ
ـاى إلـيـهـا واحلل بنا الجـوزاء
وافـدنا عن علمك الجم علمـاً
ومن الحـزم همـة ومـضـاء
وبنا فـانفخ الحـيـاة وجـدد
من قـوانا ووحّـد الآراء
وانتـدبنا تجـد بنا كلّ ندب
الذي تبـتـغي يبـاري الهـواء
فلنا من شـبـابك الغض نور
للأمـاني يمزّق الظلمـاء
فـإذا الدبس جـاء قـبلك شـيـئـاً
هات يا شـبل بعـده أشـيـاء

****

البرق، نيسان ١٩١٠، مج: ٣، عدد: ٨٥، ص: ٢٦٩.

شفي الحبيب

زحـــزح لثــــامك عن جــــبـــــينكْ
وابعث بســـحـــرك من عـــيـــونكْ
واسكب شـــــعــــــاعك في قلـو
ب لـــم تَـــدِنْ إلا بـــــديـــــنـــك
سِـــرْ فــــالكواكب عن شـــمـــا
لـــك يـــا هـــلال وعـــن يمـــيـــنـــك
وتــودّ أجـــــــمـــلـهـنّ لــو
هـــي نـــقـــطـــة بـــرزت بِـــنُـــونـــك
أو وردة بـيـــــــضـــــــاء نـا
بـتـــــةٌ على زاهي جـــــبـــــينك
حـــــــدّثْ أمـــــيـــــر الليل هـ
ـذا الناس عن مـــاضي شـــؤونك
فـــــــالناس في ظـمـــــا إلى
تـخـليص شكّك من يـقـــــــينك
حـــــــدّثْ عــن الـفـلـك المدا
ر وكل بسّـــــام خـــــديـنـك
وعن الســـــوافـــر والـثـــوا
بت والســــوائر في ســـفـــينك

- حبيب باشا السعد، سبقت ترجمته.

والـهـمْ فـــــتــــــاك الـوحــي يــــ
ــتــجـلـي الـبـــدائـع من فـــتـــونـك
طمـــعـــاً بـوحـــيـك يـســـتـــمـــرّ
صـــعـــوده فـي طُـور ســــيـنـك
يــا دائـــنــي هـــذي الـقـــــــلا
ئـدِ مــــا تحـــصّـل مـن مـــديـنـك
انـفــــــقـت لـؤلـؤ أدمـــــعـي
و حــــرصـت أنـت عـلـى شـــؤونـك
ونــثـــــــرت أزهـــاري - وكـــنْـ
ـنَ الـزاهـيـــات - عـلـى غـــصـــونـك

☼☼☼☼

مــــــاذا دهــاك فـــــانـت فـي
وجـــه يـتــرجـم عـن شـــجـــونـك
أجـــزعـت إذ مـــرض الـحـــبــيـ
ـب عـلـى نـظـيـــرك بـل قـــريـنـك
فـــبـــعـــثـت بـالأرواح تـر
وي لــلـعــــوالـم عـن أنـيـنـك
شـــفـي الـحـــبـــيـب لـك الـهـنـا
ء بـه فــــجـــدّد من سـنـيـنـك
وابـــثـث هــواك إلـى الـنـجـــو
مِ فـــهـنّ من خـــفـــرات عـــيـنـك
واسـكـب عـلـيـــهـن الـشـــعـــا
ع يَـعُـــمْـن في صـــافـي مـــعـــيـنـك

☼☼☼☼

أحــــبــــيب لـبـنـان وخـــــا

دمـــــه كـــــمـــــا هـو فـي «يـمـيـنـك»

بـشـــــرى شـــــفـــــائـك في الجـــــوا

نـح جـــــاوزتْ حـــــسـنـى ظـنـونـك

إن يـأســـــــر الـعـنـف الـنـفـــــو

س فـــــانـت تـاســـــرهـا بـلـيـنـك

أمـــــا الـصـــــدور فـــــمـــــا انـطـوت

إلا عـــــلـــــى قـــــلـــــب رهـــــيـــــنـــــك

(بشارة)

****

- البرق، آب ١٩١٣، مج: ٥، عدد: ٢٤١، ص: ٣٨٩ .

تهنئة البطريرك المعوشي
في رأس السنة

آثـروا أنـفـســـــــــــــهـم لا منّـةً
إنـهـــــا عـبءُ الـعـلـى والـســـــــؤددِ
عـــجـــبًـــــا أنـى لـهـم أن يـجــــدوا
ســـــيـــــد المـوقـف لـو لـم تـوجـــــد
أنــت - والـدنـيـــــا ضــــــرام ودم -
مـــبــــتــــغـى الـيــــوم ومــــأمـــول الـغـــد

١٩٥٨

****

- الصياد، ١١ كانون الثاني، ١٩٥٨، عدد: ٧٤٤، ص: ٢٦.

بالرفاء والبنين

رجـل لـيـس لـه امـــــرأة
هـو فـي شـــرع الـورى لـم يـكـمـلِ
وكـــمـــال المرء بـالمرأة مـــا
تمَّ إلا بـاقــتــدار الـرجـل
شـيـمـة نـعـرفـهـا في «يوسف»
مـثـلـهـا في «افلين» يـنـجـلي
فـهي كـالزهرة في أكـمـامـهـا
تـلحـظ الـفـجـر بطرف خَـجِـل
وهـو فـي مـا عـرف الـنـاس بـه
عـزة الـلـيـث ولـطـف الـحَـمَـل

☆☆☆☆

أيـهـا الجـاني على أصـحـابه
عـدّ عـن ذكـرى الـلـيـالي الأُوَل
واجـتـل الزهـرة وانشق عـرفـهـا
فـهي مـن آدابـهـا فـي حـلـل
نـحـمـد الله فـقـد نـلت المنى
وتـصـيـدت طـيـور الأمـل

✱✱✱✱

- تهنئة يوسف بك ابوصعب المتشرع.
- البرق، تموز ١٩١٤، مج: ٦، عدد: ٢٨٣، ص: ٧٣٢.

تهنئة

الياس خليل شديد

قالوا تزوج... قلت من؟

قالوا الياس فقلت من؟

أأبو شديد قلت؟ قا

لوا أنت قلت فقلت جن

ماذا دهاه وكان إن

ذكر الزواج لديه عن

ويح القهاوي ليس تنـ

ـفق بعده فنجان بن

ويح النوادي كيف تمـ

ـسي بعد بلبلها الأغن

ويح الكؤوس فمن يشع

ـشعها إذا ما الليل جن

فمن التي فتنت نهـ

ه بحليتيها فافتتن؟

ولقد نظرت إلى العرو

س وذلك الأدب الحسن

فعتبت نفسي واعتذر

ت لمن أسأت له علن

وعـــــــــرفـت أن زواجـــــــــه الـــ

ـمـــــــبـــــروك مـن حـــــسـن الـفـطـن

✡✡✡✡

يـا صـــــــاحــــــبـي عش بـالـهـنـا

ءِ وعـــــش تحـــــفّ بـــــك المـــــنن

فــــــحَـــــبَـــــاك ربك بـالـبـنـيـ

ـن لـيـــــســـــتــــفـــيــد بك الـوطن

ويـظـل ذكـــــــرك قـــــائـمـــــــاً

فــي مـــــــــا يــجـــيء مـن الــزمـن

****

- البرق، حزيران ١٩١٤، مج: ٦، عدد: ٢٨١، ص: ٧١٦

شبلي ملاط في عرسه

حسناء قد نازعت شقيقتها الـ
حسناء قلباً متيَّماً بهما
قلب فتى شاعر عواطفه
ما نالها شاعر ولا وهما
والناس بالعاطفات ليس بما
يطلون من باطل وليس بما
غارت على قلبه وما رحمت
قلب التي قد أحبها قدما
فعاتبت هذه شقيقتها
عتبا كهزّ المدامة الندما
قالت لها يا بنة البهاء ومن
جبينها بالفضيلة اتسما
ومن إذا افتر حلو مبسمها
نطالع النجم فيه مبتسما
ومن إذا استقبلت بوجنتها
الورد شككنا في الورد أيهما
بحرمة البيت حيثما درجت
خطاك والبيت للعفاف حِمى
ردي فتى صبوتي إليَّ فما
افلح يا أختي الذي ظلما

- نظمت عام ١٩١٦ أثناء الحرب العالمية الأولى.

أحـــبـــبـــتـــه منذ شبّ ، منذ نما
نبت الهـوى في حـشـاه مـذ نظمـا
عـرفـتـه باسـمـاً ومكتـئـبـا
رافـقـتـه راضـيـاً ومـحـتـدمـا
فكنت أوحي في حـالـتـيـه لـه
مـا يجـعل الطرس يحـمـد القلمـا
شـواردا تسكر العـقـول بهـا
فـتـحـسب اللفظ وجنةً وفـمـا
لنـا علـى كـل ليـلـة عـرس
نجلو بـه المرقـصـات والحكمـا
فـمـا لأخت النجـوم تغـصـبني
فـؤاده والـوداد والـذممـا
✡✡✡✡
عـروسـة الشـعـر لا أصـبت بمن
لو غـادر الشـعـر يتّم الكلمـا
أحـبـهـا - إنما صـبـابتـه التي
تـعـددت لا تـزال كـمـا
أحـبـهـا - سنّة الورى فـإذا
مـا اتحـدا في الهـوى فـلاجـرمـا
قلبـاهمـا مـذ تقـابلا خـفـقـا
روحـاهمـا مـذ تعـارفـا اندغـمـا
والكون لولاك يا اندغـامـهـمـا
مـا افـتـر عن حـسنه ولا انتظمـا
مـشـيـئـة الله في خليـقـتـه
مـذ قـال حـبّـا في الخلد بعـضكمـا

واملأ الكون بهجة وسنا

وزينا صدره بولدكما

✡✡✡✡

عروسة الشعر قدك معتبة

لما تلومين أن أحب لما؟

أنت الذي زيّن الجمال له

وزين العاطفات والشيما

فهل فتاك الذي عتبت سوى

طير رأى جدولاً وفيه ظما

أو أبصر الشمس و هي طالعة

في موكبيها فجوه النغما

أو راقه الغصن خاليا فهوى

أو شاقه النجم باسماً فسَمَا

محاسن لم يكن ليعلمها

فأنت علّمته الذي علما

فهام فيها حتى ليعبدها

عبادة الناس قبلنا الصنما

لكنه والوفاء شيمته

يبقى على عهده وإن قدما

✡✡✡✡

شبلي إذا ما أتتك عاطفتي

و «كنتما» راضيين فاقتسِما

فاهنا بماري وارفق بضرتها

واعدل إذا ما حكمت بينهما

****

- البرق، آذار ١٩٢٦، عدد: ٢٥٦٢، ص: ١

أيها الهاجر الليالي

إلى الصديق جورج:

أيهــا الهــاجــر الليــالي - التي كــا
نت غــرامــاً وأدمــعــاً وكــؤوســا
وصــبــابات أنفس تتــلاشى
وجــراحــات أكــبــد لا توسى
ونواحــاً وصــبــوة وعــتــاباً
وابتــســامــاً ووجــمــة وعــبــوســا
واكــتــواء بنــارهن ولا فــر
ق أسلمى أو زينــبــاً أو لميــســا
وإذا واصل الحــبــيب، ســعــوداً
وإذا قــاطع الحــبــيب نحــوســا
وذهــابــاً مــع الهــوى وإيابــاً
وقــيــامــاً مع النوى وجلوســا

✡✡✡✡

أيهــا الهــاجــر الليــاليَ ظلمــاً
ويك مــاذا يتــمت من تعــريســا
و(المريمــان) هــل حــنــنت إليــه
و(حــبــيــســا) هلاّ نكــرت حــبــيــســا
أَربُع للهــوى تطوف بهــا الذكــرى
فــتــحــيي من الغــرام نســيــســا
يوم كنا نهــوى مــجــون النواسيْ
يِ ونقلى هذي ارسطاليــســا

- تهنئة صديقه الشاعر جرجي سعد.

ننهب اللهو لا نقيس به الخطر
وكان الضلال أن لا نقيسا
في حمى لمة من الشعر المسـ
ـود لا عارياً ولا تلبيسا
وحمى صبوة إذا انتفض الطا
ووس أزرى انتفاضها الطاووسا
نزرع الشعر والهوى وكيف سر
نا والصبابات والصبا والنفوسا
يا جنون الشباب إذ أنت تغرَ
سوف يغدو هذا النفير يبيسا

✡✡✡✡

أيها المبدع الذي بعث الشعـ
ـرَ فقلنا أحيى العازار عيسى
بعث الشعر روضة وغديراً
وسماء ضحاكة وشموسا
هب لنا منك قدرة السحر يا جرجي
فنحيي بالسحر هذي الطروسا
ونرد الشعر النفيس بما تو
حي فقد ملّت الطروس الخسيسا

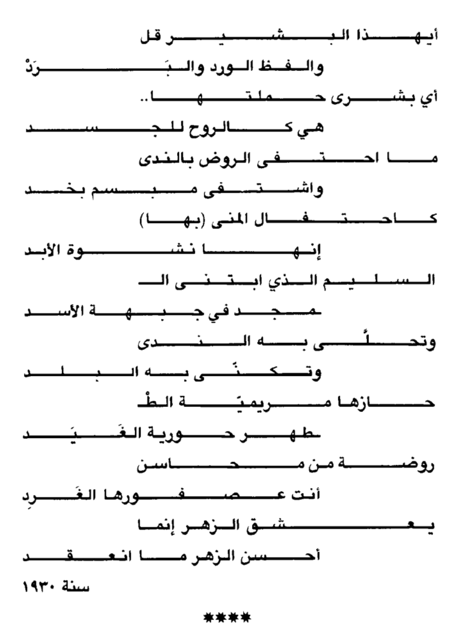
✡✡✡✡

يا بنة الصِّيد من طراد وقد طبـ
ـت وطابوا مجانياً وغروسا
والملاك الذي على شفتيه
أنزل الطهر وحيه القدوسا
ما غبطنا نظير جرجي عريساً
وغبطنا نظير ماري عروسا

****

- البرق، آذار ١٩٢٦، عدد: ٢٥٥١، ص: ١

أحسن الزهر ما انعقد

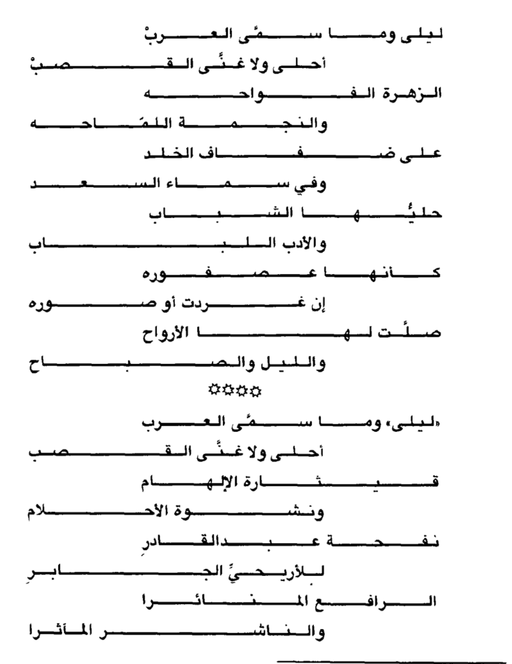

أيهـذا البشير قل
والفظ الورد والبَرَدْ
أي بشرى حملتها..
هي كالروح للجسد
ما احتفى الروض بالندى
واشتفى مبسم بخد
كاحتفال المنى (بها)
إنها نشوة الأبد
السليم الذي ابتنى الـ
ـمجد في جبهة الأسد
وتحلَّى به الندى
وتكنَّى به البلد
حازها مريميَّة الطْ
ـطهر حورية الغَيَد
روضة من محاسن
أنت عصفورها الغَرِد
يعشق الزهر إنما
أحسن الزهر ما انعقد

سنة ١٩٣٠

****

- وجه بها إلى صديقه سليم بك تقلا بمناسبة قرانه وكان محافظاً لمدينة بيروت.
- البرق، ١٩٣٠، عدد: ٣٤٠٢، ص: ٧.

تهنئة عبدالله الجابر الصباح



ليلى وما سمّى العربْ
أحلى ولا غنَّى القصبْ
الزهرة الفواحه
والنجمة اللمَّاحه
على ضفاف الخلد
وفي سماء السعد
حليُها الشباب
والأدب اللباب
كأنها عصفوره
إن غردت أو صوره
صلَّت لها الأرواح
والليل والصباح

✡✡✡✡

«ليلى» وما سمّى العرب
أحلى ولا غنَّى القصب
قيثارة الإلهام
ونشوة الأحلام
نفحة عبدالقادرِ
للأريحيِّ الجابرِ
الرافع المنائرا
والناشر المآثرا

- نظم الشاعر هذه القصيدة بمناسبة عقد قران الشيخ عبدالله الجابر الصباح والآنسة ليلى المرعبي.

قنّاص كل مكرمه

ما حاتمٌ؟ ما عكرمه؟

إيهِ أخي المفدى

زد رفعةً ومجدا

أما ترى لبنانا

كيف ازدهى وازدانا

مهللاً للعرس

مفدِّياً بالنفس

فصفّقتْ جداوله

وغرّدت بلابله

يسفح كل طيب

«لصهره» الحبيب

✡✡✡✡

إليكها حيّه

تفترُّ عن تحيّه

نمّقها ونمنما

من استباح الأنجما

وصاغ منها قلما

يخط باسم الله

«ليلى لعبدالله»

تشرين الثاني ١٩٥٥

****

- الصياد، تشرين الثاني، ١٩٥٥، عدد: ٥٨٤، ص: ٣٥.

كأن ما كان لم يكن

قالها في حفلة قران الأستاذ فؤاد قاسم رئيس قسم الإذاعة في المحطة اللبنانية.

قــد كنت حــرٌ الـهــوى كم من مــرشــحــةٍ
غـنـى فـــؤادك بـين المـاء والـغـــصـنِ
فـــمـــاله الـيــوم لا ســجـع برابـيــة
ولا اصطفـــاق كـــانْ مـــا كـــان لم يكن
أسلمـــتـــه في الـهـــوى رقـــاً «لـعـــادلة»
والرق في الحب غـــيــــر الرق في الوطن

****

– من اوارق الشاعر.

في حفلة تنصير
فريد ميشال أبوشهلا

وقد شرب صاحب هذه الجريدة على تهنئة صديقه فقال مما حضره في ذلك المجال:

كنت في الأمس تنظم الشـــعـــر أشطا
رأ فـــتــــرمي بـهـــا هنا وهـنـاكـــا
فـــإذا أنت تـنظم الشـــعـــر أنجـــا
لأ وتحـــيـي في كل نجـل مـــلاكـــا
هم شـــعـــر الحـــيـــاة فـــانظم فـــريداً
وشـــقــيــقــيــه للعلى أســلاكـــا
وإذا مـــا أردت فـــانـظـم فـــؤادي
إنـه كـــان منذ كـــان فـــداكـــا

****

- البرق، كانون الثاني ١٩٢٦، عدد: ٢٧٠٠، ص: ٣.

تهنئة
الدكتور رئيف أبي اللمع بفاروق

يا بن من يبسم الشفاء لمرضاه كما يبسم اللقاء للمشوقِ
والضحى للرياض والماء للظمآن والشطّ لابن ليلٍ غريق
أيها البرعم الجميل من الورد على صدر ألمعيّ عريق
يملأ البيت بالشذا كلما افترّ ويغزو الأعناق بالتطويق
دمت في الذروة العلى من أبي اللمع وفي الصالحات من فاروق

****

- من اوارق الشاعر.

طلعة باشا حرب

يا طلعة العُرْب قد حققت بغيتهم
فكنت أعطف من أم على الصادِ
للمال أنا وللآداب آونةً
صحائف من مروءات وأمجاد
في كل يوم على كفيك مأثرة
كأنها بسمة في ثغر ميعاد

****

- من أوارق الشاعر.

شـرف الجـرح

أهدى إليه صديقه الصحفي الأستاذ نجيب الريس صاحب جريدة «القبس» كتابه «نضال» فقدم له بهذه الأبيات.

يا جـــراحـــاً تقطّر الطيب منهـــا
أقـــسم المجـــد أن تكوني نشـــيـــده
شـــرف الجـــرح أن يســـيل كـــريماً
من كـــريمٍ على البـــلاد الشـــهـــيـــده
حـــسب هذا «النضـــال» في طلب الحق
مـــضـــاء الظبى ونور العـــقـــيـــده

****

- من اوارق الشاعر.

ميشال معلوف

ألقيت خلال حفلة على البردوني احتفاء بعودة الشاعر ميشال معلوف من ديار الهجرة.

يا وتر النهر وهمس الوادي
وبسمة الشعر بثغر الضاد
للفضل أحيانا وللإنشاد
هنا أيادٍ وهنا أياد
تضحك كالنور على الأعواد
نماكم للمجد والجهاد
أب جواد عن أب جواد
أقبلت باليمن على البلاد
فلبست بشاشة الأعياد
ميشال يا خمرة هذا النادي

****

- من اوارق الشاعر.

يا ناظم العقد

وجّه بها إلى المربي جبران مكاري بمناسبة يوبيل مدرسة «المساواة»

يا ناظم العقد فيه كل جوهرة
من نشء لبنان زانت جيد لبنانِ
منائر شقت الظلماء وانبلجت
في كل ناحية عن فجر عرفان
بعثتها كالحواريين حاملة
ألواح علم على ألواح إحسان
خلعت منهم على لبنان نضرته
وزنت هام الربى منهم بتيجان

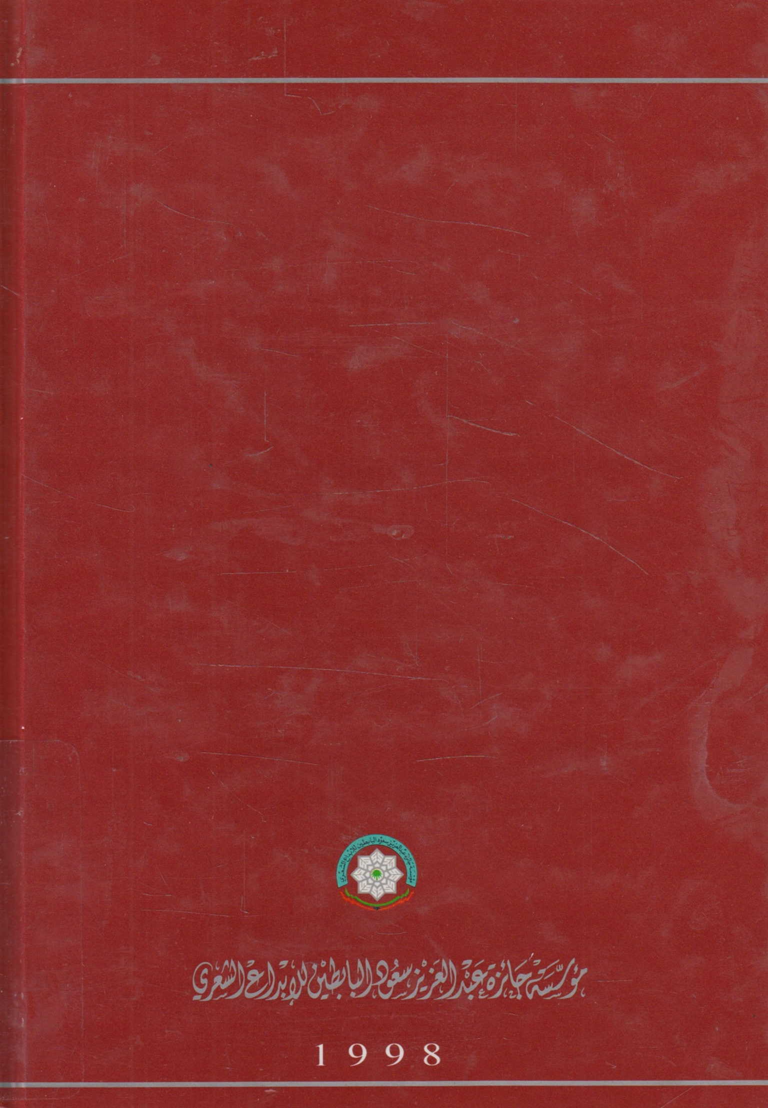
****

- من أوارق الشاعر.

الفهـرس

****

تم الطبع في
مطابع دار الكتاب العربي
ص.ب: ٥٧٦٩-١١ بيروت - لبنان
هاتف ٨٦٢٩٠٥ - ٨٠٠٨١١ - فاكس: ٨٠٥٤٧٨ (٩٦١١)


مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري
1998